محمد بنشريفة

تاريخ الأمثال والأزجال
في الأندلس والمغرب

بحوث ونصوص

الجزء الرابع

منشورات

وزارة الثقافة






تاريخ الأمثال والأزجال
في الأندلس والمغرب
بحوث ونصوص

محمد بنشريفة

عضو أكاديمية المملكة المغربية والمجامع العربية



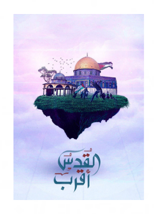







تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب (الجزء الرابع)
الإيداع القانوني : 2006/0249
ردمــك : 9954-0-5051-5
سحـــب : مطبعة دار المناهل - 2006







أزجال وأحداث

I







تمهيد

الموشحات والأزجال «طرازان كان الابتداء بعملهما من المغرب» كما يقول ابن سعيد المغربي[1]، وإذا كان المعروف أن المخترع للموشحات هو مقدم بن معافى القبري فإن أول من قال في الأزجال غير معروف وابن سعيد الذي كان أول من كتب نبذة عن الأزجال والزجالين اكتفى بقوله : «قيلت بالأندلس قبل أبي بكر بن قزمان»[2] وقد أشار هذا الزجال الكبير المتوفى سنة 555هـ إلى من سبقه من الزجالين وسمى بعضهم وقال في مقدمة ديوانه «كنت أرى الناس يلهجون بالمتقدمين، ويعظّمون أولئك المقدمين، يجعلونهم في السّماك الأعزل، ويرون لهم المرتبة العليا والمقدار الأجزل[3]...» ثم انتقد هؤلاء الزجالين الذين كانوا قبله والذين كان الناس يعجبون بهم واستثنى منهم زجالا واحدا هو الشيخ أخطل بن نمارة، قال : «ولم أر أسلس طبعا، وأخصبَ ربْعا، ومن حجوا إليه طافوا به سبعا، أحق بالرئاسة في ذلك والإمارة، من الشيخ أخطل بن نمارة، فإنه نهج الطريق، وطَرَّق فأحسن التطريق، وجاء بالمعنى المضيء والغرض الشريق»[4] ويفهم من هذا أن الزجالين الذين أشار إليهم عاشوا في القرن الخامس، وفي رأي الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني أن ظهور الزجل يرجع إلى أواخر القرن الرابع الهجري، وهو يقدر أن الزجل ظهر في الوقت الذي أخذ فيه التوشيح يتجه إلى التعقيد والتكلف ويبتعد

---

1. المقتطف من أزاهر الطرف : 255.
2. نفسه : 263.
3. ديوان ابن قزمان : 17 (كورينتي 1995).
4. نفسه والشريق : المشرق.





عن البساطة الأولى على يد عبادة بن ماء السماء ويوسف بن هارون الرمادي[1] وقد اعتمد في تقديره على قول الشنتريني إن عبادة وجد صنعة التوشيح «غير مرموقة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام منآدها وقوم ميلها وسنادها، فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه، ولا أخذت إلا عنه»[2] وقوله في الرمادي إنه كان «أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز»[3] ومن الواضح أن هذا يعني أن الموشح ظهر قبل الزجل وهو رأي ابن خلدون الذي يقول : «ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابا واستحدثوه فنا سموه بالزجل»[4] وقد ناقش هذا الرأي بعض الباحثين الذين ذهبوا إلى أن طبيعة الأشياء تقتضي أن تكون الأغنية الشعبية العامية سابقة على الموشحة[5] ومهما يكن من أمر فإن من المؤكد أن الوشاحين عرفوا قبل الزجالين فقد عرف من الأولين مقدم بن معافى القبري وأحمد بن عبد ربه اللذان عاشا في القرن الثالث الهجري، أما المعروفون من الزجالين فهم من أهل القرن الخامس الهجري، وقد قرر الدكتور عبد العزيز الأهواني هذا بقوله : «ولما كانت أخبار الوشاحين قد ارتفع بها ابن بسام والحجاري إلى القرن الثالث الهجري كان القول باقتفاء الزجل آثار التوشيح أقرب إلى الإثبات والترجيح من القول بأن الزجل هو الذي ظهر أولا ثم تبعه التوشيح» ثم إنه استدرك فقال : «ولكننا مع هذا نميل إلى القول بوجود أصل مشترك ظهر في البيئة الأندلسية منذ عهودها القديمة كان له

1ـ الزجل في الأندلس : 52.
2ـ الذخيرة 1/1 : 469.
3ـ نفسه.
4ـ المقدمة : 1460 . ط. وافي.
5ـ الزجل في الأندلس للدكتور الأهاني : 2 ـ 3 وتاريخ الأدب الأندلسي للدكتورإحسان عباس 2 : 221، 257.





الفضل في ظهور التوشيح وكأن له أثر في استقلال الزجل وتطوره، ذلك الأصل هو الأغنية الشعبية»[1].

وختم الدكتور إحسان مناقشته لهذه النقطة التي تابع فيها رأي الدكتور الاهواني بقوله: «وعلى هذا يمكن أن نرسم خطا لِتطور الزجل يبدأ بالأغنية الشعبية المجهولة المؤلف ثم بفترة الزجالين الذين جاءوا قبل ابن قزمان»[2] ومن هؤلاء أخطل بن نمارة ويخلف بن راشد في القرن الخامس وظهر بعدهم في القرن السادس طبقة سماهم ابن سعيد وهم ابن قزمان وعيسى البليد الإشبيلي وأبو الحسن المُقري الداني وأبوبكر بن مرتين الإشبيلي وأبو عمرو الزاهد ويخلف الأسود، وجاء بعد هؤلاء في القرن نفسه حلبة أولها مدغليس وابن الزيات الغرناطي وابن غرله المغربي وابن جحدر الاشبيلي وقد امتد العمر بهذا الأخير حتى القرن السابع الهجري إذ أنه توفي عام 638هـ[3] وفي هذا القرن ظهر بالأندلس زجال جمع بين القول في الزجل والتاليف في الزجالين وهو أبو علي الحسن بن أبي نصر المعروف بابن الدباغ المالقي الذي ألف كتابا سماه ابن سعيد مرة «ملح الزجالين» وسماه مرة أخرى «مختار ما للزجالين المطبوعين»[4] ويبدو أن هذا الكتاب أُلِّف ليُساوق كتاب أبي الحسن على ابن سعد الخير في مشاهير الوشاحين بالأندلس الذي اشتمل على عشرين وشاحاً ولم يصل إلينا من هذين الكتابين إلا ما نقله ابن سعيد.

1ـ الزجل في الأندلس: 2ـ3.
2ـ تاريخ الأدب الأندلسي 2: 257.
3ـالمقتطف: 263ـ265.
4ـ اختصار القدح المعلى: 172.





ومن الزجالين الذين ورد ذكرهم في المغرب نقلا عن ابن الدباغ : أبو عمرو بن الزاهد وأبو بكر بن الحصار وأبو عبد الله بن خاطب وأبو بكر بن صارم وابن ناجية[1]، وقد ذكر ابن سعيد زجالين آخرين من أهل القرن السابع أيضا وهم الكساد والبلارج القرموني وأبو محمد الباهلي والجرنيس والمكادي وأبو زيد الحداد البكازور البلنسي ويحيى بن عبد الله البحبضة[2]، ويقول أستاذنا الدكتور عبد العزيز الأهواني في آخر حديثه عن الزجل الأندلسي في القرن السابع : «والظاهر أن القرن السابع لم يرزق بزجال كبير»[3] وقد أصدر حكمه هذا من خلال نصوص أولئك الزجالين التي وصلت إلينا وهي يسيرة غير أنه ينبغي أن لا ننسى أن القرن المذكور هو الذي أنجب الزجال الصوفي أبا الحسن علي بن عبد الله الششتري[4].

وقد أخذ ابن خلدون كلام ابن سعيد عن الزجل في المقتطف وأضاف إليه الزجالين الذين ظهروا في القرن الثامن ومنم لسان الدين ابن الخطيب ومحمد بن عبد العظيم الوادي آشي وأبو عبد الله اللوشي وابن عمير نزيل فاس وابن شجاع التازي وعلي بن المؤذن التلمساني والكفيف الزرهوني[5]، ويضاف إلى هؤلاء ابن حسون الحلاء المغربي ومنصور الأعمى المغربي اللذان ذكرهما صفي الدين الحلي في كتابه (العاطل الحالي)، ومن الزجالين في هذا القرن الثامن الهجري محمد القيسي صاحب زجل حصار المرية[6] ويبدو أن الزجل ازدهر في هذا القرن الثامن على عهد بني مرين وبني الأحمر فقد تحدث ابن الخطيب والحسن

---

1. نفسه 2 : 283.
2. الزجل في الأندلس : 118.
3. له ديوان حققه الدكتور علي سامي النشار.
4. المقدمة : 1463. 1472.
5. العاطل الحالي : 29 وما بعدها و 54 ـ55.
6. انظره في الجزء الخامس من هذا العمل.





الوزان عن شعراء الزجل الذين كانوا يدعون لإلقاء قصائدهم في المديح النبوي بمناسبة عيد المولد الذي كان يحتفل به ملوك بني مرين وملوك بني الأحمر[1]. أما القرن التاسع وهو القرن الذي كانت في آخره نهاية الأندلس فقد اشتهر فيه الفقيه عمر المالقي الذي كان يُتغنى بأزجاله في الموسيقى الأندلسية، ويبدو أن أزجاله التي حفظها العامة في وقته كانت كثيرة ومع ذلك لم يصل إلينا منها إلا قطعة ذكرها الغساني في حديقة الأزهار[2]، وقد عثرت ضمن مخطوط مما قدم إلى جائزة الحسن الثاني على زجل تام له جعلته بين الأزجال المختارة لهذا المجموع[3].

وأما في المغرب فقد ظهر في هذا القرن التاسع وما تلاه من القرون لون من الزجل أطلق عليه اسم الملحون وقد بلغ شأوا بعيدا في العهدين السعدي والعلوي إذ كثر أعلامه وتعددت أنواعه وأغراضه وتنوعت أوزانه مما يوجد الحديث عنه موسعا في الأطروحة المتميزة للزميل الأستاذ عباس الجراري ويوجد كذلك مفصلا في معلمة الأستاذ المرحوم محمد الفاسي، وما عملي في نشر هذه الأزجال المحدودة ـ التي جاءت في سياق ملعبة الكفيف ـ إلا إضافة صغيرة لعملهما الكبيرين.

1ـ نفاضة الجراب 3 : 279 ووصف افريقيا 1 ج 1 ص : 260.
2ـ حديقة الأزهار : 84 تحقيق محمد العربي الخطابي.
3ـ انظره في الجزء الخامس من هذا العمل.





الزجل الكبير

ملعبة الكفيف الزرهوني





- 1 -

التعريف بالشاعر

- من حسن الحظ أن عوادي الزمان، ونوائب الحدثان، أبقت لنا على نص شعري البناء، عامي اللهجة، ملحمي المنحى، سياسي المنزع، تاريخي المضمون، يتسم بالطرافة، ويتميز بالأهمية، ويتصف بالإبداع، ويتجلى كل ذلك فيما يلي :

أولا - أنَّ هذاالنص وثيقة عامية مغربية تاريخية حول حدث بارز، هز كيان المغرب الكبير في وقته، ألا وهو «الحركة» التي قام بها السلطان الكبير أبو الحسن المريني، من المغرب الأدنى، لتوحيد المغارب في مغرب كبير من أجل مصلحة الدنيا والدين.

ثانيا - أنه وثيقة كبيرة الفائدة، في الدلالة على طبيعة العامية المغربية في عصر بني مرين.

ثالثا - أنه دليل جديد على أصالة السرد القصصي والنفس الملحمي في القريحة الشعرية العربية على العموم، والشعبية على الخصوص .

هذا النص صاحب هذه المزايا هو قصيدة الشاعر الشعبي الكفيف الزرهوني التي «يذكرفيها حركة أبي الحسن المريني رحمه الله إلى القيروان، وانهزامه بذلك المكان». كما جاء في طالعة النسخة الخطية الوحيدة للقصيدة. وقد أطلق ابن خلدون على هذه القصيدة التي كان يحفظها اسم الملعبة، وهي فن من عروض البلد الذي سنشرحه فيما بعد، وتحدث عن فحول هذا الفن، ومنهم الكفيف الزرهوني الذي يقول فيه : «وكان لهذه العصور القريبة، من فحولهم بزرهون من نواحي مكناسة،





رجل يعرف بالكفيف أبدع في مذاهب هذا الفن، ومن أحسن ما علق له بمحفوظي، قوله في رحلة السلطان أبي الحسن وبني مرين إلى إفريقية يصف هزيمتهم بالقيروان، ويعزيهم عنها، ويؤ سيهم بما وقع لغيرهم، بعد أن عيبهم على غزاتهم إلى إفريقية، في ملعبة من فنون هذه الطريقة، يقول في مفتتحها، وهو من أبدع مذاهب البلاغة، في الإشعار بالمقصد الأول في مطلع الكلام وافتتاحه، ويسمى براعة الإستهلال :

سُبْحَان مالك خواطر الأَمْرَا ونواصيها في كل حين وزمان
إن اطعناه عطفم لنا نصرا إن عصيناه عاقَبْ بكُل هوان

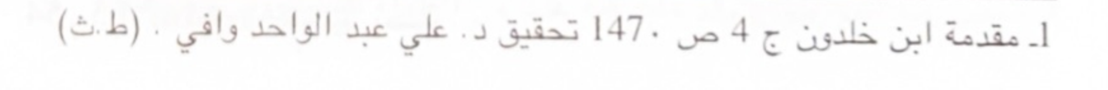
إلى أن يقول في السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص :

كن مرعي قال وَلاَتَكُنْ رَاعِي فَالرَّاعي عَنْ رَعِيَته مَسْؤُول

وبعد أن سرد قسما من هذه القصيدة قال :

«ثم أخد في ترحيل السلطان وجيوشه إلى آخر رحلته، ومنتهى أمره مع أعراب إفريقية، وأتى فيها بكل غريبة من الإبداع»[1] .

لم يذكر ابن خلدون اسم شاعرنا المبدع صاحب الملعبة التي أثنى عليها، واقتصرعلى لقبه ونسبته، وهما مذكوران أيضا في آخر الملعبة، وقد عثرنا على اسمه في تمهيد لقصيدة أخرى من كلامه موجودة ضمن



1ـ مقدمة ابن خلدون ج 4 ص ،147 تحقيق د. علي عبد الواحد وافي . (ط.ث)



مجموع مخطوط بالخزانة العامة في تطوان، وهذا نصُّ التمهيد : «ومن كلام سيدي عبد الله الكفيف الزرهوني رضي الله عنه ونفعنا به.»[1] ووجدنا اسمه أيضا هكذا في تقديم قصيدة أخرى هذا نصه :«القصيدة المباركة المسماة بطوق الحمامة لسيدي عبدالله الكفيف رحمه الله تعالى[2]» ومن المؤسف أننا لم نجد له ذكرا عند غير ابن خلدون ومن نقل عنه فيما وقفنا عليه.

ولعلنا نستغرب عدم ورود شيء من أزجال الكفيف الزرهوني في كتاب العاطل الحالي لصفي الدين الحلي فقد كان معاصراً له إذ أنه توفي سنة 750هـ والكفيف الزرهوني نظم ملعبته في هذا التاريخ، وقد ذكر الحلي زجالا مغربيا أعمى سمّاه منصور الأعمى المغربي وأورد له قطعة من زجل مطلعه :

الحَبَبْ أَبْيَضْ يَا حَبِيبْ *** وكُئُوس الخَمْرْ حُمرْ

نِعْمَ المَزْجْ بالرحيق قَط ما نَعْرَف السلُّو

فالحبب في حريق غريق عْايمْ أَبيضْ عجبتْ لُو

فاسقني مع رشا رشيق كل من رآه يبجلُّو

يَنْثني كلّما اسْتجيبْ *** ويُضي كُلّما سَفَرْ

بِقَوامْ يخْجل القضيب ومحيّا بحَالْ قَمَر[2م]

* * *

1. مجموع خ. ع.ت رقم 549 ص : 303. وسننشر هذه القصيدة في هذا الجزء، ومنها نستفيد ان شاعرنا يسمى عبد الله، وقد ترجم ابن العماد الحنبلي في الشذرات وابن حجر في الدرر الكامنة لفقيه محدث مغربي الأصل اسمه يحي بن عبدالله الزرهوني، اشتغل بتدريس الفقه المالكي والحديث في مصر وتخرج به المصريون وله تصانيف، توفي سنة 773هـ، وهو هكذا من حيث التاريخ يصلح ان يكون ولدا لسيدي عبدالله الكفيف الزرهوني شاعرنا، لكن لايوجد ما يثبت الصلة بين الرجلين، انظر شذرات الذهب 230 والدرر الكامنة 4 :421.

2. أنظر الأصل

2م العاطل الحالي : 54 ـ 55. تحقيق د. حسين نصار.



ولم يذكر ابن خلدون منصورا الأعمى هذا، ولا يوجد شيء آخر من أزجاله.

إن كل ما يمكن أن نستفيده من قصيدة الكفيف، ومن كلام ابن خلدون، أن الكفيف الزرهوني كان شيخا ضريرا، في عهد السلطان أبي الحسن المريني، وكلام ابن خلدون واضح في أنه كان مقيما بزرهون، وقد وردت إشارة في آخر ملعبته، قد تفيد أنه لم يكن بعيدا عن فاس، فهو يتحدث عنها حديث القريب، وفاس على كل حال غير بعيدة عن زرهون، ويبدو أنه لم يعش كثيرا، بعد نظم قصيدته التي نرجح أنه أنشأها عقب الحادثة مباشرة أو في خلالها أي في منتصف القرن الثامن الهجري، وفي هذا التاريخ. كان الطاعون الجارف الذي قضى على كثير من الناس.[1] وقد يكون صاحبنا من بينهم.

وفي الملعبة إشارات تلقي شيئاً من الضوء على هذا الشاعر الشعبي الذي كان من جملة من أهملتهم كُتب التراجم، وأولى هذه الإشارات تتعلق بأصله ومنبته ومرباه، وهي تقول :

وَالمَرْبَى في الأَصْلْ وَفي الجَدْرا   صـارويـة صَرِيحـةَ الأَلْبَـان

وصاروية وردت في الجزء الخامس من المقتبس لابن حيان (ص :370) ضمن أسماء عدد من قبائل البربرالمحيطة بفاس، وهي اليوم تنطق وتكتب على الصورة التالية : صاريوة، وهكذا رسمت في أخبار المهدي للبيدق فقد ذكر في سياق ما سمي بالاعتراف في بداية عهد المومن أنه قتل من صاريوة وبني مكود اثنا عشر ألفا (ص :71) وجاء في بيوتات فاس (ص : 43) كلام على «حومة بني صاريوه اليازغيين قرب الولي

---

1. تحدث عنه المؤرخون، وقد مات فيه عدد من العلماء المشهورين وغيرهم.





الصالح الربّاني على بن أبي غالب الشريف الإدريسي الحسني الصاريوي اليازغي الذي خرج سلفه من فاس فارّين من موسى بن أبي العافية المكناسي في أيام ولايته على فاس واستقروا في بني صاريوه من بني يازغة، ثم رجع عدد منهم إلى فاس فنزلوا في حومة صاريوه أيضا داخل باب الفتوح فظهر منهم علي المذكور وتوفي في أواسط المائة الثامنة ودفن بالحومة المذكورة وفي سلوة الأنفاس أنَّ صاريوة : مدشر قديم في بني يازغة، هاجر إليه بعض الأدارسة وفيها أيضا أن صاريوة حومة قديمة بفاس نزلها جماعة من أهل المدشرالمذكور، وفيها مدفن سيدي بوغالب الصاريوي الادريسي، (سلوة الأنفاس 18:2) وقد ورد الاسم مكتوبا هكذا : صريوة في التقاط الدّرر للقادري (208:2) ومثل هذه الصيغة تتعرض للتحريف في الكتابة والنطق كما نجد في بطوية وبطيوه وبقوية وبقيوة.

ومايزال مدشر صريوة موجودا بهذا الإسم إلى اليوم وهويقع بين صفرو والمنزل، ومن المنسوبين إليه الحاج أبو عمران موسى الصاريوي (التشوف : 288 تحقيق أحمد التوفيق).

ويمكن القول بعد هذا بأن الكفيف ينتمي إلى صاريوة بني يازغة وقد نستأنس بسمة اللهجة الجبلية الموجودة في القصيدة وبموهبة النظم المعروفة عند بني يازغة إلى اليوم، فنذهب إلى أنه نشأ بين ظهرانيهم أولا، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة زرهون، التي تربطها صلات روحية بصاريوة، فقد هاجر الي هذه الاخيرة بعض الأدارسة كما رأينا، كما أن اليازغيين كانوا يفدون على مدينة زرهون ويقطنون بها، وهم يؤلفون اليوم عنصرا من عناصر سكانها، وحي بني يازغة من أحياء زرهون المشهورة.





وتجدر الإشارة هنا الى أن الشاعر يستمد بعض تشبيهاته من مواقع غير بعيدة عن صاريوه وزرهون، فقد شبه قرقورة ضخمة بجبل تيزران الذي خصه الحسن الوزان بمادة قصيرة [1] وثمة تشبيه آخر قد يدل على مصارعة الاسود التي كانت معروفة في بلاط المرينيين بفاس، وكان يقوم بها أهل زرهون[2]، ومن أسماء الأماكن التي لها صلة بمجاله الجغرافي، وذكرها في قصيدته أزغار(منطقة الغرب)، سبو، ردات، ردوم، بهت، خولان.

وبالاضافة إلى لهجة جبالة العربية الواضحة في القصيدة فإن الشاعر يستعمل كلمات بربرية تمثل تجاور اللهجات أو إزدواجيتها في المنطقة.

وقد ذكر الكفيف في آخر قصيدته أحد شيوخ الزجل وختم الملعبة بمطلع زجل هو فيما يبدو لهذا الشاعر، وذلك إذ يقول :

واسْتَغْفر ياكْفيف لابن حَسّونْ   وتْفَكّر ماذْكَرْ في عامْ ستّا:
«فجعني صَيْحة النَّجيبْ بْكُرا   حينْ رَحْلو ركائب الغزْلان
وأمْستْ من بعْدْم الديارقفْرا   مافيهم لا إنْس ولاعـُمْرانْ»

وعام ستة المذكور هو - فيما يظهر - عام706هـ الذي وقعت فيه كارثة لبني مرين تشبه كارثة القيروان، فبَيْنَما كان السلطان يوسف بن يعقوب المريني، قاب قوسين أو أدنى من دخول تلمسان التي حاصرها ثماني سنين وثلاثة أشهر «نال أهلها فيها من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم» إذا بعبد من عبيده يدخل عليه مخدع نومه ويطعنه بخنجر مزّق أمعاءه ولمامات وقع الصراع على الملك بين إخوته ووَلَده وحفيده ورفع

---

1. وصف افريقيا ج 1 ص 332 ترجمة د. محمد حجي ود. محمد الأخضر.
2. المصدرنفسه ح 1 ص 294.





الحصار وفشل المشروع وكانت نكسة لعل الزجال ابن حسون خصها بزجل سجل فيه وقائعها ومنه البيتان اللذان ختم بهما الكفيف زجله وقد يكون هذان البيتان بداية ملعبة لابن حسون حذا حذوها الكفيف، وثمة زجال كبير يدعى فعلا ابن حسون، وهو أبو عبد الله محمد بن حسون الحلاء المغربي، ذكره هكذا الحلي في «العاطل الحالي» خمس عشرة مرة[1]، واستشهد بمقاطع من أزجاله، ومنها زجل مدح به الوزير الفخار مطلعه :

إلى الوزير الطبيب الماهر　　　الفيلسوف الجليل المقدار

ولعلَّ صاحب هذه الصفات هو إبراهيم ابن الفخار اليهودي الذي له مخاطبات شعرية مع بعض شعراء الأندلس، وقد عاش فترة في إشبيلية، ثم انحاز إلى الفونسو في طليطلة، وسفر بينه وبين الموحدين، سنة 612هـ[2] وعلى هذا - إذا جاز - يكون ابن حسون المذكورمن أهل القرن السابع، وقد صنفه أستاذنا المرحوم الأهواني مع زجالي هذا القرن بالفعل[3] .

ويبدو أن ابن حسون هذا هو غير ابن حسون شيخ الكفيف، فالمؤشرات المذكورة تدل على أن شيخ الكفيف متأخر زمانا .

وثمة إشارات أخرى مشكلة أيضا في القصيدة كقول الكفيف :

أَمَوْلَايَ بُولَحْسَنَ خطينا البَّاب　　　في قضية سرْنَا لتونسَ

1ـ العاطل الحالي. تحقيق د.حسين نصار، ص. 29، 36، 41، 42، 44، 50،51، 55، 67، 68، 70، 71،73،80.

2ـ انظرالروض المعطار 348 والبيان المغرب 3 : 244 والمغرب لابن سعيد 2 : 23 2 23، نفح الطيب 3 527 : تحقيق د : احسان عباس.

3ـ الزجل في الأندلس 117ـ118.





وقوله :

أيامْ وليالي وأودية وأوعارْ　　　وقبايل كالذّياب تدورْ بنا

وقوله :

انـظر هـذا النَّـفانِف الاربْـع　　　كف عمَتْ جيْشَنا ولَّى سَافي

فهذه الابيات وشبهها في القصيدة، والوصف الدقيق لمراحل «الحركة» وملابساتها، تجعلنا نتساءل عما إذا كان الشاعر ممن ساروا في ركاب «الحركة» من أهل العلم والأدب [1]. بيد أن سؤاله في أول القصيدة عن مصير جيوش السلطان، وإشارته إلى رواية بعض الأخبار بالسماع يبعد هذا التساؤل.

ومع ذلك فلا نستبعد صلة الشاعر بأبي الحسن المريني، فقد كان العصر عصر إزدهار الزجل في المغرب والمشرق، وقد تعاصر الكفيف الزرهوني وابن شجاع التازي [2] في العهد المريني بالمغرب مع خلف الغباري وإبراهيم المعمار من العهد المملوكي بالمشرق، وكان آل برقوق وغيرهم من المماليك يقربون الزجالين ويثيبونهم، كما كان بنو مرين يقيمون المباريات للإنشاد الشعبي ويمنحون الجوائز للفائزين [3].

ومهما يكن الأمر فإننا نجد الشاعر يهدي قصيدته إلى السلطان أبي الحسن قائلا :

نَهْدي لُو من بناتي الصغُّْرا　　　من هيفَات الكَفيفْ بلا أثمان

1ـ ذكر بعض المؤرخين ان عدد العلماء الذين رافقوا أبا الحسن بلغ نحو أربعمائة عالم، انظر نفح الطيب 6 215 والاستقصا 3 171.

2ـ انظر في ابن شجاع مقدمة ابن خلدون ج 4 ص 1469 وازهارالرياض 1 : 123.

3ـ انظر الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، تأليف احمد صادق الجمال ووصف افريقيا للوزان ج 1 ص : 260.



ويبدو أنه فرغ من نظمها قبيل انجلاء آخر مرحلة في محنة السلطان الكبير لأن آخر حادثة سجلها فيها هي غرق أسطوله، ولعل الشاعر ظل متشبِّثا بالسلطان أبي الحسن حتى وفاته، إذ أنه بعد الإشارة إلى غرق الأسطول يدعو له في آخر القصيدة :

ينصرْ دولة علي على الجُمْلاَ   فأرض المَشْرِق وأرضْنا هاذي

لقد كان الشاعر معجبا بالسلطان أبي الحسن، متعلقا بشخصه، متحسرا على مانزل به، موبخا لمن خانه، ولو أنه انتقد حركته أو حملته على إفريقية كما سنذكر فيما بعد، و هاهو يعبر عن لوعته ولوعة أهل الدين والفضل ويصور وتألّمه، لما نزل بأبي الحسن في هذه الأبيات :

لو كانت فاس ثَكْلَى وريمْ حُرًّا   طولْ عُمْرا كان تلْبَس أبطانْ

كذا أهل الدين في غضْبتم معنا   كالقاضي والمدّرس الأَكْبَر

في كل نهار يدعو لمولْنا   بذا الكرسي وفوقْ على المنبر

والمغرب كان في أكبر محنا   من ضيم الذّل وزْمان لغدْرْ

كُتُبْ الغرب القديم من أرض السّوس   لأرض الساحل، لَمُنْتَهَى دَرْعا

للسلطان المُحَجَّبْ المَحْبُوس   في المَشْرق من حريقَة الفجعا

ما أداها لاحمام ولاطاووس   إلا البومْ والغْرابْ أبو الفَجْعَا

فيها : أمولاي هَجَرْتَنَا هَجْرًا   لو ريْتنا بَعْدَك ياحياْة لَبْدَانْ

نكسو بالذّلْ حُلَّة حَمْرًا   بَعْدَ كنًّا في دَوْحَة الرِّيحان





ولانحسب أن هذا الولاء كان مجرد مشاركة وجدانية من الشاعر للأمة التي أجمعت على حب هذا السلطان، فدعته الخاصة بأبي الحسنات[1]، وأطلقت عليه العامة السلطان الاكحل[2]، ونسجت حوله الأساطير، وبكته الشعراء بقصائد رائقة تعبر عما خلفه موت هذا السلطان من لواعج الاسى كما يقول الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا[3].

لقد كان شاعرنا على صلة وثيقة ببعض حاشية السلطان، فقد أشار في قصيدته إلى حديث جرى بينه وبين الوزير عيسى بن الحسن الذي كان على رأس المعارضين لحركة السلطان إلى إفريقية، كما أن الأخبارالتي ضمنها الشاعر ملحمته تتفق في جملتها مع ما ذكره ابن مرزوق وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين المعاصرين للأحداث، ولاشك أنه استقى أخباره من المقربين من السلطان أو من بعض العائدين الذين شهدوا الأحداث أو اشتركوا فيها، وهذا يجعلنا نعتبر القصيدة وثيقة تاريخية ونجعلها في مستوى كلام ابن مرزوق وابن خلدون في حديثهما عن الحادثة وهي تزيد على ذلك بأنها تعكس بعض الأصداء والمواقف الشعبية التي يغفلها المؤرخون.

أشار الكفيف في آخر ملعبته إلى بنات أفكاره، أي قصائده، ويفهم من عبارته أن الملعبة هي أصغرها أو آخرها، وقد وصل إلينا من هذه القصائد ـ فضلا عن الملعبة ـ قصيدة يقول في أولها :

1ـ الروض الهتون لابن غازي ص : 34 المطبعة الملكية.

2ـ الاستقصا ج 3 ص : 118

3ـ وصف افريقيا ج 1 ص 203، وانظر تحسر ابن الخطيب عليه ورثاءه له في نفاضة الجراب 48 ـ 53.





أيا سائلا عَنْ كُلِّ ما في العَامْ نَفيدِكْ بما في النَّقْد والكالي
تدور السُّنُونْ كدورة الأَيام عبارَ في هذَا اللَّفْظ لْمثالي
أَلا فَاسْمَعُوا مَا قَالَت العُلْمَا دخول السَّنَة بالحدَ فيها اخبارْ
زمان الشتّا صاحى قليل الما وفصْل الربيعْ شاتي كثير الأمطارْ
ووَقْت الصيّفْ يُخْشى من الغُمّا وزمان الْخريفْ يأتي عَجاجْ وغُبارْ

وهي منظومة شعبية لاحقة بالتنجيم والجفر الذي كثرت فيه «الملاعب» والقصائد في هذا العصر المريني، ويلاحظ أن هذه القصيدة في بنائها وطريقتها مماثلة «للملعبة» فهي تتألف من عشرة أشطار وتقفيتها تسير على النحو التالي : أب أب ج د ج د أب أب هـ و هـ و هـ وتستمر هكذا ويبدو منها ومن «الملعبة» أيضا أن الكفيف كان عارفا بفن التنجيم الذي كانت سوقه نافقة يومئذ عند الخاصة والعامة [1].

هذا ما يمكن قوله الآن حول شخصية الشاعر كتمهيد لقصيدته التي سندرسها من حيث المضمون ثم من حيث الشكل.

1ـ انظر مقدمة ابن خلدون ووصف افريقيا للوزان 1 864 ـ 267 وقد ذكر ابن مرزوق ان السلطان ابا الحسن لم يكن يستمع الى كلام المنجمين وكان ينكر عليهم، ثم قال انه كان على بصيرة في انكاره لما عم من الافتتان بهذا في كثير من الاقاليم مع التفاوت بين الناس في ذلك، وحكى ابن مرزوق أيضا أن نهاية ابي سالم المريني كانت بسبب المنجمين. المسند 444.





ـ 2 ـ

مضمون القصيدة

ـ إن محور القصيدة هو أبو الحسن المريني أحد ملوك المغرب الكبار الذين سعوا في توحيد المغرب الكبير، من أجل جمع الكلمة ووحدة الصف، للدفاع عن الأندلس والغرب الاسلامي كله، محتذيا في ذلك حذو يوسف بن تاشفين وعبد المومن بن علي ويعقوب المنصور وغيرهم.

أما حوادث القصيدة فانها تدور حول «حركة» هذا السلطان إلى إفريقية الحفصية، بعد أن مهدَ ما كان يُعرف بالمغرب الأوسط، وقد حقق بهذه «الحركة» وحدة لم يكتب لها البقاء، إذ سرعان ما انتكست بسبب عوامل مضادة للوحدة، وفيما يلي عرض أمين لمضمون القصيدة :

تبدأ القصيدة بمقدمة تشتمل على تسبيح الله عز وجل الذي بيده أزمة الملوك، يلينون لمن أطاعه، ويُهينون بإرادته من عصاه، ويذكر الشاعر أن قلوب الرعية وأحوالهم تكون حسب قلب الراعي ونيته، فقلبه مثل الجلّوزة تنفعل بِعَدْله وتنفتح فيفوح منها العبير ويعم بها النور والحبور، كما تتأثر بجوره فتعلوها قترة تسود منها النفوس وترين على القلوب، ثم تسوق القصة المنسوبة إلى كسرى أنو شروان، وقول الرسول فيه : «ولدت في زمن الملك العادل» وملخص القصة أنّ كِسرى مر ببستان كان يزكو عطاؤه، فلما نوى أخذه من أصحابه، لم يعد يجود ببعض ما كان يعطي، وحين رجع الملك عن نيته، عادتْ إلى البستان بركته. والقصة كانت مشهورة بالمغرب كما ذكرصاحب سراج الملوك، وقد كانت ـ كما يقول الشاعر ـ سببا في عدله، وصنعه في الايوان سلْسة عظيمة ذات أجْراس، يحركها المظلوم ليعلم بها



الملك فيزيل ظلامته، وتنتهي هذه المقدمة بالصلاة على النبي والدعاء للخلفاء الراشدين.

ثم يخرج الشاعر إلى الموضوع بتوجيه نداء حار وسؤال ملحاح إلى الحجاج العائدين عبر الصحراء، متوسلا إليهم بالنبي، في أن يخبروه بمصير عسكر فاس الغراء، وجيش المغرب التائه، في فيافي افريقية، وأميره الذي مهد سبيل الحجاج بزودهم بالعطاء ويتعجب كيف عميت أنباء هذا الجيش الذي انحدر على إفريقية كأنه سيل العرم أو وديان «بهت» و«ردات» و«ردوم» عندما تفيض وتغمر أرض بلاد الغرب، ثم يتساءل مستغربا : ألا يوجد حمام زاجل، أو رقاص ركاض يحمل كتابا من السلطان مختوما بعلامة عبدالمهيمن، التي تنتصب كالمنارة أسفله ثم يقول ما نثره :

وحتى لو كان بين تونس وفاس سد كسد ذي القرنين مبني من الشرق إلي الغرب، بطبقة من حديد وأخرى من النحاس، كان لابد للطير أن يجيئنا بنبأ، وللرقاص أن يأتينا بخبر، ويتجسر قائلا : آه لأولئك المسلوبين الغارين، والتائهين الذين أصبحوا بلامكان ولا إمكان، لا ندري هل يقتاتون، ولاكيف لجأوا إلى القيروان، ما اصعبها من أمور، وما أشرها من أحداث، تنهد لها الجبال، وتجف الغدران، وتستحيل مياه الأنهار دماء. ثم يتوجه إلى أبي الحسن مخاطبا :

أي أبا الحسن ! لقد أخطأنا في قضية سيرنا إلى تونس، ولقد كنا في غنى عن الزاب والجريد، مالنا ولأعراب إفريقية.

ألم يبلغك أن عمر بن الخطاب فاتح الشام والعراق وفارس، رغب عن فتحها؟ وكان ينعتها بالمفرقة، ولذلك لم تفتح إلا زمن عثمان، ولما بلغت



غنائمها الديوان كانت شؤما على المسلمين، فمات عثمان وافترقت الأمة وحصل ما السكوت عنه من الايمان.

ولقد ذكر أصحاب الأجفار والتراحيل، أن بني مرين إذا أشرفت راياتهم على جدران تونس يسقط شأنهم، وما أصدق فراسة سيد الوزراء عيسى بن الحسن الذي نصح السلطان فأعرض عن نصيحته، وقد قال لي بعد النكبة: إنه كان على علم بما سيحدث، ولكن إذا نزلت الأقدار، عميت الأبصار.

ويسرد الشاعر - بعد هذا - الظروف التي حملت السلطان على الحركة بجيوشه إلى إفريقية وهي الظروف الناشئة عن موت السلطان الحفصي أبي بكر ونشوب الفتنة ومقتل ولي العهد الحفصي وإخوته أصهار السلطان أبي الحسن المريني على يد أخيهم المتسلط أبي حفص إلى غير ذلك من الأحداث التي فصلها معاصرُها ابن خلدون.

ولاتختلف الأحداث الواردة في القصيدة، عما عند ابن خلدون إلا من حيث السرد القصصي، والحاح الشاعر على دور الحاجب الحفصي ابن تافراجين، في إغراء السلطان أبي الحسن بالحركة إلي إفريقية، وقد ذكر ابن خلدون أن ابن تافراجين «رغبه في سلطانها، واستحثه للقدوم عليها، وحرك له الحُوار، فتنبهت لذلك عزائمه[1]» أما الشاعر فينعت هذاالحاجب الماكر بالغرار (أو الغدَّار) ويبسط أسلوبه في تحريض السلطان على الحركة إلى إفريقية، وإطماعه فيها كما يلي :

1- العبر ج 6 ص811 ط. بيروت. وفي الأمثال حرك لها الحوار تحن. الميداني.1 : 191.





قـالُـو : يـازمـرد الأمْـرا انظُر هذا المْعِق الأبـوانْ
كِفْ حَز الراسْ وقطع البَشْرَا وخلط دمَ النسامع الصِّبْيَان
هتَكْ دوْلَة بنو أبي حَـفْص اجبُرُهْا ياغَضَنْفَرَ الـدوْلاَ
واحكم بالشَّرع الذي يَعْصي واستعملْ لأرض تونس الرِّحلا
أنت اليوم عندنا وكيل ووَصْي ومقام الأبَ والسُّهَا الأعـلاَ
وترى هذي بجايَة الـغزَّا هبناها لكَ مصدَّقة بأيمانْ
يدكْ فيهاَ منْ زنَت الْكفْرا ومرسى وجبَل ونَهْر وبسْتَانْ
واعظم من ذا واجل تَقْديسا تَفْتَح طريق الحَج لِلْحُجَاجْ
وتنقِّيها من العدو البيْسَا حَتَّى تَمْشي فيهَا الْمرا بالتاجْ
تُشكَرْ بـهـا إلَـى قـيَام عيسى وفي جبل عرفة إذا التقت لَفْوَاجْ

وقد استمع أبو الحسن إلى كلام الرجل وأزمع الرحلة، فدُقت الطبول، وجلبت الرجال والخيول، من سوس في أقصى الجنوب إلى شرشال في أقصى الشرق، واستمرالاستعداد للحركة عاماً كاملا - فيما يقول الشاعر- حتى تجمع جيش يمثل جميع قبائل المغرب الأقصى والمغرب الأوسط، وقد ذكرهاالشاعر بأسمائها، وكان الإنطلاق من تلمسان في بداية موسم الحصاد، وبدت - حسب الشاعر - أول أمارة لمتاعب هذه الحركة، عند وصول الجيش إلى شلف، وتمثلت في الغلاء، وفقدان الماء، كما ظهر أول تململ للناس تجلَّى في قولهم على لسان الشاعر :

أماره في شلَف لمَن جمَعْ منْ فقد الما والغلاَ في الزادْ
واشْ كان دَّانا لراس الأقْرَعْ نغسلُو بالْمَا ولايُساق للوادْ





ومهما يكن الأمر فقد أغذ السلطان السير إلى بجاية «يجر الدنيا بما حملت» حسب عبارة ابن خلدون [1]، ففتحها، وعمل مايَرْضاه الله ورسوله ويشكره الناس، إذ قضى على الخمر الذي كان شربه فاشيا. ومنع وسق الحبوب لدار الحرب وكان العمل به جاريا، وأحسن إلى الفقراء، ثم تقدم إلى قسنطينة، فحاصرها شهرا، وفتحها صلحا، وبلغ الخبر إلى عمر الحفصي، فخرج منها هاربا بعد أن حمل معه جميع ما كان في الخزائن الحفصية، والتف حوله البدو من أولاد مهلهل، وكان همهم أن يحصلوا على أمواله وصار كمايقول الشاعر:

في عرب يصبح وفي عربْ يمسي | منهم يرحلْ وبينهم ينزلْ
وفي كل شهر من العربْ يكسي | سبعين ويجود من الذهب بحمل
والعْربي كالندى على الغرس | يوماً تقطَع عَنّو العطَا يَخْذَلَ
أو كالعَوسَج تري شجرة خَضْرَا | غدا يلقاك بشوك كالظربانْ
مايعطيكْ لا زهـْر ولاتَمـْرا | لو تسقي شجرةُ بما النِّيْسانْ

وقد أرسل السلطان في طلب هذا الحفصي الهارب قائده العسري، في اثني عشر ألف فارس - كما في القصيدة - فأدركه وجرى قتال هلك فيه من هلك، وكبا بالأمير الحفصي فرسه، وحمله بعض الأعراب - حسب القصيدة - إلى قائد السلطان، فقيده كي يحمله إليه ولكنه خشي أن يراجع الأعراب أنفسهم في شأنه، فقطع رأسه، ووجَّه به إلى أبي الحسن، وسُقِطَ في يد الأعراب.

---

1. المصدر نفسه ج 6 ص 812.





لم يتحدث الشاعر عن دخول أبي الحسن التاريخي إلى تونس في ذلك اليوم الذي هدرت فيه الطبول، وخفقت الرايات، وماجت الأرض بالجيوش، ورفعت قصائد المديح إلى السلطان في التهنئة بالفتح، «وكان يوما لم ير مثْله فيما عَقَلْنَاه» كما يقول ابن خلدون[1]، ولم يتحدث أيضا عن أعمال السلطان في تونس ومنجزاته وتنقلاته ومجالس علمائه التي نوه بهاابن خلدون، وكان هو نفسه ثمرةً من ثمراتها[2]، لم يتحدث الكفيف عن شئ من هذا، فهل سقط شئ من النص الذي بين أيدينا، أم أن الشاعرركَّزعلى محور قصيدته الذي هو نكبة السلطان.

مهما يكن الأمر فإننا نجده يأخذ في سرد أحداث الطامة الكبرى وقضية حرب السلطان مع الأعراب قائلا :

نَرْجِعْ لأَخْبَارِ الطَّامَةَ الكُبْرَى   وقضية حَـرْبَنَا مع العُـرْبَــان

وأول مايذكره أسباب النكبة، وهي :

1 ـ خيانة الموتورين من بني عبد الواد وبني توجين الذين انحازوا عنداللقاء إلى الأعراب.

2 ـ مؤامرة أمير بونة أبي الفضل الحفصي صهر أبي الحسن.

3 ـ نفرة بني مرين وجشم، وهم خيرة الجيش، فقد كانوا يحذرون غضب السلطان وعقابه، وذلك كمايقول ابن خلدون «لجناياتهم بالتخاذل في المواقف، والفرار عنه في الشدائد، ولما كان يبعد بهم في الأسفار، ويتجشَّم بهم المهالك[3]».

1ـ المصدر نفسه ج 7 ص561.
2ـ راجع ما كتبه عن قراءته على العلماء الذين صحبوا السلطان ابا الحسن في التعريف بابن خلدون.
3ـ العبر ج 7 ص 594.





وهذا نفسه ماعبر عنه الشاعر- وهو يعدد أسباب النكبة - بقوله :

والعلة الثالثة دشم ومرين — وعظْم الدولة القديمة البانيا
قالوا ما خصْنا سوى الصين — لوقال قوموا لها قُلْنَا أَيَّـا
أولادنا تَيْتَمو بناتْ وبنين — ونْسانا ترملو ونحن احيْـا
ولَوْراكْ خدت الأَسَدَ من الشّعْرا — ويراه في قبضتك عيان بيانْ
ماعظَّم رُجلْتك ولاشكَرْا — ويراهامن شقَاوَة الصبيـان
وراوتبناعلي سبو أو ردات — كراوتبنا بقابس المَقْطُـوعْ
ويريد عاد يفتتح بنا رمدات — عماد الأصفر وكنزها المَجْمُوعْ

ويضاف إلى شكواهم من عدم الزيادة في رواتبهم وقلة التنويه بعملهم شكواهم من تغير المناخ الذي ألفوه، والمجال الذي تعودت عليه خيولهم بهبوب الزوابع الرملية، ونضوب المياه الصافية :

انظـر هذا النفانف الأربعْ — كِفْ عمتْ جيشنا ولّى سافي
ماطلع فيها قليب خالص المَنْبَعْ — غير واحِدْ من ميا استْقَى الصافي
وكذاك جاب بذا الجيوش وطلع — يلقى بها البـودْبا الطّافي
حيْـاة قـط ماراتْ قَطـرا — تلقاها في ترابها العطشانْ
خَيْل ربات في أزَغار وتايَسْرا — وسبو المستقى مع خَـولانْ





أما السبب الأكبر، والهم الأخطر فهم العربان، مسامرالصحراء، الذين طولبوا بأداء الزكاة، وهم أجهل من جمالهم الصفراء، كما يقول الشاعر - وهو يذهب إلى أن خروجهم على السلطان كان بتدبير من ابن تافراجين الحاجب الحفصي، فقد هم أبوالحسن بتوجيهه سفيراً إلى ملك قشتالة، مصحوبا بهدية إليه وجزاءً له على هديته، وتسريحه ولده أبا تاشفين، وتهنئته السلطان بفتح إفريقية، ولكن ابن تافراجين فهم أن السلطان أراد أن يتخلص منه وينفيه، فلجأ إلى الإيقاع بين أبي الحسن والأعراب، بالقبض على أشياخهم الذين دخلوا القصر لتهنئة السلطان، برغم اعتراض أبي الحسن المعهود على أساليب الغدر، وقد أفلت من بينهم فتاته بن حمزة أحد شيوخ الكعوب الذي ذهب يحرض الأعراب في مضاربهم وحللهم فوجد لديهم آذانا مصغية، إذ كانوا غير راضين عن سياسة السلطان الجديدة عليهم، كمنعهم من فرض الخِفَارة، وسرعان ماتجمعوا، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم، وكانت الواقعة التي وصفها الشاعرفي سرد قصصي، وبنفس ملحمي، هما لب هذه القصيدة، وسر ما فيها من إغراب وإبداع، نوه بهما ابن خلدون.

وقد أشاد الشاعر بشجاعة السلطان الجسور، وولديه أبي علي الناصر وأبي الفضل، وبعض قواد الجيش الأوفياء، مثل أبي معروف العسري، وابن يحياتن زعيم بني عسكر الذي شبهه بالمقداد، ولكنه اعترف أيضا باستماتة الأعراب وصلابتهم فكأنهم - كما يقول - خلقوا من حديد أواشتقوا من حجر، وكان لتَحْمِيس ربات الهوادج من نسائهم الأثر الفعال، في ميدان القتال، وقد كاد أبو الحسن يهزمهم، ويشتت جموعهم، لولا خيانة أولئك الذين كان في قلوبهم مرض من جيشه، فجروا عليه الهزيمة، ولم يحمه غير ولديه، وفرقة الروم التي غطت انسحابه إلى القيروان، حيث حوصر في هذه المدينة، وضويق أهله في تونس، ولم يأته





مدد من المغرب[1]، وانتثرسلك زناتة، وانهاربناء الوحدة، وتغلبت البداوة على الحضارة، وتفشت الخيانة، وظهر الوباء، وعميت الأنباء، وكثر إرجاف الأولياء والأعداء، وشاع الإنتزاء، وأصبح الحال كما يقول الشاعر الرحوي :

الخوفُ والجوعُ والمنايا يُحدثها الهَرْج والوباءُ

والناسُ في مِرية وحربٍ وما عسى ينفع المراءُ

فأحمديٌّ يرى علياً[2] حل به الهلْكُ والتواء

وآخر قالَ سوف تأتي به إليكم صَبَاً رخاءُ

واذا عميت أنباء السلطان على من في تونس، فكيف بمن في تلمسان وفاس، وهذا ماترك الناس حُيارى ، وكان سببا في النكبات.

وحسب الشاعر فإن الذي روّج إشاعة موت السلطان، هو الماكر ابن تافراجين، الذي تحيل في الخروج من حصار القيروان، والتحق بصفوف الأعراب، والشاعر يروي خبرا قال إنه مسموع، ومفاده أن عريف السويدي وعلال ابن مصمود وابن يربوع، خرجوا من القيروان المحاصرة للتفاوض في الصلح مع الأعراب، فما كان من هؤلاء الا ان اعتقلوهم، ولكن ابن تافراجين الذي اصبح بجانب الاعراب، أشار عليهم بالاحتفاظ بابن أمصمود وتسريح الآخرين، وذهب ابن تافراجين بابن

---

1. ذكر ابن خلدون ان الاميرابا سالم جاء من المغرب على رأس عسكر فوافاه خبر الهزيمة دوين القيروان «فانفض معسكره ورجع الى تونس معهم بالقصبة» العبر 6 819. وأشار أيضا إلى ابن صغير من أبناء السلطان عقد له على عسكر من اهل المغرب وأوعزإليه باللحاق بتونس، » فحوصر مع من حوصر بقسنطية ولكن هذا كله كان قبل حصار القيروان.

2. قصيدة الرحوي في مقدمة ابن خلدون ج 4 ص : 1332 والاحمدي يقصد به المنسوب إلى حزب أحمد ابن ابي دبوس الموحدي الذي اقامه الأعراب أميرا عليهم. وعلي هو السلطان أبو الحسن.





أمصمود إلى تونس وأراه من وراء السّور للمحاصرين قائلا هاهو ثقة أبي الحسن يشهد لكم بوفاته، ولكن هذا كذّبه، وأوصى المحاصرين بالّصمود حتي يقْدَم السلطان.

لجأ السلطان الي القيروان، وبقيت ذخائره وأمواله نَهْبا للأعراب، وهامت فلول جيشه في البراري، وأصبحوا كما يقول الشاعر: «فَرَسٌ مَهْزُوْلْ وصاحبُ جَيْعَانْ» وكانواينزلون بالبدو، فيُجَرِّدُونَهُمْ حتي تساقطوا إلى تلمسان عراة زرافات ووحدانا، ولقد سمى الشاعرمن خان السلطان، ومن ظل وَفِيًّا له بعد الحصار، وعد في الاولين محمد ابن النوار واليه على بجاية، وسرحان قاضيه على مازونة، وذكر غدر الأصهار الحفصيين في تونس وقسنطينة، أما الأوفياء فمنهم محمد بن العباس وابن مزني صاحب الزَّاب، ومسعود ابن إبراهيم اليرنياني الذي ضرب ـ كما يصفُ الشاعرـ مثلا أعلى في الشجاعة ، فقداعترضه الأعراب، وهومتوجه بمال الزكاة إلى السلطان في تونس فقسم المال إلى مئة بدرة ووزعها على كبار أصحابه حتى لايقع في يد الأعراب، وعلى أن تجمع البدر فيما بعدُ، ثم كرَّ كرة والتفت بعدها يتفقد أصحابه فلم يجد لهم أثرا، فاندفع يجندل الفرسان :

فقتل مائة وماتْ على إثـْرا لاحرم الله عرايس الرِّضْوانْ

ومن هؤلاء الأوفياء ابن أخلفي زعيم بني عسكر، وابن يحياتن فتى بني ونجاسن، وابن أمديون زوج أخت السلطان الذي صمد أثناء حصار البدو لأهل أبي الحسن في قصبة تونس، وعمل الأعمال المستحسنة.

لقد ظل أبو الحسن محصورا في القيروان سبعا وسبعين ليلة ـ كما يقول الشاعر ـ وكان يقضي نهاره في العبادة، وسماع العلماء الذين كانوا يدرسون مؤلفات سحنون والقابسي وابن أبي زيد القيرواني وغيرهم





ونجد في المعيارللونشريسي خبرا حول مجلس من المجالس العلمية التي كانت تعقد في سطوح الجامع الذي أسسه عقبة بن نافع ونورده فيما يلي. (المعيار المعرب : 148).

«قيل : لمَّا ذُكر الشيخ أبو الحسن العبدلي في مجلس السلطان أبي الحسن المريني بخير وصلاح، قال : ياكل من مال أهل إفريقية؟ قالوا له : نعم، قال : لم يكن عند هذا ورع بل الورع ما كان عند هذا وأشار إلى الشيخ أبي القاسم السيوري[1] وكان مشرفا عليه من سور القيروان حين كان مَحْصُوراً بها. قال : هذا الذي تخلَّى عن مال إفريقية حين كثر فيها الحرام من الفتنة حتى لا يأكل إلا من الوحش ويلبس من جلده ولا يكتب ما يحتاج من الوثائق إلا في رق قديم يعرف أصله من كسب طيب.» ويقول شاعرنا إن أبا الحسن كان حين يمسه القنوط، يصعد إلى صومعة الجامع الكبير، وينظر يمينا وشمالا، فلا يرى إلا سيوفا تلمع كالنجوم، وخياما تحيط بالبلد إحاطة السوار بالمعصم، فإذاجاء الليل بدت مواقدالأعراب، وكأنها بحر من النيران، أمافي الصبح فتضج مضاربهم بالرغاء لابنداء الأذان، وذلك لأنهم لا يؤدُّون الصلاة. وعند ذلك يناجي أبو الحسن ربه، ويتوسل إليه، معددا أعماله الحسنة، ونواياه الطيبة، ويستجاب دعاؤه، وتنفرج كربته، «ويفترق أمر الكعوب» فيخرج إلى مدينة سوسة، ومنها يركب أسطوله إلى تونس، فيدخلها ويصلح أسوارها ويقيم تحصينها الذي ثبت لها من بعد، كما يقول ابن خلدون[2].

ووصف الشاعر بعد هذا حملات الأعراب على تونس وكيف صدوا عنها المرة تلو المرة، كما أشار إلى كارثة الأسطول أو «رزية المنار» كما

1ـ العبر 7 : 574.

2ـ هو عبد الخالق بن عبد الوارث القيرواني المعروف بالسيوري وضريحه قريب من الجامع انظر ترجمته في ترتيب المدارك 8 : 65 ـ 66 معالم الإيمان3 :181ـ 184.





سماها، وذلك بعد خروج أبي الحسن من تونس. وقد ذكر هذه الحادثة باقتضاب شديد، وعبر عنها في شئ من الرمز والإيماء حين قال مخاطبا أبا الحسن :

أَمَارا قَلْبَكَ أَمْرينى منْ نارْ وما جرع من سُموم ومنْ عَلْقَمْ

إذا خابوا يو م رزّت لَمْنَارْ رَشَقو سهم أو هجَمْ عليه أَرْقَمْ

قلْ لي : ذل العزيز وماتو الاحرار وَالهمه بّحرَ وِاي بحر عام

ثم يشير ـ فيما يبدو ـ إلى حالة القلق والتوقع المزعج قبل موت أبي الحسن في جبل هنتاته وكان المغرب كمرجل يغلى أو كما قال :

فُرْنَا يَحْمى عَلَى خَشبَه خَضْرَا مَالُو مَنْفَس للنَّار وَلاَ دُخَانْ

هذا هو المحتوى التاريخي في القصيدة، ومعظم ما ذكرته إنما هو نثر لشعرها، وحلٌّ لنظمها، وهو كما رأينا محتوى تاريخي واقعي، يتفق في مجمله مع أهم المصادر المعاصرة للأحداث، كالعبر لابن خلدون، والمسند لابن مرزوق، وبغية الرواد ليحي بن خلدون، وتنفرد الملعبة بروايات تاريخية لا توجد في غيرها.

إن مجال القول في تحليل هذا المضمون يمكن أن يكون ذا سعة، فهو مضمون غني يعكس وعيا مغربيا شعبيًّا عميقا، ونضجاسياسيا عاليا، وتتبعا دقيقا للأحداث، والملعبة كما رأينا من خلاصتها تقدم إشارات عديدة، حول دواعي حركة أبي الحسن المريني إلى إفريقية، وشرعيتها الدينية والمدنية والتاريخية والعائلية واختلاف الآراء في القيام بها، وأسباب فشلها المختلفة، ومظاهر نتائجها الإيجابية والسلبية.





أما دواعي الحركة فمنها ما يستند إلى الشرعية الدينية وعد منها الشاعر :

- تمهيد طريق الحج، كي يستطيع الحاج المغربي أن يذهب لأداء فريضة الحج، ويعود سالما، دون أن يعترض سبيله أحد، أو يؤدي خفارة لمجير.

- تغيير المنكر، والقضاء على مظاهر الفساد والانحلال التي كانت متفشية في بعض حواضر إفريقية، كشرب الخمر والحشيش وغيرهما.

- جمع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم والقضاء على التنابذ والتناحر، كي يتفرغ الناس إلى الجهاد في الأندلس، والدفاع عن الإسلام فيها، ولاسيما بعد ما وقع في طريف والجزيرة الخضراء. ومنها ما يعتمد على الشرعية المدنية مثل :

- رفع الظلم عن المظلومين والمسجونين بغير حق.

- رفع المكس والضرائب الجائرة.

- منع الوسق والتصدير إلى ديار الكفر.

- نشرالأمن في الطرق حتى تسير فيها المراة بحليها وذهبها دون أن يعترضها أحد.

- نشر العلم وتعميمه في مراكز إفريقية الثقافية، بواسطة العدد الكبير من كبارالعلماء الذين ساروا في «الحركة»، وقد تحدث الشاعر عن مجالسهم العلمية في القيروان، كما تحدث ابن خلدون عن نشاطهم العلمي في تونس، وكان هو نفسه ثمرة من ثمار غرسهم كما ذكرنا آنفًا.





- محاولة تطويع البدو في إفريقية، بسلوك سياسة تجعل منهم عنصرا مندمجا في الجماعة، لا عنصرا يسلك سبيل الفوضى والتخريب[1]، ولعل أبا الحسن فكر في شغلهم بالجهاد في الاندلس كما فعل عبد المومن ولكن الوقت لم يسمح له بذلك.

وترتكز الشرعية التاريخية عل أهلية بني مرين لقيادة زناتة، كما تستند إلى ميراث المرابطين والموحدين، ومن المعروف أن الحفصيين لم يكونوا سوى فرع من الموحدين انفصلوا عن الدولة المركزية في المغرب وأن بني عبد الواد من قبيل زناتة التي كانت زعامتها إلى المرينيين.

أما الشرعية العائلية فهي تتوسلُ بوسائل المصاهرة والوصاية على أولاد الصّهر الراحل وإصلاح ذات البين بينهم.

وقد تأكدت هذه الدواعي بوفادة رجال الدولة الحفصية، وشيوخ القبائل العربية، وكبارالعلماء على أبي الحسن، واستدعائهم له، وإصفاقهم بعد ذلك على بيعته، وتمسكهم بهذه البيعة خلال محاصرة القيروان[2].

1ـ اتفقت جميع المصادر التاريخية على الطابع الفوضوي لهؤلاء البدو في افريقية والمغرب، ومزيتهم الوحيدة هي تعريب المناطق التي حلوا بها ويقول ابن خلدون في سياسة أبي الحسن مع البدو» وحين راى اعتزازهم على الدولة وكثرة ما اقطعتهم من الضواحي ثم من الأمصار نكره وأدالهم بأعطيات فرضها لهم في الديوان، واستكثر جباياتهم فنقصهم الكثير منها وشكت إليه الرعية من البدو ماينالونهم به من الظلامات والجور بفرض الاتاوة التي يسمونها الخفارة فقبض ايديهم عنها، وأوعز إلى الرعايا بمنعهم منها»، وكان في هذه السياسة الخير لو نجحت ولكن شاء الله ان تفشل ويزداد البدو بعد ذلك عتوا وعلوا.

2ـ ذكر البناهي في المرقبة العليا 161 ـ 162 انه «لما تغلب الشيخ أبو محمد عبد الله بن تافراجين على مدينةتونس دون قصبتها عند خروج السلطان ابي الحسن أمير المسلمين عنها، بقصد مدافعة وفود العرب العادية على أرضها فهزمت جيوشه واستقر هوومن بقي معه من جنده محصورا بداخل القيروان، فجاء في أثناء ذلك يوم الجمعة، فقال المتغلب على الأمرللخطيب بالمسجد الجامع بتونس، اخطب بدعوة الأميرأبي العباس بن أبي دبوس من الموحدين، وكان في المسجد القاضي ابن عبد السلام، فقال و السلطان المريني، فراجعه الشيخ ابن تافراجين بأنه في حكم الحصار داخل القيروان بحيث لا يستطيع الدفا ع عن نفسه، قال فتلزم إذا مناصرته والعمل على الوفاء بما شرط له عند مبايعته، فرد عليه ابن تافراجين بأن الأخبار تواترت بعد ذلك بتلفه وانتزا ع ملكه، فقام الخطيب وقال على تقدير





وهذه الدواعي هي نفس الدواعي التي يذكرها ابن الحاج النُّمَيْرِي حين يتحدث عن أهداف حركة أبي عنان إلى إفريقية (تونس) التي تلت حركة والده قائلا:

و«أعلم أن المراد أن تجتمع كلمة الاسلام، وتَلْتَئِمَ أحزابها أحسن الالتئام، وتُخَلَّى الدواعي لجهاد عبدة الأصنام، ويُستطاع السبيل لحج بيت الله الحرام، وزيارة سيدنا ومولانا محمد عليه الصلاة وأزكي السلام، وينحسم داء الفتنة، وينقضي أمد المحنة، ويمحو العدل الفساد، ويرتفع الظلم الذي اغتر به اللئيم فساد»[1].

ورغم الحيثيات المذكورة فقد وجد من اشارعلى السلطان بعدم القيام بهذه الحركة. وقد سمى الشاعر زعيم هذا الاتجاه عيسى بن الحسن مستشار الدولة، وكان الشاعر نفسه من اصحاب هذا الاتجاه، ولذلك انتقد «الحركة» مرارا في ملعبته، ولكنه يمزج الانتقاد بالتحسر والتفجع، كما ذكر ما كان يتوقعه المنجمون والعرافون واصحاب الأجفار لهذه «الحركة».

أما أسباب النكسة فقد شرحها الشاعرشرح العارف بأسرارها، الملم بأطوارها، كما يبدو من العرض السابق لمحتوى الملعبة، ولعل من أهم اسبابها - علاوة علي خيانة بني عبد الواد وتخاذل الجيش - الخطأ «التكتيكي» الذي ارتكبه أبو الحسن بمتابعة الأعراب في الصحراء، وهذا ما تجنبه أبوعنان في حملته علي إفريقية، فقد كان يري - عند ما يفر

= صحة هذا النقل الفرع زال بزوال الأصل، انظروا مايصلح بكم لخطبتكم، وارتفعت الأصوات والمراجعات فقطع القاضي الكلام بمبادرته إلى الخروج وهو يقول لم يتبث لدينا ما يوجب العدول عن طاعة السلطان أبي الحسن، واستصحاب الحال حجة لنا أو علينا وقد نقل البناهي ما ذكره عن غيرواحد من الثقات ومنهم ابن خلدون الذي شهد هذا الموقف.


1ـ فيض العباب 58 نشر د.محمد ابن شقرون.





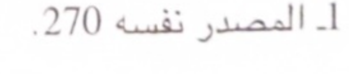
الأعراب أمام جيشه إلى الصحراء «أن اتباعهم في البيد التي لا ماء فيها ولاظل والصحاري المتوغلة التي لا مهيب بها ولامهل، ضائر بالجيوش التي كثر كُراعها، وملأ الارض أتباعُها، وكلت عن الاستقلال بهم أبصار الْآفاق وأسماعها »[1] .

وثمة أدبيات تنسب بعض ما حصل لهذا السلطان المجاهد إلى العين، فقد ذكرالأبي في شرح صحيح مسلم «أن رجلاً كان بتلك الديار معروفا بإصابة العين، فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبي الحسن أن يصيب أساطيله بالعين، وكانت كثيرة نحو الستمائة فنظر إليها الرجل العائن، فكان غرقها بقدرة الله الذي يفعل ما يشاء» (الأبي ونفح الطيب 6 : 216) و (الاستقصا 3 : 117) ونسب ابن الخطيب بعض ذلك إلى وزير بني الاحمر ابن كماشة المشئوم في نظره فقال من قصيدة في هجائه :

إن سَرى في رسَالَةٍ قُرِنَتْ بِالنَّـ ـحسِ منها الآمالُ والأسفارُ
جاءَ فيها الأميرَ يوم طـريفٍ فاستَبَاحَتْ حَرِيمَهَ الكفَّـارُ
ثم في القيروانِ عَاد فكان الشـ ـؤم مُسْتَصْحِباً لـه وَالْـفِـرَارُ

ذكرنا هذه الابيات علي سبيل الاستئناس، وإلا فالأسباب التاريخية الموضوعية هي التي أشرنا إليها قبل ويضاف إليها تخاذل من تركهم أبو الحسن في المغرب عن نصرته ونجدته لأسباب معروفة.

لقد اشبهت «وقعة القيروان» على أبي الحسن - في مجري أحداثها- وقعة عمرة علي الموحدين سنة 583هـ، مع فارق واحد هو ان يعقوب المنصورلم يقُد معركة عمرة بنفسه، بل ظل في تونس، فكانت له الكرة



1ـ المصدر نفسه 270.





على البدو، وعلى من يحركهم، ولو أن أبا الحسن سلك مسلك المنصور لتغير مجرى الأحداث، ولكنه لشجاعته المثالية، وروحه الجهادية، كان يأبي إلا أن يباشر القتال بنفسه، فحصل له ما حصل في كائنة طريف وكائنة القيروان، وعلى كل حال فقد تكون الظروف مختلفة، ثم إن الاقدار نافذة.

ومن مظاهر التشابه بين الوقعتين أنه «لما جري بفحص عمرة ما جرى من فشل الموحدين، وصرخ الشيطان بظهور المارقين خبثت سرائر الحاسدين، وبدا على ألسنتهم ما أصروا عليه من النفاق على تراخي السنين» (البيان المغرب الموحدي : 198) وقد نكب المنصور عمه السيد أبا إسحاق الذي كان يطعن في آراء المنصور في تلك الحركة ويضعفها بحجج ضعيفة سخيفة ونكب بسبب ذلك ايضا أبا حفص الرشيد وأبا الربيع سليمان.أما مصائب أبي الحسن المريني بعد هزيمته في القيروان فقد جاءته من أقرب الناس إليه وكانت صرخةالشيطان عليه أقوى من التي ذكرت آنفا يقول الكفيف :

وكان إبليس صَرَخَ بذا الكسرا ناقوسُ في البحر وكان رنَّانْ
وعلت منها المغاربة حُقْرا لا غربي تفرُّ عن أَسْنَانْ

ولايخلو الأمر كذلك من عوامل خارجية، فقد بدا من إيواء المماليك في مصر لابن تافراجين أنهم لم يكونوا في قرارة أنفسهم، راضين عن امتداد سلطان أبي الحسن إلي حدود بلادهم، وذلك برغم الهدايا الفخمة التي وجهها إليهم، وكأنهم نفسوا عليه توحيد المغرب تحت حكمه، في الوقت الذي كانوا هم يجمعون فيه بين مصر والشام والحجاز.





كما أن حفيد آخر خلفاء الموحّدين أحمد بن أبي دبوس، صنيعة البدو، هو ولد عثمان ابن أبي دبوس الذي كان لاجئا عند كونت برشلونة فسرّحه إلى مناطق البدو بضواحي طرابلس، وأمده باسطول لاثارة الفتنة في هذه المنطقة، ولايستبعد أن يكون ولده المذكور قد ظل على صلة ما بصاحب برشلونة وأرغون حيث كان يوجد أبناء عمه «السويّد» المتنصّر أبي زيد[1].

ومهما يكن الأمر فلم تخل حركة أبي الحسن من نتائج إيجابية تمثلت في إعادة وحدة المغرب الكبير، ولو لفترة قصيرة، وظهر أثرها مع ذلك في بعض المظاهر العلمية والعمرانية، ولكن نتائجها السلبية كانت كثيرة، وأخطرها زعزعة بنيان الدولة الذي ظهرت آثاره في الفترات اللاحقة.

إن ملعبة «الكفيف» التي ننشرهااليوم و«فيض العباب» لابن الحاج التي نشرت أخيرا، تقدمان مادة تفيد في دراسة طبيعة التجارب الوحدوية المرينية وظروفها العامة، ومن شأن هذا كله أن يضع هذه التجارب في إطارها التاريخي الصحيح.

وقد تساءل الاستاذ محمد القبلي في بحث له حول الموضوع[2] عن الإطار الذي أنجزت فيه هذه التجارب وذكر أن الرأي السائد أنها أنجزت عن طريق السيف والغزو والترهيب، وبالتالي فهي في عمقها مجرد حركات

1ـ العبر 7: 572 وهذا الأسلوب كان من المبادئ الثابتة في سياسة ملوك الممالك المسيحية في إسبانيا يقول المقري «وكان طاغية النصارى الملعون لكثرة مامارس من امور الأندلس وسلاطين فاس كثيرا مايدس لأقارب الملوك القيام على صاحب الأمر، ويزين لهم الثورة ويمدهم بالامداد بالمال والعدة وقصده بذلك كله توهين المسلمين، وإفساد تدبيرهم، ونسخ الدول بعضها ببعض لماله في ذلك من المصلحة حتى بلغ أبعده الله تعالى من أمله الغاية.» نفح الطيب 4ـ 420.

2ـ انظر «ملاحظات حول التجارب الوحدوية الوسطية ببلاد المغرب الكبير» مجلة كلية الآداب بالرباط ع 9 من ص : 7 إلى ص : 22.





توسعية إن لم تكن إمبرياليه ، ثم عقب علي هذا الرأي بقوله «هذا الرأي السائد لا شعوريا إن صح التعبير يظل سطحيا في نظرنا ذلك لأن القول بالتوسع والاحتلال[2] أو الإمبريالية معناه التلاعب بالاطار الجغرافي، والظرفية التاريخية لهذه التجارب، فالتوسع معناه اختراق الحدود، والامبريالية تفترض الغزو من الخارج، فلنحدد إذن مفهوم الحدود ومفهوم الإطار الجغرافي لدى المعنيين بالامر أي لدى الذين شهدوا ميلاد هذه التجارب وتطورها[3].

وقد انتهى الأستاذ الزميل بعد الدراسة إلى «أن الحركات الوحدوية التي ظهرت بالمغرب الكبير اعتبرت نفسها دائماً كما اعتبرها الأهالي مجرد حركات داخلية أو أهلية أصيلة، ولم تكن في ذهن معاصريها بأجنبية ولادخيلة أو متطفلة، ونستنتج كل هذا من خلال تعامل المعنيين بالأمر مع المجال المغربي وحدوده ومحتواه البشري[4]».

وهذا الكلام يجد مصداقيته لدي المؤرخ التونسي النَّشأة ابن خلدون والمورخ التلمساني البلدة ابن مرزوق، فهما يؤرخان هذه الاحداث بروح مغربية خالية من مظاهر العصبية الضيقة والبلدية المحلية [5].

1ـ اقرا الفصل الذي عنوانه : Echec à l idee Imperiale من تاريخ المغرب للأستاذ عبد الله العروي من ص : 186 إلى ص : 206.

2ـ اقحم محقق كتاب الزركشي عنوان الاحتلال المريني، واقحام هذا العنوان الدخيل على الكتاب يجافي الأمانة العلمية التي تقتضي المحافظة على وضع الكتاب كماتركه مؤلفه.

3ـ المقال المذكور اعلاه. مجلة كلية الآداب بالرباط ع.9 ص : 9.

4ـ المصدر المذكورنفسه ص :12.

5ـ اذا كان عبد الرحملن ابن خلدون وابن مرزوق وابن الخطيب يمثلون سعة الأفق وبعد النظر فان يحيى ابن خلدون في بغية الرواد وابن قنفد في الفارسية وامثالهما شغلوا بالحساسيات البلدية الضيقة، وكتبوا حسب مصالحهم الشخصية وما يرضي مخدوميهم.





- 3 -

الشكل

إن ملعبة الكفيف الزرهوني التي هي أطول الأزجال المغربية المعروفة على الاطلاق، تعد المثال الوحيد الذي وصل إلينا من فن «الملاعب»، ويمكن القول ايضا انها - كسيرة شعبية منظومة معلومة المؤلف - تمثل نموذجا فريدا بين السيرالشعبية، إذ ان هذه السير كما نعلم نثرية البناء، مجهولة المؤلف.

وهي في الأخير وثيقة لغوية عظيمة الفائدة، في دراسة العامية المغربية القديمة على العموم وفي عصربني مرين على الخصوص.

ومن هذا كله تتجلى القيمة المركبة لهذه الملعبة الفريدة من حيث الشكل علاوة على قيمتها الكبرى من حيث الموضوع كما رأينا، وسنحاول النظرفي شكل الملعبة من النواحي المذكورة أي من حيث انتماؤها إلى الملاحم، وتمثيلها لفن الملاعب، وقيمتها اللغوية.

أ ـ الطابع الملحمي

لا تندرج ملعبة الكفيف من حيث الشكل في جنس المنظومات التاريخية المعروفة، بالرغم مما رأيناه من محتواها التاريخي الواقعي، وهي من حيث البناء، وأسلوب السرد، وظهور العاطفة، أقرب إلى جنس السير والملاحم الشعرية، إذ أن خصائص الملحمة وسماتهاالعامة بارزة بروزا قويا في ملعبة الكفيف، فهي شعر طويل النفس، يحفل بالسرد القصصي ذي الطابع الملحمي، وفيها مقاطع تصور الوقائع والمعارك، وهي تنضح بالغيرة الوطنية، كما أنها مزدحمة بأسماء الأعلام الذين اشتركوا في



الأحداث، والأماكن التي جرت فيها تلك الأحداث، ولانريد أن نطيل في تحليل هذه المظاهر، ولافي التماس الأمثلة لها من الملعبة، فهي بين يدي القارئ، وسنكتفي بإبراز أبيات من القسم الذي يذكر فيه الشاعر واقعة الأعراب مع أبي الحسن بالقيروان، وفي هذا القسم يقص في تسلسل منطقي محكم أسباب الواقعة، وصورتها ونهايتها، ومما جاء في وصف المعركة من هذا القسم :

وخرج لهم بولحسَن على عسكرْ　　في ثمانين ألف خَيْلْ مقداما
وتقدَّم في المقدمة النَاصـرْ　　والعَسْري ليثها وقمقامـا
جازوا القرْوان بيوم وقيل أكثَرْ　　واعترض لهم نهر يَقْطَع القاما
والطّين به قد بلَغَ إلى الـثَّغْراَ　　قطع العوام واثقف الخوضان
والواد بينم ولاالـزبَّـراَ　　والعُرْبان أقبلت ولاَ الغِرْبَان
اقْتَتَلوا القوم فوق ذاك الـواد　　اعْرَب والروم وغُزْ وَزْنَـاتَا
وابن احياتن عمل ولا المقْداد　　وقصد في الخيل قصد لَفْتَاتَا
طعنوا طعنا ولا انقضى الميعاد　　والعربان تكْنَفُو برايـاتـا
وانهزموا وحرفوا الخيمات لَوْرَاَ　　يحاموا بالسيف عن تيسدْنانْ
ماتشهيكّْ غير براقع العَـذْرا　　كف تسقط مع عمايم الفرسان
قالوا لو تبعهم في ذاك اليـوم　　ما كان يَتْرك نجيب يُجْري نجيب
نزل القيروان بجيشه المـرْكوم　　ودحا العَسْري ورا العربي كالديب
فاذا لحقم وحركْ لُمْ تقـوم　　وتحمى النار بين شاشية وقْطيب



صاحت في هوادجاً بنات عذرا يالهلال يالكوكبا غسان
مازال حتي كسرم ثلاث مرات لاكن إذا بلغ القباب ردوه
والكسر الرابعة عليه جرات وفذيك الرابعه العرب محنوه
تر بالناصر أشهر الرايات وحلف باللازم وشيبت بوه
لاولى لهم ظهر ولا فرا لوتلقح في الرمان أعواد الزان
وافعل فعل الأسد اذا هرا عند اللبوه وكشط الاسنان
قاسي الناصر وخاه حروب داحس لولا الياقوت صبرو كثير للنار
تنظر للقوس عطلو الفارس بعد أن كان مثل بودبا الطيار
ورشاش الدم في الوغى الداحس ينضح في هوادج الحور الابكار
وعجوز الحي تفسخ الظفرا ومرت بنا تسيل انزران
وتقول لا انظر من البجات نظرا وحيا العرام وشد كل جبان
مدوا القطعان وشرعوا الرايات وزناتة عاكفين على التعريف
اذا هزوا اللمط في الوغى ودوات غرد فيها الوتر وغنى السيف
والناصر ردها اذا هى جات إذا هزم الريف يرجع عليه نا الريف





ولقد جرت عادة أصحاب السير الشعبية أن يجروا الشعر على ألسنة أبطالهم في المفاخرة بشجاعتهم، واستنفارالناس لنصرتهم، وفي النص الذي سقناه، أمثلة من ذلك.

ومن سمات السيرة الشعبية التي نجدها في ملعبة الكفيف سمة المناجاة، يقول الدكتور عبد الحميد يونس في تحليله لأسلوب السيرة الظاهرية : «وقد وجد أصحاب السيرة على الأيام أن الشعر هو أصلح وسائل التعبير عن المناجاة فأرسلوه على ألسنة أبطالهم، يظهرون به مكنونات أنفسهم ونجوى ضمائرهم، يتضرعون إلى الله أن يجعل لهم من بعد ضيقهم فرجا»[1] وهذا مانجده كذلك في الملعبة، ومن أمثلة ذلك مناجاة السلطان أبي الحسن أثناء حصار القيروان التي يقول فيها :

يقول ياخالق الجميعْ مِن ما   أنت أملي والرقيبْ على قَلْبي
تعلَم ما كان مجيئي لذا الأُمَّا   لا من ظلْمي لها ولاغَضبي
الاَّ غيرت منكراً جمَّا   فيها بشريعة النبي العربي
صبت ظلماً وبحر من خمَرْا   من حد افريقية لَمزَغْنَانْ
وطريق الحَج عطلوه والسَّحْرا   تحلْب فيها مصارن الرُكْبانْ
يارب كنت خذت عبد الواد   وفنيت سلطانهم على حُجَّا
كان يأتي الحجيج بالرحيلْ والزاد   ويَّردو قبل يعقد الحَجَّا
مع ما كان جري من شراب وفساد   والمسجون يسجن أربعين الحِجَّا
ولقد صبنا في قبة الحَمْرا   ناعورا من خمر لها جريان

---

1. الظاهر بيبرس في القصص الشعبي 105 المكتبة الثقافية 3.





ما عطل حركتا وَلاَكَسْرا إلاَّ سَيْفي وعونك أرحمان
مات بوتاشفين بما جرت به الاقلام وتعففنا عن القبيل قاطب
بعد عداوة مية وخمسين عامْ ما سبينا فيها لاَمْرَا ولاكَاعبْ
والتدوين مع بني مرين في زمام والاحسان والبلَدْ مع الراتبْ
جَازوا من حَرْزَمْ من الشفرا أَرَبِّي بالجفا وبالهَجْران
أما تونس عصابة التوحيد أنت أَعْلَمْ بي وبهم أقيَّومْ
شاركتم في الدم قديم وجديد وفنيت جيشي في نصرتم اليوم
ولنا عامْ نقطع لهم البيد كي نَرْفع ظلمهم على المظلوم
لَمَّا أرسينا بتونس الغَرَّا وجدنا المنكَرْ فيها على الحيطان
والنسْوان يشربو بلا سترا والمعْلوم يشتري من الدكان
جيثْ نتقدم لهم على الجملا ونخل البحربينهم مَخْلُوطْ
والْتَزَموا شيوخ منهم فضلا قالوا يدك في أرضنا مبسوطْ
مهما تعطي الظهر وتتولا عاد المزماريكون فيها والروط
ماتْ مولاها ما كان يري قُطْرَا مع ما كان معتكف على البيجانْ
وإن وليت عنا ولونزرا خاصمناك عند سيد الثقلان
أما عُرْبان إفريقية تَعْلَم أربَّ ما جرت به الاقلامْ
عاينت المعصية صحيح عنْدَمْ وأموال الحاج بالصَّحيحْ تُغْنَمْ
أَقوام تعطى السلم على المَسْلَم ياتي بحُجَّة الاسلام



إِكَان جفْتَ بني مـرين مَـرّاً أرب ماعلمت لم بهتـان
مزغـدان قطعت والسخرا والديه والخطا ودار الاخزان
نقِّت ماطقت من مكْس ومروسْ عَنْ عربي و مقيْطن او حوَزي
وقَطَعَتْ الوسق من هنا للسُّوسْ في الماعون لكل كافرمَخْزي
وإذا فرجت عن ذا المَحْبُوس التخريص نقطعو مع ازرزي
ونـرد الفيـل تقوده الـذرَّاً بأحكامي والدياب مع الخرفانْ
حتي يسمع في كل سوق يُقرّاً أحـكـام عبد العزيز بن مـروان
ضعف الدين واستحالت النيِّاَ يـارب والعدل بقى فـردي
بركه من دم رجعت الدنـيـا ومتـى نقدرنطـهرا وحدي
واليوم الاعمش في حضرة العميا يتكني بوضيا وبومهـدي
وذنوبنا ماترفعا إيـــرا لكن جودك وحلمك أمـنـان
إن لم تنصر علَي في ذا الحسرا لايعقوب ينصرو ولاعثمان

وإذا كانت الملعبة تنتمي بهذه السِّمات - التي ذكرناها باختصار - إلى السِّير والملاحم الشعبية - فإنها باعتبار آخر - تدوين لحركة أبي الحسن المريني من تلمسان إلى القيروان، ولهذا نجد ابن خلدون يقول «إن الشاعر أخد في ترحيل السلطان وجيوشه إلى آخررحلته» ولسنا نعرف هل دُونت هذه الحركة من قبل أحد الكتاب، مثلما هو الشأن في حركة أبي عنان الذي سلك فيها تقريبا مسالك أبيه نفسها، ورمي إلى مثل مقاصده، وأراد مضاهاة والده والتظاهر بتأديب المتظافرين على إفشال



حركته، وهيهات هيهات، من تدارك ما فات، ولمثله يقال في السر والعلن، الصيف ضيعت اللبن.

ب ـ البناء العروضي

أطلق ابن خلدون على قصيدة الكفيف اسم «الملعبة» و ذكر أنها صنف من فن زجلي ظهر في الأمصار المغربية يدعى «عروض البلد» وهو يُعَرِّف بهذاالفن في المقدمة قائلا :

«ثمَّ استحدث أهل الامصاربالمغرب فنا آخرمن الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح، نظموافيه بلغتهم الحضرية أيضا، وسموه عروض البلد، وكان أول من استحدثه منهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يُعرف بابن عُمَيْر، فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب... فاستحسنه أهل فاس، وولعوا به، ونظمواعلى طريقته، وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم، وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه الكثيرمنهم، ونوعوه أصنافا إلى المزدوج والكازي والملعبة والغزل، واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها»[1].

وقد ورد ذكر أبي بكريحيي بن عميرالمغربي هكذا عند مؤلف آخر من أهل القرن الثامن الهجري أيضا وهو صفي الدين الحلي[2]، وأغلب الظن أنه هو المذكور في المقدمة.

أما ابن سعيد الذي أرخ في كتابه «المقتطف»[3] للموشحات والأزجال،

1ـ المقدمة 1467ـ 1468.

2ـ العاطل الحالي 32 35 52 56 70.(35) نشرت منه «الخميلة الثانية عشرة المشتملة على ملح الموشحات والأزجال» بتحقيق المرحوم الدكتور عبد العزيز الأهواني في «أعمال مهرجان ابن خلدون» من ص 476 إلى487 ثم نشر كله بعد ذلك الدكتور سيد حنفي.

3ـ نشرت منه «الخميلة الثانية عشرة المشتملة على ملح الموشحات والأزجال» بتحقيق المرحوم الدكتور عبد العزيز الأهواني في «أعمال مهرجان ابن خلدون» من ص 476 إلى487 ثم نشر كله بعد ذلك الدكتور سيد حنفي.





حتى منتصف القرن السابع الهجري، فلم يشر إلى «عروض البلد»، ولم يذكْرمخترعه ابن عمير، وهذا يحملنا على الظن أنه ظهر بعد التاريخ المذكور أي في أواخرالقرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري ويفهم من كلام ابن خلدون أن الملعبة هي من أصناف عروض البلد الذي اخترعه ابن عمير وهو كلام فيه نظر ويحتاج إلى نقاش، ذلك أننا نجد إسم الملعبة في نصوص أندلسية متعددة يرقى بعضها إلى أوائل النّصف الأول من القرن الثالث الهجري، فقد ذكر المؤرخ ابن حيان في المقتبس (2 : 194) أن الوزير الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث المتوفى سنة 209هـ كانت له «مكاتبات بالشعر حسنة وقطع رائقة في أفانينه مستجادة» ثم قال : «وكان أخوه أحمد بن عبد الواحد بن مغيث أغزر منه شعرا وأكثر في أبوابه تصرّفا وإليه تنسب الملعبة التي أولها :

ألاَ رُبَّ نَهدٍ رائعٍ قدْ علوتُهُ

وهي مشهورة أحاقت بقائلها الإقصاء وأكسبته التهمة». ولا يعرف الآن شيء عن هذه الملعبة وصاحبها، وفي القرن الرابع الهجري أطلقت «الملعبات» على قصائد لشعراء أندلسيين منهم يوسف الرمادي الذي يفتخر بملعبة له فيقول :

وملعبةٍ أحكمتها في كمالها لقافية أطلقتها من عقالها
فدونكها كالدر عند اتصالها كسوتك منها جوهرا بارتجالها

وهل جوهر يكسى ثياب الجواهر[1]

---

1. عروض القللوسي ـ مخطوط خ .ع.ر. ص 7.





ومنهم أبوحفص أحمد ابن برد الذي يقول من ملعبة له :

أقرطبة هل لي إليك اياب وهل لي علي حر المصاب ثواب
لَئِنْ فَلَّ حدي من فراقك ناب وسد لعيني دون وصلك باب

فقد تفتح الأبواب من حيث تقفل

ولأبي عبد الله بن أبي الخصال ملعبتان : واحدة يندب فيها معاهد قرطبة والزهراء، وأولها :

سمت لهم بالغور والشملُ جامع بروق بأعلام العذيب لوامع
فباحتْ بأسرارِ القلوب المدامع ورب غرام لم تنله المسامع

اذاع به مرفضها المتصوب[1].

والثانية قالها في الامير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وقد بناها على بائية أبي تمام وأولها :

الحمد لله أضحى الدين معتليا وبات سيف الهدى الظمآن قد رويا
إن كنت ترتاح للأمر الذي قضيا فسله نشراً ودع عنك الذي طويا

فالسيف أصدق أنباء من الكتب

وهذه الملعبات - كما نرى - من الشعر الفصيح المسمط المخمس، وتسير تقفيته على النحو التالي : أ أ أ أ ب/ ج ج ج ج ب وتستمر هكذا

1. ابن الخصال 512 - 41 والإحاطة 2 - 396 - 403 - ط عبد الله عنان، وفي طبعته تحريف كثير.





ولعلها سميت بالملعبة للتلاعب والتفنن في قوافيها أو لقربها من الملاحم التي هي موضوع الملاعب.

كما نقرأ في توشيع التوشيح للصفدي مانصُّه : «قال الأستاذ الأديب أبو الحسن علي بن سعد الخير رحمه الله من جملة كلام : وجد نا بعض المتأخرين كمهيار الديلمي وأبي محمد القاسم الحريري وغيرهما قد استنبطوا من تلك الأعاريض أقساما مؤلفة على فقر مختلفة وقوافٍ مؤتلفة... وسموها «ملاعب» واستنبط أهل الأندلس ضربا قسموه على أوزان مؤتلفة وألحان مختلفة وسموه موشحا»[1].

وقد ورد مصطلح «الملاعب» أيضاً في كتاب «ريحان الألباب وريعان الشباب» لأبي القاسم محمد بن إبراهيم ابن خيرة المواعيني الاشبيلي المتوفى سنة 564هـ، قال في معرض كلامه عن قسم من الشعر سماه «الوزن المركب» مانصه : «ولعل الملاعب والتواشيح فيما إخال من هذا المقصد المركب»[2].

ويبدو أن هذا الأديب الناقد أطلق الملاعب على عموم الأزجال بدليل اقترانها عنده بالموشحات، وجاءت الكلمة أيضا في كتاب المقتطف لابن سعيد بصيغة الجمع كذلك، قال في آخر حديثه عن الزجّالين المعاصرين له في الأندلس وبلدان المغرب : «واشتهرفي بر العدوة ابن يخلف الجزائري في أزجاله المعروفة بالملاعب[3]» ولعل الملاعب هنا بمعناها الاصطلاحي الخاص الذي هوصنف معين من الأزجال.

1ـ توشيع التوشيح وترجمة ابن سعد الخير في الذيل 5 ـ 187 ـ 191.
2ـ ريحان الألباب ـ 148 مخطوط.
3ـ المقتطف انظر ص : 486 من المصدر السابق.





ومن الملاحظ أن ابن خلدون الذي اعتبر «الملعبة» نوعا من عروض البلد المستحدث استعملها في موضع آخر من المقدمة، للدلالة على قصائد جفرية ملحونة، يتنبأ فيها أصحابها بما يكون في المستقبل، كتَبدّل الدول ووقوع الحروب والملاحم بين الأمم، وقد قيلت قبل ظهور عروض البلد كملعبة اليهودي التي يقول فيها ابن خلدون :

«ومن الملاحم بالمغرب ايضا ملعبة من الشعر الزجلي منسوبة لبعض اليهود ذكر فيها أحكام القرانات لعصره.. وذكر ميتَتَه قتيلا بفاس، كذلك فيما زعموه، وأولها :

صبغ ذا الأزرقْ لس فيه خيارا   فافْهموا ياقوم هذه الاشارا

* * *

نجم زُحَل اخبْر بهذه العلاما   ونبدل الشكْلَ وهي سلهاما

بشاشِية رزقا بدل العماما   وطاشور أزرق بدَل الغِفَارا

* * *

وفي اخرها يقول :

قد تم ذا «التخميس» لانسان يهودي   يصلب علي واد فاس في يوم عيدي

حتي يجيبوه الناس من البوادي   محمول يا قوم علي الغرارا

وأبياتها نحو الخمسمائة وهي في احكام القرانات التي دلت على دولة الموحدين[1]، وهذا اليهودي الذي لم يسمه ابن خلدون، ورد ذكره عند ابن

1ـ المقدمة. والأبيات المذكورة فيها تحريف في جميع نسخ المقدمة، وقد صوبنا بعضه، والشكل = الشكلة أي الشاكلة وهي زي اليهودي الذمي، والسلهام معروف وكذلك الشاشية والعمامة اما الطاشور أو الطشور فهو اسم لرداء معين، والغفارة من أسماء الألبسة عند الاندلسيين وهي تشبه البرنس، انظرقاموس دوزي 2ـ 18 218 والغرارة = الغرارة.





عذاري في البيان المغرب وذلك بمناسبة الحديث عن أمر المنصور بفرض «شكلة اليهود» أي زيهم الخاص قالوا «ولما اتصل الخبر بابن نغرالة اللعين عمل أرجوزته (؟) التي أولها :

لبس الازرق لِسْ فيه خسارا فافهموا ياقوم هذي الاشارا

يذكر فيها نبذا ونكتا من الحدثان، ويتعرض فيها للتفاؤل بهذا للسلطان، وفي اثناء ذلك وعك المنصور وعكه الذي توفي منه رحمه الله، وربما قال اللعين اليهودي أرجوزته (؟) بعد وفاة المنصور، وهو الصحيح.»[1]

ويقول ابن خلدون في ملعبة اخري لمن اسمه «الهوشني» ومن ملاحم المغرب أيضا الملعبة المنسوبة الى الهوشني على لغة العامة في عروض البلد، وأولها :

دَعْنِي يَادَمْعِي الهَتَّانْ فَتْرت الأمطار وَلَمْ تَفْتَرْ
وَنَشَفَتْ كُلْهَا الِويدَانْ وأنت تَمْلأَ وَتَتَغَدَّرْ

* * *

البَلْدَانْ كُلُهَا تَروِي فأوقاتاً مثلمَا تَدْري
وأَنت الصَّيف والشَّتوي وفصل الفَاكي والربيعْ تجري
قالْ حين صَحَّت الدّعْوى دعني نبْكي ومن عُذْري

* * *

أيادبَّر في ذي الأزمانْ ذا القَرْن اشْتَدْ وتَمَرمَرْ

1- البيان المغرب 228 والمشهور بابن النغريلة هو معاصر ابن حزم الذي رد عليه في رسالته، وقد زعم اللعين إنه قادر على ان ينظم جميع القرآن في اشعار وموشحات يغنى بها وتسبب بتحديه المقدسات في نهايته الشنيعة ومذبحة، طائفته بغرناطة أما ابن النغريله هذا المذكورفي البيان المغرب فقد يكون من نسل المذكور أو يكون ابن النغريلة آخر لان كلمة نغريله اونغديله معناها وظيفة من وظائفهم الدينية.



وهي طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الاقصى، والغالب عليها الوضع لأنه لم يصح منها قول إلا على تأويل تحرفهُ العامة أو يجازف فيه من ينتحلها من الخاصة»[1].

نستنتج من هذه النصوص التي تيسر لنا جمعها مايلي :

- **أولا** أن مصطلح الملعبة كان موجوداً قبل «عروض البلد» الذي تحدث عنه ابن خلدون وازدهر في العصر المريني.

- **ثانيا** الملعبة كمفهوم عروضي، لم يتحدث عنها إلاالأندلسيون والمغاربة ولا وجود لها بالمعنى الاصطلاحي في المعاجم اللغوية القديمة، وقد ذكرها دوزي في معجمه، وعرفها بأنها ضرب من الشعر الشعبي، واقتصر على ورودها عند ابن خلدون، وأشار إلى مواضع ورودها في المقدمة.

- **ثالثا** أن الملعبة أطلقت على قصائد متنوعة القوافي.

- **رابعا** أن الملعبة أصبحت في الأخير علما على فن من الشعر الزجلي الذي يدور حول الملاحم في الغالب. والظاهر أنهم آعتبروا في اشتقاق «الملعبة» ملحظين. احدهما اللعب بالقوافي، ولعلّ هذا مايشير اليه ابن رشيق إذ يقول «وبشارابن برد قد كان يصنع المخمسات والمسمطات عبثا واستهانة بالشعر»[2].

وثانيهما أنهم اعتبروا ماسوى الشعر الفصيح أهزالا فقد أشار كل من ابن بسام وابن خير وغيرهما إلى أهزال الشاعر الأندلسي ابن

---

1. المقدمة، ولاتعرف من هو هذا الهوشني كما لا نعرف معنى هذه النسبة.
2. العمدة لابن رشيق 1 : 182.





شخيص[1]، وذكروا في ترجمة ابن خبازة تفننه في أساليب الكلام معربه وهزله[2].

وأشار إبن الخطيب في تراجم ابن باق وأبي الحجاج الطرطوشي وسهل بن مالك إلى كلامهم الهزلي غيرالمعرب[3]، ونجد شيئا من هذا في بعض كتب التراجم والفهارس ولاسيما كتب ابن الأبار وإبن عبد الملك وإبن الزبير وأبي الحسن الرعيني، وكل ذلك يوضح ملحظ الاشتقاق في الملاعب والأهزال.

لقد ضاعت الملاعب التي أشارإليها المواعيني، وكذلك ضاعت ملاعب ابن يخلف الجزائري التي كانت مشهورة في بر العدوة كما يقول ابن سعيد، وضاعت أيضا ملعبة الهوشني، وملعبة اليهودي الفاسي، وضاعت أخيرا الملاعب التونسية التي وردت الاشارة اليها في مقدمة ابن خلدون، ولم يصل الينا من هذه الملاعب كلها الا ملعبة الكفيف الزرهوني، ومن هنا فإنها تعتبر مثالا فريداً لتبين البنية الشعرية للملعبة، بإعتبارها نوعاً من فن عروض البلد، وقد أشار إبن خلدون إلى بعض الملامح الشكلية لهذا الفن، وأهمها :

- مجيئه في أعاريض مزدوجة أي أنه مُقَيَّدٌ بالتقفيه في جميع الأشطار.

- شبهه للموشح التام في كونه يتركب من أقفال وأبيات تتعاقب من البداية إلى النهاية مع ثبوت القافية في الأقفال وتغيرها في الأبيات.

وهذا مانجده في ملعبة الكفيف وفي مزدوجات إبن شجاع التازي، فإنها كلها تحاكي - من حيث البناء، لا من حيث الإعراب طبعا - الموشح التام

---

1. الذخيرة وفهرست ابن خير.
2. الذيل والتكملة 8 - 388.
3. انظر تراجمهم في الاحاطة.





في نظمه الغالب الذي يمثله موشح إبن سهل «هل دري ظبي الحمي» وما جري مجراه كموشح إبن الخطيب «جادك الغيث» وغيره، ويتجلي الشبه الشكلي لملعبتنا بهذه الموشحات في كونها تتألّف من أدوار وفي كل دور عشرة أشطار وتسير تقفيتها على النحو التالي :

أب أب/ ج د ج د ج د//أب أب/هـ وهـ وهـ و... وتستمر هكذا

وقد توقفنا عن الخوض في عروض الملعَبة وبحرها أو ميزانها لانه لم يصل إلينا شيء نرجع إليه في عروض البلد فلا نعرف ما هو ولانعرف هل له علاقة بعروض الخليل أم لاوهل تعدالملعبة من قبيل الزجل أم أنها تعد من الملحون، وقد كان الاستاذ محمد الفاسي لما قرأ هذه الملعبة وقطع مطلعها قال لي : أنها من الميزان المسمَّى المبيت واعتبرها فتحا عظيما فقد كان المعروف أن الملحون لم يظهرإلا في العصر السعدي وذهب الاستاذ إميليو غرسية غومث ـ الذي ترجم الملعبة بعد أن نشرتها ـ إلى تسميتها بالزجل الكبير وهو ينفي أي صلة للزجل بعروض الخليل ويربطه بالعروض الإسباني الذي يقوم على أساس النبرات والمقاطع وقد ذهب إلى أن ملعبة الكفيف متعددة الايقاعات Polirrtmico وقد طبق هذا في أزجال ابن قزمان وخالفه في هذا عدد من الباحثين ومنهم الأستاذ فدريكو كورينت.

تتميز الملعبة ـ من حيث الشكل دائماً ـ بهذا الطول الذي يسلكها في عداد الملاحم. إذ أن ملعبة اليهودي الفاسي وملعبة الكفيف الزرهوني تقعان في نحو الخمسمائة بيت، وملعبة الكفيف ـ من جهة أخرى ـ تترسم القصيدة العربية من حيث براعةالاستهلال، وحسن التخلص أو الخروج، وبراعة الاختتام، وتشبيه القصيدة بالخريدة، وإهداؤها إلى الممدوح.

كما تتميز بالاستفتاح بالتصلية على الرسول، والترضية عن الخلفاء الراشدين، والعشرة المبشرين بالجنة، وهي تختتم بمثل ذلك وبالترحم





على الشيخ وكذلك باستعمال كلمة ترمز إلى تاريخ النظم واستعارة المطلع أو الخرجة التي نسجت القصيدة على منوالها. وقد انتقلت هذه المميزات إلى شعر الملحون الذي ظهرفي مرحلة تالية.

جـ. اللــغــة

يرى المستعرب الفرنسي كولان[1]، أن جميع الأزجال المغربية التي ترجع إلى ماقبل العصر السعدي، قد نظمت باللهجة الأندلسية التي كانت بفضل أزجال ابن قزمان وغيره لغة الزجل «الكلاسيكية» ويبدو أنه استند في إطلاق هذا الحكم على الأمثلة القليلة، التي ذكرها ابن خلدون. ومع تضلع الأستاذ كولان في اللهجات، وتمرسه بقراءتها ودراستها، فإن حكمه المذكور يظل قابلا للنقاش، فإذا كنا نعرف الكثير عن اللهجة الأندلسية بفضل وفرة نصوصها، فإننا لا نعرف طبيعة العامية المغربية القديمة، ولا مبلغ الفرق بينها وبين عامية الأندلس وهو فرق سجله ابن خلدون عقب سرده أزجال الأندلسيين والمغاربة فقال : «وأعلم أن الذوق في معرفة البلاغة منها (أي من الأزجال) كلها إنما يحصل لمن خالط تلك اللغة، وكثر استعماله لها، ومخاطبته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية، فلا يشعرالأندلسي بالبلاغة التي هي في شعر أهل المغرب، ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمشرق، لأن اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم، وكل واحد منهم مدرك بلاغة لغته وذائق محاسن الشعرمن أهل بلدته[2]». وهذا الذي يقوله ابن خلدون لا ينفى طبعا مستوى الفهم، فقد كانت أزجال ابن قزمان مقروءة في العراق والشام ومصر[3]، وكانت مزدوجات ابن شجاع التازي معاصر الكفيف

1ـ دائرة المعارف الإسلامية مادة المغرب ـ الطبعة الفرنسية الاولى.
2ـ المقدمة 7474ـ1475.
3ـ الزجل في الاندلس للدكتور الاهواني





الزرهوني مروية في الأندلس إلى جانب أزجال مدغليس وابن قزمان والدبَّاغ المالقي[1].

ومهما يكن الأمر فإن ملعبة الكفيف تستعمل فعلاً لغة الزجل الأندلسي، وتشتمل على ألفاظ معروفة في هذه اللغة، ولعلها كانت من الألفاظ المشتركة بين عامية الأندلس وعامية المغرب، فقد ذكر بعضها ابن هشام اللغوي الإشبيلي السبتي في كتابه لحن العامة[2]، وهذه طائفة منها :

- بلج أي أغلق الباب بالبلج أي المغلاق. أنظر رقم 194 وقد وردت في لحن العامة ابن هشام وفي. ALC ص 97 و 40Voc، 521 وسيمونيت ص 438 ودوزي ص : 438، ويقال البلاّج - وجمعه بلاجة أو بلاجين - لصاحب هذه الحرفة، وسوق البلاجين في فاس معروفة إلى اليوم بهذا الإسم. انظر بيوتات فاس 24 دار المنصور.

- ساف، وهو الباشق. أنظر رقم 97 ولحن العامة لابن هشام ودوزي 1 : 703 وماتزال الكلمة مسموعة في بعض المناطق بالمغرب.

- شابل، اسم سمك معروف إلى اليوم في المغرب يصطاد من الأنهار كأبي رقراق في سلا وأم الربيع في أزمور. أنظر رقم 408 وابن هشام، والزجالي 2 : 437،140.

- شاشية، وهي القلنسوة.انظر رقم 225، وابن هشام ص : 122 وص 280 و .ALC ص 17 : 1 ودزوي 802 وهي شائعة في المغرب .

---

1. انظر ازهار الرياض 1 - 123 ووصف افريقيا 2 - 64.
2. انظر ما نشره الدكتور الاهواني في مجلة معهد المخطوطات.





- عاد بمعنى بعد. رقم 170 وقد ذكرها الزبيدي وابن هشام ووردت في Voc. ALC و انظر دوزي 2 : 186 وماتزال مستعملة في المغرب وقد وردت مرارا في أزجال ابن قزمان .

- فدان للموضع الذي يحرث أي الحقل، رقم 456 وهي عند ابن هشام والزبيدي، واستعملها ابن قزمان بهذا المعنى. وأنظر دوزي 2 : 246.

- قيطون بمعنى خيمة استعملها بهذا المعنى ابن قزمان وهي معروفة في المغرب انظر رقم 343.

- عصا موسى، وهي تسمية أندلسية للثريا، انظررقم 404.

- الزكروم : القفل والمغلاق. رقم 391. وهي مدونة في Voc ص 188 وماتزال مسموعة في المغرب.

- الزز بمعنى صفع القفا. رقم 425. وهي مستعملة في الشعر الأندلسي فصيحه وعاميه، وفي أمثال الزجالي وغيرها وقد ذكرها الزبيدي في تاج العروس ثم قال : «وهي شائعة بالأندلس» وانظر ما كتبناه حول الكلمة في كتابنا : أمثال العوام في الأندلس 2 : 237.

- برح بمعنى نادى، والبراح المنادي، رقم 298. وهي كلمة شائعة في النصوص الأندلسية والمغربية، وواردة في أمثال الزجالي 2، 132، 230، 39.

- تور بمعنى حسكة أو شمعدان رقم 397 وقد وردت في الاستبصار: 20 وفي أمثال الزجالي 2 : 184 وهي Voc في ص 278.

- قارح بمعنى فرس وجمعه قُراح رقم 145. ووردت في أمثال الزجالي 2 : 353.





- مُجَّة بمعنى ثديْ، رقم 440 والكلمة واردة في Voc 467.

- ومما يوجد في لغة الملعبة :

- المحافظة على كسر عين اسم الفاعل من الثلاثي مثل :

عادل ، فارس، طائل، سائس الخ.

وهذا معروف في العامية الأندلسية وعامية منطقة جبالة في المغرب، وإليها ينتمي صاحب الملعبة، أما الشائع عند غير جبالة فهوالفتح.

- المحافظة على صيغة اسم الموصول : الذي، فاستعمالها هكذامتكرر في الملعبة، وهي المستعملة في أمثال الزجالي وأغلب النصوص الأندلسية العامية.

- ورود التنوين المفتوح، وهو نوع من التنوين شائع في الأمثال والأزجال، وقد تحدثت عنه في دراسة أمثال الزجالي، انظر ج ص 281ـ 282.

- استعمال إكان بمعنى لو، وأصلها إن كان. أنظر رقم341.

- استعمال ترى بمعنى وإذا به. انظر الأرقام 202، 30، 427 وهو استعمال أندلسي سجله معجم. Voc ص360، وتستعمل أيضا بمعنى «هاهو» أنظر دراستنا لأمثال الزجالي ج 1 ص 298.

- استعمال «لس» اي ليس رقم 19.

استعمال «هَوْلَ» أي هؤلاء رقم 255. وترد كذلك في الأزجال الأندلسية (العاطل الحالي 50) وهي في معجم Voc 444.

- استعمال ذوك بمعنى أولئك رقم 255.





وقد وردت في الملعبة أمثال عامية توجد عند الزجالي وابن عاصم ومنها

أش دعانا لراس الاقرع...... رقم 110

الأعمش في حضرة العميا ..... رقم 350

لا مكان ولا إمكان. رقم 46

إذا نزل لقضا عمت الأبصار، رقم 67.

ززقادسي. رقم 425.

در في غزولك. رقم 191.

وبعضها مايزال مسموعًا إلى اليوم.

إن هذا التماثل بين ملعبة الكفيف الزرهوني وبين النصوص الأندلسية من حيث الإستعمال يمكن تفسيره بمايلي .

- تأثر الزجال المغربي القديم بمحفوظه من الأزجال الأندلسية.

- اشتراك لهجتي الأندلس والمغرب في عدد كبير من الألفاظ التي تعتبرألفاظا مغربية بالمعنى الواسع.

تأثّر لهجة منطقة جبالة التي ينتمي إليها الكفيف باللهجة الأندلسية بحكم القرب والجوار، ولأن أهل جبالة أو غمارة كانوا يقومون دائما بفرض الجهاد في الأندلس ويتطوعون بدخولها من أجل ذلك ثم يعودون إلى ديارهم، ثم أن عددا كبيرا من الأندلسيين استقروا بمنطقة جبالة في أفواج متعاقبة، فراراً من الفتن التي كانت تنشأ في الأندلس، وخلال فترة الجلاء عن القواعد والمدن المفقودة ثم بعد الخروج الاخير من غرناطة وتوابعها.





ومع ما ذكرناه من مؤثرات أندلسية في الملعبة، فإنها تحتفظ بخصائص محلية، هي خصائص لهجة جبالة، وهذه المنطقة تمتد في شكل هلال من طنجة إلى تازا وهي محفوظة بحزام من المدن هي : النكور وبادس وتيجساس وتطوان وسبتة والقصر الصغير وطنجة وأصيلة والقصر الكبير والبصرة واسجن وبني تاودة ووليلي وفاس، وقد انتشرت اللغة العربية في هذه المنطقة، بفضل قربها من هذه المراكزالحضرية، وارتباطها بالمسالك التجارية وانتشار المدارس القرآنية وغيرها، وساعد في تعريبها أيضا مجاورتها للأندلس وصلتها بها، وقيام إمارات إدريسية وغيرها فيها.

ويذكر الإدريسي أن القبائل المجاورة لفاس ـ حيث نشأ صاحب الملعبة ـ كانت تتكلم بالعربية، قال : «ويسكن حولها (فاس) قبائل من البربر ولكنهم يتكلمون بالعربية، وهم بنو يوسف وفندلاوة وبهلول (بهاليل) وزواوة ومجاصة وغياتة وسلالجون»[51].

وقد درس المستعربون مثل بروفنسال وكولان هذه اللهجة الجبلية في العقود الأولى من هذا القرن[52] وماتزال محتفظة ببعض الخصائص التي نجدها في ملعبة الكفيف الزرهوني.

ومن أبرزها :

ـ حذف الهاء من ضمير الغائبة في مثل قول الكفيف :

(51) نزهة المشتاق 246 الطبعة الإيطالية.
(52) لبروفنسال كتاب في لهجة ورغة ولكولان كتاب في لهجة تازة.





مِنَّا أي منها. رقم 7.

ما أصعبا ما أصعبها. رقم 51.

ما أشر اي ما أشرها. رقم 49.

شرقا آي شرقها. رقم 49.

ومثل هذا كثيرفي الملعبة

وفي بعض الحالات نجد الشاعر يقف على الهاء المذكورة بالسكون ويفتح ماقبلها كقوله :

ماشراها مليك ولابَاعَهْ. (أي باعها) رقم 14.

ومثل هذا الاستعمال معروف في لهجة أهل تطوان فهم يقولون في المثل : إذا جَاتْ تقودَهْ بشعرا..

وقد جمع الشاعر بين الاستعمالين في قوله : (رقم 5).

كانت إذا ذكـرت كـره خـبَرَا   وقـال اسْـمَهْ يفرق الاخـوان

أي كره خبرها. وقال : اسمها.

- حذف الهاء أيضا من ضمير الغائبين والغائبات كما في قوله بينم أي بينهم. رقم 217.

لم أي لهم. رقم 341.

عندم أي عندهم. رقم 339.

ومثل هذا متكرر في الملعبة، وهو مما يميز لهجة جبالة عن غيرها.





- استعمال فعل «ألقى» بمعنى عمل كقوله :

حتى ألقى سلسلا لذاك الشان. رقم 31.

وماتزال مسموعة في مناطق جبالة وقد تنطق بالراء. وهي بالراء في لهجة غرناطة. انظر ALC ص وقاموس دوزي.

- استعمال «فاه» من الاسماء الخمسة، ولايوجد هذا الاستعمال في اللهجات العامية في حين أنه مايزال موجودافي لهجة جبالة.

وثمة بعض الظواهرالصوتية في رسم النسخة الخطية الوحيدة للملعبة ككتابة الصاد سينا في الكلمات التالية» :

- السحرا أي الصحراء. أنظر الأرقام 36، 317.

- يسورو = يصورو. رقم 47.

- يسرح أي يصرح. رقم 58.

- التسريح = التصريح. رقم 58.

- السح أي الصح والصدق. رقم 367.

- الحسرا = الحصرا. رقم 252.

- الحسران أي الحصران والحصار. رقم 471.

وكتابة الضاد دالا مثل :

- ودحا = وضحا أي واضحى. رقم 224.

وكتابة الزاي جيما مثلا البيجان أي البيزان. رقم 336.

وكتابة الجيم دالا مثل دشم أي جشم. رقم 252.





ولكننا لا نعرف هل هذا يمثل لهجة جبالة أم لهجة الناسخ المجهول، ونشيربالمناسبة إلى الفرق الواضح في القراءة بين النسخة الخطية، وما ورد من الملعبة في مقدمة ابن خلدون وأزهار الرياض وقد أشرنا إلى بعض هذه الفروق في حواشي الملعبة .

ويبدوأن الكفيف كان يعرف الأمازيغية، فقد استعمل جملة من كلماتها، واستعان بها في بعض قوافيه، و هاهي الكلمات الواردة في الملعبة :

- إيسان أي الخيل. رقم 116.

- اسردان أي البغال. رقم 142.

- انزران أي المطر. رقم 236.

- إيمزدغن أي السكان. رقم 342.

- أَزَرْزَي أي الكلفة المخزنية، ومنها الكلمة المعروفة في فاس وغيرها :

الزّرزاي أي الحمال. رقم 345.

- غيلاس أي النمر أوالذئب. رقم 114.

- تاسا أي الوسط. رقم 288.

-تيسدنان أي النساء. رقم 221.

ومن المعروف أن شيخ الزجالين ابن قزمان استعمل في أزجاله بعض الكلمات البربرية مثل أشكد وافكي وأكليد.

ونشير في النهاية إلى مستوى لغوي آخر في الملعبة وهو المستوى الفصيح، ويتجلى في طائفة من الألفاظ المعجمية مثل الران، الزرق، القطعان، الشعراء، المعجر، الصافنات، وغيرها. كما يتجلى في التراكيب العربية التي لا ينقصها إلا الاعراب. ولاشك أن هذا يدل على ثقافة الشاعر وتمكنه من اللسان العربي المبين.





د . منهج التحقيق

يعرف المشتغلون بتحقيق النصوص محاذير إخراج النص الذي لا توجد منه إلا نسخة واحدة، ولربما أوصوا بالعدول عن إخراجه، وتزداد هذه المحاذيرإذا كانت النسخة الوحيدة سقيمة النقل والضبط، سيئة الكتابة والخط، كما هي حال النسخة التي بين أيدينا من هذه الملعبة، فلقد بلغت من رداءة الخط مبلغا لايطاق، علاوة على مافيها من تحريف أسماء الأماكن والاعلام وغير ذلك، وقد لقيت في فك بعض رموزها نَصَبًا، وكدت أنصرف عنها لولا ما تبين لي من الفائدة في معاناتها على علاتها وإخراجها من الظلمات إلى النور.

وقد حافظت من باب الأمانة على معظم رسمها وضبطها، إلا ماكان من قبيل التحريف البين أو التصحيف الظاهر، كما احترمت ترتيب أقسامها ماعدا مرة واحدة بدت فيها أبيات في غيرمحلها، وهي الأبيات الأولى من المناجاة الطويلة التي قالها الشاعر على لسان السلطان أبي الحسن المريني خلال حصار القيروان، ونبهت على ذلك في النص.

وقد عنيت بشرح الكلمات، وإيضاح المعاني، وتوثيق الاشارات التاريخية وغيرها، وعارضتها بالأصول التاريخية المعاصرة كالعبرلابن خلدون والمسند لابن مرزوق، كما أني رقمت الأبيات، لتسهل الإشارة إليها عند الإستشهاد بها أو الإحالة عليها.

وبهذا كله خرج هذا النص الشعبي القيم من صورته الغامضة كما هي في المجموع الخطي رقم 184 بخزانة ابن يوسف بمراكش إلى هذه الصورة الواضحة التي أضعها بين يدي القارئين والدارسين، مقتديا بابن خلدون شيخ المؤرخين المغاربة الذي نوه بالملعبة وصاحبها.








النـــص








هذه قصيدة يذكر فيها حركة أبي الحسن المريني رحمه الله إلى القيروان، وانهزامه بذلك المكان، وهي للكفيف رحمة الله علينا وعليه.

0

1. سبْحان مالِك خواطِـرِ الأُمْـرَا
ونـوَاصيـهـا كُـلَّ حِـنْ وزمـانْ

2. إنْ طِعِناه عَطَّفَّمْ لنا نَصْراً
وإن عَصَيْنَاه قضَى بكل هوْانْ [1]

1

3. قلْب السُّلطان يقال كِجلَّوْزا [2]
وَقْلوب الخلْق جاريا مَجْرَاهْ

4. إنْ كـانْ عـادلْ برافَـة العِزاّ
يَطْلَع مِنْهَا نَسِيمْ يَشُّق اذْكَـاهْ

1ـ ونواصيها. في الأزهار بنواصيها. كل حين، في الأزهار المقدمة : في كل حين. عطفم = عطفهم ونصر أي نصراً و عوناً لنا، وفي الازهاراعظم لنا نصراً. وقضى : في المقدمة : عاقب. وهوان : في المخطوط : اهوال. وقد امتدح ابن خلدون في المقدمة هذا المطلع وقال «وهو من ابدع مذاهب البلاغة في الإشعار بالمقصد في مطلع الكلام وافتتاحه ويسمى براعة الاستهلال.» وقد نظم الكفيف في هذا المطلع الأثر الآتي« قال وهب بن منبه فيما أنزل الله على نبيه داود عليه السلام إني أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن كان لي على طاعة جعلت الملوك عليهم نعمة، ومن كان لي على معصية جعلت الملوك عليهم نقمة.» العقد الفريد 1 ـ 7.

2ـ كجلوزا = كجلوزة وهي ثمرة الجلوز «وهو كثير ببلاد الروم والأندلس» كما في عمدة الطبيب وفي كليات ابن رشد «أن شكل القلب كشكل صنوبرة منكوسة» وقد حسبتها في الطبعة الأولى : كالجوزا أي الجوزاء. وليس بصواب.



5. إذا يَعْدِل قَدْ فَتْحَت الْغُرْزا

كأنوا مصباح وهي تصير لِضْياه[1]

6. حَتَّى في السُّنْبُلا وفي التَّمْرَا

يَظْهَرعَدلوا نَعَم وفي الْحَيَوَان

7. وإن كان جايْر علت مِنَّا قَتْرا

يَطْلَع مِنها على القُلُوب الرَّان[2]

2

8. قال الْهادي: بُعِثْت غَض حَلْو

في أيام الخَلِيفَة الْعَادِلْ[3]

9. يَعْني كِسْرَى، وكان سَبَبْ عَدْلُو

واذْكَرْ فيه الْخطيب[4] كَلَامْ طائِلْ

1ـ كأنه ينظر إلى قول بعضهم في أردشير« فقد أشرق على الأرض من ضياء نورك ما عمنا عموم ضياء الشمس، ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما اتصل بأنفسنا اتصال النسيم.» وتصير = تسير. وجاريا مجراه أي مثله، ويشق اذكاه أي تكون رائحته ذكية جداً.

2ـ يقول وهب بن منبه : اذاهم الوالي بالعدل، أدخل الله البركة في أهل مملكته، حتى في الأسواق والأرزاق وإذا هم بالجور أدخل الله النقص حتى في الأسواق والأرزاق.» » الشهب اللامعة 85 - 96 والمصادر المحال عليها. ويقول الطوطوشي بعد كلام في الموضوع «وهكذا تتعدى سرائر الملوك، وعزائمهم ومكنون ضمائرهم، إلى الرعية، إن خيرا فخير وان شرا فشر.» وقد وقع التشنيع على الخطباء في عهد الموحدين لأنهم كانوا إذا رأوا الخصب نسبوه إلى السلطان ويقولون إن الله أصلح بسببه الوجود وبسط العافية والرخاء في الدنيا بنيته. المعيار 6 - 386. ومنا = منها، وقترا : جمع فترة وهي الغبار. وفي القرآن الكريم (ترهقها فترة) وفيه : (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) ويرهق : يغشى، والران : سواد القلب، وهي لغة في الرين، وفي القرآن الكريم : (كلاّ بل ران على قلوبهم).

3ـ المراد به كسرى أنو شروان أشهر ملوك الفرس، وفي أيامه ولد النبي صلى الله عليه وسلم، وكسرى هذا هو المقصود في الحديث النبوي «ولدت في زمن الملك العادل» اما الذي بعث الرسول في زمنه فهو كسرى ابرويز. انظر العبر 367.3592.

4ـ أشهر من عرف بالخطيب هو الخطيب البغدادي مؤلّف تاريخ بغداد ولم أقف فيه على الحكاية التي سيقصها الكفيف، وهي توجد بصيغ أخرى في كتاب سراج الملوك : 91 وكتاب وفيات الأعيان 5 : 285. وكتاب آثار الأوّل في ترتيب الدول : 17.





10. قَالَ : كان يَصْطَادُ في رَهط من خيلو
حَتّى قام بنْداه[1] غزالْ جافِلْ[2]

11. فَانْقَطَعُوا الخيْل واتبَعَهْ كِسْرَا
حَتّى حَر النهار عَليه وَلْيَانْ

12. وَاقْبَلَ . قَالُوا . لِرَوْضَةٍ خَضْرَا
واجمع رأيو يقل في ذا البستان[3]

3

13. أتَاهْ بالرحب صاحب الرَّوْضَا
وإذا شابٌ مَلِيحْ من الطّاعَهْ[4]

14. نَزَلَ كِسْرَى فِي رَوْضَة غَضًّا
مَاشَرَاهَا لاَ مَلِيك وَلاَبَاعَهْ[5]

15. حَتّى رَاحْ وَاسْتَرَاحْ وطاب ورضا
يَنْظُرْ رمّانْ مليحْ في شُراعَهْ[6]

1ـ بنداه أي بندائه
2ـ جافل : هارب
3ـ وليان : كذا هي في الأصل، ولعل معناها وضعف، ولروضة : في الأصل بروضة، ويقل = ويقيل أي يستريح.
4ـ من الطاعة أي من الرعية. وبالرحب : كذا في الاصل، ولعلها بالترحيب.
5ـ باعه = باعها، ماشراها وفي الاصل : ماراها
6ـ حتى : كذا في الأصل، ولعل الأنسب : حين، ينظر، والأنسب : نظر، في شراعه : كذا في الأصل، ولعل الصواب : في فراعه.





16. قالُوا يافتَى هاتْ مِنَ التَّمْرا

فَاقْطَفْهَا لُو وجَا بها عَجْلانْ

17. لَمَّنْ خذْهَا المْلِكْ في فَهْ عَسْرا

وجَد مَاها كلَذَّة السّلْوَانْ[1]

4

18. قال السُّلْطنْ فخاطْرُوا يَصْلَحْ

لَبْحَل[2] ذَا المِلْك كان يكُونْ مِلْكِي

19. نَعْطيه شبْ من ذَهَب ولم يبرَح

حتى يَخْرج منْه وهويَبْكِي

20. قال لُّو ياشَبْ عدْ لهَا واسْرَحْ

وايتِني بأُخْتهَا من الفكْي[3]

21. فَقطَفْهَا لُو وجا بها وجْرَا

حتَّى وَضعْهَا لُو على الْكفَّانْ

22. لمّن ذاقها تحوَّلت مُرَّا

كالحَنْطَلْ بلْ أشد في الذَّوقانْ[4]

5

23. قَالَ السُّلْطان للشَّاب عَجْبِي

ما اخبَتْ هذي وما اكْرم الأولَى

---

1. لمن = لما أن، في فه = في فمه، عسرا = عصرها، والسلوان = السلوى، فاقطفها في الأصل : واقطفها.
2. لبحل = لمثل، وفي النسخة لا بحل.
3. الفكي = الفكية أي الفاكهة. وياشب = ياشاب.
4. على الكفان = على الكفين، ولمن= لما أن. الذوقان المذاق والذوق.



24. قَالَ الجنّانْ ومُرسِلِ السُّحْبِي
إلاّ مِـنْ فَـرْدْ غُصْـن مَنْجُـولَـى

25. هَـذِك هـي أخْتَـه بـلا ريـبِي
ولابينهم فـي المَحَـلِّ حَيْلولَـى[1]

26. لاشـك أن اْلقديمَـة الهجْـرا
سَقْطَت في طِيب نيَّة السُّلْطَـانْ

27. ما جئتَك باختْها . مِنَ . الشجْرا
حتـى غَيَّـر سَرِيرتُ الشَّيْطَـانْ

6

28. فَقْلَعْ كِسْرَى على الَّذي أضْمَر
وحْلَف من تَم[2]مَايَزَل يَعدَلَ

29. قَالَ سوق[3] الثَالْثَة لِنَسْتَخبَرْ
واقْطَفْهَا لِـي مِنَ الجَنْـي الأوَّلَ

30. لَمَّ خذَهَا الْمَلِك في فَه وعْسَرْ
وَجَـدْهَـا كـالمثَـقَّلَـى بَاعْسَـلْ[4]

1. للشاب في الاصل لشباب. من فرد غصن أي من عصن واحد انظر في هذا الاستعمال Voc ص 574. ومنجولة بمعنى مقطوعة بالمنجل وقد رسمت في الأصل هكذا : من جولى. وحيلولى = حيلولة.

2. في الطرة : وحلف في الحين.

3. سوق = سق اي احمل وهات . راجع أمثال العوام للزجالي.

4. وعسر = وعصر. وقد نظم الشاعر في هذه الأبيات الحكاية التي ذكرها الخطيب الرازي في كتاب آثارالاول في ترتيب الدول 17 ـ 18 وفي سراج الملوك 91 وقال الطرطوشي إنهاحكاية مشهورة بالمغرب، وقد وردت الحكاية منسوبة لأحد الأكاسرة في وفيات الأعيان5 ـ ذ 285 ظ 286 و كذلك في الشهب اللامعة لابن رضوان 96 وانظرها في الملاحق.





31. مِنْ ذَاكَ الوَقْتِ ما ظَلَم ذرّاً

حتَّى ألْقَى سلْسِلاَ لِذاك الشَّانْ

32. إذَا هـزَّ المُشْتَكِي وهُـو بـرّاً

حَـرَّك التَّاجْ واقبَل البَهْمانْ [1]

7

33. قال : كُنْ مُرْعي ولا تَكُن رَاعي

فَالَـراعِي عَنْ رَعِيْتُه مَسْئُولْ [2]

34. واسْتَفْتَحْ بالصـلَّا على الدَّاعي

بالرَّضْوَان والرضا السنِي المَكْمُولْ

35. وَعَلى الخُلَفَا الرَّاشْدين وتُبَّعِي

وابْدا مِن بعْدِ ما تْحِبْ تْقُولْ

36. أحُجَّاجَـا تـخـلَّلوا الـسَّحْـرَا [3]

وَدَرَوْا شَرْحَ البَلَدْ مَعَ السُّكَـانْ

37. عَـسْـكَـرْ فـاس المَدِيـنـة الغَـرّا

أيْـن صَارَتْ بِـهْ عَزَايِـمَ السُّلْطانْ

1ـ يشير إلى ما يحكى من أن كسرى أنوشروان صنع في الإيوان المشهور سلسلة عظيمة ذات اجراس، وجعل لها طرفا خارجا عن القبة، وامر مناديه من كان مظلوما فليحرك السلسة ليعلم به الملك فيزيل ظلامته، قال العسكري ـ هذا هو الاصل في قول الناس حرك فلان على فلان السلسة، اذا وشى به. سرح العيون 58 ولقى اي عمل في لهجة جبالة وهي رقى في اللهجة الغرناطية قد ابدلت راؤها لاما، وفي رسالة الملك بوعبدل إلى الملكين الكاثوليكيين مانصه.«وترى هذا خط يدي وطابعي أرقيته عليها» وهز= هزها، والبهمان في الفارسية الوزير، وفي الاصل المخطوط : والهيمان : وهو تحريف.

2ـ اشارة إلى الحديث : «كلكم را ع، وكلكم مسئول عن رعيته».

3ـ ظ السحرا=الصحراء، حافظنا على رسمها كما ورد في الاصل. وفي مقدمة ابن خلدون وأزهار الرياض الصحراوصارت = سارت وهي بهذا الرسم الأخير في المقدمة والأزهار، وعزايم جمع عزيمة.



8

38. أَحُجَّجْ بالنَّبي[1] الِذي زُرْتُمْ

وقْطَعْتُمْ لو كلاكِل البَيْدَاَ

39. عَنْ جَيْشْ الغَرْبْ جيتْ نَسْأَلْكُمْ

المَتْلُوفْ فِي افْرِيقْيَا السَّوْدَاَ

40. وأَمِرْ كانْ بالعَطَا يزَوَّدْكُمْ

ويْدَعْ بَرِّيَّةْ الحِجَازْ رَغْدَاَ[2]

41. كِفْ قَامْ كالسُّدْ صادَفْ الْحَدْرَاَ

وتْفَجَّرْ شَوْطُو بَعْدَمَا يُحْقَانْ[3]

42. وَرْدُمْ كنْزَفْ وبَهْتْ بُغْبَرَاَ

ادِّي صَارْ أَزْغَارْ لهم سَبْحَانْ[4]

9

43. إيَّا دُرْلِي بِعَقْلَكَ الْفَحَّاصْ

وتْفَكَّرْ لي في خاطْرَكْ جَمْعَاَ

1ـ بالنبي، سقطت من الأصل المخطوط وهي موجودة في المقدمة والأزهاز وكلاكل جمع كلكل، أي الصدر، والبيدا = البيداء الصحراء والمتلوف : الضائع والتائه. والسوداء هنا لعلها بمعنى المشئومة لأن المقصود بافريقيا هنا هو افريقية أي تونس.

2ـ وامر= وأمير وهو أبو الحسن المريني، وقد عقد ابن مرزوق في المسند بابا خاصا في تمهيد أبي الحسن طريق الحج والعمرة، وتحدث فيه عن معونته الدائمة لمن يريد الحج، وتجهيزه الركوبات في كل سنة، وإهدائه المصاحف التي خطها بيمينه إلى المساجد الثلاثة. انظر المسند 385. وفي المقدمة : ومن كان وفي المقدمة : ومن كان.

3ـ في المقدمة : قام قل كالسد، والحدرا = وهي تطلق الحدرة وهي المنحدر وشوطو، هكذا في الاصل وفي مقدمة ابن خلدون وأزهار الرياض، والشوط في اللغة ممر طويل بين جبلين. ويحقان = يحقن أي يجمع ويخزن.

4ـ ردوم = وبهت ـ نهران معروفان في المغرب، وهما من روافد وادي سبو وبغبرا = أبو الغبار وكلمة ادي لهجة في الذي وأزغار ـ كلمة بربرية معناها السهل والبسيط من الارض، وهي تطلق على المنطقة التي تدعى الغرب، وسبحان لعلها كقولنا غرقان، والنهران المذكوران، يصبان في نهر سبو المعروف بفيضانه ، وكنزف = كان زف وفي رواية البيتين في المقدمة والأزهار فيها تغيير وتحريف.





44. ان كَانَ توجَدَ حمَامْ ولاَ رقّاصْ

عَن السُّلطَان شَهْر وقِل[1] سبعاً

45. بكِتَابْ عَبْد الْمهيمِن الغـوَّاصْ

وعلامه تَنْتِشر كَمَا الصُّمْعَا[2]

46. إلاَّ نَاسْ عاريين بلاَ سَتْرَا

نَسْ جهْلاَ لاقْرَارْ ولا إمْكَانْ[3]

47. ما يَدْروْ كِفْ يَصوَّروا الكَسْرَا

أم كف دخلوا مدينة القِروَانْ[4]

1ـ إيادرْ : في المقدمة والأزهار : أدرْ، في خاطرك : في المقدمة والأزهار : بخاطرك. توجد، في المقدمة والأزهار : تعلم. وقل = وقيل. وفي المقدمة والأزهار : وقبله.

2ـ بكتاب : في المقدمة : بظهير، ومعناه المرسوم السلطاني، وقد حرفت في النسخ المطبوعة وعبد المهيمن الحضرمي السبتي أديب وعالم مشهور كان كاتب العلامة للسلطان أبي الحسن ورافقه إلى إفريقية ولكنه تخلف عن واقعة القيروان لما كان به من علة النقرس وبقي في تونس ولما وصل خبر الواقعة وحوصر أشياع السلطان وأهله في القصبة فارقهم عبد المهيمن واختفى عند آل خلدون في المدينة، وحين عاد السلطان إلى تونس أعرض عنه مدة ثم رضي عنه واعاد إليه العلامة إلى ان توفي بتونس في الطاعون الجارف سنة 749. أما صورة العلامة التي شبهها الشاعر بالصومعة فقد وردت في بعض الأصول الخطية من نفح الطيب. وانظرها في ط. احسان عباس 4 : 394، ورواية ازهار الرياض .

بكتاب عبد المهيمن القواص وعلامات تنشر على الصمعا

3ـ فيالمقدمة وأزهار الرياض :

الا قوم عاريين بلا سترا مجهولين لا مكان ولا امكان

وهو يشير إلى العسكر الذين وصلوا إلى المغرب بعد نكبة القيروان «عراة زرافات ووحدانا» كما يقول ابن خلدون. العبر 7 : 578 وعبارة لا مكان ولا امكان. وردت مما يتمثل به في أمثال الزجالي، انظر 2 ص : 465 وعكس العبارة جاء في قصيدة للفقيه عمر الزجالي اذ يقول :

وقد عاشرتنا أسرة كيموية اقامت لدينا في مكان وامكان

4ـ يقال في العامية المغربية صور كذا أي حصل عليه والمعنى على هذا : لا ندري كيف يستطيعون الحصول على الخبز، وقد يكون المعنى لا ندري كيف يصورون الهزيمة. يصوروا وردت هكذا في المقدمة وفي نسختنا يسورو.





10

48. لَوْ كانْ مابيْن تونس الغُرْبَا [1]

ومدينة فاس سَد الاسْكَنْدَر [2]

49. مَبْني مِن شَرْقا إلى غَرْبَا

طَبْقًا بحْدِيد وطِنْها بصْفَرْ [3]

50. لابُدَّ الطَّيْر كَانْ يَجي بنْبَا

أوْ رَقّاص يَاتِنَا بفَرد اخْبَرْ [4]

51. ما أَصْعَبَا مِنْ أُمورْ وما شَرّاً

لَوْ تُقْرَا كُلْ يوْم عَلَى الوْدَانْ [5]

52. لَجْرَتْ بِالدَّمْ وانْصَبَغْ حَجْرَا

وهَوتْ لَجْرَافْ وَجفّت الغُدْرَانْ [6]

---

1. تونس الغرباء، فيه إشارة إلى اصل تسميتها ومايدل عليه اسمها كما يقول الشاعر :

و تونس تونس من جاءها.

ويقول آخر :

لعمرك ما ألفيت تونس كاسمها ولكنني ألفيتها وهي توحش

وهذه رواية المقدمة وأزهار الرياض وفي الاصل :

لو كان من باب تونس أغربا لمدينة فاس سد الاسكندر

2. في المقدمة وأزهار الرياض : وبلاد الغرب. والإشارة إلى قصة ياجوج وماجوج وسد ذى القرنين الذي ورد ذكره في القرآن الكريم .

3. شرقا = شرقها، وغربا = غربها. وطنها : وطينها. وفي الطرة والمقدمة وأزهار الرياض : وثانيا بصفر، و ضفر : نحاس.

4. في المقدمة : يجيب نبا، وقوله بفرد خبر اي بخبر واحد. وفي أزهار الرياض، أو ياتي الريح عنهم بفرد خبر وفي المقدمة عنم أي عنهم.

5. ما أصعبا = ما أصعبها، وفي الازهاروالمقدمة - ما أعوصها، وما شرا =وما أشرها، والودان جمع ودن أي أذن. وفي المقدمة : على الديوان.

6. وانصبغ : في المقدمة وأزهار الرياض : وانصدع. وحجرا = حجرها، لجراف = الاجراف، وفي المقدمة: وهوت الخراب وخافت الغزلان. وهو تحريف. وقد صور الشاعر في هذه الأبيات كيف عميت الأنباء على أهل المغرب وعظم قلقهم بعد كائنة القيروان بسبب انقطاع الأخبار، ولكن يحيى ابن خلدون يقول في بغية الرواد«قال المؤلف عفا الله عنه وقفت على كتب كثيرة من السلطان أبي الحسن لحواضر بلاده يعتذر لهم فيها عن هذه الوقيعة بانخذال بني عبد الواد عنه ساعة اللقاء ومظاهرتهم العرب عليه.» بغية الرواد 2 : 146.





11

53. أَمَوْلاي بَالْحَسَن خطينا الْبَابْ

في قَضيَتْ سَيْرنَا إلى تُونَس

54. في غِنَى كُنَا عَن الْجَرد والزَّابْ

وَشْلْكْ بعرْابْ فرقْيه الغوبَس[1]

55. أما بَلْغَكْ عَن عمَر فَتَى الخطَّابْ

الفاروقْ فَتَحْ القُرَى المولُس

56.فَتَح الشَّامْ والعراقْ وَتَجْ كِسْرا

لَمْ يَفْتَحْ مِنْ فرقْيا دُكَّانْ

57. كَانَتْ إذَا ذُكِرتْ كَرهْ خَبْرَا

وقَالْ اسْمَهُ يفرِّقُ الاخْوَانْ[2]

12

58. هذَا الفَارُوقْ زُمُرُّدَ الايمَانْ

سَرَّحْ في فَرِيقية بِذَا التَّسْرِيحْ

---

1. الجرد = الجريد وذكر صاحب المعجب ان« بلاد الجريد التي يقع عليها هذا الاسم تنقسم الى قسمين قسم يسمى قسطيلة وهذا الاسم يقع على توزر وأعمالها وقسم يسمى الزاب وهذا الاسم يقع على مدينة بسكرة واعمالها » المعجب 355، وشلك : أي مالك ولهم، والغوبس = الغبس جمع أغبس وهو الذئب، وفي بعض نسخ المقدمة والأزهار القونس، القوبس. وهو تحريف.

2. فتى الخطاب، في الأزهار بن الخطاب، المولس، في الازهار : المونس، وفي نسخ المقدمة، المونس، المولس، البولس، فتح، في الازهار، ملك، وتج = وتاج خبرا = خبرها، اسمه= اسمها. انظر رواية الازهار. والشاعر يشير إلى مايذكره المؤرخون من ان عمرو بن العاص استشار عمر بن الخطاب في غزو إفريقية فمنعه من ذلك وقال له انها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد مابقيت . ابن عبد الحكم 40.





59. وَبقَتْ جمّهْ إلَى زَمانْ عثْمَان
وفتحها ابْن الزبير بالتصحيح[1]

60. لمّنْ بلْغَت كَتَائِبَ الديوان[2]
مَاتْ عثْمَان وَانْقَلَبَ عَلَيْنَا الرِّيحْ

61. وبْقت النَّاسْ عَلَى ثلاث أمْرا[3]
وبقى ما هو السكوتْ عَنّْ إِيمَانْ[4]

62. إِذَا كانْ ذَا في مُدَّة البرْرَا
اَشْ يُفْعَلْ في أوَاخر الأزْمَان

1. فتحت إفريقية في خلافة عثمان على يد عبد الله بن أبي سرح وعبد الله ابن الزبير الذي حمل خبر الفتح إلى الخليفة، وقوله : وبقت جمه : في المقدمة وأزهار الرياض : وبقت حمى. زمرد الإيمان في أزهار الرياض : زمرد الأكوان وفي بعض نسخ المقدمة : مردى الأعوان. سرح = صرح، التسريح التصريح كما في المقدمة والأزهار وبالتصحيح : في المقدمة : عن تصحيح.
2. لمن = لمّا أن. كتائب = كتائبها وفي المقدمة وأزهار الرياض : لمن دخلت غنائمها. وفي بعض النسخ الخطية من المقدمة : غنائما أي غنائمها.
3. المقدمة : وبقات الناس = وبقي الناس، وفي وأزهار الرياض : وافترق الناس. يشير الزجال إلى الفتنة الكبرى وما حدث من اختلاف المسلمين بعد مقتل الخليفة عثمان وافتراقهم إلى فريق علي وفريق معاوية وفريق الخوارج.
وامرا بسكون الميم للضرورة : أمراء، والبررا بسكون الراء الأولى لفك الإدغام أي البررة ويفعل : في المقدمة : يعمل.
4. في رسالة ابن أبي زيد القيرواني أنه ينبغي الإمساك عما شجر بين الصحابة.





13

63.واصْحَبْ الاجْفَارْ في كَتَيْبَاتَا

وفي تَرْحيلْ كَاتِبْ وكيوانَا[1]

64.تذكُرْ في شِعْرَا وأَبْيَاتَــا

سَطِحْ وشق وابْن مُرَّانَا[2]

65. أن مَرِينَ إِذا اتَّكَتْ برايَاتَا[3]

لجِدارْ تونـس يَسْقُطْ شانَـا

1ـ في كتيباتا اي في كتيباتِها أي كتبها ، وفي المقدمة، في مكناساتا. ولعلها في كناشاتا أي في كناشاتها أي في صحفها والتَّرحيل : عملية رصد الكواكب وفي المقدمة والأزهار: وفي تاريخ بدلا من وفي ترحيل. وكاتب : عطارد. وكيوان : زحل، في شعرا = في شعرها. وفي المقدمة والأزهار : في صحفها. أي وأبياتا = ابياتها، وسطيح وشق كاهنان معروفان، اما ابن مرانة فقد ذكر ابن خلدون في المقدمة أن له قصيدة في الملاحم من بحر الطويل على حرف الراء قال « وهي متداولة بين الناس، وتحسب العامة انهامن الحدثان العام فيطبقون كثيرا منها على الحاضر والمستقبل، والذي سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصة بدولة لمتونة، لأن الرجل كان قبل دولتهم، وذكر فيها استيلاءهم على سبتة من أيدي موالي بني حمود وملكهم لعدوة الأندلس» وذكر المقري أن ابن مرانة عمل قصيدة في الكوائن والحوادث برسم الحاجب سقوط حد ملوك سبتة، وتنسب إليه قصيدة أخرى من بحر الطويل أيضا في ترحيل المقاتل على البروج الإثنى عشر، وأولها :

الابلغوا عني جميع القبائل   أمورا بدت لي في مسير المقاتل

وتوجد منها نسخ مخطوطة في الخزانة الحسنية بالرباط. وابن مرانة هذا هو نفسه الذي ورد ذكره في معجم البلدان لياقوت، قال متحدثا عن سبتة وقد نسب إليها جماعة من أهل العلم، منهم ابن مرانة السبتي، كان أعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة والفقه، وله تلامذة وتأليف، ومن تلامذته ابن العربي الفرضي الحاسب، يقولون أنه من أهل بلده، وكان المعتمد ابن عباد يقول اشتهيت ان يكون عندي من اهل سبتة ثلاثة نفر ابن غازي الخطيب، وابن عطاء الكاتب، وابن مرانة الفرضي»، وسطح = سطيح وابن مرانا، ورد في المقدمة ط باريس وابن مروانا.

2 اتكت، في المقدمة . تكف، وفي الأزهار انكبت، برايَاتا = براياتها = شانا = شأنها.





66. وَاذْكَرْتْ ماقالْ لي سيّد الوُزْرَا

عِيسَى بن الْحسن رفيعَ الشان

67. قَالَ لي رِيتَ وانَا بها درْاَ

لَكِن : إذَا نَزَلَ القْضا عَمَتْ لَجْفَان[1]

14

68. وَنَقْولْ لَكَ مَا رَمَى المرْينيا

منْ حَضْرتْ فاسْ إلَى عَرَبْ دبَّاب[2]

1ـ وذكرت... في المقدمة والأزهار : قد ذكرنا ما قال، وريتا = ريتها أي رأيتها. في المقدمة، رأيت وفي الازهار رينا. بها، في المقدمة. بذا. وعيسى بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق، كان من مشيخة بني مرين وصاحب شوراهم لعهده، وكان والي الثغور الاندلسية التابعة لبني مرين في عهد السلطان أبي الحسن، وكان يبعث عنه في الشورى متى عنت، و استشاره قبل حركته إلى إفريقية، قال ابن خلدون «وأشار عليه بالإقصار عنها وأراه أن قبائل بني مرين لا تفي أعدادهم بمسالح الثغور إذا رتبت شرقا وغربا وعدوة البحر، وأن إفريقية تحتاج إلى أوفر الأعداد، وأشد الشوكة، لتغلب العرب عليها، وبعد عهدهم بالانقياد فأعرض السلطان عن نصيحته» وذكر ابن مرزوق انه لما «وصلت كتب افريقية على اختلاف أصنافها وطبقاتهم بالدخول تحت إيالة إمامنا، واللجاء إليه، مما دهمهم من الأمر المكروه، استخار الله عز وجل، واستشار، فأشار جماعة بعدم حركته إليها، منهم الشيخ عيسى بن الحسن وخاطبه في ذلك مرات وجماعة من بني مرين أعزهم الله. وكان هذا هو الذي كشف القناع في ذلك،» وقد اتهم هذا الشيخ بالعصيان سنة 756هـ على أبي عنان في جبل طارق، وفصل ابن خلدون خبر انتفاضته، والقبض عليه، وقتله قَعْط بالرماح، كما تحدث عنه ابن بطوطة في رحلته ونعته «بعامل الجبل الخائن الذي ختم له بالشقاء» واطال في النيل منه، اما ابن مرزوق فقد تحفظ في شأنه واكتفى بقوله، وكان من أمره « ما الله أعلم به »، ويفهم من كلام الشاعر هنا أنه كان على صلة به. وانظر أيضا القصيدة التي رفعها ابن عبد المنان في التحريض على قتله في نثير الجمان 337 ـ 342.

2ـ ونقول:في المقدمة والازهار: ويقول. مارمى. في المقدمة. مادهى. دباب: في ازهار الرياض دياب.





69. أَرَادَ المَوْلَى بِمَوْتْ أبُو يَحْيَ[1]

صَاحِبْ تونس وساحِلِ العُنَّابْ[2]

70. وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ هَذِهِ الأَشْيَا

جعَلَ أَوْلاَدُو لاَبو الحَسَنْ أنْسَابْ[3]

71. حَنْ مات صادفْتَمْ وَرَاهْ حَسْرَا

وبَطَرْفِيهْمْ عمَرْ بطرهامان[4]

72. سَلَكْ قَعْ دخلْتم على الشَّفْرَا[5]

حتَّى غارْ منْ جفَاه بُوالْحسَانْ

---

1. أراد : في الأزهار : راد. بموت : في الأزهار: يموت. أبو : في المقدمة : ابن. وفي نسخة خطية : بويحيا وأبو يحيى هو السلطان الحفصي أبو يحيى أبو بكر بن أبي زكرياء وكانت وفاته سنة 747، وأخباره في العبر وتاريخ الدولتين وغيرهما.

2. ساحل العناب : بونه التي تسمى اليوم عنابة، وفي المقدمة ط. باريس وأزهار الرياض:، وصاحب العناب وفي المقدمة ط. بولاق وصاحب الابواب. وقد ذكر الحسن الوزان ان عامة الناس يسمون عنابة بلد العناب لكثرته بها، وهكذا سميت ايضا في فيض العباب. راجع وصف افريقيا وفيض العباب.

3. قبل هذه : في الأزهار : قبل ذا. لأبو : في الأزهار : أبو.

4. صادفتم : في الطرة : صادف ثم. وقارن بين قوله : وبطرفيهم عمر بطرهامان وبين قول ابن الخطيب في رقم الحلل : 65 :

تغلب ابنه المسمى بعمر   وكان موصوفاً بفتك وبطر

5. قع اي جميعا، دخلتم، دخلتم= دخلتهم والشفرا = الشفرة اي السكين، يشير إلى ما حدث في تونس بعد وفاة السلطان الحفصي أبي بكر، فقد كانت ولاية العهد لولده أحمد الذي كان واليا على بلاد الجريد، ولكن اخاه عمر بادر إلى القصر ، وتحايل في أخذ البيعة لنفسه ثم بطش بعد ذلك بإخوته أحمد وعزوز وخالد، وعمت الفوضى في إفريقية ويقول ابن الحاج النميري في هذه الحادثة موريا :

وقالوا أبو حفص حوى الملك غاصبا   وإخوته أولى، وقد جاء بالنكر

فقلت لهم كفوا، فما رضي الورى   سوى عمر من بعد موت أبي بكر

انظر العبر 6 : 807، والاحاطة 1ـ 349. وابن الحاج النميري صاحب هذا الموقف كان في خدمة الحفصيين ثم أصبح فيما بعد من كتاب أبي عنان المريني وهو مدون حركة أبي عنان إلى افريقية في رحلة، وهي مطبوعة. أسماها فيض العباب. وانظر في الكيفية التي ثم بها الأمر لعمر المذكور،المعيار المعرب ج 10 ص 5 والزركشي : 80.





15

73. وَسَّخْ مْلوكَ المُوَحِّدِين تَوْسِيخْ

وقْتَلْ خاه الكبير ومَنْ نَصْرو

74. بَعْدُن تقدَّمْ وقامْ مَقَامْ الشيِّخْ

واحْتَلْ حين جا يبايْعو غَدْرو[1]

75. ولَقَدْ كَانْ قَبْلَ هَذِهِ التَّارِيخْ

بُويَحْيَى رْسَلْ لَبو لْحَسَنْ صيهْرُو

76. حَفْصِيَ مِنْ بْنَاتِهِ الصُّغْرَا[2]

مَعْ مَا كَانُوا فِيمَا مَضَى اخْتَانْ

77. وَالقِصّا لَقَدْ تَعَرْفُو خَبْرَا[3]

لاكِنْ رَأُدوا يجَدِّدُ هَـا الآنْ

1ـ ملوك الموحدين هم هنا الحفصيون، لأن هؤلاء فرع من الموحدين. وبعدن في البيت الأخير هي بعد ان، والضمير في قوله تقدم، وقام، يعودعلى عمر المذكور قبل والشيخ يعني به السلطان المتوفى، والضمير في، واحتال، يعود على عمر أيضا.

2ـ هي الأميرة المعروفة عزونة بنت السلطان أبي بكر الحفصي، وهي الحفصية الثانية التي تزوجها السلطان أبو الحسن«بصداق جملته خمسة عشر ألف دينار ذهبا ومائتا خادم» الزركشي 79 وابتنى لها قصرا رفيعا بتلمسان، حكى ابن مرزوق أنه أنجز في أسبوع. المسند 448 ـ 449، وأنظر العبر لابن خلدون 7 : 556.

3ـ القصة المعروفة التي يشير إليها الشاعر هي زواج أبي الحسن بالأميرة فاطمة الحفصية، وقد زفت إليه من تونس سنة 631هـ واحتفل بزفافها احتفالا عظيما لم يسمع مثله في دولة بني مرين، وتحدث الناس به. ويذكر ابن خلدون أن أبا الحسن شغف«من خلالها،وعزة سلطانها، وقيامها على بيتها، وظرفها في تصرفاتها، والاستمتاع بأحوال الترف ولذاذة العيش في عشرتها،ولهذا كله ولاعتبارات سياسية تزوج ـ بعد موتها في واقعة طريف ـ بأختها عزونة المذكورة آنفا. العبر 7 : 524ـ 556.555.526. وخبرا = خبرها، ورادوا = أرادوا. ويجددها = يجددونها.





16

78. وَتَوَلَّى البَنْت وَلْد بوزكْــري
مَعْ خَاهْ بُوالفَضْل وبَنْ تَفْرَاجين [1]

79. في مَحْلَّه كالنُّجُوم إِذَا تَسْرِي
للسُّلْطَان بوالحَسَنْ سِرَاجُ الدِّين

80. أَرَادَ المَوْلَى بِموْتْ بوزكْري
والْأَرْسَال في الطَريق بِذَات الزين

81. في المَنْصُوراَ دَخلْ بِذَا العَذْرَا
قَبْل أن تَعْلَمْ بِوَالِدَهْ ما كَان [2]

82. وَاجْتَمَعوا دُرَّتَين في حَضْرَا
لَكِنَّ الـدَّهْــر ماله أمَان

---

1. لا تذكر كتب التاريخ أبا زكرياء يحيى ولد السلطان أبي بكر الحفصي وابن تافراجين في المرافقين لركب الأميرة عزونة، وإنماتذكر شقيقها ابا الفضل والشيخ عبد الواحد بن اكمازير، اما الأمير ابوزكرياءالذي ذكره الشاعر فهو شقيق الأميرة فاطمة وورد اسمه في خبر خطبتها كما أن ابن تافراجين كان وقت زفاف عزونة في تونس، وشهد وفاة السلطان أبي بكر وما تلاها من أحداث، ثم التحق على إثر ذلك بأبي الحسن في تلمسان. العبر 7 : 524، 556 والمسند 356. وبن تافراجين : في الأصل : وبنت فراجين، وفي الطرة : فراقين.

2. يقول ابن خلدون إن أبا الفضل الحفصي والوفد المرافق لشقيقته عزونة «اتصل بهما الخبر أثناء طريقهم بمهلك مولانا أبي يحيى عفا الله عنه فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عند ما وصلوا إليه» أما ابن مرزوق فيذكر أنه سمع الخبر على سبيل السر من السلطان أبي الحسن قال « وكان كتم خبره لئلا يتعرفه ولده أبو الفضل، وأخته العروس الموجهة إليه، ومن معهما من خدام أبيهما » العبر 7ـ 556: والمسند 356 والأرسال : الرسل، والمنصورا = المنصورة وهي المدينة الملكية التي بناها المرينيون في تلمسان بوالده = بوالدها.





17

83. ثُمَّ أَتَتْ من فريقيا رُسْلا[1]

بالّذي هتَكَ عُمَرْ مِنَ الْأَسْتَارْ

84. مِن قتلْت خاهْ ومِحْنَةَ الدوْلاَ

وهتْك الملْك وانْكِشف لَسْرَارْ

85. وَ تعْلَّقْ بِالْمَلِكْ خا الطُّفْلاَ

وَالشّيخ بَنْ تافْرَاجَنْ[2] الغرّارْ

86. قَالُو لُو يَا زُمُرَّدَ الأُمْرَا

انْظُرْ هذا الْمعق الأَبْـوَانْ[3]

87. كِف حزّ الرّاسْ وَقطَّعْ الْبشْرَا

وَخلْطَ دم النِّسَا مَعَ الصِّبْيَانْ

1ـ رسلا = رسلها، وقد كان من هؤلاء الرسل الوافدين على أبي الحسن عقب حوادث تونس الحاجب ابن تافراجين، وأمير الكعوب خالد بن حمزة، انظر العبر.

2ـ بالملك : في الطرة : بالأمر أي الأمير. تافراجين : تكتب أيضا : تافراجين والغرار : هكذا في الأصل ويمكن أن تكون الغدار وابن تافراجين هذا الذي نعته الشاعر بالغرار أو الغدار : هو أبو عبد الله محمد ابن تافراجين حاجب الملوك الحفصيين، وهو ينتمي إلى بيت من بيوت الموحدين وكان مؤسسه في تينمل من أيت الخمسين، وقد ظهر من هذا البيت أعلام في خدمة الموحدين والحفصيين ذكرهم ابن خلدون العبر 6 : 794 ـ 798 ونعت الشاعر لابن تافراجين في محله، فقد غدر ابا العباس احمد الحفصي، وغدر أخاه ابا حفص عمر، وغدر أبا الحسن المريني، وغدر الفضل الحفصي، وغدر شيوخ البدو، وهكذا كانت حياته سلسلة من الغدر والمكر، ونعته ابن خلدون في تاريخه وابن الخطيب في مراسلته بالدهاء راجع العبر والريحانة وقوله : خا الطفل أي أخو الطفلة وعي الأميرة المذكورة.

3ـ زمرد الأمراء : من ألقاب ملوك بني مرين وقد ورد هذا اللقب في حولية الفونسو 11 عند الحديث عن يعقوب بن عبد الحق المريني بالصيغة التالية : es meril de los rreyes (2 : 199) والمعق : العاق، وقد ذكر ابن خلدون أن ابن تافراجين لحق بالسلطان أبي الحسن، ورغبه في ملك إفريقية، واستحثه للقدوم عليها، وحرك له الحوار فتنبهت لذلك عزائمه. العبر 6 ـ 811 .7 .557. وقد استعمل ابن خلدون في كلامه هذا مثلا عربيا وهو : حرك لها حوارها تحن.





18

88. هتَّكْ دوْلَةْ بنُو أبي حفْص
اجبُرْهَا يَاغضنْفرَ الدَّوْلا

89. وَاحْكُمْ بِالشَّرْعْ في الّذي يَعْصي
وَاسْتَعْمَلْ لأرْضْ تُونس الرِّحْلا

90. أنتَ اليوم عندنا وكِيلْ وَوَصْي
ومقّام الأبْ وَالسمَّا الأعْلاَ[1]

91. وَتْرَا هذي بجاية الغَرَّا
هِبْنـَهَا لَكْ مُصدَّقَهْ بَأيْمَان

92. يدَكَ فيهَا من جْنَت الكفْرَا
مَرْسَى وَجبْل وَنهْر في بُسْتَان[2]

19

93. واعظَم من ذَا واجل تقْدِيسَا
تَفْتَحْ طَرِيقَ الحج للْحُجَّاجْ

1ـ قوله : واستعمل لأرض. في الأصل: واستعمل أرض، وقوله هو وكيل ووصي يعني بحكم الصهر والتوقيع على ظهيرولي العهد الشرعي المقتول، قال ابن خلدون:«ثم وصل الخبر بمهلك ولي العهد وأخويه وخبر الواقعة فأحفظه (يعني أبا الحسن) ذلك لما كان من رضاه بعهده، وخطه الوفاق على ذلك بيده في سجله، وذلك أن حاجب الأمير أبي العباس وهو أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين، كان سفر عن السلطان أبي بكر لآخر أيامه إلى السلطان أبي الحسن بهدية، وحمل سجل العهد فوقف عليه السلطان أبا الحسن، وسأل منه إمضاءه لمولاه وكتابة ذلك بخطه في سجله، فخطه بيمينه وأحكم له عقده، فلما بلغه مهلك ولي العهد تعلل بأن النقض اتى على ما احكمه» العبر6ـ 811 وفي ج 7ص 558 أن أبا الحسن امتعض«لما أضاع عمر من عهد أبيه وهدر دم أخيه، وارتكاب مذاهب العقوق فيهم وخرق السياج الذي فرضه بخطه عليهم.»

2ـ أي أنه عرض عليه مملكة بجاية ومايتبعها وقوله : بأيمان وردت في الأصل : بأمان. وجنت = زناتة، والكفرا = الكافرة والمقصود بنو عبد الواد خصوم بني مرين، ومملكة بجاية تبدا من حدود مملكة بني عبد الواد.





94. وتَنَقّيهَا منَ الْعَدُو الْبِيسَا

حَتَّى تَمْش فِيها الْمـرَا بِالتَّـاجْ

95. تُذْكَرْ بِهَا إِلَى قِيَام عِيسَى

وفِي جبَل عرْفا إذا التقت لَفْوَاج[1]

96. وَلَبْحَل هذَا المطَـامِع الغَارَّا

يَتَّـم الأوْلادْ ورَمَّـلَ النِسْوَانْ

97. وتْرَكْ بِيزَانْ بَنِي مَرِينْ عِبْرَا

تَلْقَطْهَا في فرِيقْيَا السِّيفَانْ[2]

20

98. فَخَذْ بقْوالُ وزُخْرُفْ الأَقْوَالْ[3]

ونْدَه الأَطْبَالْ وَشَقْ لَبْجَايَهْ

99. ومن السُّوسْ جَلْبَهْ إِلَى شَرْشَالْ

قُبَّ وعْـلام وَخَيْـل ومطَايَه

1ـ العد = العدو، البيسا : الذي يقال فيه : بيس، تمش = تمشي، المرا = المرأة. وهذه الحال تشبه حال الأمن في عهد يعقوب المنصور الموحدي، جاء في روض القرطاس 217 «فكانت الظعينة تخرج من بلاد نول لمطه حتى تصل برقة وحدها لاترى من يعارضها ولا من يكلمها» والظغينةالمرأة في الهودج. تذكر : في الطرة : تشكر، عرفا = عرفة، لتقت = التقت، لفواج = الافواج..

2ـ البيزان جمع باز، والسيفان جمع ساف، والساف هو الباشق في عامية اهل المغرب، انظر : الفاظ مغربية م.م. المخطوطات نوفمبر 1957 ص 290 ودوزي 2 : 703 وقد كنى الشاعر عن بني مرين بالبزاة، وعن البدو بالبواشق.

3ـ القاف في الاقوال غير واضحة في الاصل وتبدو وكأنها الأموال والذي يناسب كلمة زخرف هو الأقوال كما في القرآن الكريم : «يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا» وقوله فخذ بقوال = فأخذ باقواله أي باقوال ابن تافراجين. ويقول ابن خلدون في هذا «ففتح ديوان العطاء ونادى في الناس بالمسير إلى افريقية». العبر 7. 558 ويقول «وفرق الاعطيات وأزاح العلل» العبر 6 ـ 812. وشرشال مدينة معروفة في الجزائر.





100. وبْقَى عَام تَتَجَمَّعْ عَلَيْه الأبْطَالْ

تَشْرَف رايـه وَتنْزو رَايـهْ[1]

101. مَاخلّ لاَ عَـرَب ولاَ قــرُّاَ

ولاَ جَابَر ولاخَلْطْ ولاَسفْيَانْ

102. وزْنَاتَ الـنّاصيَا عَلَى الغُرُّاَ

وأَهْل التَّدْريس حَمَّالَةُ القُرْآن[2]

21

103. كَانَ فيهَا منْ صَنَاديدْ آيتْ مْرين

ست عشَر ألْف أَوْ تُنيفْ عَـادْ[3]

104. أَوْلاَدْ زيَّانْ وَرُوس بَنَي تُجّينْ

مَعْ مَغْراوَا ورهْط عبْد الوَاد

105. لاكن الشَّوْك ما يطبْ بالتّينْ

أَوْيُجْني الوَرْدْ منْ عْروق الدَّادْ[4]

---

1. يذكر ابن خلدون أن عدد «الرايات كانت يومئذ مائة». العبر 562.7»
2. يشير إلى العلماء الذين صحبوا السلطان المريني في حركته، وكان عددهم كبيرا، يبلغ نحو أربعمائة حسب بعض المؤرخين، وقد ذكر بعضهم ابن خلدون في التعريف. ماخل = ماخلّى وقرا= قرة، وهي وما بعدها قبائل عربية، وزنات = زناتة، والغرا = الغرة، والناصية على الغرة، معناه أنها أخيرهم وأفضلهم وزناتة الموصوفة هكذا هم بنو مرين الصناديد أما الآخرون فسيعبر عنهم برهط عبد الواد. وحمالة القرآن، حملة القرآن وحفظته وأهل التدريس : المدرسون، وعددهم 400 فيما قيل.
3. لا تذكر كتب التاريخ عدد الجيش الذي «حرك» به السلطان أبوالحسن إلى إفريقية، وإنمايذكر ابن خلدون أنه رحل «يجر الدنيا بما حملت» العبر 6 ـ 812 والعدد الذي ذكره الشاعر هو عدد من كان في الجيش المذكور من بني مرين خاصة، وأيت في اللسان البربري هي حرف الاضافة النسبية، هكذا شرحها ابن خلدون في العبر، فأيت مرين معناها بنو مرين.
3. ضرب الشاعر مثلين عاميين، هما كالمثل الفصيح : إنك لا تجني من الشوك العنب، وقول الشاعر

من كان يأمل أن يرى   من ساقط أمرا سنيا

فلقد رجا انيجتني   من عوسج رطبا جنيا

والداد نبات معروف بهذا الاسم في المغرب، وهو يقصد ان بني عبد الواد لا يوثق بهم ولا يعتمد عليهم.





106. وَالرِّيفْ ادْ الحَشَمْ عَلَى الْجُدْرَا

وَبني فُدُودْ وَدّْ خَلْفَ الوُصْفَانْ[1]

107. واعْيان الْغَرْب زَيَنوا الحضْرا

والرُّومْ والغُزْ وَالرُّمَا صِنْفَانْ[2]

22

108. في تَلَمْسانْ جمَع الْجُيُوشْ وطْلَعْ

هذا وَالزَّرْع كِفْ بدا يُحْصَادْ[3]

109. أمَارَا مَن شلَف لِمَن جـْمَعْ

مِن فَقْد الْما والغَلاَ في الزَّادْ[4]

110. واشْ كانْ سَقْنا دعِت لِراسْ الاقْرَعْ

يُغْسَلُ بالْما ولا يُسَاق لِلْـوَادْ[5]

1ـ ذكر العمري في المسالك ان الحشم وبني فودود هم من اتباع بني مرين، ويدخلون في سلك وصفان السلطان، ورقات الاستاذ المنوني : 291.

2ـ كان في جيش أبي الحسن ألف وخمسمائة فارس من الغز، وأربعة آلاف فارس أوأزيد من الروم، أما الرماة فهم صنفان أندلسيون ووصفان انظر. المسالك في ورقات الأستاذ المنوني :291.

3ـ كان خروج السلطان أبي الحسن من تلمسان في صفر من سنة 748هـ الموافق مايه ـ يونيه 1347م وهذا موعد بداية الحصاد في المغرب .

4ـ شلف أو وادي شلف، يطلق على السهل الواقع بين مدينة مستغانم ومدينة الجزائر، ولم يشر المؤرخون إلى ماذكره الشاعر من الغلاء وفقدان الماء في هذه المرحلة.

5ـ هذا مثل مغربي مايزال مستعملا انظر كتابنا أمثال العوام ج 2 ص47 وصيغةالمثل عند الزجالي: اشكند خلن مع الاقرع نمشط رأس، وذلك لأن الأقرع هو كما يقول المثل العربي القديم : من أنى ترمي الأقرع تشجه. والمثل يقال في تجنب كل ما من شأنه ان يجلب المشاكل. وقول الكفيف : يغسل بالما ولا يساق للواد. هكذا ورد في نسخة مصححة أشيرإليها في طرة الاصل، وجاء الشطرفي الصلب هكذا : يغسل بالماء أو يجا للواد.





111. أما اغْنَى البَازْ عَنْ جيفَةَ المَدْرا

أَوَاكْفاه لَحْم الحَجَلْ مَعَ السُّمَّانْ

112. وَاللّه يَامَنْ سَبْو لَبْو غَـبَرا

يعْدَل من بَسكرا لَجْبَل الزَّانْ[1]

23

113. نَزَل السُّلطانْ في حَدْ مايَمْلَكْ

مِنْ أَرْضُو وانْتَقَل لواد بَسْبَاسْ

114. وَلِجْبَل الزَّانْ ولَوْطَا حَـرَّكْ

ما خَلاَّ لاسبَع ولا غَيْلاسْ

115. وبْقَ مع الشَّهْر في الأُمَمْ يَسْبِكْ

مَنْ طَاعُ فاز ومَنْ عصَاه يُكْبَاسْ

116. حتّى بالخَيْل رَدَّها شَعْرَا

ومِن الَواد الكْبيْر سقَى إيسان[2]

1. المدرا = المدرة : المدراى الخلاء وبوغبرا اسم واد لم نقف عليه، وقد وصف الشاعر فيما سبق وادي بهت أنه بوغبرا، ويبدو أنه هو نفسه. وسبو الواد المعروف، وبسكرا هي قاعدة بلاد الزاب أي مزاب وجبل الزان يقع في بلد زواوة، مر به ابن بطوطة في طريقه من الجزائر إلى بجاية الرحلة 1: 5، وكانت فيه واقعة بين الحفصيين والمرينيين العبر 7 : 203 وبغية الرواد 1 : 147 وواد بسباس : واد هناك، ولوطا هو وطا حمزة من نواحي بجاية وغيلاس كلمة بربرية معناها النمر، ولعل الشاعر يلمح إلى الأماكن أو القبائل التي تحمل أسماء سباع وذئاب وما أشبه ذلك، ويكباس= يكبس أي يوخذ ويسجن، وقوله ما خلا لا سبع ولا غيلاس. ورد في نسخة أخرى أشير إليها في الطرة هكذا: ماخلا فيه سبع ولا غيلاس.

2 الشعرا = الشعراء، وهي الأرض ذات الشجر الكثيف، والوادي الكبير، نهر يصب في البحر المتوسط على مقربة من بجاية، ويسمى اليوم واد الصمام وثمة نهر يحمل اسم الواد الكبير ويصب عند طبرقة ولكنه اسم حديث فقد كان يسمى في القديم واد البربر، وايسان كلمة بربرية معناها الخيل.





117.حَاوَلْ ثَمَّ بْجَايَة الْغـزْاَ

جمعَه ومْلَك مفَاتح الْبِيبَان[1]

24

118.صَرَّفْ فيها أُمُورْ دْعَات تُشْكَر

يَرْضَاهَا الله ويَقْبَلَ الهَـادي[2]

119. صابْ في بجايَة مْعَ الثُّلْث خمَارْ

كُـلْ خَلِـيعْ عِنْدْ مِنّـا وادي

120. فاهْرَقْها في النَّهْرْ حتى صارْ

خَـطَّـا يـعُدُّهـا الْغَـادي[3]

1ـ البيبان : الأبواب، وتطلق ايضا على موضع قرب بجاية. راجع الخريطة، ويذكر ابن مرزوق أن السلطان لما وصل بجاية اختلف الناس، فمنهم من كان هواه بتونس، فقصد التقدم إليها لغرض كأبن تافراجين وغيره، ومنهم من أراد الانتهاء من أمر بجاية أولا، وهذا هو الرأي الذي عمل به السلطان، المسند 353 ـ 355. وما أشار إليه الكفيف من انتظار أبي الحسن مدة أسبوع على فتح بجاية كان لامتناع أميرها أولا ثم استسلامه أخيرا كما ذكره ابن خلدون وابن مرزوق بتفصيل، وأشار إليه كذلك الشاعر الرحوي إذ يقول :

ولم تتلكأ عن إباء بجاية	ولكن يراض الصعب ثمةيركب
تأبت فلما ان أطلت عساكر	ترى السهب منها تستباح وتنهب
تبادر منهم مذعن ومسلم	وأذعن منهم شاغب ومؤلب

2ـ صرّف فيها أي عمل، دعات = دعت تشكار = تشكر، ويقبل = يقبلها، الهادى : من أسماء رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام، وخمار = خمر، وقد فصّل ابن خلدون هذه الأمور المشكورة فقال : «ودخل على بجاية فرفع عنهم الظلامات، وحط عنهم الربع من المغارم، ونظر في أحوال ثغورها، فثقف أطرافها، وسد فروجها» العبر 7 ـ 559.

3ـ اتفق المؤرخون على مجانبة السلطان أبي الحسن اللهو ومحاربته الخمر، وقد أقام فيها الحد على أعز أولاده أبي مالك، فاقلع، وسأل الشهادة، فمات شهيدا بالأندلس، كما أقام الحد على ولد وزيره عامر بن فتح الله. المسند 142 وذكر العمري ان رجال جيشه « لايقدر واحد منهم لمهابته على ارتضاع كأس، ولا إهمال صلاة» ورقات الأستاذ المنوني 291، وقد مدحه بهذا المعنى الشاعرالتونسي الرحوي فقال :

إذَا لَذَّ للأملاك خمر مدامة	فلذتك القرآن تتلو وتكتب
وإن أدمن القوم الصبوح فإنما	على ركعات بالضحى أنت تدأب
وإن حمدوا شرب الغبوق فإنما	شرابك بالأمساء ذكر مرتب

وقد ألف له أبو عبد الله العزفي كتابا في ذم الخمر. انظر العبر والمسند 277، 329 وجذوة الاقتباس وغيرها. وقوله صاب = أصاب أي وجد، الثلث أي ثلث السكان، وعند = عنده، ومنا = منها، وخطا = خطها.





121. وَوْجَدْ رُومي يوْسَقْ علَى الحْفُرا
قـرْقُرا قـمـح قدْ تيـزْرَانْ
122. فَسْخْ بيعًا ومـلَّك الْفقْـرا
وَدْفَعْ لُو مَنْ مَخازْنُ الأثْمانْ[1]

25

123. خلاَّ أحكام البلَدْ لابن النَّوار
وَارْحَلْ عَنْهـا إلى قسْمطينا[2]

---

1. الوسق تصدير السلع إلى الخارج، والحفرا= الحفرة ويقصد بها المرسى، والقرقرا = القرقورة وهي السفينة الكبيرة لحمل المتاع والكراع، وقد شبه الشاعر كبر حجمها بتيزران، وهو اسم جبل يقع في بلاد غمارة، ويسمى جبل الكواكب، وفيه ثار سبع بن منغفاد في عهد الموحدين والحائك قراقوش في عهد السعديين وقد ورد ذكره ووصفه في نزهة المشتاق والمن بالامامة ووصف افريقيا ومناهل الصفا والاستقصا. وصنيع أبي الحسن في بجاية - حسب الشاعر - يتفق مع سياسته في منع تصدير التمر والسلاح والخيل والجلود المملحة والمدبوغة إلى الروم كما ورد في معاهدة له مع مملكة ميورقة. وقوله : بيعا أي بيعها، وملّك = وملكها، الفقرا = الفقراء، لو= له أي للرومي، مخازن = مخازنه أي مخازن أبي الحسن.

2. لابن النوار : في الأصل : لابو النوار، والصواب ما أثبتته، يقول ابن خلدون «وعقد لمحمد بن النوار، من طبقة الوزراء والمرشحين لها، وأنزل معه حامية من بني مرين... وارتحل مغذا حتى احتل بقسنطينة» العبر7 559 - 560. وسيذكر الشاعر محمد بن النوار هذا فيمن فرطوا في حق السلطان أبي الحسن ومحمد بن النوار هو الذي خاطبه ابن الخطيب برسالة لما أعرس ببنت مزوارالدار السلطانية، وكان معروفا بالوضاءة وحسن الصورة. وقد صدر لسان الدين رسالة تهنئته بهذين البيتين.

إن كنت في العرس ذا قصور ... فلا حضور ولا دخالة
ينوب نظمي مناب تيس ... والنثر يغني عن قفة النخالة

نفح الطيب 6 - 208.
والبلد : يعني بجاية، وارحل = ورحل، وقسمطينا = قسنطينة.





124. أيَّامْ ولْيَالي وأوديا وَأوْعَـار
وَقْبَايـلْ كالـذِّيَّابْ تَدُورْ بِنَا

125. نَسْ جَهْلاَ لا قَرَرْ ولاإيثار
لم ترعَ عَهْدَهَـا ولاَ دينـاَ[1]

126. فـي قسمطْينـا مْحَلْةُ نَشْرَا
فَوْقَ ذَاكَ الواد كشَقْةْ السوسَّان[2]

127. يَنْظرْ قلعـا تُقَـابِـل الـزُهْـرا
طَرِيقْ مَلْوِي وَلاَ مَنَارْ حَسَّانْ[3]

26

128. حاولْها شْهَر وافْتَحَّا صُلْحا
واسْتَمْلَكْ حَوزَها على رَغْمَا

129. وخَرَجْ مِنْها عُمَرْطَرِيد وَدْحَا
مع مَنْ طَاعُو يَسِيرْ في كَمْكَمَا

1ـ نس = ناس، جهلا = جاهلة، قرر = قرار، ولا دينا = ولا دينها.
2ـ تحدث العمري عن هذه الشقة التي شبهها الشاعربأزهار السوسن لبياضها فقال « فإذا نزل ضربت له شقة من الكتان..وتكون هذه الشقة كالمدينة لها أربعة أبواب.» ورقات الأستاذ المنوني 307 وانظر «ذكر أفراق السعيد، وأوصافه المعروفة عند القريب والبعيد» في فيض العباب 64 ـ 67. وقد وصف ابن الخطيب محلة أبي سالم المريني فقال : (النفح 5 ـ33) :

وَلِلَّهِ عينا من رآهـا «محـلة» هي الحشر لا تحصى بعد وحسبان

إلى أن يقول :

مضارب في البطحاء بيض قبابها كما جليت للعين أزهار سوسـان
وما أن رأى الراءون في الدهر قبلها قرارة عز في مدينة كـتـان

ومحل الاستغراب في البيت الأخيرة أنهم في الأندلس يضربون المثل بهوان الكتان، فمن أمثالهم إذا عز فهو بز، وإذا هان فهو كتان. أمثال العوام في الأندلس 2 : 18. ولعل الوادي الذي نزل به أبو الحسن هو الفحص الأبيض الذي نزل به ولده أبو عنان فيما بعد، انظر فيض العباب 123ـ 124.
3ـ أي أن قلعة قسنطينة لعلوها تسامي نجم الزهرة، وان طريقها ضيقة وملتوية والصعود إليها كالصعود إلى منارة حسان المعروفة بالرباط. وطريق = طريقها.





130. وبْقَ مابِيْنَ تُونَس الفَسْحَا

مَـمْلِـي بِالعَرَبْ ومرْكمَا[1]

131. ولقَدْ كانْ قبْل شَهْر يَاحَسْرا

جَيْش يُمَشْ في سُدْ مِنْ عُرْبَانْ

132. حِلاَّ يُمْنَى وثَانيا يُسْـراَ

مِنْ ذَا الوَاد الكَبيرإلى زَغْوان[2]

27

133. في عَرْب يَصْبَحْ وفي عَرْب يُمْسي

مِنْهُمْ يَرْحَل وَبِيْنَهُمْ يَنْزَلْ

134. وفي كُلِّ شَهْر منَ العَرَب يَكْسي

سَبْعِين ويَجُد منَ الذهَب يحْمَلْ

135. وَالعرَب كَالنَّدَى علَى الغرْسي

يَوْمّا تَقْطَعْ عَنّو العْطَا يَخْذَلْ

1. انظر في دخول أبي الحسن قسنطينة العبر 7: 560، والفارسية 169 ـ 170، ورواية الشاعر تتفق مع رواية ابن قنفد الذي يقول «وعند حصول خبر حركة الأمير أبي الحسن المريني، خرج الأمير أبو حفص بمحلة كبيرة من تونس، وقصد قسنطينة، وطلب الوقوق بها لتكون اليد واحدة، فلم يساعده في ذلك ولاتها خوفا من العاقبة، وفتحا = فتحها، وعلى رغم = على رغمها، ودحا = ودحا أي وأضحى، طاعو : أطاعه، كمكما : كمشة، الفسحا = الفسيحة ومركما =مركوم. ولعل معنى الشطر الأخير أن العرب كانوا يحيطون به.

2. يمش = يمشي، في سد = في سدة أي سرير أو أنها سد بمعنى حاجز وحلا = حلة، والواد الكبير: تقدم ذكره وزغوان جبل معروف بالقرب من تونس.





136. أَوْ كَالعَوْسَج تَرا شَجرَ خضرا
غدًا يلْـقَاك بشوْك كالدُّرْبانْ
137. مَايَعْطيك لاَ زهَرْ ولاتمْرًا
لَوْ تَسْقِ شَجْرَةُ بِها النِّيْسَانْ[1]

28

138. خَلاَّ ظَهْرُو مْجَرَّتْ العُقَابْ
وَامْشَ العَسْرِي يَجِدِ في أثَرْ عُمَرْ[2]
139. باجَ واد الذَهب قْطع لَدْرَابْ
تونَس وانْزَلْ عُقَيْبَةَ السَّحْتَرْ[3]

1. ويجد = ويجود، الغرسي : الغرس، عنو = عنه، ترا = ترى والعوسج شجر ذو شوك، شجر = شجرة، الدربان = الظربان : دويبة منتنة ذات شوك حاد ويطلق أيضا على شوك الصبار، وهو المراد هنا وماء النيسان هو مطر أبريل المضروب به المثل في النفع والبركة، انظر كتابنا أمثال العوام 2 ـ 349. وما ألطف ما مثل به الشاعر لجحود الأعراب.

2. مجرت = مجرة، ومجرة العقاب هكذا في الأصل ولعلها مجره العناب أو حجرة العقاب وفي العبرسطح الجعاب، ولم أتمكن من تحقيق الاسم، ويذكر ابن خلدون أن السلطان أبا الحسن تلوم بقسنطينة واستعرض عساكره بسطح الجعاب منها، وورد الاسم نفسه في الاستقصا، والعسري هو أبو معروف حمو ابن يحياتن القائد الكبير، وهو من الذين شاركوا في وقعة طريف ويذكر في حولية الفونسو 11 باسم Hamolazari وقد وجهه أبو الحسن في La batalla Del rio Salado أثر عمر الحفصي فأدركه بناحية قابس وقضى عليه. انظر 7 ـ 560 ـ 561 ـ 8136 ـ 814. ويجد : يغذ السير.

3. يتابع الشاعر حركة أبي الحسن فيذكر أنه ترك وراء ظهره حجرة العقاب أوسطح الجعاب بقسنطينة وقطع الدروب إلى باجة القمح الذي كنى عنه الشاعر بالذهب، وبعد أن استراح السلطان بباجة، انتقل إلى تونس، حيث نزل بعقبة السحتر، وقد كانت كدية الصعتر كما سماها ابن خلدون أو السعترية كما يسميها الزركشي موضعا لنزول المحلات وضرب الأخبية. العبر 6 ـ 15 الزركشي 137، 143، 151. ولدراب : الدروب.





140. وَجْدُ الفاعِلْ خَرْجَ مْنَا وهْرَبْ

بمْحَلاّ من عَرْبْ ومَن بَرْبَرْ[1]

141. ما خَلاَّ لا ذَهَبْ وَلاَ دُراَّ

إلاَّ حَمَّل في ظْهورْ إيسرْدَانْ

142. ماولَّفْ بوهْ وماجَمْعُ الأُمْرَا

وَأوْلاَدْ بوحَفْص من قَديم الأَزْمان[2]

29

143. قَامْ بِالمَالْ في الدُّجَى وصارْ يَسْرِي

كادْ يَصْعَدْ في السَّما بِغَيْر جَنَاحْ

144. وَتَبْعُ بومَعْرُوفْ العَسْرِي

في ثْنَيْ عشَر ألْف تَرْكَبْ القْراحْ

1ـ الفاعل، يقصد به عمرالحفصي، ويقال الفاعل التارك، لمن يفعل المسائل القبيحة ويترك الخصائل المليحة. وللعسيلي موريا بالفاعل أي خادم البناء في لغة أهل مصر (ريحانة الالبا ب 2ـ 201).

وفاعل يتركني عامدا	وهو لرقي في الهوى مالكي
أقول للناس ألا فاعجبو	من صنع هذا الفاعل التارك

ومنا = منها، بمحلا = بمحلة.

2ـ الدر : اللؤلؤ، وإيسردان كلمة بربرية معناها البغال، وكلمة حمل يمكن أن تقرأ حصل. وما ولف= ما ألف أي ما جمع، وما جمع = ما جمعوا، والأمرا = الأمراء.





145. لَحقُوا وتْقَاتلْوا قْتَالْ بَدْرِي

في مْدِنَا كُلّ مَن حْضَرْهَا جَاحْ [1]

146. غَدْرُ المرْكُوبْ وَحَمَلُوهْ قَهْرَا

بَعَضْ عَرْبْ بَنْد قَايِدِ السُّلطَانْ

147. فَخْشَ أَنْ يَنْدُموا عَلَيه بُكْرَا

قَطْع الَّراسْ قبْل صَرْخَت الأذَان [2]

30

148. لَمَّن فَاتْ عَنْ حكْمهم نَدْمُوا

كِفْ قَالْ وتَأْسْفُو عْلْيهْ تَأسِيفْ

149. قَالُوا غَدًّا نْكَلْموا حَمُّوا

يخْرجْهُ لنَا لَمَجلِس التَّعْرِيف

150. فَاذَا رِيْنَاهْ ولاَحْ لنَا نَجْمُوا

خَرَّجْنَاه عَنْ مْحَلْتو بالسَّيْفْ

151. ثُمَّ نْرِدّوهْ لحَالةْ الأُمْرَا

وَنْكُونْ عَسْكْرو بْحَال مكَـانْ

1ـ القراح : الخيل، وفي الأمثال العامية. من لا يركب قارح، ليس يرى روح فارح. أمثال العوام، من تحقيقنا 2ـ 303 قتال بدري منسوب إلى بدر أي أنه كان كقتال أهل بدر، في مدنا = في مدينة، وهي التي تسمى المباركة من نواحي قابس حسب الزركشي أو الحامة حسب ابن خلدون، وجاح : هلك.

2ـ غدرو = غدره، بند : هكذا في الأصل، ولعلها تحريف ليد، فخش = فخشي وصرخت = صرخة والمقصود قبل آذان الفجر.





152. لَمَّن جَاوْ فيه لِقايد الأُمْرَا

خَرَّجَ لَهُمْ جَمْجَمَا بلاَ جُثْمَانْ [1]

31

153. لَمَّن سَقَط النُّوَارْ وجَاح العُوْد

مَا وَسَعَمْ غَيْرفَرْقُوا الْحَزْمَا

154. حَازُوا مَال اَلشَّقي وهُو المَقْصُود

وسْرَوْا بِهِ في الْمَهَامِه الْجَمَّا

155. عَمْلوا الراس في الوْعَا كما العَنْقُودْ

حَتّى رمَاه بَنْدْ بولْحَسَن بِدْمَا

156. لَا كنْ قَامْ فيهْ وَجْه أخْتِهِ الْحُرَّا

مَا طَاف بِهِ ولا التقَى في سْنَانْ

---

1. لمنِ = لما أن، فات عن حكمهم أي خرج من أيديهم، كف قال = كيف قالوا أي كما قالوا، تأسيف = تأسف، نكلموا = نكلم، ومجلس التعريف (أو التصريف)، حيث يجلس القائد. نجموا = نجمه محلتو = محلته، عسكرو = عسكره. بحل مكان = مثل ما كان، جمجما = جمجمة. وهذا الذي ذكره الشاعر مطابق لكلام ابن خلدون، قال « وسارت العساكر لطلب الأمير أبي حفص، فأدركوه بأرض الحامة من جهات قابس، فدافعوا عن أنفسهم بعض الشئ، ثم انفضوا، وكبا بالأمير أبي حفص جواده في بعض نافقاء اليرابيع، وانجلت الغيابة عنه وعن مولاه ظافر راجلين، فتقبض عليهما وأوثقهما قائد الكتائب في قيده، حتى إذا جن الليل، وتوقع أن يفلتهما العرب من إساره، قبل أن يصل بهما إلى مولاه، فذبحهما وبعث برأسيهما إلى السلطان أبي الحسن فوصلا إليه بباجة» (العبر 6 : 813ـ 814) وذكر ابن مرزوق أن السلطان كافأ قائده بخطة الوزارة، قال « ثم أجرى عليه لقب الوزارة وخططه بها في مكاتباته ومخاطباته، وذلك حين تخلص من خدعة العرب ومكيدة أولادأبي الليل لما هموا بانتزاع الأمير عمر من يده على ما هو معروف» وأغفل ابن مرزوق شرح هذا المعروف لديه، ولدى أهل وقته ، وهذا ما تكفل به الشاعر الكفيف، والمؤرخ ابن خلدون، وقد استفاد قائد حفصي من هذه الخطة حين قبض على أمير ثائر على السلطان عثمان الحفصي، فقد قطع راسه لما توقع ان يفلته العرب من أسره قبل وصوله إلى السلطان وبعث إليه بالراس. تاريخ الزركشي 146.





157. تَرْجَعَ الأَخْبار لْطَامَّة الكُبْرَى

وَاقْضِيتْ حَرْبَنَا مَعَ العُرْبَانْ[1]

32

158. نَبْدَا بالْقَاعِدِ الَّذِي اشْرَبْ

حَبْطَ السُّلْطَان مِنْها وَجَافْ أَوْكَادْ

159. فَالاولَ جَر من وَرَاهْ عَقْرَبْ

بابْنِي تُجِينْ ورهْط عَبْد الْواد[2]

160. سَم اللَّفعا عَلَى سْنَا يَعْطَبْ

والجُرْح إِذا بْرا بمَاهْ يَفْسَدْ

161. وَأَوْلَادْ بُحفَصْ جُرْح لاَ يَبْرَا

قَالُوا سُقْنَاهْ يَعز ملْكًا هَانْ

162. أَمَّا هُو رَد مَمْلَكَا لأُخْرَى

وتَرَكْنَا في مْحَلْنَا جِيرَانْ[3]

1ـ ماوسعم = ماوسعهم، رما بند : وردت كلمة بند مشكولة هنا وفيما سبق، وعملوا : هكذا في الأصل والذي عمل هو القائد العسري وبدما = بدماء لاكن قام فيه: أي شفع له، والمعنى أن عمر المقتول لم يطف برأسه، ولم يعلق على رمح، كما جرت العادة حتى يتحقق الناس موته، وهذا مراعاة لأخته الحرة عزونة زوج السلطان. لطامة = للطامّة وعبارة «رجع الخبر» أسلوب معروف في الحوليات،

2ـ يقول يحيى ابن خلدون متحدثا عن بني عبد الواد «حتى إذا آذن الله بحركة السلطان أبي الحسن إلى افريقية سنة 748هـ كانوا ممن استجاش في عسكره أفاعي كامنة» بغية الرواد 1ـ 142. والبيت قبله غامض : ولست أدري هل يعني الزجال بالقاعد أبا عنان أم أنها القاعدَ = القاعدة. وللشطر الاخير رواية في الطرة هكذا : فأولاد زيان ورهط عبد الواد وكلمة حَبْط في الأصل : لعلها حنظل أي حنظل.

على سنا = على سنة اي ان سم الافعى يقتل ولو مضت عليه سنة. بماه : في الطرة : بريح.

3ـ يفسر هذا ما ذكره عبد الرحمن ابن خلدون من أن الفضل ولد السلطان الحفصي لم يقنع بتجديد أبي الحسن له على بونة التي كان واليا عليها في عهد والده قال «واضطغن المولى الفضل من ذلك حقدا، لما كان يرجوه من تجافيه له عن ملك آبائه، ولحق وفادته وصهره، واقام بمكان عمله منها يؤمل الكرة.»، بحفص : ابو حفص، سقناه :جئنا به، الاخرى : هكذا في الاصل، وهي إما أخرى أو لأخرى.



33

163. وَالعِلّة الثّانيا دشَمْ ومْرين

وعْظَم الدّوْلاَ القْدِيمَة البَانْيَا [1]

164. قَالُوا ماخصنا سوَى أَرض الصين

لو قـال قومـوا لْهَا لَقُلْنَا أيـاً

165. أَوْلاَدْنا تَيْتْمو بنَات وبـنين

ونْسَانـا ترمـلوا ونَحنُ أحْيَا

166. ولَو راكْ خَدْتَ الأَسَد من الشّعْرَا

ويْرَاهْ في قَبضْتَك عْيانَ وبْيَانْ [2]

167. مَاعظَّمْ رُجلْتَك ولاَشَكْرَا

وَيْراهَا منْ سقَارة الصِّبْيَان [3]

34

168. هَتّكْنا قَالُ بكَثْرة الرِّحْلاَتْ

لبْلاد الحَرْب والغَلا والْجُوعْ

1ـ دشم ، جشم، وكانت قبائل جشم مع قبائل بني مرين تؤلف الفقار العظمي لجيش الدولة والأساس الذي تقوم عليه، وما ذكره الشاعر من تبرم هؤلاء بالسلطان نجده عند ابن خلدون إذ يقول «وكان لبني مرين نفرة عن السلطان أبي الحسن وحذر من غائلته لجناياتهم بالتخاذل في المواقف والفرار عنه في الشدائد، ولما كان يبعد بهم في الأسفار ويتجشم بهم المهالك، فكانوا لذلك مجمعين على منابذته» العبر 7ـ 594 وبمناسبة عبارة «عظم الدولة» نشير إلى ماانتقده ابن زكري في كتابه «الفوائد المتبعة» من قولهم «أهل البيوتات» و «أهل الأصول» و«العظم الكبير». انظر مخطوطة الفوائد المتبعة.

2ـ الشعراء الغابة واخذ الأسد بقبضة اليد هو الغاية في الجرأة والشجاعة، وفي الأمثال العربية، أجرا من خاصي الاسد. وانظر في صيد الأسد على عهد بني مرين وصف افريقيا للوزان. وعيان وبيان. هكذا في الأصل والإتباع : عيان بيان. ولاشكرا = ولاشكرها، السقارة : المساقرة.



169. ورواتَبْنَا علَى سَبو وَرْدَاتْ

كَـرْواتِبنَا بقابِس الْمَقْطُـوعْ

170. وَيرِيدْ عادْ يَفْتَتِح بنا رَمْدَاتْ

عاد الأَصْغَرْ وكَنْزَهَا المَجْمُوع[1]

171. أَمَّا العُرْبَان مسامِر السَّحْرَا

مَا يُحْكَى هَمْنَا مَعَمْ بلْسَانْ

172. قَوْما اجْهَلْ منْ جمَا لَم السَّفْرا

يُطْلَبُ في الزكّا وفي أَمْر هانْ[2]

35

173. رَاسْ مَوْلانا كْبِيرْ زعمْ عَالِي

مَا يَفْزَعْ مِن سَبْعْ ولاَ تنِّينْ

174. وَالسُّلْطَانْ الجَسُورْ عَلاَ بَالِي

لَوْ ريتْمْ رَكْبتُو نْهَارْ صفِّينْ[3]

1ـ الرواتب جمع راتب، وهو المرتب والأجر، وسبو النهر المعروف، وقد تقدم ذكره، وردات نهر ينبع من جبل وكانت توجد بأعلاه مدينة كرت (أحد كرت حاليا)، ومايزال ردات معروفا بهذا الاسم، وهو من روافد سبو، وقابس هي قاعدة الجريد التونسي. ورمدات عاد. هي إرم ذات العماد التي ورد ذكرها في سورة الفجر وتكلم بعض المفسرين عن عجائبها، وإنما ذكر الشاعر سبو وردات لأن أزغارأو الغرب كان مقرنخبة الجيش من الخلط في عصر بني مرين.

2ـ السحرا = الصحراء، وفي الاصل الشجرا وهذا في نظرنا تصحيف، معم = معهم، وجمالم = جمالهم. وقداستعمل التعبير نفسه في حق هؤلاء ابن الحاج في فيض العباب. قال (201) : «والأنعام التي إن هم إلا كأمثالها، بل هم أضل ولا إفاقة لضلالها» وأصله من الآية الكريمة : ان هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا. والسفرا = الصفراء. ويطلب = يطلبون أي يطالبون.

3ـ على بالي في ذهني ولعله يوري بعلي وهواسم السلطان وصفين إلى الامام علي ووقعة صفين المشهورة ولو ريتم ركبتوا = ولو رأيتم ركبته. وفي الطرة لو ريت في ركبتو أي لورأيته في ركبته.





175. جَالِسْ في السَّرْج كالْفَتَى السَّالي[1]

والأَبْطَال حَوْلَه شْمَال ويمِينْ

176. لَوْ قَام في وَاْد بجايَه الْغَرَّا

مِنْ ثَّمْ كَانْ يزد بمُلْكُ شَانْ

177. إلاَّ طَوَى البيْد وَطَوَّلَ السَّفْرَا

وَرَمَى النَّاس في حَلاَقِم التَّعْبَانْ

36

178. انْظُرْ هذاَ الرَّفَايْفْ الأَرْبَعْ

كِفْ عَمَّتْ جَيْشَنَا وَلَّى سَافِي[2]

179. مَاطْلَع فِيها قَلِبْ خَالِص المَنْبَعْ

غَيْر وَاحِدِ من ميَا اسْتَقَا الصَّافِي[3]

180. وكَذَاكَ جَابْ بِذَا الجُيُوشْ وطْلَعْ

يـلْقَ فِيهَا البُودبَا الطَّافِي

---

1. كالفتى السالي اي كالعريس، ومنها اسلان واسلي في البربرية، ورواية الشطر الثاني في الطرة: والابطال تسبقه شمال ويمين.

2. يصف الرياح السافيات التي تثير من الغبار مايعمى العيون.الرفايف، وقد يكون الزفايف بالزاي يقصد بها الرياح الشديدة ويقال فيها أيضا النفانف.

3. قلب = قليب، وهو البئر، والبودبا الطافي معناها الجراد المنتشر وقد وصف الوزان سهل القيروان - حيث جرت المعركة التي يتحدث عنها الشاعر - بأنه رملي قاحل لا تنبت فيه أشجار ولا حبوب، وذكر أنه لا يوجد في القيروان عين ولا ماء بئر عذب، ووصف المطافي أو الخزانات بأنها تمتلئ عند نزول الأمطار وتجف في الصيف. وصف إفريقيا 2 : 90.





181. حَيَاةَ قَطْ ما راتْ قَطْرَا
تلْقَاهَا في تُرَابهَا العطْشَانْ
182. خَيْلْ رْبَاتْ في أَزْغَارْ وتَايَسْرَا
وَاسْبُو وَالمُسْتَقَى مَعَ خَوْلاَنْ[1]

37

183. وَنْقُولْ لَكَ مَا جْعَلْ الأمرِ مَقْهُورْ
ورْمَاهْ في يَدَ عَابْدِينَ الأَصْنَامْ
184. كَانَ مَوْلاَيْ بُوعْمَرْ قَدِيم مَاسُور
عِنْدَ الرُّومي وَسَرّحُوا إِنْعَامْ[2]

---

1. حياة = حياتها أي في حياتها. أزغار، كلمة بربرية معناها السهل، وتطلق بالخصوص على سهل الغرب، وسبو هو النهر الذي يسقى هذه المنطقة، والمستقى ورد ذكره في دوحة الناشر وجاء فيها مايلي « وخرج على باب البلد إلى ناحية المستقى على ثلاثة أميال من فاس وفي الاستقصا 5 ـ 55 أن المستقى اسم بستان في فاس الجديد ولعله من إنشاء بني مرين وقد ظل معروفا إلى عهد متأخر وتغنى به شعراء العصر السعدي يقول أحدهم وقد بدت له معالم فاس الجديد :

أخلاني هذا المستقى وربوعه وهذي نواعير البلاد تنوح

وخولان مرعى ومستقى على نهرسبو بالقرب من سايس وفيه الحمة المعروفة. وتايسرا أو تيسرة هي مدينة وليلي. جاء في الاستقصا نقلا عن النوفلي عند ذكر وليلي مايلي «وكانت مدينة رومية قديمة بطرف جبل زرهون في الغرب منه، وتسمى الآن تيسرا» ومايزال موقع باب تيسرة معروفا في اول الطريق المؤدية من سيدي قاسم إلى مكناس وزرهون.
2. الامر = الأمير، بوعمر هو أبو عمر تاشفين ولد السلطان أبي الحسن، أسره القشتاليون في واقعة طريف. والرومي= النصراني، وسينعته بالشنيور، وسرحوا = سرحه، إنعام : إكرام أي أطلق سراحه إكراماً للسلطان.





185. قَالَ السُّلْطَانِ يُقَمْ لِذَا الشَّنْيُور[1]
بِهْدِيَا مِنْ دْخَايِـرِ الإِسْـلَامْ

186. نَجْمَعْ فِيهَا أُمور نَحْتَكْرًا
مَا هْدَهَا قَبْلَنَا وَلَاشَرْوَانْ[2]

187. وَنجوزْهَا قَالَ لَعَدْوَةِ الكَفْرَا[3]
مَعْ قُيَّادْ والمُوحدِين شْيَخَانْ

38

188. قَامَ فِيهَا الشَّيْخ بن تْفْرَاجِينْ
وَالشَّيْخ بن خَالدْ الفلَكْ لَطْلَسْ[4]

189. قَالُوا مَا خَصْنَا مِنَ التَّنِّينْ
غَيْر نْنُفْوا للمَغْلَّفْ الأَغْبسْ[5]

---

1. الشينيور senor ومعناها السيد، وهي ترد في نصوص عربية أخرى. والمقصود بها هنا ملك قشتالة.
2. شروان : نطق عامي لأنوشروان كسرى، وقد عرف السلطان أبو الحسن بهداياه الفخمة إلى معاصريه من الملوك، انظر المسند 452 والتعريف 337 والعبر 7.551 ـ 555 والسلوك للمقريزي 2/2 447 ـ 48. ونفح الطيب والاستقصا وورقات الأستاذ المنوني 127 وما بعدها. ولعل هذه الهدية التي اشار إليها الشاعر هي التي يقول فيها ابن مرزوق «وهديته للهو نشو ملك قشتالة معروفة». انظر المسند الصحيح الحسن. 452. 454 ونحتكرا = نحتكرهاأي لا تكون إلا عندنا. ما هدها = ما أهداها.
3. أي لعدوة الكفرة يعني قشتالة في عدوة الأندلس.
4. الشيخ ابن تافراجين هو الحاجب المعروف، وقد تقدم ذكره، والشيخ ابن خالد لعله الأمير أبوعبدالله محمد بن خالد الحفصي الذي أطلقه أبو الحسن من معتقله في قسنطينة واصطحبه إلى تونس، والفلك الأطلس هو الفلك الأعلى ويكنى به عن الدهاء والمكر، أنظر دوزي 2 ـ 53.
5. التنين يعنون به السلطان أبا الحسن، والمغلف : الذي لم يختتن، ويقصدون به ملك قشتالة النصراني. والأغبس : الذئب وهو نعت للمذكور.





190. أُوَهْ مابقَ الزَّمانْ لِشَيْخ امْرِينْ

غَيْر أَشْيَاخْ الموحدِّينْ بتُونَس[1]

190م. قَالُّوا هَاتْ مِنْ غَزْوْ لَكْ السَّمْرَا

دَهْرِي مِنْ مُغَرَّبَتْ سَاسَانْ

191. قَالُّو مَا رَيْتلُ في ذَا العَثْرَا

إِلاَّ إِنْ كَانْ فِتْنَتُو مَعَ العُرْبَان[2]

39

193. الأَشْيَاخْ في البَسْطْ كَمَا هَنَّاتْ[3]

فِي ابْن السُّلْطَانْ وَجَاءَتْ أَنْ تَخْرُجْ

1ـ يفهم من رواية الشاعر أن السلطان أبا الحسن أراد أن يتخلص من الشيخين المذكورين بتعيينهما في وفد السفارة الموجهة إلى ملك قشتالة ولكنهما شعرا بقصدالسلطان ونيته ففكرا في التآمر على النحو الذي يذكره الشاعر بعد هذا، وقد تحدث ابن خلدون عن سفارة إلى قشتالة قام بها ابن مرزوق مبعوثا من السلطان أبي الحسن، قال «ثم سفر عنه، بعد أن ملك إفريقية إلى ابن ادفونش ملك قشتالة في تقرير الصلح واستنقاذ ابنه أبي عمر تاشفين، الذي كان أسر يوم طريف فغاب في تلك السفارة عن واقعة القيروان.» التعريف 50، ويبدو ان ما أشارإليه الشاعر يتعلق بسفارة أخرى قد يكون السلطان فكر في توجيهها لما بلغه الخبر بتسريح ولده المذكور ثم عدل عنها بسبب نشوب فتنة الأعراب، أو تكون هي نفسها كلف بها ابن مرزوق في الأخير.

2ـ هذا حوار بين ابن تافراجين وابن خالد، قال أحدهما للآخر فكر في حيلة من الحيل الساسانية تكون سببا في الفتنة، فأجابه لاسبيل إلى التخلص من أبي الحسن إلاّ بالإيقاع بينه وبين العربان، ونفهم هذا التآمر في ضوء ماذكره ابن خلدون، قال «كان الشيخ أبو محمد بن تافراجين أيام حجابته للسلطان أبي بكر مستبدا بأمره مفوضا إليه في سائر شؤونه، فلما استوْزَره السلطان أبو الحسن لم يجره على مألوفه لما كان قائما على أمره، وليس التفويض للوزراء من شأنه، وكان يظن ان السلطان أبا الحسن سيكل إليه أمر إفريقية وينصب معه الفضل للملك، وربما زعموا أنه عاهده على ذلك فكان في قلبه من الدولة مرض، وكان العرب يفاوضونه بذات صدورهم من الخلاف والإجلاب» العبر 8ـ 818. وقوله من غزو لك السمرا، لعل معناها من حيلك السوداء، ومغربت = مغربات، وفي المغربات والحيل الساسانية يمكن الرجوع إلى قصيدة أبي دلف في يتيمة الدهر، 3 : 354 ومارَيْتلُ مارأيت له.

3ـالاشياخ أي شيوخ القبائل العربية، ولعل تهنئتهم التي يذكرها الشاعر كانت ـ كانت يقول ـ ببشرى تسريح أبي عمر من الأسر ووصوله إلى بجاية وحين وصل إلى قسنطينة، وقعت حادثة القيروان، وضرب الحصار عليها، وعلى تونس، فاضطر مع وفود أخرى إلى البقاء في قسنطينة، وفي العبر أن تهنئة الاشياخ المذكورين كانت بمناسبة عيد الفطر. العبر ـ 816 والمسند 467. والبسط = البساط وكلمة البساط معناها هنا مجلس السلطان انظر دوزى 1: 85ـ 86.





194. مَسْرُورِينَ بِالذَّهَبْ وبِالكَسْوَاتْ

إلاَّ وَالشَّيْخْ قَالـهَا بَلَّجْ[1]

195. قَالَ إِنْ خَذْت ذا العَتْي آصَّافَاتْ

دَوْلِتْ سَعْدَكْ بلاَ كَدُرْ مَمْزُوجْ

196. خُذْ صَيْدَكْ حِينْ حَصَلْ في ذَا المَدْرا

جُرَّ الشَّبْكَا وَكَتَّفْ الوَرْشَانْ[2]

197. قَالُو الحُرْ كِفْ يَرتَضِي الغَدْرَا

قَالُو الغَدْرُ مِن المُلُوك رُجْحَانْ[3]

---

1. الشيخ هو ابن تافراجين وبلج أي أغلق الباب والبلج المغلاق، كما في تقويم اللسان لابن هشام السبتي (راجع ألفاظ مغربية للأستاذ الأهواني). ومازال الكلمة مسموعة.

2. العتي : يقال قوم عُتي جمع عات وفي الأصل الفتى وهو تحريف واصافت : صفت، والمدرا هي هنا عبارة عن عصا طويلة في رأسها شبكة لاصطياد الطيور. ولعل الصواب أنها السدرا أي السدرة، انظر وصف افريقيا للوزان 1ـ 259 والشبكا = الشبكة والورشان هو اليمام.

3. هذه الحادثة التي ذكرها الشاعر وقعت في تونس، بعد عودة أبي الحسن من زيارته لمعالم افريقية وقبيل واقعة القيروان، وقد فصلهاابن خلدون، وملخصها أن أشياخ العرب وفدوا على السلطان بتونس، بعد قفوله من المهدية لتهنئته بعيد الفطر فأنزلهم وأكرمهم، وقبل خروجهم من القصر بلغ عبد الواحد اللحياني السلطان أن الأشياخ المذكورين طلبوه في الخروج معهم لينصبوه ملكا على افريقية، وفي الحين قام حاجب السلطان ابن امصمود بسحبهم إلى السجن.العبر 6ـ 816، 7 570 ـ 571. أما الحوار الذي ذكره الشاعر في هذا الخبر فنجد ما يؤكده في أخبار أخرى تتعلق بوفاء السلطان بالعهد وامتناعه عن الغدر، انظر المسند 334 ـ 336. ومن الواضح أن الزجال ينسب تدبير هذه الحادثة إلى الشيخ ابن خالد الحفصي والشيخ ابن تافراجين خلافا لابن خلدون الذي ينسبها إلى الشيخ عبد الواحد اللحياني.





198. فَخذْ عَشْرَا وطارْ مِن القَبْضَا

طْير افتْاتَا وخـرَّق الدَّارات[1]

199. وَجْرَت ثمَّ مُقَدْمَا أيْضَا

بِشْرِيفْ مِن الْعَـرَبْ عَمَلْ زَلاَّت[2]

200. وَقْطَعْ يَدُّو ورجْلُو ومضَا

بِالْمَقْطُوعَاتْ يطُوف عَلَى الْحلاَّت.

201. ثَقْفَمْ في عُنق زَوْجَتُو وسْرَا

يُداخِل مِنْ هْلاَلْ إلَى ذِبْيان[3]

202. تَيْدَ بِالعَرَبْ مَسْتُمْ نَعْرَا

وَدْوَاتْ مِن بَسْكَرَا لِجَبَلَ الزَّان[4]

1ـ فتاته أوفتيتة ويحرف إلى قتيبة هوأبو الليل فتاتة بن حمزة، شيخ الكعوب وموقد الفتنة الذي نجا من الأسر، والدارات جمع دارة، وهي الأرض السهلة في الرمال ومنه دارات جزيرة العرب، وخرق الدارات أي طاف بها لتحريض البدو.

2ـ مقدما = مقدمة ويقصد الشاعر بالمقدمة التي كانت من أسباب الفتنة، ما وقع بعد القضاءعلى عمر الحفصي، من تنفيذ حكم الشرع في المحتربين من أتباعه، وكان في جملة من قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف صخر بن موسى أميرقبيلة سدويكس التي تدعي الانتساب إلى سليم، ولعله الذي يعنيه الشاعر. العبر 6ـ 306، 814.

3ـ يدو =، يده رجلو = رجله، الحلات : الحلل، ثقفم في عنق = ثقفهم في عنق أي علقهم، زوجتو = زوجته، وسرا = وأسرى، ويذكر ابن خلدون أن خبر اعتقال شيوخ القبائل العربية بلغ إلى أحيائهم، فانطلقوا يحزبون الأحزاب، ويلتمسون للملك الأعياص. قال «فركب إليهم فتيتة ابن حمزة وأمه، ومعهما ظواعن أبنائهما متذممين لأولاد مهلهل بالعصبية والقرابة، فأجابوهم واجتمعوا بقسطيلة». ثم نصبوا على أمرهم حفيد أبي دبوس آخر خلفاء الموحدين. انظر العبر 6ـ 817ـ 818، وترجمة هذا الأمير الذي كان وقتئذ خياطاً في الدرر الكامنة 1ـ 211.

4ـ عبارة ابن خلدون هنا هي «وتعاون ذئابهم بأطراف البقاع وأجلب نَاعقِ الفتنة من كل مكان» العبر 7 : 783 والاستقصا 5 : 55. تيدا= إذا (معلمة الملحون2/1: 138 : مستَم = مستهم، نعرا = نعرة، ذباب يلسع، ودوات : دوّت وتنادت. وبسكرا = بسكرة قاعدة الزان الأوسط وجبل الزان : في أرض زواوه، ويسمى اليوم أكفادو.





41

203. وَمَسَايَلَ أُخْرَى طَلْعْ بهَا النَاغُوصْ
فَعْمَتْ الأبْصَار وكَثْرَت الحقَادْ

204. قَالُو بعَث الأمِيرْ لأهْل الخُوصْ
في زكَاة البْلْ بالشَّرْع توخَاد

205. مِنْ دبَّابْ وَالكعُوبْ على المَنْصُوصْ
وَرْسَلْ فيها السُّعاة مع الأجْنَادْ[1]

206. فتلاطَت العرْب وزاد أمْرَا
حتَّى قالُوا عجَبْ لذا الإنْسَانْ

207. مَارَادْ يَخلَفْ دنَانيرُ الصَّفْرَا
غَيْر منَّا في الزكا وَفي أمْر هَان[2]

42

208. نَحنُ هنَا مِنْ زمَانْ عُمَرْ وَعْلي
وكَثْـرنَا مِنْ سلالَة الصَّحْبَا

1ـ لايذكر المؤرخون أن أبا الحسن طالب الأعراب بالزكاة، وإنما يذكرون أنه قضى على إقطاعاتهم في المدن وإتاواتهم التي كانوا يفرضونها على الرعية من البدو. العبر 7 ـ 569.والناغوص : المشوش، واهل الخوص اهل النخيل، وهم الأعراب، والبل = الابل. وعلى المنصوص أي على ما نص عليه القرآن والحديث وفصل في الفقه الإسلامي. وقوله : توخاد : أي تؤخذ. رسمت في الأصل : توخذ.
2ـ فتلاطت أي جهلت وجُنَت، ولعل أصلها فتلاثت أي أساسها لوثة أي مس جنون. أمرا = أمرها، وماراد = ما أراد. دنانير = دنانيره.





209. وَدْرَكْنَا عَبْدَ المُومِنْ بن عَلْي

وَمْلَكْهَا من سْلاَ لأَرْض سْبَا

210. مَا فَخر قَطْ بِنُوق وَلاَ بُزْلِي

مِنْ دَبَّابْ وَالكْعُوبْ مَعَ زُغْبَا[1]

211. قَالْ لَهُمْ تَالله وَتَمْنَعُو وَبْرَا

لغزَيْتْكم إِلاَّ بحُجّة الفُرْقَان

212. قَالُوا إن كُنْتَ ابْنَ فَاطِمَة الزَّهْرَا

القُرَشي عُدْ واقْبَض الأثْمَان[2]

43

213. وَخْرَجْ لهم بو لْحَسَنْ عَلَى عَسْكَر

في ثَمَانين ألْف خَيْل مِقْدَامَا[3]

1ـ الصحبا = الصحابة. لأرض سبا أي اليمن، ولعل الزجال أتى بها للقافية والمبالغة والبزل : الإبل في اكتمال سنها.

2ـ انظر في نسب بني مرين روض القرطاس والعبر والمسند 107ـ 110 وفيه نسب مرفوع إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، والموقف الذي ينسبه الشاعر إلى السلطان أبي الحسن يذكر بسيرة الخليفة أبي بكر وقسمه المعروف في الأعراب الذين امتنعوا من أداء الزكاة إذ قال : والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى وسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه.

3ـ في ثمانين هكذا في الاصل، وفي الفارسية 170. «وكان جيشها (أي جيش المحلة) يزيد على ثلاثين ألف رأس».

4ـ الناصر ولد السلطان أبي الحسن، قال فيه ابن مرزوق «الأمير الصالح التقي أبو علي الناصر» رافق والده في حركته إلى إفريقية، وكان معه في واقعة القيروان، واشترك في الأحداث التي تلتها إلى أن سقط في معركة سد بونه ببسيط شلف سنة 751هـ. انظر العبر 7ـ 144، 588 ـ 592 والمسند لابن مرزوق. أما العسري فهو أبو معروف محمد بن يحياتن، وقد تقدم ذكره، وقمقاما = وقمقامها، والقمقام السيد.





214. وتَقَدَّمَ في المُقدْما الناصرْ
وَالعَسْري لَيْثَها وَقَمْقامَا[1]

215. جازَ القروانْ بيَوم وَقيل أكْثَرْ
وَاعْتَرَضْ لَهُمْ نَهْر يَقْطَعْ القاما

216. وَالطِّين بهْ قَدْ بلَغْ إِلَى الثَّغْرَا
قَطْع العَوَّامْ وثَقَّفَ الخَوْضَانْ[2]

217. وَالْوَاد بَيْنَم بَرَكْ ولاالزُّبْرَا
وَالعُرْبَانْ اقْبَلَتْ وَلاَ الْغرْبَانْ[3]

44

218. اقْتَتْلُوا القَوْمْ فَوْق ذَاكَ الوَادْ
عُرْبَانْ والرُّومْ وغزٌ وزَنْاتَا

219. وبَنَ اَخلَفِ عَمَلْ ولا المقداد
وْقصَدْ في الخَيْل قَصدْ لَفَتَاتَا[4]

---

1. يقول ابن خلدون هنا« فوافاهم في المرج ما بين بسيط تونس وبسيط القيروان»العبر7: 573.
2. الثغرا = الثغر، ويقصد الفم. ولعل الشاعر يتحدث عن هذه المنطقة التي توجد بها المستنقعات، وهي تقع من القيروان في حدود المسافة التي يقدرها الشاعر والخوضان الذي يخوض في النهر ولا يحسن العوم.
3. بينم = بينهم، والزبرا = الزبرة، وهي كتلة الحديد، ولعله يشير إلى السد وزبر الحديد الواردين في سورة الكهف «فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا، قال آتوني زبر الحديد.» وبرك : هكذا في الأصل، ومعناها قعد، فكأن الواد قعد حاجزا بين المتحاربين، والمستعمل عادة في هذا المعنى هو فعل قام ولعلها فرك أي فرق وفصل. وقوله ولا الغربان لعله يشيرإلى سواد بشرتهم أولباسهم أو شؤمهم. وعربان الثانية هكذا وردت في صلب المتن، وفي الطرة اعرب.
4. ابن أخلفي لعله من قادة الجيش المريني، ولم نقف لعه على ذكر وبنو خلفي من أفخاد بني يابان والمقداد هو المقداد بن الأسود الصحابي الفارس المشهور، وفتاته هو أبو الليل ابن حمزة، وقد تقدم ذكره.





220. طَعْنوا طَعْنة ولاَانْقضَى الْميعَادْ
وَالعُـرْبَانْ تَكْنـفُوا بِرَايَـاتَـا

221. وَانْهَزْموا وحرّفوا الْخيمات لَوْرَا
يَحْموْا بالسَّيف عَنْ تيسدْنَـانْ[1]

222. ما تَشهِّكْ غَير براقِع العذْرَا
كِفْ تَسقْطْ مع عَمَايم الفُرْسَانْ[2]

45

223. قَالُوا لَوْ تبعْهُم في ذاك الْيُومْ
مَا كان يتْرُكْ نَجِبْ يجرُنْجيب[3]

224. نزَل القرْوَانْ بِجَيْشه المرْكُوم
ودْحا العَسْري ورا الْعربي كالذِّيبْ[4]

225. فَإِذَا لحقَمْ وَحرْكَمْ وَتَقُّومْ
وَحمَا النّارْ بيْنَ شاشِيا وقْضيبْ[5]

---

1. الخمات : غير مشكولة ولعلها : الخيمات. لورا = للوراء و تيسدنان - النساء في لسان زناتة.
2. كف : حين، لمّا. وسقوط البراقع والعمائم كناية عن الالتحام.
3. نجب = نجيب، والنجيب الأول الرجل الحسيب، والنجيب الثاني البعير الخفيف السريع
4. القروان = القيروان، المركوم : المتراكم ودحا = وضحا أي وأضحى، والعسري تقدم ذكره.
5. لحقم = لحقهم، وحركم = وحركهم = وشاشيا = شاشية والشاشية معروفة يضعها الرجل على رأسه وقضيب : هكذا في الأصل، ولعلها وقطيب، وهو ثوب معين تغطى به المرأة شعر رأسها والكلمة مسموعة في البوادي المغربية، وفي وصف جند أبي الحسن مايفيد أنهم كانوا يلبسون الشواشي وقد يكون الأعراب هم أصحاب القطيب فجعله الشاعر شعارا لهم كما جعل الشاشية شعارا لجند أبي الحسن، والمقصود وصف احتداد العراك واشتداد الالتحام بين الفريقين.





226. صَاحَتْ في هَوادْجا بْنَاتْ عَذْرَا
يَا لَهْلاَلْ يَا لَكَوْكَبَا غَسَّانْ
227. وَتْرَى العَرْبي يعضْ في الظُّفْرَا
ويَقُول لَبَّيْكِ يَاقَضيب الْبَان[1]

46

228. مَازالْ حتَّى كَسْرَمْ ثْلَث مرّاتْ
لاكَنْ إذَابَلْغَ القِبَبْ ردُّوه
229. وَالكسْرَ الرَّابْعا علْهِ مرّاتْ
وْفذيك الرَّابع العرَبْ طَحْنُوهْ[2]
230. تْيد بالنّاصر اشْهَرَ الرَّايَاتْ
وَحلْفْ باللاّزم[3] وَشَيْبَتْ بُوهْ
231. لاَوَلاَ لهُمْ ظهْرَ ولا عَرَاً
لَوْ تلْقَح في الديا أَعْوَاد الزَّان

---

1. في هوادجا = في هوادجها، ويعض في الظفرا: لعل معناه أنه يعض أنامله من الغيظ. ياقضيب البان : في الطرة : ياغصون، والبان : شجر معتدل يشبه به القد.
2. كسرم = كسرهم أي هزمهم، وثلث = ثلاث، القبب : الخيام أو الهوادج، عله = عليه، مرات = مرت، ورسمها غير واضح في الأصل وفديك = وفي ذيك، طحنوه أي هزموه .
3. تيد : وإذا، وقد تقدم الكلام عليها ص : 104 وحلف باللزم : أي باليمين اللازم.



232. وافْعَلْ فعْل الأسَد إذَا هـرّاً
عِنْدَ اللّبْو وكَشَّط الأسْنَانْ[1]

47

233. قَاسَ النّاصِروخَاهْ حروبْ داحِس[2]
لوْلاَ اليَاقُوت صبْرُكثْر للنّارْ[3]

234. تَنْظُرْ للْقوس عَطْلُو الْفَارسْ
بعْدَ ان كَانْ مِثل بُودْبا الطّيّارْ

235. ورْشَاش الدّم فِي الْوَغَا الداحِسْ
يَنْظَحْ في هوَادَجْ نُحور الأبْكارْ[4]

236. وعْجوزْ الحيْ تفْسَخْ الظّفْرَا
ومـرّتْ بْنا تَسْبَلْ انـزرَانْ[5]

---

1. لاولا = لاولَى. وولاهم ظَهْرَهُ أو ولاّهم دُبُرَه كما تكرّر في القرآن الكريم معناهُ الانهزام والفرار، ولا عرا أي لاترك الجيش عاريا للعدو، قوله لو تلقح.. الدبا = القرع والزان شجر معروف، ويستحيل أن يكون بينهما لقاح وهو تعبير من قبيل قولهم : حتى يشيب الغراب، وقد تقدم مثله ص : 85 وقوله : وافعل فعل الأسد.. يذكر بقول المتنبي :

إذا رأيت نيوب الليث بـارزة   فـلا تـظن بأن الليث يبتسم

واللبو = اللبؤة، وكشط = كشف.
2. قاس = قاسى أي قاسى الناصر وأخوه أبوالفضل حروبا كحروب داحس والغبراء المعروفة.
3. الياقوت لا تكلسه النار ويظل على حاله كما قيل.

وطالما أصلي الياقوت جمر غضى   ثم انطفى الجمر والياقوت يـاقوت

والمقصود ان معدن الولدين كريم وصمودهما في المواقف عظِيم وصبرُ= صبره، كثر = كثير.
4. هذا كناية عن الالتحام في المعركة والقوس إما قوس الرِّجل أو عموم القوس وبودبا الطيار هو الجراد فيما يبدو وقد سبق ورودها : ينظح = ينضح أي يرش. وقوله : في نحور الأبكار. علق عليه في الطرة بقوله : لعله الحور الأبكار.
5. لعله يقصد بعجوز الحي أم فتاته أمير البدو، وتفسخ الضفرا أي تحل ظفيرتها كناية عن حزنها، ومرت بنا أي امرأة ابنها فتاته و تسيل انزران اي ترسل دموعها كالأمطار التي هي انزران بالبربرية، وفي الاصل مرت بنتا، وأمزران، ولعل الصواب ما أثبتنا.





237. وَتْقُلْ لاَ أَنْظُرْ مِنَ البُجَاتْ نَظْرَا
وَاحَيَ العَّرَامْ وشَدْكُلْ جِبَّانْ[1]

48

238. مدُّ القَطْعَاتْ وشَرْعُو الرَّايَاتْ
وزَنْاتَ عاكِفِين عَلَى التَّعْرِيف[2]

239. إِذَا هَزّوا اللَّمْط[3] في الوَغَا وَدْوَاتْ
غَرَّدْ فيها الوتَر وغنَّا السِّيفْ

240. والناصر ردها إذا هي جاتْ
إِنَا هَزَمْ ذا الرِّيفْ يَرْجع علِهْ نَا الرِّيف[4]

241. سَمْعَ السُّلطانْ بِمَحْنَتُو وَجْرَا
وَقَلَّعْ بِمْحَلَةُ عَلَى الأَرْكَانْ

---

1. البجات = البوجات، هي الهوادج، والعرام : الشجاع.
2. القطعات : جمع قطعة وهي الفرقة من الرجالة أو الخيالة والتعريف، تعيين المصاف، وقد تكون التصريف أو التحريف أي الانحراف والانصراف عن القتال وزنات = وزناتة.
3. اللمط اي الدرق اللمطية، وهي تصنع من جلد حيوان يدعى اللمط، وتمتاز الدرقة المصنوعة منه بالصلابة بحيث لا يؤثر فيها شئ كما يقول الوزان في وصف افريقيا، في الوغا = في الوغى والوتر = وتر القوس وغنا = وغنى.
4. الريف الجانب والجهة، عله = عليه.





242. أبُو الفَضْلْ[1] أَحْبِيبِي وِيْ صَبْرَا
لـمَّنْ عَايَـنْ وشَاهَد البُرْهَانْ

49

243. قَامَ بِالثَّقْلا وَجَا عِنَان زَرَّابْ
وَنَزَلْ بمَحلْتُو عَلَى الْمَنصَفْ

244. تَلْقاه الصَّافِنَاتْ بلا رُكَّابْ
صَرْعوا أَصْحَابَا بقَدْر ما تَطْرَفْ[2]

245. فَالسُّوقْ وَامَرْ أَفْرَاجْ يُضْرَبْ[3]
وَعَلَيْهِ قَد المَيَاتْ طَبْل تَقْصَفْ

246. واطْواد الخَيْل تْضَبط الوُزْرَا
وَتْمَيَّـز كُل طَايْـفَا في مكَانْ

1ـ ابو الفضل محمد من اولاد أبي الحسن المريني، كان أسن من أخيه أبي عنان. بغية الرواد 1 ـ 152 كان مع والده في حركته إلى افريقية، وشهد واقعة القيروان، ولما رجع، أبو الحسن إلى المغرب، تركه خليفة له في تونس، بعد أن تزوج ببنت عمر ابن حمزة شيخ الكعوب، ثم رجع إلى المغرب، وظل وفيا لوالده إلى أن مات بهنتاته، فقدم هو واخوه أبو سالم على أخيهما السلطان أبي عنان، فوجههما للجهاد بالأندلس ثم شاء الله أن خرج أبوالفضل على أخيه أبي عنان وقتل في ظروف مؤسفة. انظر العبروالاستقصا والاحاطة.

وأبو الفضل محمد والناصر وأبو سالم ابراهيم هم أولاد أبي الحسن الذين كانوا إلى جانبه في محنته، وثمة «ابن صغير من أبناء السلطان عقد له على عسكر من اهل المغرب وأوعز إليه باللحاق بتونس.» وهذا هو عبد الحق الذي خلفه والده بمدينة الجزائر واليا عليها بعد ما توجه إلى المغرب، ثم اضطر إلى تركها واللحاق بالأندلس، وظل بها «إلى أن استدعاه أخوه ملك المغرب، فانصرف عن رضى منه ولم ينشب أن هلك مغتالا في جملة من أرداهم الترشيح». العبر : 7 576 والإحاطة 3 : 534 : 535.

2ـ بالثقلا : بما معه من أثقال، زراب : مسرع، بمحلتو = بمحلته أي بجيشه وعلى المنصف أي أنه نزل في المنتصف بين الجيشين. الصافنات ـ الخيل، صرعوا اصحابا أي صرع أصحابها، وبقدر ماتطرف لعله كقولنا في رمشة عين.

(140) فالسوق : هكذا في الأصل أي في السوق، وقد تكون محرفة عن البوق أي في البوق وامر = أمر. إفراج : لا نعرف هل هي افراگ بمعنى مخيم أم أنها إفراج بمعنى انسحاب، يضرب : لا نعرف هل تعود على افراج بمعنى أفراگ أم على فالبوق إن كانت هي الصحيحة.





247. واغْمَ النَّبْل فج ْ كالْمطْرا

وَالعُرْبان اقبْلَتْ من الضَّفان ْ[1]

50

248. وكَانَتْ ذَا الْوَاقِعَا في ذَا الْحجَّا

فَثمْنَى وأَرْبَعين وسَبْع ميَا

249. عَيَّدْنَا يَوْم الاربْعا البْهَجْاَ

وفي يَوْم الاثْنَيْن شابَت اللَّحْيَا[2]

250. ماتدرِ من بَنّتْ عَلَى الحُجَّا

لا الْعَرْبِيَا يِيَا وَلاَ الْمرينيَا

251. وَسْلِيمْ جَابُو دبْاَ عَلَى الحَضْراَ

وَنْداَ السلّْطَان بِقوْل فُلاَنْ وفلاَنْ[3]

252. وَخَرَّج لَمْ دْشَم عَلَى دَوْراَ

مَايَطْفي نَارْ مُضَرْ سوَى قَحْطَان[4]

1ـ وأطواد الخيل : يعني أعدادها الهائلة اغمم النبل = وغمام النبل أي كثرة النبل التي تبدو كالغمام. فج ـ في وجهه، والضفان ـ هكذا وردت في الاصل، ولعلها كالضفاف أي الجهات.

2ـ يقول ابن خلدون « ولما قضى منسك الأضحى، من سنة ثمان وأربعين، ارتحل من ساحة تونس يريدهم» وانجلت المعارك عن خيانة كبرى «ونجا السلطان إلى القيروان فدخلها في الفل من عساكره من المحرم من فاتح تسع وأربعين» العبر 7 ـ 573 أما التاريخ الذي يذكره أخوه يحيى فهو«يوم الاثنين سابع محرم سنة تسع وأربعين وسبعمائة» بغية الرواد 2 ـ 145. وكذلك ورد في شرح رقم الحلل لابن الخطيب 94 ط. تونس «وكانت هذه الوقيعة يوم الاثنين سابع شهرالمحرم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة» وانظر التماثل في العبارة بين قول ابن الخطيب «وكانت هذه الوقيعة» وبين قول الشاعر «وكانت ذا الواقعا أي الوقيعة».

3ـ سليم اي قبائل سليم، وفي الأصل : وسلام. ودبا : جراد، والحضرة، يقصد القيروان، وجابو دبا أي أقبلوا بعدد كالجراد. ندا = نادى.

4ـ لم : لهم، دشم = جشم، وكأن الشاعر اعتبرها قحطانية. ومن المعروف أنها مضرية. وعلى دورا أي بدورها. ومعنى الشطر الثاني أنه لايفل الحديدالا الحديد.





51

253. بَارزَتْ عَرَبْ أَزْغَارْ وتَامَسْنَا

مَعْ سُكَّانْ تَادْلاَ وتِيمَجّيطِين[1]

254. وَالسَّحْرَاوِي ومَنْ حضرمعنَا

مِنْ سُكَّانْ مَلْوِي السُّوِيدِيِّين[2]

255. خلَتْ ثمَّ مَعَ الْكعُوبْ عَجْنَا

هَوْلاَ غُرْبَا وذُوكْ بَلْدِيِّين

256. أشْ مَقْدَارْ مانْطوَّلْ الهَدْرا

دَفْعَ السُّلطان وضَفّتْ الْوِيدَانْ

257. فَدْوَتْ بْنَدَاهْ وَمَدَّتْ الْكَسْرَا

حَتَّى بَلْغَتْ كتَائِبْ الْكُتْبَان[3]

52

258. جرْت بهَا العَرَبْ إِلَى فَيْفَا

ما قَطْ بْتَلْ تُرْبهَا بمْطَرْ

1ـ أزغار هو البسيط المعروف اليوم بالغرب، وعرب أزغارهم قبائل رياح، وتامسنا كانت تطلق على ما بين أم الربيع وأبي رقراق، وعرب تامسنا هم بنو جشم. العبر والاستقصا 2 : 199. وتادلة إقليم يقع بين وادي العبيد ووادي أم الربيع مع الدير المحاذي لجبال الاطلس (وصف افريقيا للوزان). والمجاطيون من سكان إقليم تادلا وتيمجيطين صيغة بربرية للمجاطيين

2ـ كان عرب سويد من زغبة يسكنون في نواحي ملوية، وكان شيخهم عريف مقربا من السلطان أبي الحسن. انظر العبر والمسند. والسحراوي = والصحراوي، وقد سبق رسم الصحراء بالسين. وملوي = ملوية.

3ـ لعل معناها أن جيش السلطان اندفع كالسيل، وقوله : فدوت بنداه. معناه أن الجيش بعد نداء السلطان صاح صيحة رجل واحد وحمل على العرب وكسرهم فانسحبوا. وقوله خلت :أي مضت ومرت. عجنا = عجنة أي معركة التحم فيها الفريقان وذوك : وأولئك.





259. مَمْلُوَّ بِالعَرَبْ عَلَى الضَّفَّا

مَخْلُقْ مُشْتَقْ من حَدِيدْ وَحَجَرْ

260. لَوْ كَانُوا بَنِي مَرِينْ وِرَا الدَّفَّا

مَعَ يَاجُوجْ سُدْ الإِسْكَنْدَرْ[1]

261. ثَمَّ خَانْ كُلْ مَن دَفَنْ شَعْرَا

فِي قَلْبُو من عْدَاوة السُّلْطَانْ[2]

262. غَدْرَتْ تُونَسْ وَاظْهَرَتْ مَكْرَا[3]

حَتَّى الحَاجْ الصَّفِي السُّوَيْدِي خَانْ[4]

53

---

1. الدفا - دفة الباب،ولعل المراد ان بني مرين كانوا يواجهون عددا كبيرا من البدو شبهه بياجوج وماجوج في الكثرة، وشبهه بالجراد في مواضع أخرى.

2. يقول الشاعر هنا ان البدو هزموا ولاذوا بالفرار، فتبعهم جيش أبي الحسن، وكأنه تمنى أن لو لم يلحقوا بهم في الرمال، وتركوا سدا بينهم وبين البدو، وبينما الموقف هكذا لصالح أبي الحسن وقعت خيانة بني عبد الواد التي دافع عنها خديمهم يحيى ابن خلدون قال «ولما تراءى الجمعان بظاهر القيروان يوم الاثنين سابع محرم سنة تسع وأربعين وسبعمائة امكنت بني عبد الواد الفرصة في عدوهم فما أفلتوها.... فانتبذوا عن آخرهم، مظللين بأروقة أعلامهم، مردفين بالذين في قلوبهم مرض من عساكر المغرب، وانحازوا إلى العرب، وقد كادوا يهزمون» بغية الرواد 2 ـ 145. انظر العبر.

3. لما بلغ خبرمحاصرة السلطان بالقيروان إلى تونس تحصن أولياؤه في القصبة، وحاصرهم فيها ابن تافراجين الذي انسل من القيروان مع البدو وصنيعتهم ابن أبي دبوس «وزعانف الغوغاء» حسب عبارة ابن خلدون ولكنهم« لم يغنوا فيها غناء». كما يقول. العبر 7 ـ 573 ـ 574. وقوله : مكرا = مكرها .

4. لعل الشاعر يعبر هنا عن رأي شخصي أو حزبي إن صح التعبير، فالمعروف أن الحاج عريف ظل مع وليه أبي الحسن في حصار القيروان، وبعده في تونس، إلى أن وجهه مع ولده الناصر إلى المغرب الأوسط، «لارتجاع ملكهم ومحو آثار الخوارج من أعمالهم» ولما فشلت الحملة «خلص عريف بن يحيى إلى قومه سويد ثم قطع القفر إلى المغرب الأقصى ولحق بالأميرأبي عنان» ومن هنا انقطعت صلته بأبي الحسن، إلى أن توفي بعده، «ودفن حيث طلب إلى جانب خليله المولى أبي الحسن سنة خمس وخمسين» العبر7 : 599 والمسند 367 ـ 368.





263. غَدْرَتْ تُونَسْ وَنَافَقْتْ في الحينْ
وَارْتَـدَّتْ بَعْدَهَا السُّوَيْدِيَا

264. وَجْيوش الغَرْب عَنْ شْمَالْ وَيَمْين
لُفْ الـرَّايَـا وزَجْ بُـورِيَّـا[1]

265. حَتَّى مَنْ كَانْ حقق تَجِدْهُ عين
بَنْ زَكْري قَلْبَ الْعَصَا حَيًّا[2]

266. هَذَا وكُثْر بني مريـن فُقْرَا
فَرْسُ مَهْزُولْ وَصَاحْبُ جَيْعَانْ

267. قُلْ لي السَّحْ مَنْ يَنُوحْ وَمَنْ يَقْرَا
فَوْقَ ذَا الْمَيِّتْ وَمَنْ يَسُقْ الأكْفَانْ[3]

54

268. قْوَى الشَّرْ في مَحَلَّة الرُّومي
لَيْث الْغَابَهْ يَصْطَحبْ مَعَ الثَّعْبَانْ

---

1. وزج بورية هكذ شكلت وبورية لعله الطبل، وزجه اي خرقه وثقبه بالزج.
2. بن زكري لعله يعني ابا سعيد بن أبي زكرياء بن يغمراس الذي جر هو وأخوه وأهلهما الهزيمة على أبي الحسن، واشتركوا مع البدو في محاصرة القيروان وتونس، انظر العبر وبغيةالرواد، وعين في البيت معناها جاسوس، وقد تكون محرفة عن يعين، وزكري. لعلها بوزكري، وكذلك كلمة قلب لعلها وقلب.
وقوله وقلب العصا حيا فيه إشارة إلى قصة موسى وسحرة فرعون والمعنى هنا أنه بلغ الغاية في الخيانة.
3. السح = الصح : الصحيح أي الحقيقة، يسق = يسوق أي يحمل.





269. وَرْجَعْ مَنْ كَانْ مَعُوا اِلوا يَرْمي
لِوَجْهِ السُّلْطَانْ وَيَقْصِدِ الْعَيْنَانْ

270. حَتَّى مَاحْمَي الأمير سوى الرُّومي
مَاحَفْتُ مِنْ بَني مَرِينْ أَعْيَانْ[1]

271. المَقْصُودْ مَالَتْ الصَنْجَ الأُخْرَى
والقِنْطار مايْقُم بِثُلْت أوْزان[2]

272. أَمَا تَعْمَل جِهَالَة الأُمْـرَا
والرِّجْلَ اليَابسَا مِنَ الْحِرْمَانْ

55

273. لَوْ شَهَدْت الأمير يُقَلْ هُو الْيَومْ
كَذَّب الشَيّطَانْ وَلاَ وَجَدْ ثَاني[3]

274. حَتَّى مَاَحْمَاهْ سوى بَنِيه وَالرُّومْ
عَقْدُ خَلْفُ[3] بِأَلْف نَصْرَانِي

1ـ رجع الشاعر للكلام على معركة القيروان، وهو يأتي هنا بأخبار أغفلتها الحوليات، وتتعلق بدور الفرقة الأجنبية في تغطية انسحاب أبي الحسن إلى القيروان، ونشير هنا إلى أن الدول القديمة عرفت استخدام العناصر الأجنبية في الجيش، كان شئ من هذا عند بعض المرابطين والموحدين والمرينيين والحفصيين وبني عبد الواد، وكانوا يستخدمون لأغراض عسكرية معينة، ولايستعملون في حروب المسيحيين أو حركات الجهاد، وذكر العمري أنهم كانوا يركبون خاصة خلف ظهر الملك. ورقات الأستاذ المنوني 71 ـ 291. والمسند 282 وقوله : ليث الغابة : يمكن أن تقرأ ليث الغارة وما حفت كأنها ما حمت.

2ـ الصنجة، وهي كفة الميزان، والشطر الأخير يشبه ان يكون مثلا من أمثال العامة، الرجل = الرجلة، واليابسا = اليابسة وفي البيت الأخير نقد شديد ويوجد مثله في مواضع من الملعبة.

3ـ لعل المعنى أن السلطان نجا في هذه المعركة بأعجوبة، حتى لكأنه عاش بعد أن مات، وقد أرجف الناس بموته فعلا بعد هذه المعركة : وقوله ـ يقل هو اليوم اي يقال من عثرته ذلك اليوم، وانظر في استعمال «هو» بمعنى «ذلك» كتابنا أمثال العوام 1 ـ 207.

4ـ خلف اي خلفه، ولعل الصواب ـ حلق ـ حلقة، بمعنى أن الروم عقدوا أو شكلوا حلقة أو دائرة لحماية السلطان، أو تكون عقدوا أي كونوا عقدة ولم = لهم، وقد تكون لو أي له. قايدم = قائدهم. وفي الأصل ـ قايدج وعز الذهب ـ قد تكون غزر الذهب، وحشوم = حشم.





275. بَعْدَ أَنْ رَأَوا عِزَّ الذَّهَبْ وحَشْومْ
وحلَفْ لَمْ قَـايْـدَمْ بأيمَانـي[1]
276. مَا تَمْشْ غَيرِ عَلَى هوَاكْ جَهْرَاً
حَتَّى تَدخُـلْ مَدِينَة القَيرْوَانْ
277. اَلْيَوم تَعْرَفْ مَقَامْ بَنُو الصَفْرَاَّ[2]
لِمَّنْ فَرْدُوكْ عَصَابَة الإيـمَانْ[3]

56

278. خَاطَبْ لاَ بْنِي مَرِينْ لِسَانْ الْحَالْ
بِاللَّهْ اسْمَعْ كِفْ خَاطَبْ آيْتْ مَرينْ
279. قَالْ لُمْ مَا تَسْتَحوْا إِذَا يُقَالْ
أَوَهْ وَلَـدْ الشُّذَانِقْ السَّمِيـنْ[4]
280.خَلَّيْتُمْ الحَشْمْ وَبَيْتَ المَالْ
حَتَّى مَا احمَاه سِوَى العَدُو في اللِّينْ
281. اثْنَيْ عَشَرَ الفْ خَيْل مُخْتْرَاً[5]
عَيَتَكُم دون عَرَبْ ودونْ وصْفَانْ

1ـ بنو الصفراء، وبنو الأصفر، هم الروم.
2ـ لمن فردوك = لما ان افردوك أي حين أفرودك و تركوك مفردا وحيدا.
3ـ أيت مرين: بنو مرين، قال لم = قال لهم، أوه = أواه أي نصره، الشذانق : ـ الصقر، ويبدو لي أنها الشذانقي نسبة إلى صاحب الشذانقات لذريق الذي فتحت الأندلس في وقته، والمقصود طبعا قائد فرقة الروم الاسباني.
4ـ سبق للشاعر ان ذكر أن عدد بني مرين عند الخروج من تلمسان كان ستة عشر ألف. راجع رقم
5ـ وكلمة مخترا مختارا ووصفان جمع وصيف وهم طائفة من الجيش خاصون بالسلطان ودون: فضلا عن.





282. واثني عشر ألف مَايْقُمُ حَيْرًا
قَالَ الْهَادِي سوى مِن الْخِذْلَانْ[1]

57

283. بِاللَّهْ اسْمَعْ مَاجَرَّتْ بِهِ الْأَقْلَامْ
فِي مَنَامَ فِي مَكَانَت التَّشْبِيه

284. كَانْ قَالْ لِي شَخْص : رَيْتها فِي مَقَامْ
مَا نَذْكَرَ اسْمه وَلَا نَفْشِيه

285. رَأَيْتَ بَدْرَ السَّمَا نَزَلْ بزحام
حَتَّى دَخَل طَاقْ وَفِيه سَدْ عَلَيه

286. فابْقَ مُدَّه يقالْ فِي ذَا الثَّغْرَا
تُسْمَع لو حَمْحَم كَصَهْل حِصَانْ

287. أَنَّ السُّلْطَانْ فِي مدنت تَجْرَا
مَايَسْعَاهُ لاصدُرْ وَلَا دِيوان[2]

58

---

1. مايقم = مايقومون (يعني للقاء عدوهم) حَيرا = حيرى أي متردّدين خائفين، والهادي هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والاشارة إلى حديث نبوي في الموضوع وفيه : «ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة».

2. قص الشاعر في هذا القسم رؤيا رآها بعض أصحابه وعبّرها بما وقع للسلطان أما ألفاظ القسم فهي : ما جرتْ = ما جَرَتْ. في منام = في منامة، في مكانت = في مكانة أي في مقام ريت = رأيته، نزل بزحام أي بجمهور كبير وكنت في الطبعة الأولى ذهبت إلى أنها تحريف برج حمام، طاق : هي الطاقة التي تكون في الحائط وقد يكون لها باب صغير. الثغرا = الثغرة وهي الثلمة في الحائط التي عبر عنها قبل بالطاق، حمحم = حمحمة كصهل = كصهيل، أنّ = أنه، في مدنت : هكذا في الأصل، وكنت ذهبت إلى أنها تحريف في مدت أي في مدته، ما يسعاه أي ما يسعها، لا صدر = لاصدور.





288. لمَنْ رأوْ السَّبعْ دْخلْ تاسا
وَالْأمّْ كُلْها عْلـهْ ترْمِي

289. وبْداتْ الرُّقْم تَكْشَفْ أضْرَاسَا
لِلَّدْغ وافْرَدُوه ذَوِي الرَّحْمي[1]

290. والصُّبْحِي إذَا انطفَا رَاسا
دَبّ في البْيتَ الأرْقَمَ السَّمّي[2]

291. غدْرَتْ تُونَسْ واشْتَهَرْ مكْرَا
وقْسمْطِينا الْهْوَا وفِيها كَان

292. تَاشفين أدّي تَنْقَدْ من الْكَفْرا
وَرَدّوه المسْلِمينْ إلَى مكَانْ[3]

59

---

1. تاسا كلمة بربرية من معانيها الوسط أي وسط المكان والميدان ولعل الشاعر شبه السلطان في ميدان معركة القيروان بالسبع في ميدان الملعب واستوحى التشبيه مما كان معروفا في عهد بني مرين، الوزان (1: 1294) وورقات الأستاذ المنوني 34 ـ35 وفيهما وصف ميدان الأسود والأم = والأمة، عله = عليه، وابدت = وبدأت، الرقم : الحيات، ومفردها أرقم. أضراسا = أضراسها، ذوي الرحمي = ذوي الرحم.

2. الارقم ـ الحية، والصبحي = الصبحية وهي قنديل معدني، جاء في جني زهرة الآس 79 «وعدد الصبحيات التي توقد فيه أي في جامع القرويين بطول ليالي السنة سبعون» وفي معجم بطرس القلعي صبوحية، وفسرها بأنها قنديل معدني صغير. دوزي 1ـ 814 ورسا = رأسها، السمي أي السام.

3. تسمى قسمطينة في كتب البلدان بقسنطينة الهواء، وسميت بذلك لافراط علوها، وشدة منعتها، الادريسي 265 والمعجب 349 أما مايشير إليه الشاعر، فهو أن أهل قسنطينة لما بلغهم خبرنكبة السلطان أبي الحسن اشرأبوا إلى الثورة، وكان فيها يومئذ وفد من زعماء قشتالة، بعثهم ملكها لمصاحبة الأمير تاشفين، والتهنئة بتملك افريقية، ووفد من مالي قدم للتهنئة أيضا، وأحد أولاد السلطان على رأس فرقة موجهة إلى تونس، وعمال المغرب القادمون بالجباية، وقد لجأ الجميع إلى قصبة قسنطينة عند ما ثار أهلها، ثم خرجوا منها إلى بسكرة، وظلوا بها إلى أن خرج ابو الحسن من حصار القيروان إلى تونس، فوفدوا عليه بتونس في رجب 749. انظر العبر 7 ـ 575 ـومكرا = مكرها، وادي : الذي، وتنقد : أنقذ، والكفرا = الكفرة إلى مكان : إلى مكانه أو إلى ما كان عليه.





293. قَامَت في كل قَاعِدِ الْبَاعَا
يَيْن طَلْب الثَّارْ وفَاقَت الحيَّاتْ[1]

294. ابْن النَّوار انْكمَشْ من الْقَاعَا
في بْجَايَ وارْتَمَى ورْا الدَّفَاتْ[2]

295. سَرْحَان الوَغْد طَاعَتْ الطَّاعَا
في مَازونَا يُفَرِّق الكِسْوَاتْ[3]

296. وكَأَن إبْلِيسْ صرخْ بِذَا الكَسْرا
نَاقُوسُ في البَحْرْ وكانْ رنّانْ[4]

297. وعْلَت منهَا المغَاربَا حُقْرَا
لاَغرْبي تفَرْ عَن أَسْنَانْ[5]

60

298. في القرْوَانْ بَرْحُوا عَلَى الضُّعْفَا
ءَامَن هُو لِلْهُبوطْ يقُمْ يَهْبَطْ

---

1. قاعد = قاعدة أي مدينة كبيرة، والباعا : هكذا في الأصل وفصيحها : الباعة، ولعل معناها السمامرة أي سماسره الفتن، وكنت في الطبعة السابقة ذهبت إلى أنها الفاعا = الفاعها أي أفاعيها ولكن الباء واضحة في الأصل وقوله بين طلب الثار أي بين طلاب الثأر.

2. هو محمد بن النوار والي أبي الحسن على بجاية، ويشير الشاعر إلى أنه لم يدافع عن البلد، وقوله وارتمى وراء الدفات اي خرج من أبواب المدينة وتركها لأتباع الحفصيين انظر العبر 7 ـ 559 ـ 563. وراجع ماتقدم ذكره في الحاشية رقم 74 والقاعا = القاعة، والدفات جمع دفة أي الباب.

3. هو سرحان قاضي مازونة، كان مقيما لدعوة السلطان أبي الحسن بها، ثم سولت له نفسه الانتزاء فدعا لنفسه، انظر العبر 7 ـ 583. ومعنى طاعت الطاعا. أطاعته الطاعة أي الرعية. والكسوات : جمع كسوة، ولعلها من أجل تكوين جيش.

4. الكسرا = الكسرة أي الهزيمة. أي كأنما إبليس دعا البلدان الساحلية إلى خلع طاعة المرينيين.

5. حقرا أي ذل وهوان، والغربي = المغربي، ومعنى الشطر الثاني ان اهل المغرب خلال الحادثة اضحوا وكأنهم ليس فيهم رجل مجرب، وفي خطبة الحجاج ـ لقد فررت عن ذكاء وتجربة، وفي الأمثال عينه فراره اي منظره يغني عن ان تفر اسنانه وتخبره، ويقال في كلامنا الدارج : فرني... بصيغة الأمر، على سبيل التهكم والمعنى لست صغيرا بل مسن مجرب.



299. وتَرَى الغَرْبِي يَصِلْ عَلَى الضَّفَّا

لِلْـعَرْبِية ولاتـقُلْ تقْـنَـطْ

300. كَيَبْقَ عِنْدَ اشْهَرْ عَلَى الصَّحْفَا

فَإذا رَامَ الرَّحِيل تَقُلْ كَشْطْ

301. مَاتَسْمَعْ غير صَوْتْهَا بكْرا

ياعِمْرانْ قُمْ جَرِّد الضِّيفَان

302. مَاهي الرَّجْلاَ تَسَمَّن الجَزْرَا

وَتَعَيَّدْ جَارْتِي بهَاحَنَّانْ[1]

61

*303. دَخَلَ السُّلْطَانْ في يَوم عَاشُورَا

دَارْ القِرْوَانْ ضَعِفْ قَلِيلَ المَالْ[2]

304. وَبْقَى فِيهَا وَهِـيَ مَحْسُورَا

سَبْعِينْ لَيلَه يُقَالْ وسَبْعْ لَيَالْ[3]

1ـ يصف الشاعر في هذه الأبيات حال فلول الجيش الذين رجعوا إلى المغرب، وماعانوه من نصب وسغب وسلب، حتى تساقطوا إلى أبي عنان في تلمسان «عراة زرافات ووحدانا» وبرحو : نادوا، والغربي = الشخص من أهل المغرب الاقصى. والضفا لعلها ضفة الوادي أو نحوه حيث خيام البدو، وعند = عندها والصحفا = الصحفة والجمع صحاف وهي كالقصعة، وكشطه سلبه ثيابه وجرده منها والضيفان : الضيوف.

والرجلا : الرجلة وهي نبات معروف، والجزرا = الجزرة وهي الشاة، وكأن البيت يشير إلى إلى مثل عامي قديم وهو : ما عمل الغنزي فالجبل الجزار يخرجو منو. الزجالي رقم 1311. وحنان: وردت في الأصل بالتشديد والبريح أو النداء المشار إليه تكرر في حركة أبي عنان حسبما في «الفارسية» فقد ذكر ابن قنفدانه «ارتحل من قسنطية مغربا غير مختار لنداء كل من في محلته بقولهم «الغرب الغرب».

(*) من هنا تبدأ مخالفتنا للترتيب الموجود في الاصل، وذلك إلى آخر رقم 317 ثم نرجع إلى ترتيب نسختنا وقدذهبنا إلى هذه المخالفة بناء على مايقتضيه سياق الأحداث.

2ـ عاشوراء : عاشر محرم، وذهب ابن خلدون إلى أن السلطان دخل القيروان في ثامن محرم كما تقدم. والقروان = القيروان، وضعف = ضعيف.

3ـ محسورا= محصورة، والمدة التي ذكرها الشاعر قد تكون محسوبة بالضبط، لأن السلطان دخل القيروان في عاشر محرم، وخرج مها آخرربيع الثاني انظر العبر 7 ـ 574.





305. والسُّلْطَانْ في الصَّحْنْ عَلَى سُورَا

يَرسَل بالصَّالِحِين وَلاَ يُقْبَلْ[1]

306. جَالِسْ بَيْنَ المُدَرِّسِينْ يَقْرَا

بَيْنَ فُنُونَ المشَايخ الخُزَّانْ

307. سحْنونْ والقابْسِي وَمَا جرّا

وابن أبي زَيْد مُلْتَقَى البَحْرَانْ[2]

62

308. وَإِذَا مَسُّ القنَطْ رقَا الصمْعَا

يتْفَسَّحْ بِالنَّظَرْ بشمَلْ وَيَمِينْ

309. يَنْظُرْ لَمْعْ السُّيوفْ مَعَ القَطْعَا

كِنْجُوم اللَّيْلْ فـوْقَ الأَرْضِيـنْ

310. والفُسْطَاطْ دارْ بهَا وَلاَ الرَّبعْا

مِنْ بَاب القيْروَان لِباب الصِّينْ[3]

1ـ سورا = سورها، والشاعر يشيرإلى محاولات الصلح والتفاهم مع الأعراب لفك الحصار إلى أن تم ذلك.

2ـ الخزان : جمع خازن، وهي هنا بمعنى خزنة العلم، وسحنون هو أبو سعيد سحنون بن سعيد المتوفى سنة 240هـ والقابسي هو أبو الحسن علي بن محمد المتوفى سنة 403هـ وابن أبي زيد هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد المتوفى سنة 386هـ. وما جرا = وهلم جرا، وملتقى البحران = ملتقى البحرين ولعل المعنى أن ابن أبي زيد التقى فيه بحر علم المشرق وبحر علم المغرب.

3ـ الفسطاط = الخيام، والربعا = الربعة، المحل المسور، لباب الصين : هكذا في الأصل ولايوجد باب الصين من أبواب القيروان فيما وقفنا عليه ولعله باب الطين، وهو المعروف بباب القلالين، والقلال هو صانع القلل من الطين انظر في أبواب القيروان وباب القلالين.المسالك للبكري. ومن ألفاظ هذا القسم : مس = مسه، الصمعا = الصومعة أي المنارة، بشمل بشمال، القطعا : سماها القطعات في بيت سابق وهي الرماح أو السهام.





311. وإذاجا الليل وطلعت الزّهْرا[1]

يَنْظُر الأرْض بَحْر منْ نيران

312. وفوْقت الصُبْح ضَجّت القَفْرا[2]

بصْياح الإبْل لاَ منْ الأذَان[3]

63

313. يَقُول[4] ياخالق الجْميعْ منْ مَا

أنْتَ أمَلي وَالرَّقِبْ عَلَى قَلْبي

314. تَعْلَمْ مَا كَانْ مَجيئي لِذَا الأُمَا

لاَ مَنْ ظُلْمي لَهَا وَلاغَصْبي[5]

315. إلاّ غيـرّتْ مُنْكَرًا جَمـًّا

فيهَا بِشَريعَةَ النبي العَرَبي

316. صَبْت ظُلْمًا وَبَحْر منْ خَمْرًا

مِنْ حَدْ افرِيقْيَا لِمـزْغَنَّان[6]

---

1. الزهرا = الزهرة وهي الكوكب المعروف

2. القفرا = القفر، ويعني به خارج أسوار القيروان لأنه أرض قفر.

3. صور الشاعر في هذا القسم كيف كان أبو الحسن يقضي يومه في جامع عقبة خلال الحصار، فذكر أن نهاره كان يمضي بين التفكير في التخلص من الحصار، وشهود مجالس الشيوخ الذين كانوا يدرسون مختلف الفنون، ويقرئون مؤلفات سحنون، وابن أبي زيد القيرواني، والقابسي وغيرهم من أعلام إفريقية، ونجد في المعيار للونشريسي وصفا لمجلسين علميين في حضرة السلطان أبي الحسن أحدهما عندما كان محاصرا في القيروان (6ـ 148) والثاني عندما كان في مدينة تونس، وفي المسند ورحلة ابن بطوطة والمنتقى المقصور أخبار عن مجالس هذا السلطان، فاذا مسه القنوط رقي صومعة الجامع، ونظر يمينا وشمالا، فلا يرى إلا سيوفا تلمع، وسياجا من الخيام يحيط بالمدينة من جميع الجهات، وفي الليل تبدو مواقد البدو كبحر من النيران، وعند ما يحين وقت الصبح تضج الأرض برغاء إبلهم، ولاينطلق الأذان أبدا من مضاربهم لأنهم لا يصلون.

4. من هنا تبدأ المناجاة التي اجراها الشاعر على لسان أبي الحسن، وقد وردت في هذا القسم من قوله : يقول.. إلى قوله : الركبان، مع القسم الذي قبلها في غير الموضع المناسب في الاصل المخطوط، وقدرأينا أن السياق يقتضي وضعها هنا .

5. من ما أي من ماء، وفي القرآن الكريم : «والله خلق كلّ دابة من ماء». والرقب = والرقيب، والأما = الأمة ويعني بها الأمة التونسية.

6. صبت = وجدت، وافريقية = تونس، ومزغنان مدينة الجزائر التي يقال لها جزائر بني مزغنان، ويقال أيضا : جزائر بني مزغنة نسبة إلى قبيلة معروفة.





317. وطْريقْ الْحج عطْلوا المَجْرا
تُحْلَبْ فيهَا مصَـارن الرُّكْبَان[1]

64

318. يَارَبِّ كُنْت خدَتْ عبَدْ الْوَادْ
وَفْنيتْ سلْطَانْهُمْ علَى حُجَّا[2]

319. كَانَ يَاتِي الحَجِيجْ بِالرَّحيلْ وَالزَّادْ
ويَرُدُّو قَبْلْ يعْقَدْ الْحَجَّا[3]

230. مَعْ مَا كَانَ جرَى منْ شرَابْ وَفْسَادْ
وَالْمَسْجُونْ يَسْجُنْ أرْبعين حِجَّا[4]

321. ولَقَدْ صبْنَا في قُبْةُ الحَمْرَا
نَاعُورا منْ خمْر لَهَا جرْيَان

322. مَا عطَّلْ حَرْكَتَا ولاَ كَسْرَا
إِلاَ سيْفي وَعَونك أَرَحْمَانْ[5]

65

---

1. انظر تمهيد أبي الحسن طريق الحاج في المسند لابن مرزوق ص : 383 وقوله تحلب كناية عن نهب الحجاج وفرض الإتاوات عليهم.
2. هذا البيت وما يليه في الأصل يقع بعد رقم 302 وقوله على حجا = حجة أي بينة، ويقصد بها اعتراضهم سبيل الحجاج، وردهم اياهم قبل أداء الفريضة. ويقول ابن مرزوق التلمساني «ولما نازل تلمسان وحاصرها كان اعظم ما نقمه على صاحبها تعرضه للمتوجهين من المغرب برسم الحج، ويرى تمهيد الطريق بمنازلتها والاستيلاء عليها، ويعده من أكبر الأعمال» المسند 385.
3. الحجا = الحجة أي قبل تأدية الحج وراجع البيت 137.
4. حجة أي سنة، وهكذا ثم للشاعر في قافية هذه الأبيات استعمال هذه الكلمة التي هي من المثلثات
5. صبنا = اصبنا أي وجدنا و تاشفين هكذا في الأصل ولعلها أبو تاشفين والذي جرت به الأقدار هو قتله، والقبة الحمراء من القصور التي شيدها أبو تاشفين، والناعورة معروفة، ويذكر المؤرخون أن أبا تاشفين كان ممعنا في القصف واللهو. يقول ابن الأحمر في روضة النسرين «وكان فاسقا منغمسا في اللذات خليعا لا يصحو من الشراب وكان فيه تخنث حتى سمي بزهيرة»، وانظر تاريخ الجزائر العام 2 ـ 135 تأليف عبد الرحمن الجيلالي.
وحركتا = حركتها، وكسرا = كسرها وسيف = سيفي.





323. صِبْتَ تَاشْفِينْ وَمَا جَرَتْ بِهِ الأَقْلاَمْ

وتْعَفَفْنَا عَنْ القْبِيلْ قَاطِبْ[1]

324. بَعْدْ اعْدَوَا مْيَا وَخَمْسِينْ عَامْ

مَاسَبِينَا فِيهَا لاَمْرَا وَلاَ كَاعِبْ

325. وَالتَدْرِيكْ مَعَ بْنِي مَرِينْ فِي زْمَامْ

وَالإِحْسَانْ وَالْبَلَدْ مَعَ الرَّاتِبْ

326. جَازَوْا مَنْ حَرْزَمْ مَنَ الشَّفْرَا

أَرَبٍّ بِالْجِفَا وَبِالهِجْرَانْ[2]

327. .... [3]

66

328. أَمَّا تُونَسْ عِصَابَةَ التَّوْحِيدْ

أَنْتَ أَعْلَمْ بِي وَبِهِمْ أَقْيَوْمْ

329. شَارَكْتُمْ فِي الدِّمَا قْدِمْ وَجْدِيدْ

وفْنَيْتُ جَيْشِي فِي نُصْرَتْمْ لِلْيُومْ

1ـ انظر في تعفف أبي الحسن وعفوه عن أهل تلمسان بعد دخولها، مسند ابن مرزوق، 202 والقبل = القبيل، قاطب = قاطبة أي جميعا.

2ـ يعترف يحيى ابن خلدون مؤرخ بني عبد الواد بما يقوله الشاعر، فقد ذكر ان أبا الحسن «استخدم قبيل عبد الواد، وحفظ عليهم رتبتهم، وابقى لشعوبهم وقبائلهم المراسم التي ألفوها بأيامهم» بغية الرواد 2 ـ 142. ويقول التنسي في نظم الدرو العقيان (149) : «ولما استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان رأى أن من كمال سلطانه استخدام بني عبد الوادو جمعه بين القبيلين مرين وعبد الواد فأحسن إليهم وأقامهم على مراتبهم» والتدريك التقييد والتدوين والزمام هو الدفتر أو السجل الذي تقيد فيه الأسماء والأرقام وغيرها ومنه كاتب الزمام في النظم الأندلسية والمغربية، والفعل زمم أي قيد. وحرزم = حرزهم اي حماهم، والشفرا = الشفرة وهي السكين.

3ـ سقط في الاصل القسيم الثاني من هذا القفل.





330. وَلَنْ عَامْ نَقْطَعْ لَهُمْ البِيـدْ
كَيْ نَرْفَعْ ظُلْمَهُمْ عَلَى المَظْلُومْ[1]

331. لمّاَ أَرْسَيْنَا بِتُونْسَ الغَرَّا
وَجَدْنَا المُنْكَرْ فِيهَا عَلَى الحِيطَانْ

332. وَالنِّسْوَانْ يَشْرَبُو بِلاَ سُتْرَا
وَالمَعْلُومْ يُشْتَرِي مِنَ الدُّكَّانْ[2]

67

333. جِيتْ نَتْقَدَّمْ لَهُمْ عَلَى الجُمْلاَ[3]
وَنَخلِّ البَحَرْ بِيْنَهُمْ مَخْلُوطْ[4]

334. وَالْتَزْمُوا لِي شُيُوخْ مِنْهُمْ فُضْلاَ
قَالُوا يَدَكْ فِي أَرْضِنَا مَبْسُوطْ[5]

---

1. عصابة التوحيد يعني بهم الحفصيين الموحدين، أقيوم = ياقيوم، شاركتم = شاركتهم، في الدما = في الدماء، في نصرتم = في نصرتهم، ولن = ولنا، والشاعر يشير إلى مصاهرته للحفصيين وزواجه القديم والجديد منهم ودفاعه عنهم.

2. المنكر : الفساد، الحيطان : رسمت رسما مشوشا، والمعنى أن تعاطي المنكر كان جهاراً، المعلوم هو الحشيش، والكفيف يشير إلى انتشار الفساد والخمر والحشيش في مدينة تونس، وقد ذكر هذا أيضا الوزان في وصف افريقيا ج 2 ص 78. والوزير السراج في الحلل السندسية وغيرهما، ولابن الطواح التونسي وهو من أهل ذلك العصر ينتقد بعض أدعياء التصوف :

أمحققا في زعمه متهافتا هيهات ليس الخبر كالأخبار
حلّية الخمر استبحت جهالة وجعلت ذلك غاية الأوطار
وتقول في المعلوم: : سر الله لا يبدوبدون لطائف الاسرار

3. الجملا = الجملة اي الجماعة، ولعل الشاعر يقصدبهم اولاد السلطان الحفصي، اذ كان ابو الحسن وصيا على ملكهم. انظر العبر 7 ـ 557.

4. اي أعيد المياه إلى مجاريها.

5. انظر رغبة فقهاء إفريقية في السلطان أبي الحسن في المسند لابن مرزوق والرحلة لابن خلدون والمرقبة العليا 161 ـ 162 والتعبير في الشطر الأخير مأخوذ من المحفوظ القرآني.





335. مهـمَا تعطِ الظهْرْ وتَتْوَلاَّ
عَادْ المزْمَرْ يكون فيهَا وَالرُّوطْ[1]

336. مَاتْ مَوْلاَهَا مَا كَانْ يرا قُطْرَا
مَعْ مَا كَان مُتْكَفْ علَى الْبِيجَان[2]

337. إنْ وَلَّيْت عَـنَّا وتَـزْرَّا[3]
خَاصَمْنَاك عِنْدَ سَيِّد الثَّقلاَنْ

68

338. أمَا عُرْبَان فرِيقْيَا تعْـلَمْ
أَرَبَّ مَـا جَـرَتْ بِهِ الأقْـلاَمْ

339. عَايَنْت المَعصِية صَحِيحْ عَنْدَمْ
أَمْوَال الحَـجْ بِالصَّحِيحْ تُغْنَام[4]

340. أقوام تعطي السلم على المسلم
حَتَّـى يَاتي بِحُجَّة الإِسْـلاَمْ[5]

1ـ المزمر = المزمار وَ الروط، ويقال أيضا روطة وهي في الإسبانية القديمة ruta وفي الإسبانية الحديثة ruta وهي آلة موسيقية وترية كانت معروفة في الأندلس ولعلها انتقلت مع الأندلسيين إلى تونس. انظر قاموس دوزي 1 : 571.

2ـ قطرا = قطرها، والبيجان = البيزان اي أنه كان مشغولا بتربية البزاة وترك أمورالدولة لحاجبه ابن تافراجين. انظر العبر.

3ـ وتزرا: لعل معناها تزورّ وتنحرف عنا، والثقلان : الإنس والجن، وسيد الثقلين هوسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

محمد سيد الكونين والثقليـ ـن والفريقين من عرب ومن عجم

4ـ عندم = عندهم، وأموال، كأنها في الاصل، بأموال وتغنام = تغنم.

5ـ لعله يشير إلى الإتاوة أو الخفارة التي كان الأعراب يأخذونها من الحجاج.





341. إِكَانْ جَفْتَ بَنِي مَرِينْ مَرَاْ
أَرَبِّ مَا عَلْمَتْ لَمْ بُهْتَانْ[1]

342. مَزْغَدَانْ قَطْعَتْ وَالسُّخْرَاْ
وَالدِّيَةْ وَالخَطْيَا وَدَارْ الأَخْزَانْ[2]

69

343. نَقَّتْ مَاطِقَتْ مِنْ مَكْسْ وَمَرُوسْ[3]
عَنْ عَرْبِي أَوْ مَقِيطَنْ أَوْ حَوْزِي[4]

344. وَقْطَعَتْ الوسق مِنْ هُنَا للسُّوس
فِي المَاعُنْ [عَنْ] كُلْ كَافِرْ مَخْزِي[5]

345. وَإِذَا فَرَّجْتِ عَنْ ذَا المَحْبُوسْ
التَّخْرِيصْ نَقْطَعُو مَعَ أَزْرَزْي[6]

---

1. إكان : إن كان، لم = لهم وجفت : جفوت، ومرا = مشكولة كذلك في الأصل.

2. مزغدان او ايمزغدن باللسان البربري معناها السكان ولكنها هنا اسم مغرم من المغارم، قال ابن مرزوق «وهو عبارة عمن خرج عن وطنه لفقره وحاجته. ولم يترك مستغلا، يطلب حيث كان من البلاد، وان كان قد فارق وطنه السنين الطائلة وربما ينتهي العمل إلى طلب ذريته، فيؤخذ منه مايوظف على كل واحد ممن هو في ذلك الوطن يستغل ماله، وهي أحدوثة عظيمة في الاسلام، وقعت فيها من الهموم والشناعات ما لايحصى، حتى إن الشخص يغرم مع الموضع الذي رحل عنه، والموضع الذي رحل إليه.» المسند 285 ـ 286. والسخرا = السخرة وهي معروفة والدية أو الذمة مغارم توظف على الرؤوس يقول ابن مرزوق «كانوا يوظفون فيها الرؤوس فيجعلون على كل شخص صغيرا أو كبيرا، قويا أو ضعيفا حتى الرضيع، مغرما يخصه، كانت مظلمة لا نظير لها في المظالم المحدثات، وصارت أخت الجزيات المضروبة على أهل الذمة بل أشد» والخطيا = الخطيئة وهي من المغارم التي ذكر ابن مرزوق أنها كانت مفروضة على أهل البوادي، ودار الاخزان = المخزن، وقد تحدث ابن مرزوق عن تضعيف المغرم المعهود على المخزن خمس مرات في حال الاختفاء. انظر شرح هذا في المسند 285 ـ 286.

3. قال ابن مرزوق «فلنذكر في هذا الفصل ما محاه من المناكر، ورفعه من المكوس عن البوادي والحواضر، اما ما حفظ له مما رفعه بمدينة فاس المحروسة فأولها ماكان يرفع من فوائد المروس.» انظر الفصل بكامله في المسند 282 ـ286.

4. فيه إشارة إلى العرب أو أهل الغرب واهل الحوز واهل القيطون وهي عناصر السكان الرئيسية في المغرب على عهد المرينيين، وغربي وردت في الأصل عربي.

5. السوس اقليم معروف في جنوب المغرب، وقوله : في الما يعني في البحر وراجع ما قلناه في الوسق رقم 73.

6. قال ابن مرزوق في التخريص «ومما رفع عنهم الخرص في الجنات، وكان عظيم المضرة، يوظف على الناس وظائف في جناتهم، وربما تعجز الجنات عن التوفية بها، فأدى ذلك إلى أن قطع كثير من الناس جنته ليسقط عنه الخرص». المسند 282 ـ 283. أما أزرزي فهي كلمة بربرية معناها الكلفة او الفرض أو المغرم عامة. ومنها الزرزاي أي الحمال.





346. ونْرُدَّ الْفِيل تَقُودْه الـذَّرَّا

بَأَحْكَامِي والذِّياب مـعَ الْخرْفَانْ

347. حتَّى يُسْمَعْ في كُلْ سُوقْ يقْرَا

أَحْكَامْ عَبْدَ العَزِيـْز بن مرْوَانْ

70

348. ضُعْفَ الدِّين وَاسْتَحَالَت النِّيَا

يَارَبِّ وَالعَدَل بْقَـى فَرْدي[1]

349. بَرْكَا مِن دَمْ رَجْعَت الدّنْيَا

وَمْتَى نَقْدَر نطْهَرا[2] وَحْدي

350. وَالْيَوْمُ الأَعْمَش في حَضْرَة العُمْيَا

يتْكَنَّى بوضْيَا وَبُومـهْدي[3]

351. وَذُنُوبْنَا مَا تَرْفَعَا إِيرَا[4]

لَاكنْ جودك وَحِلْمـكَ أَمْنَـانْ

---

1. فردي أي وحيد غريب وأصلها فرد بمعنى مفرد.
2. بركا = بركة، نطهرا = نطهرها.
3. هذا مثل عربي معروف. راجع صيغته في كتابنا أمثال العوام 2 ـ 39. وربما ينكت الشاعر في قوله بوضياء وبومهدي، على بعض معاصريه ممن يتسمون كذلك وينسبون إلى الصلاح.
4. أي أنها كثيرة وهذا مثل العبارة المغربية ما تترفدش باللقاط. وماترفعا = ترفعها.





352. إِنْ لَمْ تَنْصَرْ علي في ذَا الحَسْرَا

لاَيَعْقُوبْ ينصْرُو وَلا عُثْمَان[1]

71

353. ثُمَّ ضَعْ جَبْهَتو عَلَى الَّرمْلاَ

سَاجِدْ خَاضِعْ لخالِقو إِجْلاَلْ

354. مِمَّا خلَصْ في الدُّعا إِلَى المَوْلَى

ناداهْ بالتلبيا لِسانْ اْلحال:

355. أَنْ اقْرَأْ (بِسْمِ رَبِّكَ الأَعْلَى)

واقرأْ : (يس) وتَتَفْتَح الاقْفَال[2]

356. كَمْ غَاضَ الدَّهْر مْلاَكَ البَرْرَا

وانْظُرْ لابْنِ الزُّبيرْ مَعْ عُثْمَانْ

357. مااسْتَلْقُوا مِن لَطَايف القُدْرَا

مَا يَمْلاَ خَاطِرَكْ وَفَكْ شُكْرَانْ[3]

---

1. عليّ هو السلطان أبوالحسن، أجرى الشاعر على لسانه هذه المناجاة ويعقوب هو والده وعثمان بن عبد الحق، هو جده والحسرا = الحصر أي الحصار.

2. لعله خص السورتين المذكورتين لما ورد في الحديث أن الأولى تقرأ في السجدات وأن الثانية أي سورة يس تقرأ لقضاء الحاجات، وتنفتح الاقفال أي ينفرج الحصار. وكلمه ضع في البيت الأول وردت هكذا وأصلها وضع، جبهتو = جبهته الرملا = الرملة، لخالقو = لخالقه، بالتلبيا = بالتلبية، وبسم هكذا في الأصل، والإشارة إلى «سبح اسم ربك الأعلى»

3. غاض = غاظ، ملاك = أملاك اي ملوك، البررا = البررة، وفك = وفاك أي وفمك واستلقوا أي لقوا، وشكران = شكر، والشاعرهنا يلتمس العزاء لأبي الحسن بما حدث للخليفة عثمان الذي حوصر بالمدينة وقتل، وعبد الله بن الزبير الذي حوصر بمكة وقتل كما هو معروف.





72

258. بِاللَّهْ اسْمَعْ كِفْ خْرَجْ إِلَى سُوسَا[1]

بِأَمْرِ الْبَارِي مُسَبِّبِ الأَسْبَابْ

359. لَمَّا اطْوَتْ عْلِهِ الْعَرَبْ مُوسَا[2]

سَخَّرْ لُو مِنْ بَنِي حْكِيمْ أَحْبَابْ[3]

360. كَادَتْ تَحْمْلُو عْلَى رُوسَا[4]

لِمْدِينَتْهُمْ وهِي لِتُونِسْ بَابْ

361. يُقَالْ جَاتْ الدُّبُوبْ[5] عْلَى دُورَا

وَصْفُولُ الفَوْتَ وحَلْفَتْ الْكُعْبَانْ:

362. مَانَسْمَحْ لَهُمْ بِصَاعْ مِنْ بُرَّا

مَامعنا بَشْ نُرَمِّقُ الْوِلْدَانْ

73

363. قَالُوا كِفْ تْمَنْعْ لَنَا الْحَبَّا

وَأَنْتُمْ أَهْلَ الْبَلَدْ وَنَحْنُ نجُوعْ

1ـ سوسا = سوسة، وهي مدينة معروفة على البحر وتبعد بنحو 60 كليومترا عن القيروان.

2ـ الموسى : السكين، وهذا مثل انظر كتابنا أمثال العوام 2 ـ 470. ولعل المعنى أنهم استمروا على عداوته وكأن هذه العبارة مثل قولهم طوى كشحاً.

3ـ على روسا = على روسها اي على رؤوسها، وذلك من الفرح والاعتناء.

4ـ مدينتهم هي سوسة، وقدورد مضمون ماذكره الشاعر هنا عند ابن خلدون في العبر، قال : «وكان لأبي الهول شيخ قبيلة حكيم مناصحة للسلطان أبي الحسن، حين أجلب عليه بنوسليم، وداخله مع أولاد مهلهل في الخروج على القيروان، فخرج معهم جميعا إلى سوسة». العبر 6 ـ 164. ويقول في مكان آخر «وداخل السلطان أولاد مهلهل من الكعوب، وحكيما من بني سليم في الافراج عنه...» العبر 6 ـ 820.

5ـ الدبوب أعراب دباب. على دورا = على دورها أي عن بكرة أبيهم. وصفول = وصفوا له (أي للسلطان أبي الحسن) الفوت : الخروج، والكعبان : قبائل الكعوب، ومن برا : من البر أي القمح. بش: بما، وأصلها : بأي شيء. نرمق الولدان : نسد رمق الأولاد.





364. وَجَابَتْنَا الْحَمِيَّةُ العُصْبَا

وَنَموتْ عِنْدكُمْ بِسَيْف الْجُوعْ

365. لَكِن اليَوْم نَعْقد الصُحْبَا

لاَ قتَلْنَا بِسَيف ولاَ بِدْرُوعْ

366. وَانْكَبّوا لِيَد أَبو الْحَسَنْ نَصْرَا

وعْطَوْه ما عْطَواْ مُلوكْ غَسَّانْ

367. مِنْ عَهْدِ اللّه لِنَبِيِّه فِي البَرْرَا

عَامَ الأَحْزَابْ كَانْ عَلَى أَبي سُفْيَانْ[1]

1ـ كف = كيف، الحبا = الحب وهو القمح المذكور آنفا. وقوله : وانكبوا ليد أبي الحسن.. نجد مصداقة في المسند لابن مرزوق حيث يقول عن هؤلاء الاشياخ «فأكبوا على قدميه وقالوا يامولاي...» المسند 334. وغسان : هكذا وردت في الأصل، والصواب : غطفان يشير الشاعر في هذا القسم إلى الخلاف الذي نشب بين الأعراب، قبيل خروج أبي الحسن من حصار القيروان، وميل قبيلة حكيم إليه، وقد قرن بين هذا وبين ما حدث في غزوة الخندق أو الاحزاب، وذلك أنه لمااشتد على الناس الحصار بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قائدي غطفان عيينه بن حصن والحرث بن عوف فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على ان يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه وبينهما الصلح.

ويبدو ان مقصد الشاعر من هذا التشبيه هو أن أبا الحسن ـ فيما اشترط به من اموال وحبوب للأعراب لقاء الإفراج عن القيروان ـ كانت له قدوة بما وقع في حصار المدينة عام الأحزاب، ولم يشر المؤرخون إلى الحبوب التي وقع عليها الخلاف بين بطون حكيم وغيرها وإنما اشاروا إلى الاموال واختلاف الأعراب بسببها وقوله : ونحن نجوع : يبدو أنه جمع نجع أي حيث ينزل البدو الرّحل للانتجاع، والعصبا = العصبة، لا قتلنا = لا قاتلنا، وانكبوا = وأكبوا.





74

368. فَاتَّسَعَتْ فَرْسَخَيْنَ عَنِ السُّورْ[1]

وَضْيَاقَتِ الأَرْضِ بِينْ تَفْرَاجِينْ

369. لَمَّا أَتَوْهُ بِصِيْحَةَ المَدْعُورْ

نَادَوْهُ عِنْدَ الدُّخُولْ شُيُوخْ مَرِينْ :

370. أَنْ قَالُو خُذْ فَاسَ الغدرْ وَقْمْ مَطْمُورْ

وَبْسَطْلْ لَوْ فَوْقَهَا ردَاَ التَّهْوِينْ

371. وَدْخَلْ كِفْ قَالْ فِي وَسْطْ ذَا الْحُفْرَا

وَمَا تَخْفَى سَرِيرَةَ الْخَوَّانْ

1ـ ياخذ الشاعر هنا في سرد الماجريات والظروف التي تتصل بفشل الحصار، ونفهم رواية الشاعر بمعارضتها بما عند ابن خلدون وابن مرزوق، جاء في العبر 6 ـ 820 «وداخل السلطان اولاد مهلهل من الكعوب وحكيما من بني سليم في الأفراج عنه واشترط لهم على ذلك الأموال، واختلف رأي العرب لذلك، ودخل عليه فتيتة بن حمزة بمكانه من القيروان، زاعما للطاعة وتقبله، واطلق اخوانه خالدا وأحمد، ولم يثق إليهم». ويقول في موضع آخر «وافترق أمر الكعوب، وخالف بعضهم بعضا إلى السلطان، وتساقطوا إليه، فتنفس مخنق الحصار عن القيروان، واختلفت إليه رسل أولاد مهلهل، وأحس بهم اولاد أبي الليل، فدخل أبو الليل فتيتة بن حمزة بنفسه، وعاهد السلطان على الإفراج، ولم يف بعهده، وداخل السلطان أولاد مهلهل في الخروج معهم إلى سوسة، فعاهدوه على ذلك». العبر 7 ـ 574. ويقول ابن مرزوق وقد ساق حكاية في وفاء أبي الحسن بالعهد : «وذاكرت بهذه الحكاية صاحبنا المرحوم أبا زيان عريف بن يحيى رحمه الله فقال هذا بعينه جرى له في القيروان وهو محصور، وقد حاولت على فتيتة حتى دخل ووجهت له رضي الله عنه بمثل هذا المعنى اي بالقبض عليه، فلما دخل ندم أخوه عمر. وجميعهم على موافقتهم له على الدخول. وقالوا إن أمسكه تمكن من رقابنا كلنا، فما كان إلا أن دخل حتى تقدم إليه من حذره، وقال له يامولاي قد مكننا الله من عدونا، فما ضرنا لو أنا أمسكناه حتى يرتحل هؤلاء، فأجابهم بمثل جوابه في الحكاية السابقة في وفاء أبي الحسن بالعهد فدخل فتيته على اختياره، وخرج بكسوته رضي الله عنه ومركوبه، فلما خرج على هذا الوجه لم يستقر ببيته حتى عاد لخلافه، وزحف يومه للقتال». المسند. 335 (مع تصويب المتن). ومن ألفاظ هذا القسم قوله : وضياقت = وضاقت، بصيحة، هكذا في الأصل بكتابة معادة ولعل صوابها : بفتيتة، وقم = وأقم أي واحفر، وبسطل = وابسط له.





372. إِنْ كَانْ تَرْتَضوا لَنا غُفْرَا

نَحْنُ أَوْلَى أَنْ نَغْفِرُوكَ الآنَ[1]

75

373. قَالَ السُّلْطَانْ وَتُرْبَةَ الْوَالِدْ

مَا نَخْرُجْ عَنْ ظِلْ ذَا الْعَتْبَا

374. حَتَّى يَاتي لِذَا المكَانْ خَالِدْ

وَعَلَيْه كَانَتْ مَرَاهِنْ القَصْبَا

375. فابعَثْ كُتْبُوا يسَرَّحُ الْقَايدْ

لاَ كِنْ كَانْ خَاهْ يَزيدْ رُتْبَا[2]

376. لَمَّا اطْلَقْ حُرَّهَا وَمُعْتَبْرَا[3]

وَصَلْ تاجَ المُلُوكْ لِتاجْ لَقْرَانْ[4]

377. بَعْدَ انْ كَانْ مَيْلو عَلَى الوَفْرَا

رَدُّو حَتَّى لمَجْلِسِ السُّلْطَانْ[5]

76

1. لعل معنى الاشارات الواردة في هذه الأبيات ان شيوخ بني مرين اشاروا على السلطان بأن تحفر مطمورة بموضع جلوسه، وتخفى ببرداء بحيث يقع فيها فتيتة عند اقترابه للسلام على السلطان، ولكنه أنكر هذا. ولما دخل فتيتة أكب على يد السلطان كالمستغفر ولعله كان يتأكد مما تحت الرداء، وقال له السلطان نحن أولى بالعفو اذا ملتم إلى الصلح. راجع المسند 335.

2. اي ان فتيتة اشترط على السلطان إطلاق أخيه خالد المعتقل بتونس كما مر، أوأن السلطان أقسم أن يطلق سراح خالد قبل أن يخرج فتيتة من مجلسه فكتب إلى قائده بتسريحه، ولكن تبين ان فتيته كان يطلب أكثر من هذا. راجع العبر 6 ـ 820، ويزيد هكذا في الأصل، وقد تكون يريد

3. حرها اي حر الكعوب ومعتبرا = معتبرها ويعني به خالد لانه كان ابن حرة، وأخوه فتيته ابن أمة.

4. تاج الملوك : السلطان أبو الحسن، وتاج لقران تاج القِران : ولعله ما يعرف عند المنجمين القران الكبير.

5. الوفرا = الوفرة أي الكثرة، ردو =رده أي بعد أن كان خالد مع قومه أصبح إلى جانب السلطان.





378. لَمَّا صَافَحْ أسيرْنَا طُرْقَا

لْمَحَلَّةْ خَاهْ وَهِي هِيَ الْحُجَا

379. قَالُوا نَحْنُ لأَبُوالحَسَنْ عُتْقَا[1]

مَا تُوخَذ مُهْجَتِي وَلاَ تُسْجَا

380. جَالْفَتَاتَه وخَمَّ الْمَسْقَا

مَا صَابْ فِيهْ لانْجَا وَلاَمَلْجَا

381. فاقلَعْ بِمْحَلْتُو وَجَا واسْرا

حَتَّى رَبَّع فِي مَجْلِسِ السُّلْطَانْ

382. قَالَ خَاي مثل مَربط الْمُهْرا

مَايْنَقِّهْ لاَ فرَاتْ وَلاَ سَيْحَانْ[2]

77

383. لاكَن ادْعُوا بِمَنْ سَكَنْ عَهْدي[3]

وَمْقَامِي فِي العَرَب شِفا المبْلِي

384. يجعل فيهم بني حَكَمْ رَدِّي

الى رُومى وعَتْبَات المهَلْي

1ـ كان ابو الحسن قد اعتقل خالدا وبعض الشيوخ ثم أطلق سراحهم وعتقا = عتقاء.

2ـ الفرات نهر معروف، وسيحان = سيحون نهرمعروف كذلك ومربط المهرا : مربط الفرس، وهو يكون مليئا بالزبل، وقد اشتمل هذا القسم على حوار دار بين خالد وأخيه فتيتة.

3ـ هكذا في الأصل، وكنت ذهبت في الطبعة الأولى إلى تصويبها كما يلي : ببن مسكن عندي. وابن مسكين خليفة بن مسكين أحد شيوخ الأعراب الذين تقبض عليهم أبو الحسن، بين يدي واقعة القيروان، ثم أطلقه وهو محصور بالقيروان، فكان له به اختصاص من بعد ذلك. العبر 6 ـ 164.





385. نَعْمَلْ فيهمْ كَعَمْلَة الْمَهْدي[1]

كِـفْ كَانْ قَامْ ابْن عَلِـي[2]

386. فاتَّفَقُوا ذَا الثَّلاثَة الأُمْرَا[3]

أَنْ يَخْرُجْ ذَا المَلِكْ عَلَى الْبيَانْ

387. قَالُوا لاَ تَجْعَلْ النَّهَارْ شُهْرَا

اللَّيْل أَفْضَلْ مَلاَبِس الفُرْسَانْ

78

288. خَرْجَ السُّلْطَانْ في لَيْلَةِ الجُمْعَا

في عِشْرين مِن رَبِيعْنا الأَوَّلْ[4]

389. صَلاّ المَغْرِبْ وخافْ مِن الخُدْعَا

وارْبَاب الدَّايرَا عليه تَعَجَّلْ[5]

390. قالْ لَمْ الْمَلِكْ بالَّذي رَفْعَا

حَتَّى نَقْضْ الْعِشَا في ذَا المَنْزِلْ[6]

---

1. ردي = ردءي، والردء العون، وفي تعبير لابن خلدون «فكان لهم ردءا» العبر 7 ـ 371. ورومي وعتبات المهلي : مكانان غير معروفين، وكنت في الطبعة الأولى ظننت أنهما محرفان عن سوسا وعتبات السهلي. وقلت إن عتبات السهلي ربما قصد بها قصر الجم المعروف بعتباته ودرجاته ومنه يرى كوكب سهيل. انظر رحلة التجاني : 59.

2. يبدو انه يشبه التآخي الذي عقده السلطان بين خالد من اولاد أبي الليل وبني حكيم وهما من قبيلتين مختلفتين بالتآخي الذي عقده المهدي بين عبد المومن وقبيلة هرغة. انظر كتاب الانساب للبيدق. 21. وقوله قام : لعلها قدم.

3. ذكر الشاعر في هذاالمقطع ان السلطان لما اطلق خالد بن حمزة، حاول هذا اقناع أخيه فتيتة برفع الحصار ولما أبى تركه» ـ كما يقول ابن خلدون ـ إلى شيعة السلطان أبي الحسن من أولاد مهلهل وقومه فاهتزوا به».

4. هؤلاء الأمراء أو الشيوخ الثلاثة هم محمد بن طالب رئيس اولاد مهلهل الكعوب وخليفة وأبو الهول من شيوخ اولاد حكيم . انظر العبر 6. 162، 164، 820 وقوله : ذا الثلاثة أي هؤلاء الثلاثة.

5. يذكر ابن خلدون أن أبا الحسن واعد أسطوله بمرسى سوسة، وخرج ليلا على تعبئة مع الشيوخ المذكورين، وذلك في شهر ربيع سنة 749هـ. انظر العبر 6 : 820، 7 : 574.

5. الخدعا = الخدعة، وذلك لأنه لم يكن يثق بهم والدايرة = الدائرة أي الحاشية، والمعنى أنهم كانوا يستعجلونه في الخروج، خشية أن يرجع المذكورون في كلمتهم.

6. لم = لهم، ورفعا = رفعها يعني السماء، والمعنى أنه أقسم أن لا يخرج حتى يصلي العشاء. في ذا المنزل أي في جامع عقبة بالقيروان.





391. حلُّ الزَّكْرُمْ وزولُ الصَّخْرَا[1]

مَيَّزْهُمْ ذَا الْمَلِكْ عَلَى الْبِيَانْ

392. قَالْ كِفْ أُرْقَى تصدْ عَنْ وَكْرَا[2]

وتتركْ في مَخَالِبِ العِقْبَانْ

79

393. وَادَّعْ في القِرْوَانْ حَضْرَ وَبْتَرْ

واخرجْ بَعْداً فَرَغْ من الْعَتْمَا[3]

394. وَاتْرَكْ مِنْ طَلَبْتُو هُنَاكْ مَعْشَرْ

مَنْ لاَ يَقْدِرْ عَلَى المَشْي ظَلْمَا[4]

395. بَعْدُنْ رَكَبْ مِنْ سُلاَلَة الأَبْجَرْ[5]

قَرْطَاسِيَا رَجَعْ على دَهْمَا

396. وَجْعَلْ جيشُو كَرَادِسِ النُّصْرَا[6]

وجْعَلْ عِدَّتْ مَرِينْ مَعَ الْجَمْعَانْ

1ـ الزكروم = مغلاق الباب، وهي كلمة عامية ماتزال مستعملة، والصخرا = الصخرة التي كانت تسند الباب.

2ـ ارقا = ورقاء، وهي الحمامة. وكرا = وكرها ولعل في هذاالإشارة إلى لونِ أبي الحسن.

3ـ العتمة صلاة العشاء ومقابل حضر هو مدر أما بتر فيقابلها برانس وبعداً = بعد أن.

4ـ معنى هذا البيت والذي قبله ان ابا الحسن لم يخرج معه جميع من كان معه، وهذا ماينص عليه أيضا ابن قنفذ في الفارسية 170«خرج إلى تونس، وليس معه الا خواص الفرسان والفقهاء والكتاب، والعلوج والوصفان.» وطلبتو = طلبته، والطلبة في الاستعمال المغربي المخزني هم عموم المشتغلين في الداواوين السلطانية، وقد كان لهذا اللفظ مدلول خاص ونظام معين في عهد الموحدين، وفي الرسائل المخزنية العلوية يستعمل الطالب فلان على بعض الوزراء والسفراء، وقد يكون المراد بالطلبة هنا أهل العلم الذين كانوا مع السلطان أبي الحسن وبعضهم من الشيوخ المسنين.

5ـ بعدن = بعد أن، والابجر هو اسم فرس عنترة بن شداد العبسي، وقرطاسيا = قرطاسية، وهي الشهباء البيضاء التي لا يخالط لونها شية، والدهماء السوداء والمعنى أن السلطان غير رأيه فاختار السوداء في الأخير ولعله فعل ذلك للإخفاء والتضليل.

6ـ هذا معنى التعبئة التي وردت في كلام ابن خلدون آنفا وكرادس = كراديس، وهي كتائب الخيل، والجمعان. الجميع.





397. وجْعَلْ في كُل كَبْكَبَا نقْرا

وَمْشاعَلْ كَالنَّهَارْ تَقِد نيرَانْ[1]

80

398. جَا للْبَابْ ثُمَّ قَالْ يمْنْ وشْمَالْ :

أنَا في حْمَاكْ يالنَّبي المَحْبُوبْ

399. سَتْرَكْ يَاللَّهْ مُقلِّب الأحْوَالْ

يا الْهَادي تَهْدِني إلى المرْغُوبْ

400. مَا ثَمَّ فِلْ وَلاَ أبو الأشْبَالْ

إلاَّ طالِب فِسَتْرَكْ أمطْلُوبْ

401. شَمُّو الرِّيحْ الْعَرَبْ وجَاتْ نُصْرَا

وَاتَّصلْتْ خَيْلهُمْ وَلاَ الزُّرْقَان[2]

402. ....[3]

81

403. تَبْعُوهُ من كُدْيَة الشعِيرْ[4] بِالسِّيفْ

حَتَّى رمَاه القْضَا بِبَاب سُسَا

---

1. كبكبة = كوكبة، نقرا : لعل معناها الحسكة أي الشمعدان من النقرة أي الفضة، ولعل كلمة مشاعل تدل على ذلك، وقبل هذه كلمة ممحوه وفي الطرة كلمة حيان ولست أدري هل هي بدل منها.

2. جا للباب : في الأصل : جالباب، يمن = يمين، فل = فيل، فسترك = في سترك ونصرا، أي نصراً وانتصاراً لأهلهم، والزرقان جمع زرق، والزرق طائر بين البازي والباشق يصاد به، والمعنى ان البدو اقبلوا متتابعين كالنسور الجائعة.

3. سقط القسيم الثاني من هذا القفل في المخطوطة الفريدة من هذا الزجل.

4. كدية الشعير تقع قبل القيروان على بعد مرحلة منها ، البكري 146. وسسا = سوسة.





404. ثمَّ ردَّتْ عَليه مرَينْ تَكْرِيفْ

تَشْهَدْ لَمْ في السَّما عَصَا مُوسَى[1]

405. كِفْ مَا اتْعَرَّضْ من لَعْدُو سَنَيِّفْ

إلاَّ دَرْسُوهْ كَدَرْس مَهْرُوسَـا[2]

406. عَجْبَتْ من فِعْلَمْ ضَيا الزُّهْرَا

والْكَاتِبْ والثُّرَيَّا وَالْكِيوَانْ[3]

407. أَمَّا بُو لَفْضَل مَا تْرَكْ بَشْرَا

لَوْلاَدْ وَسْنَافْ وَلاَ وْلاَدْ زيَّان[4]

82

408. [5] كَانَتْ تونَسْ أَزْقَّتَا وَالسُّوق

تَضرَّبْ مِثل شابَل الشَّبْكَـا[6]

1ـ تكريف تضييق، وهو يشير إلى اتيانهم بالاسطول وتصديهم للمطاردين، ولم = لهم، وعصا موسى هي الجوزاء عند أهل الأندلس والمغرب، جاء في شعر لابن سعيد الاندلسي :

وشقت «عصا موسى» من الليل لجة   تموج بها موج السحاب الذي يسري

سرور النفس للتيفاسي 130.

2ـ لعل معنى البيت أنه أفلت من الأعراب ولو أدركوه لكان ما ذكره الشاعر، ومهروسا من هرس بمعنى دق الحبِ وغيره وطحنه حتى صار مهروسا اي مطحونا والمعنى هنا على سبيل المجاز كقولهم طحنتهم الحرب وطحنتهم المنون، ومن المعروف أن أبا الحسن تمكن من الوصول إلى سوسة ومنها ركب أسطولة الذي كان ينتظره إلى تونس.

3ـ فعلم = فعلهم ، والزهرا= الزهرة، والكاتب في اصطلاح المنجمين الأندلسيين والمغاربة هو عطارد، والثريا معروفة، والكيوان هو زحل ويسمى ايضا عند اهل المغرب المقاتل، وتجدر الاشارة إلى أن الشاعر كان ملما بالتنجيم وله فيه قصيدة. زجلية سنوردها فيما بعد.

4ـ أبو الفضل هو ولد السلطان وقد سبق ذكره، راجع رقم 138، ولايوجد في المصادر التاريخية اي اشارة إلى محاربته لأولاد زيان وأولاد وسناف الذين اشتركوا مع الأعراب في محاصرة القيروان وتونس .

5ـ انتقل الشاعر إلى وصف ما كانت عليه الحال في تونس وغيرها خلال حصار القيروان وبعده.

6ـ أزقتا = أزقتها، وتضرب : تضطرب، والشابل : سمك معروف بالمغرب وفي الطرة : مثل مضرب الشبكا والمضرب أو المضربة حيث تضرب الشبكة في البحر لحصر الحيتان، ومضرب الشبكة والمضربة مشهورة في سبتة .





409. وَالْقِرْوَانْ كَانْ عَلَى الأَمِرْ مَغْلُوقْ

وَالقصبْ مطْوق وَلاَ السّبْكا

410. وَالِّشِيخْ بنْ تَافْرَاكِينْ الْمَخْنُوقْ

مِنْ هَمّْ يَرْتَعِدْ وَلاَ السَّمْكَا[1]

411. لَمَّن رَا النَّصرْ جَا مِن الْحَضَرَا

قَامَ مِنْ بَصِيْرَة الدِّيوَانْ

412. لِرَبَاضْ الرُّومْ لِبِيعَةَ الأَسْرَى

وْهَرَبْ فِي المَا كَجَنْ لسُلَيْمَانْ[2]



1ـ الامير هو أبو الحسن، والقصبة يعني قصبة تونس ومطوق = مطوقة، ولا السبكا = ولا السبكة وهي الحلقة. والسمكا = السمكة.

2ـ قام علال : هكذا في الأصل، ولعل الصواب : قام بعلال، والديوان : هكذا في الأصل ولعلها للديوان، وبيعة الأسرى : اسم كنيسة، ولعل المعنى أن ابن تافراجين لما علم بقرب وصول أبي الحسن أخذ علال بن أمصمود وكبّله وتركه في ربض وهرب هو في البحر إلى مصر وربض الروم أو ربض النصارى وردت الاشارة إليه في الاكمال للأبي 2 ـ 189 وتحدث عنه بتفصيل الوزان في وصف إفريقية 1 ـ 74 وانظر فيه كذلك إفريقية الحفصية لبرونشفيع 1ـ347، 449، 452. وقد ورد في الأصل : لرباط. وبيعة الاسرى لعلها كنيسة الروم التي كانت بمقربة منه. والشاعر هنا يصف كيف هرب ابن تافراجين من موضع الحصار على القصبة إلى مرفأ تونس حيث ركب سفينة إلى الإسكندرية، راجع العبر لابن خلدون.





83

*413. كَانَتْ[1] نِيتْ عَرِيفْ[2] عَلَى التَّحْرِيفْ[3]

مَعْ عَلاَّلْ كَانْ خَرَجْ وبَنْ يَرْبُوعْ

414. لِمْحَلاَّتْ العَرْبْ دَنِي وشْرِيفْ

بَاحْكَامْ الصُّلْحْ وَالْخَبَرْ مَسْمُوعْ

1ـ انتقل الشاعر إلى ذكر الحوادث التي وقعت في تونس وغيرها خلال حصار القيروان وبعده، وأشار إلى حصارتونس الفاشل من قبل ابن تافراجين، وكان هذا الرجل مع السلطان في القيروان، ثم تحيل في الخروج زاعما أن الاعراب بعثوا إليه ليحملوه حديث عودتهم إلى طاعة أبي الحسن، ولما خرج انضم إلى صفهم، وانطلق إلى تونس لمحاصرة من كان بها من اهل أبي الحسن وبناته وأبنائه ووجوه قومه الذين تحصنوا بالقصبة، وصمدوا للحصار، وعند ما علم ابن تافراجين بخروج أبي الحسن من الحصار، تسلل عن أصحابه وفر في سفينة إلى الاسكندرية ويذكر ابن بطوطة أن المغاربة في الإسكندرية كادوا يقتلونه انتصارا منهم لسلطان بلدهم أبي الحسن الذي كان طالب حكام مصر بتسليمه ولكنهم لم يستجيبوا إلى طلبه، وتنكروالحسن معاملته لهم ورفيع هداياه إليهم، ولاشك أنهم لم يكونوا راضين عن دخول المغرب الكبير تحت سلطة واحدة مع أنهم هم كانوا يجمعون بين مصر والشام والحجاز.

2ـ عريف هو شيخ السويديين الذي تقدم ذكره وله ترجمة في الدرر الكامنة 2 ـ 454 وتحدث عنه ابن مرزوق في المسند، وللشاعر الكفيف راي خاص فيه سبق أن أشار إليه، وقد ورد اسمه في أنشودة الفونسو XI هكذا DONARIF وورد اسمه كذلك في حوليته الكبيرة والواقعة التي يذكرها في هذا القسم لمح إليها ابن مرزوق، فقد نقل عن عريف قوله «هذا بعينه جرى له (أي لأبي الحسن) في القيروان وهو محصور، وقد حاولت على فتيتة حتى دخل، ووجهت له رضي الله عنه بمثل هذا المعنى». فهذا الكلام يفيد ان الشيخ عريف خرج من حصار القيروان لمحاولة الصلح مع الأعراب، وخرج معهم فيما يقول الشاعر ـ علال بن محمد بن أمصمود، والفقيه ابن يربوع، ويبدو أنهم خرجو افي وقت خروج ابن تافراجين الذي سبق ذكره، وقد اعتقل الثلاثة عند خروجهم ولكن ابن تافراجين،اشار على البدو باطلاق عريف وابن يربوع، واحتفظ بعلال بن أمصمود، وأخذه معه مقيدا لما توجه إلى محاصرة قصبة تونس، ونادى ابن تافراجين المحاصرين وأراهم خديم السلطان، وحاول ان يكرهه على التصديق على قوله لهم أن السلطان مات فلم يخضع للإكراه، بل أنه نصحهم بالصمود والثبات، ولما صفعه الأعراب أصحاب ابن تافراجين بادر أهل القصبة بإخراج شيوخ العرب الذين كلن السلطان تركهم مسجونين بها كما تقدم، وفعلوا بهم نفس الشئ فتوقف الأعراب عن إذاية علال، وتركوه موثقا بالقرب من أسوار القصبة إلى أن عاد السلطان إلى تونس. وهذا ما يقصه الكفيف من رقم 413 إلى رقم 427. انظر المسند 354، 369، 486 والعبر 7 ـ 571 والترتيب من اجتهادنا .

3ـ التحريف أي الانحراف عن السلطان، وعلال هو أبو حسون علال بن محمد بن أمصمود الهسكوري أقرب المقربين إلى أبي الحسن. انظر المسند، وابن يربوع من علماء أبي الحسن وجلسائه وسفرائه. انظر المسند.





415. مَا وَجْدُو عِنْدَمْ[1] مِن التَّضْيِيفْ

غَيْر الاكْبَالْ المثَقْلِينْ والْجُوعْ

416.قَالْ لَمْ[2]بِن تَافرَاجَنْ العُرَّا

خذُوا عَلاَّلْ وسرحُو الاثْنَانْ

417. هُمْ سَنّوا قَبْل سُنَّةَ الْغَدْرَا

وَمَنْ سَقَى المرُّ يَشْرَبَ القِطْرَانْ

84

418. وخْرَج بن تَافرَاجَنْ المفْتُونْ

بابْن أَمَصْمُودْ[3]أَسرْ في ظَهْر بعْيِرْ

419. تُونَسْ وَدْعا بِطَايْفَةَ أَمَدْيُونْ[4]

وطْلَعْ وَاحِدْ على الْجِدَارْ وَيَشِيرْ

420. تَدْرو ذا قَالْ نَعَمْ أَبُوحَسُّونْ[5]

قَالْ هُوَ يَشْهَدْ لكمْ بموْتْ الْمِيرْ

421. قَالُو لَوْ مات غَضَنْفَرَا الكرَّا[6] ؟

قالْ عَلاَّلْ : لاَ وَرزَاق الْحِيتَانْ

1. عندم = عندهم.
2. لم = لهم. العرا = العرة، يقال فلان عرة اي قذر لا خيرفيه.
3. ابن مصمود هو علال السالف الذكر واسر = أسير.
4. أمديون هو أبو الحسن زيان بن حسون بن أمديون، زوج أخت السلطان أبي الحسن ومحل سره، وكان تركه مع أهله وأولادهما عندما خرج من تونس إلى القيروان، فلما كان الحصار«نجب في تحصين قصبة تونس، وعمل الأعمال الحسنة، فزاد به مولانا اغتباطا». كما يقول ابن مرزوق في المسند .369 ـ 370. وكلمة تونس في أول الشطر وردت هكذا في الأصل والصواب لتونس.
5. أبو حسون هو علال ابن أمصمود المذكور آنفا قالْ = قالوا والمير = الأمير.
6. أي غضنفر الكر، واسد الحروب، ويقصد أبا الحسن. الثغرا = الثغره والثلمة في الحائط وغيره احضوا المال : احرسوه. وصينوا = وصونوا. واحضوا : واحرسوا وحافظوا.





422. مَا هُوَ إِلاَّ حَيْ، سَدِّدُو الثَّغْرَا
واحْضو الْمَالْ وصِينُوا النِّسْوَانْ

85

423. لَمَّنْ قَالَ هكذا العَرَبْ صَفْعُوهْ
واهْلَ الْقَصْبَا يشَاهْدُو عَلاَّلْ

424. لَمَّنْ رَأوْه بَني مَرِين ذَلُّوهْ[1]
قَامُوا للسِّجْن واخْرَجُو في الحَالْ

425. اثْنَا عَشَرْ شَيْخ منْ دُكُّ ووُجُوهْ
وَعطَاوْهُمْ زَزْ قادُسي ورْكَال[2]

426. قَالُوا لَمْ عِنْدَنَا اثْنَا عَشْرَا
ذلُّـوهْ نْـذَلُّـوا الجَـمْـعَـانْ

427. تدَ بالخَيْل التْقَتْ أُخْرَى
رَفْعُوا عَنُّوا إذَا يتْمْ للآنْ[3]

1ـ أي لما رأى بنو مرين أن العرب أذلوا علال فعلوا ما ذكره الزجال بعد هذا الشطر.
2ـ دكّ ووجوه : قدّ تكون، ذوك لوجوه وعطاوهم = وأعطوهم . والزز : الصفع، وزز قادسي ورد في أمثال العوام في الأندلس 2 ـ 237 وكنت حسبت قادسي بكسر الدال نسبة إلى مدينة قادس ولكن تبين لي أنها بالضم نسبة إلى قادس قادوس الناعورة، ومعنى المثل على هذا أنه صفع متواصل ومسترسل كاسترسال الماء من قادوس الناعورة أثناء دورانها، وهذا كالمثل المغربي : القدحي بالرحى، والطرش بالقرشال. يقال للاهانة الموجعة.
3ـ لم = لهم. ويقصد بالاثنى عشر شيوخ القبائل العربية المسجونين بالقصبة، في بداية حركة السلطان إلى القيروان لتآمرهم عليه يومئذ، والجمعان : الجميع، تد بالخيل إذا يتْم = بالخيل، إذا يتم = عنوا : عنه.



86

*428. لَمَّنْ[1] عَاشْ بُو لْحَسَنْ وَجَاتْ النَّاس
ظَهَـرْ السُّنّي وَقَهْقَر الْقَدْرِي[2]

429. وَخْلاَ فيها قِتَالْ يحل الْبَاس
وَبْقَتْ أَيَّـامْ أَزْقْتَـا تَجْـرِي[3]

430. وَاسْوَارْها هَدَمُهمْ الرِّيَّاس
لِرْبَاضْ الرُّومْ لطالع الفَجْرِي[4]

431. فَتَخَيَّلْ لُمْ بعيدْ عَلَى الْجُدْرَا[5]
رَاجَلْ جالِس وَهُو يشر شيْرَانْ

432. لَمَّنْ طَلْعُوا الرِّجَالْ عَلَى الْحُجْرَا
وَجْدُوا عَلاَّلْ مكَبَّل السِّيقَانْ[6]

87

---

1. يعبر الشاعر هكذالأن الخبر الكاذب بموت أبي الحسن شاع في تونس حيث كان أهله وبعض أولاده، وفي تلمسان حيث كان أبو عنان، وفي فاس حيث كان منصور حفيد السلطان، وكتب به رسم شهد فيه خلق كثير من الواصلين إلى المغرب من بني مرين ممن شهدوا معركة القيروان. تاويخ الدولتين 85 وتشير النجمة قبل الرقم إلى مخالفة الترتيب الأصلي.
2. السنيون هم المرينيون أنصار أبي الحسن، والقدريون هم اتباع ابن دبوس الموحد. راجع قصيدة الرحوي في مقدمة ابن خلدون، ووصف اتباع المهدي ابن تومرت بالقدريين يعكس رأيا خاصا في عقيدة الموحدين.
3. فيها أي تونس، يحل الفاس ـ هكذا في الأصل وقد تكون الباس بالباء زقتا = أزقْتا، تجري لعلها تجري : بالدم، ويقول ابن خلدون في القتال الذي جرى بتونس بعد هرب ابن تافراجين وانسحاب اصحابه «واصبحوا وقد تفقدوه، فاضطربوا وأجْفَلوا عن تونس، وخرج أهل القصبة من أولياء السلطان فملكوها وخربوا منازل الحاشية فيها» العبر: 820.
4. ربض الروم ذكره، تقدم ذكره، وقد كتب هكذا : لرباط كما في المرة السابقة، ونطق الضاد طاء معروف في شمال المغرب والرياس جمع رايس. وقد ذكر ابن خلدون أن السلطان لما عاد إلى تونس ووجد اسوارها مهدومة قام باصلاحها، وأدار خندقا على المدينة «وأقام لها من الامتناع والتحصين رسما ثبت لها من بعده، ودفع به نحر عدوه». العبر 7 ـ 574.
5. فتخيل لم أي ظهر لهم، الجدرا = الجدرات، ويشر شيران أي يشير بيديه باستمرار.
6. لمن اي لما أن، والسيقان جمع ساق.



433. فَاجْرَوْا بَعْض المزَاوْرَا حَلُّوا

عَلاَّلْ ورْجَعْ لِمَجْلِس العزَّا[1]

434. قَالُوا ما الْخَبَرْ بَعْدَ ذَاقَالُوا

ما سَكْنَتْ جارِحَا لِبَنْ حَمْزَا[2]

435. حَتَّى وَسَّعْ بدَخْلْتو وَاهْلُوا

لبْلاَدْ تُونَسْ وضَيَّق الغُـرزَا[3]

436. واصْبَحْ لَمْ بالمُقَاتِلاَ شَعْرَا[4]

سَيْفْ مِنْ بَرَّا وسَهْم مِن دُخْلاَنَ

437. وَاضْرَبْ بمْحَلْتُو عَلَى دَوْرَا

بالْمرينيَا يطَامَعَ الْعُرْبَـانْ[5]

88

438. فَخْرَجْ خَالِد في بَعْض نَاسْ حَتَّى

لاَمْ فْتَاتَه وَعَاتْبَ ا لْحُجَا[6]

1ـ المزاورا جمع مزوار، والمزوار هو الرئيس في لسان زناتة، العبر 3 ـ 118 ومجلس العزة مجلس السلطان.

2ـ ابن حمزة المقصود به فتيتة الذي أضمر محاربة السلطان.

3ـ وضيق الغرزا اي شدد الحصار وضيق الخناق.

4ـ أي صبحهم بجيش كثيف، وسيف الخ معناه أن الأعراب بسيوفهم والمحاصرين بسهامهم شعرا = شعراء والشعراء : الشجرالكثيف، والمعنى أنه صبحهم بجيش كثيف.

5ـ دورا = دورها أي أحاط بها من جميع جهاتها، وذكر ابن خلدون أن أبا الحسن لما عاد إلى تونس« أجلب العرب، وابن أبي دبوس معهم على الحضرة ونازلوا بها السلطان فامتنعت عليهم». وهذا مصداق ما ذكره الشاعر في هذا القسم. العبر 6 ـ 820. بالمرينيا أي بالقبائل المرينية، يطامع = يطمع.

6ـ خالد بن حمزة من اولاد أبي الليل، وقد أصبح كما عرفنا من شيعة السلطان بعد أن أطلق سراحه، وفتاته، اخوه لأبيه الذي ظل على حربه للسلطان والأول ابن حرة أما الثاني فهو ابن أمة.





439. قَالُوا انْتَ خَيْ والاَّ منْمَا شتَّاْ[1]

وَلاَّ ابْن السَّوْدا يُغَيِّرْ الْمُهْجَاْ[2]

440. إنْ كَانْ لَكْ أَب طَاهِر الْبِيْتَا

لَكْ بَزُّولا قَبِيحَةَ المَجَاّ[3]

441. لَوْ ربتَّكْ في حِجْرْهَا حرّاَ

أَوْ رَضَّعَتْكَ صَرِيحَةَ الأَلْبَانْ

442. مَا اعْتَقْ خَاك بُو لَحْسَنْ من الشّفْرَاْ[4]

وجْزَيتُ بالْجَفَا وَبِالّهجْرَانْ

89

443. رَدَّعليه[5] في الجَوَابْ كَلاَمْ مَوْزُونْ

مَانَامَرْ بالْخِلاَفْ ولاَ نَرْضَاهْ

1ـ وعاتب = وعاتب، والحجا = الحجة. منما شتا. وإخوة من شتى، في تعبير الأندلسيين والمغاربة تعني ابناء العلات أي الإخوة غير الأشقاء. انظر Voc 398، ومن أمثالهم : إخوة من شتى زيادة في الاعداء. انظر كتابنا أمثال العوام 2 ـ 77.

2ـ كان فتاتة ابن أمة كما عرفنا، وقد لقبَه ابن خلدون ابن داية اي الغراب لسواده العبر: 6 ـ827.

3ـ البزولة : الثدي ، وكذلك المجه انظر Voc ص467. ولعلها هنا بمعنى الرضعة أو المصة.

4ـ الشفرة، وهي السكين العريضة التي يدبح بها، يشير إلى أن السلطان عفا عنه.

5ـ مقتضى السياق أن الجواب لفتيتة وانه ترك ولده رهينة، والذي في العبر 6 ـ 820 أن الرهينة كان حمزة بن عمر، وعمر هو كبير أخويه : خالد المنحاز إلى أبي الحسن، وفتيتة المخالف له، وهذا مايدل عليه كلام الشاعر أيضا فيما بعد : ولعل الكلام يستقيم إذا قرأنا صدر البيت كما يلي : رد عمر في الجواب بكلام موزون. يقول ابن خلدون في هذه الأحداث :

«واجلب العرب وابن دبوس معهم على الحضرة تونس، فامتنعت عليهم، فرجعوا إلى مهادنته فعقد لهم السلم، ودخل حمزة بن عمر اليه وافدا فحبسه إلى أن تقبض على ابن دبوس وامكنه منه» العبر (6 : 824) وقال في مكان آخر في الموضوع نفسه. «ولحق أولاد أبي الليل وسلطانهم أحمد بن أبي دبوس بتونس فأحاطوا بالسلطان واستبلغوا في حصاره وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسطان، فعول عليهم، ثم راجع بنو حمزة رأيهم في طاعة السلطان، ودخل كبيرهم عمر إليه في شعبان، وتقبضوا على سلطانهم أحمد بن أبي دبوس، وقادوه إلى السلطان استبلاغا في الطاعة وإمحاضا للولاية فتقبل فيئتهم وأودع ابن أبي دبوس السجن، وأصهر إلى عمر بابنه أبي الفضل فعقد على بنته واختلفت أحوالهم في الطاعة والانحراف». العبر (7ـ 574 ـ 575). ولما تحيز خالد و أخوه عمر إلى السلطان، قام أخوهما فتاتة بدعوة الفضل ولد السلطان الحفصي وصهر أبي الحسن وأجفل واياه إلى القفر كما يقول ابن خلدون العبر(7 ـ 589) ولعل ذلك ما عبر عنه الشاعر بانهزامه إلى قابس، وقد نعته الشاعر بالحداد لان العرب تسمي العبد بالقين أو الحداد، وذكر الشاعر في هذه الأبيات أن أنصار السلطان شتتوا شمل المحاصرين الآخرين من بني تجين وبني عبد الواد، وأشار إلى هروب الفضل إلى رؤوس الأسناد دون بغل ولاسائس، ونجد ابن خلدون يقول في مناسبة أخرى أن الفضل لجأ «إلى شعاب الجبل راجلا حافيا» (العبر،و5).





444. خَلَّ هذَاَ في مَوْضع مَرْهُونْ

حَتَّى يَرْجَعْ لكْ اَلَّذي رَبَّاهْ

445. يَنْظُرْ في شبَابْ ولاَ الْجُمَانْ مَكْنُونْ

تَتْعَرَّفْ حُرْمَة الْعَرَبْ فوْجَاه

446. فَخْرَجْ مَا بْطا وَلاَ رَجَعْ لوْرَا

يدَاخل منْ هلاَلْ إلى دبْيَانْ

447. سَاقْ وَرَاه جَيش صَبْ كالْمَطَرْ

قُدَّامُ منْ هوَادج الغزْلاَنْ

90

448. جَرَّعْ فيهمْ مُرَامت الْحَدَّادْ

فتَاتَه وَهَزَمْهُم إلَى قَابِسْ

449. ونفَى تُجينْ وَرَهْط عَبْدَ الْوَادْ

لتِلْمسَانْ وَمَا بْقَى منْهُمْ فَارِسْ

450. وَهْرَبْ مَنّو الفضْل فرُوس لَسْنَادْ

لبَجَاي دُونْ بَغْل وَدُونْ سَايسْ

451. قَالُو وَارْجَعْ عريفْ منَ السَّحْرَا

لسُلْطَانْ بَعْد مَا انْجلاَ حَميَّانْ[1]

1ـ يقول ابن خلدون «وخلص عريف بن يحيى إلى قومه سويد، ثم قطع القفر إلى المغرب الأقصى، ولحق بالأمير أبي عنان فنزل منه بألطف منزل». العبر 7 ـ 588 وراجع البيت رقم 262. والسحرا = الصحراء ولسلطان = لسلطانه، وحميان : شديد الحرارة وقوله : بعدما انجلا، أي بعد أن انجلت نار الحرب.





452. وَابْنَ العَبَّاسْ صَبَرْ عَلَى الضُّرَّا

وَابْنَ أَمُزْنِي عَلَى الجَمِيعْ رَجْحَان[1]

91

453. تَاللَّهْ قَدْ جَاحْ لِبُو الْحَسَنْ عَنْقُودْ

مْتْخَيَّرْ مِنْ فوَارِس الْهَجَمَاتْ

454. أَوَّلْ حَبَّ مِن الحُبُوبْ مَسْعُودْ

ابْنِ إِبْرَاهِيمْ وكَانْ عَلَى الزَّكَوَات[2]

455. وَخْرَجْ مِنْ بَسكْرَا بِهَالْ مَسْدُودْ

لِلسُّلْطَانْ بِالَّرحِيلْ وبِالْبُوجَاتْ[3]

456. تُدَّ بِالْعَرَبْ سدَّتْ الْمَجْرَا

قُدَّامْ كَالجَرَدْ عَمَرْ فَدَّانْ

1ـ كان السلطان أبو الحسن عند ما فتح قسنطينة في حركته إلى تونس ترك محمد بن العباس تاحضريت واليا على قسنطينة كما تقدم، ولما علم أهلها بواقعة القيروان ثاروا واستدعوا الفضل الحفصي، وكان في قسنطينة يومئذ بعض أولاد أبي الحسن وعمال من المغرب مع وفود أجنبية، وكانت محنة صبر لها الوالي المذكور، وجلى فيها ابن مزني صاحب بسكرة الذي كان موجودا فقد انتقل معه الجميع إلى بسكرة وظلوا في ضيافته إلى أن قدم على السلطان في تونس. العبر 6 : 821ـ 822 وانظر رواية أخرى في المسند 496 ـ 497 وراجع ما تقدم في رقم 162.

2ـ يذكر الشاعر هنا بعض من فقدهم أبو الحسن من خيرة قواد جيشه، وأولهم مسعود بن إبراهيم اليرنياني كان مشرفا على الجبايات العبر (6ـ 812) وخبر مقتله الذي ذكره الشاعر بتفصيل اشارإليه ابن خلدون بإجمال فقال «وعقد لمسعود على بلادالجريد من إفريقية عند فتحه اياها سنة ثمان وأربعين، وكان فيها مهلكه». العبر 7 ـ 102 ولاتناقض بين بسكرة عند الشاعر وبلاد الجريد في قول ابن خلدون، لأن بلاد الجريد كانت تطلق على توزر وأعمالها، وعلى بلاد الزاب أي بسكرة وأعمالها (انظر المعجب) وجاح اصابته جائحة أو هلك.

3ـ البوجات : العماريات والهوادج، والكلمة مغربية معروفة، تد بالعرب أي إذا بالعرب المجرا الطريق، وقوله كالجراد الخ أي كالجراد عندما يملأ فدانا والمقصود أن عددهم كان كثيرا وقد سبق للشاعر أن شبه كثرة الأعراب بالدبا والفدان : الحقل وقوله : بزرود أي دروع، وصافنات صفة للخيل، وضمرا = ضمر والأسنان = الأسنة أي الرماح.





457. بزُرُوْد تلْمَع وَصَافِنَاتْ ضَمْرَا
طَمَعْتَ فْي الْمَالْ وَمَدَّت الأسْنَانْ

92

458. قَالْ لصْحَابُ وتربَة الإسْلامْ
وَجْهَادي في الجَزِيرَة البَنْيَّا[1]

459. مَا فِيكُمْ فَارِساً يُشِيرْبحْسَامْ
غَيْري مَعَ ذَا العِصَابَة السِّيَّا

460. احْضُوا قَالْ النِّسَا في ظَلْ عْلامْ
وَأَنَـا سُورْكُـلْ أرْنَانِيـا[2]

461. ثُمَّ جزَّا الْمَالْ عَلَى مْيَاتْ بَدْرَا
وعْطَى بَدْرَا لِكُلْ مَنْ لُو شَانْ[3]

462. قَالْ إنْ عِشْنَا رَجْعُوالي بَدْرا بَدْرَا
وَإنْ مُتْنَا مَنْ فَاتْ بْسُرَّ بَانْ

1ـ قال لصحابُ أي لأصحابه والقائل هو مسعود بن إبراهيم. والجزيرة البنيا : هي الجزيرة الخضراء الجديدة التي بناها السلطان المريني أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق قال ابن مرزوق في المسند (116) : «وبنى البنية بظاهر الجزيرة مدينة مثلها» وانظر وصف الشاعر الملزوزي لهذه المباني في ابن أبي زرع : 371 ـ 372 وقوله : وتربة الاسلام لعلها مكة المكرمة.

2ـ احضوا اي احرسوا ، وعلام = علم، أي راية ولرنيانيا بنو يرنيان قبيل المتحدث عنه. وانظر في بني يرنيان العبر 7ـ 101 ـ 103 وفي الطرة : المرينيا. وقد تحدث العمري في مسالك الأبصار عن شجاعة بني مرين وذكر مثالا شبيها بما ذكره الكفيف هنا قال «ومن هؤلاء يعيش بن يعقوب بن عبد الحق تعرض له مرة نحو خمسمائة فارس وهو مرتحل بأهله وعياله من بلاد هسكورة إلى مراكش فلما رأى وعيا له إحداق الفرسان دهشوا فقال لهم ما عليكم سيروا أنتم ثم إنه دفع فيهم ففرق جمعهم ونجا بجميع أهله ومامعه».

3ـ بدرا = بدرة، وهي كيس المال وفسرت في الطرة بالشكاير والخناشي وفات بسرة أي بصرة.



93

463. لَمَّنْ عَامْ فِي العَرَبْ وَكَرّْ وعَادْ

مَا صابْ لِمرين خَبَرْ ولاَمَخَبْرْ

464. قالْ لنْسَاه: أَنْسَاستْ لَغْيَادْ[1]

مَافِيهَا اليوم نِقَبْ ولاَ مَعْجَرْ[2]

465. وعَسَى مَنْ عاشَتْ مِنْ بنَاتْ لَجْوادْ

تَتْحَدَّثْ عَنْنَا بِمَا تَبْصَرْ

446 .شُوفو اليَوْمْ يَا بْنَاتْ عَذْرَا

فِي خَلِيلِكُمْ هَفْ يَطَحْطَحْ[3] الفُرْسَانْ

467. فقْتَلْ مِائَةَ ومَاتْ عَلَى إِثْرَا[4]

لاَحَرَمُ اللَّهْ عَرَايِس الرِّضْوَانْ

94

468. وابن أَخْلَفِي زَعِمْ بْنِي عَسْكَرْ

قَاتَلْ حتَّى بقَى عَلَى جَنْبُو

469. أمَّا افْنَى مِنْ جمَاجِم الشُّقَرْ

فَرِضْ الرُوم ولاَقْضَى هُنَاكْ نَحْبُو[5]

---

1. لغيلد = الغيد جمع غيداء. وست في الأصل قد تكون ستت.
2. نقب = نقاب، معجر : هو ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها.
3. يطحطح : يبدد ويفرق ويهلك.
4. على اثرا = على اثرها.
5. ابن خلفي «سبق ذكره في رقم 219 وزعم = زعيم، وشيخ بني عسكر في عهد أبي الحسن هو يحيى بن سليمان «كبيربني عسكر وشيخ بني مرين وصاحب شوراهم بمجلس السلطان والمخصوص بالصهرمن السلطان عقدله على ابنته» العبر 7 ـ 534، ولعل المذكورهنا ولده، ومن هذه الأسرة محمد بن العباس وعسكربن طلحة. انظر العبر 7ـ 5600 والمسند 362 ـ 364.
والشقرالنصارى، وفرض الروم = في أرض الروم الروم أي قشتالة ولا قضى : في الأصل : ولو قضى. ونحبو = نحبه، وقضى نحبه أي مات.





470. وَفْتَى ونْجاسَن الاخْضَر ولَّى صُفْرْ
بن يَحْيَاتَنْ لاَ عَدَمْتُ بَنْ عَبُّو

471. هُوَ كَانْ الحالِفْ يَمِينْ عَشْرَا
تَدْرِيعْ لا فَسْحْ في مُدّة الحُسْرَانْ

472. حَتَّى قَتْلُوهْ في مَضْجَعَو صَبْرَا
كَالدود ادِّ الحَرِيْر عَلَى جيَّانْ[1]

95

*473. أمَا رَا قَلْبك أمْريني مِنْ نَارْ
وَمَا جرع من سُمُومْ وَمِنْ عَلْقَمْ[2]

474. إذَا خَابُو يوم رزْيَة المَنَارْ[3]
رَشْقُوسَهُمْ أوْ هجَمْ عَلَيْه أرْقَمْ

1ـ لعله ولد يَحيابن بن عبو، وليس عمر، شيخ بني ونكاسن من بني مرين. التعريف بابن خلدون : 58. وانظر اسم سيوربن يحياتن الو نكاسني في العبر 7ـ 736ـ737. ولا نعرف أين قتل المذكورخنقا كما يذكرالشاعر، وجيان بلد بالأندلس مشهورة بكثرة الحرير. ذكرابن عبد المنعم الحميري انه كان بجيان أزيد من ثلاثة آلاف قرية تربي الحرير وفي طرة بالاصل : شبه بجيان بلاد كثيرة الحرير. وادي هنا مثل كلمة ديال كذا ومتاع كذا. والحسران الحصار.

2ـ المريني هنا هوأبو الحسن السلطان والنجمة تشير إلى مخالفة الترتيب الأصلي.

3ـ المنار اسم المركب الذي كان يحمل السلطان أبا الحسن ومن كان معه وقد غرق أسطوله وهو عائد من تونس سنة 750هـ وكان يتألف من 600 قطعة حسب بعض الروايات، ويقال أنه مات في الغرق نحو 400 عالم، وكان غرق الاسطول على ساحل تدلس «وقذف الموج بالسلطان فألقاه على حجر قرب الساحل من بلاد زواوة عاري الجسد» الاستقصا 3ـ 71. ولعل هذا ماعبر عنه الشاعر بذل العزيز، وكان السلطان يشاهد اختطاف الموج لأصحابه والتهام البحر الهائج لهم كما عبر الشاعر وحكى ابن القاضي أن أحد هؤلاء وهو محمد بن محمد الصباغ المكناسي لما غرق الأسطول وكانت الأمواج تلعب به وهو على لوح منه سمع وهو يقول :

ياقلبُ كيف وقعت في أشراكهم	ولقد عهد تك تحذر الأشراكا
أرضىً بذل في هـوى وصبـابـة	هـذا لـعمر الله قد أشـقـاكـا

وفي الأصل والهمه بحر ولعل صوابها والتهمهم. وقد بادرأهل الجفن الوحيد الذي سلم إلى السلطان فاحتملوه «وقد تصايح به البربر من الجبال وتواثبوا إليه». ولكنهم خابوا كما يقول الشاعر. انظر العبر، ونفح الطيب 6ـ214. 216 والاستقصا 3ـ 170ـ 171.





474م. قلْ لي ذَلَّ العَزيزْ ومَاتُواالأَحرَارْ
والْهِمَّهْ بَحَرْ وأَيٌّ بحَرَ عَامْ

475. فُرْنًا يَحْمَى عَلَى خَشْبَ خَضْرَاَ
مَالُو مَنْفَسْ لِلْنَّارْ وَلاَ دُخَانْ[1]

477. لَوْ كَانَتْ فاسْ ثَكْلَ وَرِيمْ حُرًّا
طُولْ عُمْرًا كَانْ تَلْبَس ابْطَانْ[2]

96

478. كَذَا اهْلَ الدِّينْ في عُصْبَتُمْ مَعْنَا
كَالقَاضِي وَالمُدرس الأكْبَرْ

479. في كُلْ نْهَارْ يَدْعو لِمَوْلْنَا
مَنْد الكُرْسِي وفَوْق عَلَى الْمِنْبَرْ[3]

1ـ الفرن : الذي يخبز عليه ويطبخ عليه كذلك، وهو بالصفة التي ذكرها الشاعر لا بد أن ينفجر، ولعل الشاعر يلمح إلى حالة المغرب خلال المواجهة ين أبي الحسن وولده أبي عنان ، ويشبه هذا البيت قول ابن الخطيب :

مرجل فوق موقد الغدر يغلي   اضـرمت تحتـه من الـشر نـار

ويقول شاعر آخر في هذا المعنى أيضا

ولابد للماء في مرجـل   عـلى الـنار موقدة أن يفورا

2ـ شكل : هكذا في الأصل، ولعلها ثكل = ثكلى. وعمرا = عمرها، وتلبس بطان لعل معناه تقلب لباسها تحسرا وتضرعا، كما يفعل في صلاة الاستسقاء وفي المناسبات المؤلمة أو يكون معناه تلبس الجلود حزنا على ما وقع لأبي الحسن المريني.
3ـ في عصبتهم = ولمولنا أي لمولانا ، ومند الكرسي : من هذا الكرسي. وينبغي ان يكون القاضي والمدرس الأكبر في فاس، ولعله الشيخ المعمر ابن عبد الرزاق الذي عزله أبو عنان. انظر روضة النسرين 36 الابتهاج 250. ويمكن أن يستفادمن هذا أن الشاعر كان في فاس يومئذ.





480. وَالغرب كَانْ في أكْبَرْ مِحْنا
مِنْ ضَيْم الذُّلْ وزْمَانْ لغْدَرْ[1]

481. ....

....

482. ....

...............[2]

97

483. كُتُبَ الْغَرْب الْقَديم منْ أَرْض السُّوسْ
لأَرْض السَّاحل لْمُنْتَهَى درْعَا

484. للسُّلْطَانْ الْمُحَجَّبْ الْمَحْبُوسْ
في الْمَشْرق منْ حريقَة الْفَجْعَا

485. مَدّهَا لاَ حمامْ ولاَ طَاوُوسْ
الاَّ البُومْ وَالغُرابْ أَبُو الْفَجْعَا

486. فيهَا أموْلاَي هَجَرْتنا هَجْرا
لَوْ ريْتَنَا بَعْدَكْ يَحْيات لَبْدَانْ

487. نُكْسَوْا بالذُّلْ حُلَّه حَمْرَا
بَعْدَاً كُنَّا في دَوْحَة الرَّيْحَانْ[3]

---

1. من ضيم : غير واضحة في الأصل، وزمان لغدر : في الأصل والزمان غدّار.
2. سقط هنا قفل من القصيدة في الأصل.
3. الهجعا = الهجعة : عدم النوم مدها = ما أداها أي ماحملها الفجعا = الفجعة أي الشوم، يحيات = يا حياة،. نكسوا = نكسى، بعد كنا = بعد أن كنا.



98

488. هَذَا تَمر كِف ما امْتَضَغْ يَحْلاَ
مِنْهَا طَوْلَتْ نَغْمَةَ الْحَادي[1]

489. لَكِنْ نَدْعُو لِمَنْ قَدْرُو عْلاَ
فَبِلاَدي والكرام عَلَى الْوَادي[2]

490. ينصر دولة علي عَلَى الجُمْلاَ[3]
فأرض المَشْرِقْ وفَأَرْضنا هَدي[4]

491. نَهْدَلُو من بناتي الصُّغْرا
مَنْ هَيْفَات[5] الكفيفْ بلا أثمان

492. والمرَبّى في الأصْل وفي الجدرا
صَاروِيَة صريحة[6] الألْبانْ

99

493. وصلاة الله على النبي الْمامونْ
مارَدَّتْ فاختا جواب أُخْتَا

---

1. لعله يلمح إلى قول الزجال الذي كان يتغنى به الحداة وباعة التمر.

غربوك الجمال ياحفصه   من مكان بعيد
من سجلماسة ومن قفصة   وبلاد الجريد

2. الشطر الثاني من البيت غير واضح في الأصل والقراءة اجتهاد مني .
3. علي هو أبو الحسن المريني وعلى الجملا = على الجملة أي على الجميع أو على الإجمال.
4. أرض المشرق هي افريقية وتونس، وارضنا هذه اي المغرب.
5. نهدل = نهدى له، من هيفات = من هيفاوات جمع هيفاء ويعني قصائده، وإهداء القصائد إلى الممدوح شائع في الشعر الفصيح.
6. صاروية هكذا في الاصل، ولانعرف مكانا او قبيلة بهذا الاسم، واقرب شئ إلى صورة الكلمة هو صاريوة التي وردت هكذا علما على قبيلة من بني يازغة في أخبار البيدق 71 ـ وبيوتات فاس 43 والتشوف 288 وسلوة الأنفاس 2 ـ 18 والروض لابن عيشون 139 وإليها ينسب سيدي بوغالب الصاريوي دفين حومة صاريوة في فاس، وقد اطال فيه مؤلف السلوة، ويقال ايضا صريوة أنظر التقاط الدرر 1ـ 208، وأظن أن هذه الصيغة تتعرض للتحريف في الكتابة والنطق فهي مثل بطوية وبطيوة وبقوية وبقيوة، قوله صريحة الالبان، يحتمل ان يكون على الحقيقة بمعنى جيدة الالبان أو على المجاز بمعنى أنها حرة صحيحة النسب، وقد ورد نفس الوصف عند الشاعر بهذا المعنى في موضع آخر رقم 441.





494. والرّضْوان والرّضى السنّي المَكْنونْ
للْخلفَا الرّاشدين مع ستّاً[1]

495. واسْتَغْفِرْ ياكْفِفْ لابْنَ حسّونْ[2]
واتْفَكَّرْ مَا ذَكَرْ في عَامْ ستّا:

496. أَفْجَعْني صَيْحَة النَّجيبْ بُكْرَا
حِينْ رَحلُو ركائِب الغزْلاَنْ

497. وامْسَتْ من بَعْدَمْ الدِّيار قَفْرا
ما فيها لاَإِنْسْ وَلاَ عُمْرَانْ[3]



1ـ فاختا = فاخته أي حمامه، أختا = أختها.
2ـ مع ستا مع ستة يقصد الستة المبشرين بالجنة وفي الأصل بتا.
3ـ انظر ما كتبناه عن ابن حسون هذا في المقدمة.
4ـ يظهر أن هذا القفل الأخير في ملعبة الكفيف هو مطلع زجل للشاعر الزجال ابن حسون المذكور، ومن بعدم = ومن بعدهم.





ترجمة إسبانية للملعبة

لما نشرت ملعبة الكفيف الزرهوني سنة 1987 أهديت نسخة منها إلى صديقي وزميلي الراحل الأستاذ الكبير إميليو غرسيه غومس فأعجب بها وترجمها ونشرت الترجمة أوّلاً في :

BOLETIN DE REAL ACADEMIA DELAHISTORIA

ثم جمعت في كتاب مستقل طبع في مدريد سنة 1989 وأهدى إلي نسخة منه؛ وهذه صورة الإهداء.

EL GRAN ZÉJEL MARROQUÍ
DEL CIEGO DE ZARHŪN
(VERSION PERSONAL)

para
mi querido y admirado
amigo M. Bencherifa,
con un abrazo de
Emilio G. Gómez
Madrid, 13 de Abril
1989.

وقد رأيت أن أثبت هذه الترجمة الاسبانية إلى جانب النص الأصلي تقريبا للمقارنة بينهما وتذكارا لصداقة دامت أربعين سنة[1].

1ـ اقتصرت على الترجمة وتركت مقدمتها وما فيها من شروح أشرت إليها فيما تقدم ؛ راجع ص : 54.



0

¡Loor al Que a Emires vigila el pensar
en todo momento y en toda ocasión!
¡Si dóciles somos, nos viene el favor;
si somos rebeldes, aflígenos mal!

1

A Orión se parece real corazón,
y todos los otros en su órbita van.
Si es justo, de él sale (grandísimo honor)
un céfiro manso, fragante de oler.
(La regia justicia flor es en botón
que, abierto, atrae todo, cual llama, a su luz :
lo mismo en la espiga que en fruto en sazón
la ves cómo brilla, y en el animal).
Mas de él, si no es justo, ves polvo salir
que todos los pechos recubre de orín.

2

«Cual tierna dulzura —nos dijo el Nabí-
yo en tiempos del justo califa nací».
_Refiérese a Kisrá, y en su obra Jaíb
del nombre de «justo» nos da la razón.
Un día, de caza con séquito fue,
y alzóse en ojeo gacela que huyó.
Tras ella dispersos, fue Kisrá también;
mas, siendo jornada de ardiente calor,
topó, según cuentan, con verde vergel
y en él una siesta propúsose echar.

3

El dueño del huerto, vasallo gentil
y mozo, dio en él bienvenida al Sultán.
Y Kisrá aposento halló así en un jardín
que un príncipe nunca compró ni vendió,



y allí halló descanso con paz y solaz.
En su árbol granada magnífica al ver,
le dijo : «Aquel fruto, mancebo, tráeme».
Cortóla y, corriendo veloz, se la dio.
La fruta en su boca tan pronto estrujó,
su zumo más dulce le supo que miel.

4

«Querría —a sus solas se dijo el Sultán—
pudiese a mis manos la finca venir.
El oro que fuere preciso daré
con tal que este mozo no llore al salir.»
«Al árbol ve —dijo—, muchacho, otra vez
y tráeme una hermana de tal fruta, igual.»
Cortósela el mozo deprisa, y del Rey
corriendo en las manos la depositó.
Mas tanta dulzura trocóse amargor
de acíbar, y acaso de gusto peor.

5

«¡Qué raro! —le dijo al mancebo el Sultán—,
¡qué bien la otra supo, pero ésta qué mal!»
«—¡Por él que las nubes congrega! ¿Las dos
de idéntica rama no vienen?» —cortó—.
«Hermana es de la otra —siguió—, sin dudar.
Ni en sitio siquiera verás distinción.
La fruta primera que traje al Sultán,
comióla fijada en el bien la intención;
y, en cambio, del árbol con ésta al venir,
ya había su mente trocado Satán».

6

De Kisrá su mal pensamiento voló,
y al punto hacer siempre justicia juró.
«Tráeme una tercera -siguió—, por probar:
de tal mismo ramo me la has de cortar.»



La fruta en la boca tan pronto estrujó,
pensó si estaría rellena de miel.
Fue siempre ya justo después. Colocó
con una campana cadena en el Táŷ.
Si de ella por fuera el que agravio sufrió
tiraba, en seguida salía el visir.

7

«Sé un apacentado; no seas pastor,
que dar cuenta debe el pastor de su grey».
Mas pide a Dios antes bendiga al Nabí
a los Compañeros les dé su favor,
igual que a los rectos Califas también.
Y al punto comienza lo que has de decir :
¡Vosotros, romeros, que vais el erial
cruzando, y de tierras y gentes sabéis!
¿Adonde las tropas de Fez, la ciudad
brillante, el designio llevó del Sultán?

8

¡Por ese Nabí, cuyas casas a ver
habéis ido, yermos por Él tras cruzar!ŷ
Romeros, decid: ¿de la tropa del Garb
perdida en la negra Ifr_quíya, qué fue?
¿Y qué del Emir, quien su dádiva os dio,
y que hizo la tierra en Hi ŷáz -prosperar?
¿Por qué azud tan recio deprisa quebró
y su agua, antes queda, camino se abrió?
¿Por qué Baht de madre, Radüm, Bú Cabrá
salieron, y el llanoá de Azgár fue un Sayhán?

9

Por mí, pon en juego tu mente eficaz;
por mí, con razón imagina sutil,
¿No hallaron correo o pichón? ¿Sin saber
estar siete meses pudimos, del Rey





por medio de cartas de Abd el-.Muhaymín,
de 'al_ma tan larga como un alminar?

De rotos (no puede cubrirlos girón)
y sin beneficio ni oficio, saber
no es fácil ni cómo amasaron su pan,
ni cómo lograron entrar en Qayrwán.

10

Por más que entre Túnez y Fez, la ciudad,
hubiese erigido su muro Iskandár
(aquel que de Oriente a Occidente elevó
con capas alternas de hierro y latón),
noticias habría podido traer,
si no una paloma, correo veloz.
¡Qué malas y tristes las nuevas nos son!
Verías —de un río leídas a par—
henderse las piedras, la sangre correr,
secarse las charcas, aljorfes caer.

11

Marramos la puerta, Muley B_-l-Hasán,
la marcha hacia Túnez al ir a emprender.
¿Qué falta te hacían el Záb y el ŷaríd?
¿Con esos Alarbes qué tienes que ver?
¿Lo que hizo Fárúq CUmar ben al-Jatt_b
no sabes? Hermosas ciudades tomó;
la Siria, el 'Iráq, Ctesífón debeló;
mas no de Ifri quíya ni un solo sillar.
Si ante él la mentaban, negábase a oír
diciendo: «Es, de hermanos, su nombre escisión».

12

F_r_q, esmeralda que fue de la fe,
trataba a Ifriquíya con tanto desden
y así continuóse hasta el tiempo de ' Utmán





que vio la campaña de Ben az-Zubéyr '
Apenas llegado al Diwán el botín,
' Uíman murió, el viento sopló del revés
y Emires tres tuvo el Islam a la vez
(de cuanto ocurrió lo mejor es callar).
Y si esto, los Píos viviendo, pasó,
al fin de los tiempos ¿qué no ha de pasar?

13

En libros que tienen por tema el jofor
(Mercurio y Saturno salir allí ves),
así como en ciertos poemas también
de Saqq y de Aben Marráná y de Sut ayh
se lee : «Si enarbola banderas Mar_n
en muros de Túnez, su suerte caerá».
Recuerdo una vez que escuché al Gran Visir
Ben al-Hásán ísá, de gran condición,
decirme: «¿No viste —mejor lo sé yo-
gue ciega los ojos el Sino, al bajar?

14

Contar voy la causa que tuvo Marín
para ir contra Alarbes Dabbáb desde Fez.
Dios quiso muriera Abú Yahyá, señor
de Túnez y toda la costa de "Unnáb,
el cual, antes de esto, con Abú-l-Hasán,
por dos de sus hijas, pariente se vio.
Murió y fue a la prole tal muerte fatal.

que mal trato dio a sus hermanos (Umar,
y a dos de ellos hizo a cuchillo pasar:
crueldad que al Emir Abü-l-Hasan airó.

15

Fue sórdido el príncipe almohade al matar
(con todo fiel) a Áhmed, su hermano mayor,





después que a su padre logró suplantar
forzando jurasen por bueno el desmán.
Ya he dicho que el rey Ab_ Yahyá envió,
por nueva consorte para B_-l-Hasán,
princesa hafs í, de sus hijas menor,
la cual era hermana de la otra anterior.
Esta última historia, que bien conocéis,
habían querido después renovar.

16

La novia, hija de Ibn Ab_ Zákri, salió
con Fadl, el hermano, y con Ben T_fr_g_n
en pompa solemne —de estrellas rodar—
hacia el luminar de la fe, Bú-l-Hasán.
Mas Dios que Ibn Bú Zákrí muriera ordenó
cuando iba en su vía oficial la misión.
La mísera virgen del padre no aún
la suerte sabía en Mans_ra al entrar.
Dos perlas se unieron allí en Tremecén;
mas nunca en el Sino puede uno fiar.

17

De Ifríquia enviados vinieron al fin
con las tropelías que “Umar perpetró:
del reino la ruina, la muerte de Ahméd,
deshecho el Estado, secretos a luz.
A Fadl, el hermano de 'Azzúna., afligió
lo oído, y al falso de Ben Tá frágín.
«Escucha, esmeralda de Emires —decir
solían—, ve cómo, a sus padres infiel,
corta Áhmed cabezas y mata en tropel.
mezclando las sangres de niño y mujer.

18

»Así quiebra el reino feliz de Abú Hafs.
Compónlo, tú que eres del reino el león,



juzgando al rebelde conforme a la Ley,
y a tierras de Túnez decide partir,
porque hoy eres nuestro regente y tutor,
cual padre si fueses, y el alto Suhá.
Contempla ahora tú esta Bugía gentil,
y acéptala en dote, seguro el aman.
Haz tuyas las huertas de la capital,
el puerto y los montes, el río, el jardín.

19

»Y más importante y más grande será
que dejes abierta la vía del haŷŷ,
logrando que, libre de todo desmán,
mujer con diadema la pueda pasar.
Así, hasta que vénganos 'Isa a juzgar,
las turbas de 'Arafa te lo han de estimar».
¡Si hubiese evitado el error de este plan!
Dejó a hijos sin padre, mujer en viudez,
y al buitre dio el sacre de Banú Marín
ejemplo en Ifríquia para escarmentar.

20

Cobró las gabelas, habló halagador.
y, parche batiente, a Bugía partió.
Habían llegado a Cherchel desde el Sús
caballos y muías, la tienda, el pendón.
Tardó un año entero mesnada en juntar :
allí un pendón honran, aquí otro saltó.
De Alarbes ninguno dejó atrás: los Jult,
los Qurra, los ^yá bir, también los Sufyán
Zenetes. con frente que cubre el mechón
' y sabios que estudian el santo Corán.

21

Había en la hueste de Banú Marín
o dieciséis mil o tal vez algo más :



los Ban ú Zayyán y los Banú Tuŷín
Magrawas, un grupo de los “Abd al-Wád
(si bien los espinos jamás higos dan
ni rosas se cortan de raíces de dád),
Rífeños, que son de los _asam raíz
y -en puesto tras de los Wisfásn-'los Fud_d
La villa —quitados los nobles del Garb—
lució con arqueros, con R_m y con Gozz.

22

Así, cuando a todos juntó en Tremecén
salió al empezarse la mies a segar.
¡Ay, cuánto ya vieron, llegando a _alaf
por falta del agua y andar caro el pan!
Cabeza de calvo que puedes lavar
en casa, no vayas al río a fregar.
¿Irán los azores carroña a buscar
si, untada en manteca, les dan codorniz?
Si a Biskra abandonas por ŷabal az-Zán,
al gran Sebú dejas por el B_ Cabr_.

23

Bú -l-Hásan sentó su almofalla al confín
del reino. Más tarde fue al Wádí Bisbás.
De allí siguió al Wátá y al _abal az-Z_n.
En ellos ni tigre dejó ni león.
A todas las gentes juzgó casi un mes:
prisión al rebelde, y al dócil favor.
Al fin, a sus huestes el bosque paró.
Su recua en el Río Mayor abrevó.
Después a Bugía, que en las Puertas es
la llave, por una semana asedió.

24

Allí, gratitud mereciendo, trató
de cosas que gustan a Dios y al Nabí.





Un tercio solía de aquella ciudad
beber, y del río lo hacían a par.
Echó el vino al agua, y el madrugador
que el río era franjas de vino creyó.
De trigo en el puerto cargaba un Rúmí
carraca tan grande como el Tizarán.
Por darlo a los pobres, la venta anuló,
pagándole el precio al Rúmí del Majzén.

25

El mando en Bugía le dio a Ibn an-Naww_r
y al punto de allí a Constantina siguió:
por días y noches, vadeos, trepar,
cabilas cual lobos girando en redor:
tropeles ignaros, sin sede ni hogar,
que nunca respetan ni pactos ni fe.
Y, ya en Constantino, su campo enfrentó
a un w_d, que es un prado de flores de lis,
y a un fuerte —con Venus al ras— de un subir
con más rampas que el alminar de Hasán.

26

-Al mes, Constantina rindióse con paz;
mas fue por la fuerza tomado el alfoz.
Echado, con todos los suyos, 'Umar
salió, y por lentiscos se puso a correr.
Cuanto hay entre Túnez y el llano, en poder
se hallaba de Alarbes y dominación.
Un mes casi tuvo la hueste que andar
—¡qué pena!— de Alarbes por un corredor :
aduar a siniestra y a diestra otro aduar,
y así desde el Río Mayor a Zaguán.

27

Alarbes al alba y al atardecer;
los deja, y entre ellos es fuerza acampar.



Setenta de entre ellos vestía por mes,
y el oro por cargas debía gastar.
Los Árabes, como rocío en jardín,
te dejan el día que cesas de dar,
o son verde espino que —tal garras de
garduña— con pinchos al día otro ves,
y no te da fruto, pues flor no te da
por más que lo riegues con agua de abril.

28

Mandando que el 'Ásri siguiera al Hafsí,
Bü-l-Hásan de Haŷra-l-''Uqáb salió. Tras
Beja, río de oro, ya en Túnez, sentó
en Cuesta que llaman «la del Tomillar».
Aprisa de Túnez huyó el malhechor,
con gente beréber y alarbe en tropel.
Las perlas y el oro sacó, y lo cargó
a lomo de muía: era cuando juntó
su padre, y antaño logró atesorar
la Casa de Emires de Bánü Abí Hafs.

29

Llevóse el tesoro de noche, y corrió:
sin alas, dirías que al cielo voló.
Mas Abú Maár_f al áAsrí le iba en pos
con raudos jinetes: tal vez doce mil.
Lo halló; pelearon en lid como Badr,
y muy buena parte murieron allí.
Fallóle el caballo, y así. a su pesar,
fue a manos llevado de Asrí, quien —mudar
temiendo pudieran de allí hasta el albor—
matólo: aún no había cantado el muecín.

30

Tal cual pensó el 'Ásri, mudaron después
de darlo, y, sintiendo por él compasión,



tramaron: «Diremos mañana a Hamm_
que al sitio de audiencias nos lo haga salir.
Y, visto que hayamos su estrella lucir,
haciéndolo a espada salir del real,
de Emir lograremos ponerlo otra vez,
formando en su hueste lo mismo que ayer».
Mas, cuando vinieron por él al caíd,
cabeza sin cuerpo les hizo sacar.

31

Ver árbol sin flor y podrida raíz
forzóles a aquella intención desechar.
Cogido el tesoro del Rey infeliz,
se fueron estéril desierto a cruzar.
Igual que racimo en cofín, aPAsri
el cráneo sangriento mandó a Bú-l-Hasán,
y éste, por su esposa —la hermana— no herir,
no en pica clavado mandólo exhibir.
Contar ahora vamos la calamidad
mavor : con los Árabes fieros la lid.

32

Qué sierpes picaron allí a nuestro Emir
diré: bebió de ellas ponzoña letal.
Detrás suyo —«primo»— reptó el alacrán
de Tu_m y el bando de los 'Abd al-Wád.
El diente del áspid un año es mortal
herida: aplicarle su jugo es peor.
«Secundo)): ya enfrente Hafsíes le están.
«Trajímoslo (dicen) un reino a amparar;
pero él, que a su reino quiso otro añadir,
de simples soldados nos deja en su real».

33

Gran mal —«tertio»— fueron _asam y Marín,
del reino antes hueso que fue vertebral.



Decían: «Si a China nos toca viajar
- e ir a ella nos manda, decimos que sí.
Aún dado que vivas, quedó en orfandad
tu prole, y tus hembras dejaste en viudez.
Si ve que en la algaba cogiste un león,
y sabe y contempla que está en tu poder,
nonada lo juzga, que no hay que estimar,
y que es travesura de párvulos cree».

34

«Nos mata —seguían— tantísimo andar
por tierras calientes, hambrientas, sin pan;
mas nuestro salario de Rdá t o el Sebú
no cambia, en Gabés el remoto si estás.
Y aún quiere llevarnos a "Ad fulva y coger
el grande tesoro que allí se enterró.»
Los Árabes —«quarto»—, botones de erial,
no lengua refiere las penas que dan.
Son gente más que sus camellos bestiales
y roban azoque o minucias así.

35

Listo era Mawl_na, caudillo cabal.
Jamás le aterraba león ni dragón.
Como 'Áli era bravo, según mi entender.
¡Si visto lo hubierais salir a Siffíín,
montado en su silla, cual novio galán
con héroes a diestra y siniestra en redor!
De haberse quedado en la Beja gentil,
dar pudo a su reino mayor esplendor,
sin paso de yermos, tan mal caminar,
y a tantos en boca de lobo meter.

36

Ves vientos —los cuatro— la tropa envolver
y con tolvaneras de polvo cubrir.





No encuentras un pozo de buen manantial,
sino un mal aljibe que lluvia colmó.
Allí, donde tuvo la tropa que andar
langostas a nubes tan sólo hallarás.
En toda tu vida tal cosa verás:
a tierra sedienta caballos venir,
que en verdes praderas, que riega el Sebú,
criaron Táyásra y Azgár y Jawlán.

37

Diré ahora lo que hizo, forzado, el Emir :
el don que —enviado al Idólatra— fue
rescate del hijo Muley Bú "Umar,
cautivo, unos años hacía, en el R_m.
«Mandar voy —decía el Sultán— al «Senyúr»
regalo del rico tesoro muslim,
de cuanto yo solo logré reunir
y no dio en sus tiempos ni aún Anusirwán».
«A orilla de Infieles —siguió— mandaré
con él a dos jeques : caíd y hafsí».

38

Llevár onlo al Rúm el sayj Ben Táfráginm
y el «cielo superno» Jálid, el gran sayj.
«Sólo esto nos cabe del drago esperar :
al Incircunciso en destierro partir»,
dijo uno. (Ya el Sino dejó a los Marín
con los almohades de Túnez no más).
«Del fértil ingenio que tienes, ardid
saca ahora, de aquellos que usaba S_s_n».
Y el otro repuso: «No queda más que
contra él los Alarbes se quieran alzar».

39

Por ver libre al hijo tras del parabién,
alegres del oro y la ropa, a dejar





los Árabes iban la corte y el sayj
gritó a los porteros: «Cerrad», y al Sultán
le dijo: «Si prendes a tanto matón,
tu reino feliz y sin tacha has de ver.
La caza que cae en tu horquilla retén,
torcaces apresa, cerrando la red».
«— ¿ Va un horro —el Rey dijo— traición consentir?»
Cortóle: «Traición es recurso de rey».

40

Cogió a diez; empero Fatíta, el pichón,
- voló, y el desierto se puso a agitar.
Hubo otro presagio fatal : un seríf
alarbe, que en faltas cayera y a quien
cortaron la mano y un pie, recorrió
con ambos despojos aduar tras aduar.
Del cuello a su esposa colgólos, y fue
pasándose desde Hílál a Dubyán.
Los Árabes, cuando cundió la inquietud,
de Biskra vinieron al ŷabal az-Zán.

41

Pasó aún otro lance que alarma causó
cegando los ojos, y el odio encendió.
«A Alarbes —se dijo— el Emir va a mandar
quien cobre el azaque prescrito y legal
de todo ganado de Ka " b y Dabbáb,
y agentes del fisco con tropa a enviar».
La junta de Alarbes se escandalizó:
«¡Este hombre es —decían— extraño en verdad!
Delfulvo oro sólo parece querer
el nuestro en azoque o minucias así.

42

«Llegamos en días de 'Umar y de 'Alí;
venimos de los Compañeros los más;



tratamos con ábd al-Mu'mín ibn 'Alí;
dominio tuvimos de Sába a Salé;
mas no por camellos ni crías jamás
tributo dio Zugba, Dabbáb o ku "b».
Les dijo: «Si un pelo, por Dios, me negáis,
debo ir a atacaros, según el Corán».
«—Qurá__y de Fátima nieto si ser
te crees, a cobrarlo —dijéronle— ven».

43

Salir contra Alarbes mandó Bú-l-Hasán
su fuerza montada : los ochenta mil.
Quien iba en vanguardia, junto con N_sír,
fue al-Ásri, el caudillo mejor y el león.'
En marcha de un día o de dos, tras Qayrw_n,
un río, de hondura una braza, surgió.
Su lodo a los labios llegábales: no
podían a nado ni a vado pasar.
Alberca, no dique, agua tal les paró.
Alarbes, no cuervos, veían llegar.

44

Fue cabe aquel río lodoso la lid
de Alarbes con Rúmis, Zenetas y Gozz.
Luchó Ben A^y ná mejor que Miqd_d:
con tanto jinete a Fat_ta avanzó.
No el plazo esperando, su lanza empuñó
y, en rota, el Alarbe repliegue inició.
Buscó las banderas, volviendo al real,
a espada queriendo su harén defender
(que no has de mujeres los velos ganar,
si no con turbantes caídos los ves).

45

Siguiéndolos —dicen—, podido evitar
habría de nobles tan gran deserción;



mas casi completa la tropa en Qayrw_n
sentó. Sólo al á ”Asrí de Alarbes fue en pos,
cual lobo. Moviólos, y cuando, por fin,
la chispa entre el gorro y la cofia prendió,
decían las mozas desde el palanquín:
«¡Kawkab y Hilál y Gassán, avanzad !»,
y Alarbes, royendo sus uñas: «¡Aquí
—decían— estamos, oh ramos de ban!»

46

Venció por tres veces _Asr_, sin cesar;
mas fue rechazado llegando al real.
Su carga, la cuarta, contra él se volvió,
y allí lo afligieron Alarbes. Alzó
banderas an-Násir, mil votos echó,
y por la canicie del padre juró
no espalda/rente a ellos volver, ni escapar
(¡si encina en granado pudiese injertar !).
De su hembra a la vera dirías le ser
león que terribles quijadas abrió.

47

Násír, con su hermano, la lid de D_hís
riñó, y cual jacinto la llama aguantó.
Jinete veías el arco tirar,
que cual saltamontes volante lució.
Llegaban las gotas de sangre a la hurí
con salpicaduras hasta el palanquín.
Mordiendo sus uñas, la vieja del clan
a su hija, llorosa, decía al pasar:
«Desde esa litera no mires ya más:
pervive el valiente, perece el poltrón».

48

Tensaban las viras, tendían pendón.
Ya el clan de Zenetas pensó en desertar.





En móvil adarga podías oír
cantar las espadas, las flechas piar.
Burlábalas Násir al verlas caer;
mas, si una esquivaba, venía otra ya.
Oyendo esta lucha el Sultán, se salió
del campo. En la punta parado, lloró:
«¡Querido Ab_-l-Fádal! Para uno que ve
tu prueba y contempla, ¿qué aguante cabrá?»

49

Moviéndose torpe y en fuga, incapaz,
en plena almofalla detúvose al fin.
Caballos sin monta veía venir
que, en un parpadeo, perdiéronla ya.
Mandó «retirada» en albogue tocar
(cabe él roto estaba, cual muerto, el tambor).
La gente hasta en cuadras se fue a refugiar:
aparte, por taifas, buscaba un rincón.
Llovían las flechas, cual nube, en su faz.
Veíanse Alarbes del río llegar.

50

El año ocho tras setecientos y a más
cuarenta, en dú-l-hiŷŷa, fue la hórrida lid:
el miércoles hubo la Fiesta Mayor,
y todas las barbas ya el lunes caneó.
Marines y Alarbes —¿sabíase quién?—
veías tomar la calzada y huir.
Sulaym fue langosta que entró en la ciudad.
«¡Fulano!, ¡Zutano!» llamaba el Sultán.
Debieron los Ya_am salir esta vez:
Mudar si arde, sólo lo apaga Qahtán.

51

Allí desertaron Támasn áy Azgár
tropeles de Tádla, de Maŷátiyyán,





Sahr_wis y quienes vinieron también
(de allá en el Muluya) de Suwaydiyy_n
Gran turba juntaron así los ku __b :
del Garb era aqueste, y aquél Baladí
¿De dar más detalles habrá precisión?
El río, barrera; teme aún, el Sultán
Cruzábanse voces; la rota cundió
Por último, el grueso llegó de Ku _b_n.

52

Corrieron con ellos los Árabes al
desierto que nunca la lluvia mojó,
Y lleno de Alarbes hasta el río: azud
que piedras y hierro dirías formar
El no era el dique de Iskándar : frente a él
Marín, pero Gog y Magog por detrás.
Traición hizo luego quien odio al Sultán
llevaba en el fondo de su corazón
Traición hizo Túnez, y engaño mostró
incluso hasta el puro del háŷŷ Suwayd.

53

Fue Túnez quien hizo primero traición;
después los Suwáydis se echaron atrás.
A diestro y siniestro la tropa del Garb
Plegó las enseñas y el parche rompió
Incluso a los buenos pasarse al Hafs_
veías, serpiente tornando el varal
Aún más, en Maríín la indigencia cundió:
a hambriento jinete, canijo rocín
¿Lloró alguien –decidme- los muertos u oró?
¿ para ellos sudario pensó alguien traer?

54

De Alarbes también a Rumíes el mal
Llegó; nunca amiga león con dragón.



Quien trajo consigo el Emir, desertó
y en ojos y rostro flechaba al Sultán;
y así, lo guardaban tan sólo el Rumí
y pocos Merines de su intimidad.
El peso en el otro platillo cayó:
balanza tres platos no tiene jamás.
¡Ay, cuántas desgracias arrastra tras sí
de Emires ignaros campaña infeliz !

55

Diría quien viese tal día al Emir:
«Satán —en sus trampas— puso otro; no es él».
Tenía a sus hijos tan sólo y los Rúm
(millar de Cristianos cerrando tras él).
Alarbes y tropas al ver desertar,
el jefe cristiano juraba al Emir:
«—No salgas, si quieres, del campo ya más,
en tanto entre muros no estés de Qayrwán.
Verás lo que valen los Banú l-Asfar,
hoy día, en que te huye quien es de tu fe».

56

Las cosas, aún mudas, así a los Marín
decían (sus voces habéis de escuchar) :
«¿No os entra sonrojo por ver el sostén
que el hijo del gordo Rodrigo le da?
Tesoro y soldados dejasteis perder.
No guárdalo más que el hostil a su fe.
Jinetes teníais de pro doce mil
(dejados Alarbes aparte y Wisfán);
mas tropa tan grande no más os sirvió
—cual dice el Profeta— que de perdición».

57

Por Dios, oye qué hace las plumas correr
de un sueño con forma de comparación



Me dijo uno: «Tuve tal sueño en lugar
de nombre que no he de aclarar ni decir
La luna del cielo bajó a un palomar;
metióse en celdilla; tras sí la cerró,
y allí—donde un rato, refieren, quedó—
relincho tremante sonó de corcel».
Qué trances entonces pasara el Sultán
no puede en renglones caber ni díwán.

58

El león cuando en medio [del circo] se halló,
Y todo el gentío flechaba contra él
de todos dejado, su diente a sacar
las víboras vieras, pensando en picar
que siempre que en cirios amatan la luz
Ponzoñas el áspid arrastra al salón '
Traición hizo Túnez, y engaño mostró;
También «Constantina del aire» en la cual
al ya del minfíel rescatado Tas fín
muslimes habían devuelto al poder.

59

Reptil, de venganza con sed, se erigió.
Surgir vieras sierpes en cada ciudad
Su sede en Bugía dejó Ibn an-Nawwár
y, íuera de puertas echándose, huyó
La plebe a Sirhán en Mázúna siguió
Y el necio allí ropas de honor repartió
Con rota tamaña pudo Iblis tocar
campana con eco sonante en el mar
A los Magribíes deshonra cubrió:
no había que hacerles los dientes mostrar

60

Dio el Árabe a flojos pregón en Qayrwán :
«Que baje quien quiera bajar, con amán».





Y al río de Alarbes veías llegar
al Gárbi, sin duda con cierta ilusión.
Entre ellos, aparte, quedábase un mes,
por luego robarle, cuando iba a partir.
Al alba escuchabas no más que esta voz:
«—¡Levántate, al huésped, ' Imr_n, a robar!»
Es eso de: «Ceba, buen hombre, la res,
que hará mi vecina con ella un perol».

61

La fiesta del Día de "AAsúrá, el Sultán
—enfermo, impecune— metióse en Qayrwán,
en donde el asedio forzóle a seguir
setenta jornadas, si no siete más.
Estando en los muros o el Patio, mandó
por hombres piadosos: ninguno acudió.
Sentado entre sabios, solía leer
las obras mejores de maestros del «fiqh»:
Sahnün, al-Qábisí, con otros así,
más Aben Abí Záyd, «de mares unión».

62

Subía a la torre, buscando olvidar
y a un lado y al otro su vista explayar.
Saetas y espadas veía lucir
como astros nocturnos sobre el arenal
y tiendas de piel, no labor de albañil
de Puerta de Lodos a Puerta Qayrwán
De noche, si Venus salida era ya,
veía de fuegos la sombra hecha un mar,
y, al filo del alba. empezábase a oír
mugir de camellos, no voz de muecín.

63

«Tú —dijo—; Quien todo del agua creó!
En Ti espero, porque mi corazón ves.



Si vine a este pueblo, bien sabes que fue
no por injusticia ni depredación.
¿No en él he cambiado cuanto era ilegal
según del alarbe Profeta la Ley?
Hallé de injusticia y de vino ancho mar,
del mismo confín de Ifrí quíya hasta Argel.
Cortaron la sacra Peregrinación,
robando a las cáfilas todo caudal.

64

» ¡Señor!, me hice dueño de los "Abd el-Wád,
y halló merecido su régimen fin,
pues si un há^y^y venía montado y con pan
le hacía volverse sin peregrinar
Con vino doquiera topé y corrupción:
cuarenta años cárcel un preso sufrir.
Ver pude en la Qubba Bermeja girar
la noria del vino, que despedazar
rompiendo sus vueltas, tan sólo logró
-¡Clemente!- mi espada con Tu alto favor.

65

»Murió Tás ufíN dando a plumas que hablar
mas yo evité todo castigo mortal
Tras ser siglo y medio enemigos, no osé
doncella o cualquiera mujer cautivar
Registro les dí en mi Zimám con Marín
Tuvieron morada, salario y favor
Mas, aunque sus cuellos del hacha libré
Señor, me pagaron desvío y desdén.

66

»De Túnez, que es gente de fe, sabes más
de mi y de ellos —Tú, el Subsistente por Ti-.
Con ellos por sangre ahora y antes me uní
y hasta hoy en su ayuda mis tropas usé.



Un año hace, hasta ellos desiertos crucé
para al agraviado librar de opresión.
Y en Túnez, la resplandeciente, al entrar
hallé hasta en sus muros cuanto es ilegal:
bebían los ebrios con ostentación
y en tiendas podía comprarse el hasís.

67

»Vine a ellos al frente de toda mi grey,
y entre ellos las olas revueltas hendí.
Sus jefes ilustres jurábanme así:
_Tu mano está abierta sobre este país;
mas si ahora la espalda nos das y te vas
la flauta y la rota se oirán otra vez.
De Túnez ignaro, murió nuestro rey
(pues sólo en halcones pensaba y no más),
y a ti, si nos dejas y pecas así,
pendrémoste pleito por ello ante Dios'.

68

»De Alarbes de Ifríquia Tú sabes —Señor-
lo mucho que han hecho las plumas correr.
Es cierto: pecados vi entre ellos cundir,
y lo es la rapiña que hacían del háŷŷ.
Son gentes que ofrecen la paz al muslim
en tanto no deban cumplir el Islam.
Por cruel que haya sido Marín una vez
—Señor, no conoces en él falsedad—,
quitado he la sujra y el imzagadán.
la dimma, la játi__ __a y el dár al-ajz_n.

69

»Mengüé en cuanto.pude la contribución
al Gárbi y al Háwzi y a los del Qaytún
quitando la aduana de aquí y hasta el S_s
en cuanto traían las naos del Infiel.





Y apenas de tanta labor descansé
quitéles la jursa con el azarzŷ.
Hormiga a elefante guiar; convivir
corderos con lobos: mi norma era tal,
queriendo en los zocos pudiérase oír
la ley de Ben “Abd al-_Azíz ben Marwán.

70

»La fe se ha hecho débil; cambió la intención.
¡Señor, la justicia bien sola quedó!
El mundo es alberca de sangre, por hoy.
Yo solo, hasta donde llegué, la limpié.
En tierra de ciegos por kunya dan al
cegato «Abú Guía», si no es «AbúLuz».
Mis faltas aguja no puede zurcir:
tan sólo —¡oh Piadoso!— Tu gracia y merced.
Si tú en este asedio no ayudas a 'Alí,
ni ' Utmán ni Ya'qúb le podrán ayudar».

71

Después a la arena su frente inclinó,
a Quien lo creó prosternándose fiel.
Y a Dios como fuese tan pura oración,
acepta ser todo clamó en su mudez.
Si «Loas da al nombre de tu alto Señor»
y «Yá Sín» recitas, se te abre el cancel.
Con reyes muy píos el Sino se airó:
lo ves en Abén az-Zubéyr y en 'Utmán.
Por tantas mercedes que el Sino les dio
que muestren tu boca y pensar gratitud.

72

Por Dios, cómo a Sú sa escapó vas a oír,
por orden de Aquél que socorre, el Creador.
Cerrada la alarbe navaja que fue,
saliéronle amigos los Banú Hakím:





queríanlo sobre sus testas llevar
a Sú sa, que es ya para Túnez portal.-
Se dice : Vinieron Dabbáb a Kuub
pidiendo sustento, y Kuub respondió:
«.No daros podemos de trigo ni un s_ _,
que ni a nuestros hijos nos queda qué dar».

73

Dijeron: « ¿Y a hambrientos el grano negáis
vosotros que de este terreno vivís?
La sangre a vosotros nos trajo, el honor,
y a espada del hambre morimos aquí.
Pero hoy nuestro pacto rompemos. No más
con sable y adarga queremos reñir».
Volcados, pues, hacia el Emir Bú-l-Hasán
le dieron lo mismo que dio Gatafán
(por orden de Dios) a la grey del Nab_,
el año de Bandos, frente a Bú Sufyán.

74

Dos leguas del muro [Hak_m] se ensanchó
mermando el terreno de Ben Táfrágín,
el cual al Emir quiso ver. Y al Emir
consejo antes dieron los seyjs de Marín:
«Que pérfida pala haga un foso ante ti,
y encima del hoyo pondrás un tapiz».
Entró, y de la alfombra en el medio quedó,
sin miedo de aquella falaz intención.
Le dijo: «Sí darme te place perdón,
a mí antes me toca perdón darte a ti».

75

Después por la tumba paterna juró:
«Salir del umbral de esta puerta no voy
si no haces de Túnez a _Jálid venir»
(el cual en la qasba quedó de rehén).





Y para el hermano pidió una pensión.
Mandó el Emir cartas de libre expedir,
y Jálid, el horro y notable, al salir,
quería al palacio llegar de Qayrwán,
pues ver al Emir tan propenso al perdón
alientos le daba para ir hasta él.

76

Ya libre el seyj J_lid por cartas del Rey,
en ruta, paró de su hermano en el real,
y díjole: «Libre me ha puesto el Sultán
y no ha de morir ni se le ha de afligir».
Así de Fat_ta el sentir exploró;
mas, como ni oídos halló ni favor,
de noche, dejando el real, a Qayrwán
llegó, y contó todo. Repuso el Emir:
«Tu hermano es cual cuadra de potra, que no
ni Eufrates podría limpiar o Seyhán.

77

»Mandar voy que véngame a ver Ben Misk_n
(que cura entre Alarbes cuanto haya de mal),
me busquen los Banú Hakím, y salir
a Sú sa por las «Atabát de Suhayl.
Obrar voy con eilos como hizo el Mahd_
poniendo a Almohades por jefe a Ibn 'Alí».
Los tres _eyjs dijeron a sola una voz
que franca quedase la puerta al Emir.
«No salgas de día —le urgieron— porque es
la noche a guerreros el manto mejor».

78

La noche del viernes partióse el Sultán:
el día era el veinte de rabí l-awwal.
Traición recelando, su mágrib rezó.
Movíanle todos a prisa en salir;



mas díjoles : «¡Por el que el cielo elevó !
¡No! Quiero aquí mismo rezar el 'isá».
Abierto el cerrojo, la piedra a un rincón,
los que iba a llevarse en la puerta eligió.
«Palomo soy —dijo—ŷ que al nido es infiel
y de águila en garras dejarlo lo ves».

79

A Qayrawúníes y Butr dicho adiós
después de rezado el "isá se partió.
Allá de sus tolbas bastantes dejó,
pues no, por desgracia, los pudo llevar,
después que una yegua de casta de Abŷar,
de pelo albo a negro tirando, montó.
Dispuso escuadrones, de aquél éste en pos;
dispuso, la hueste mejor de Marín;
tambores dispuso por cada escuadrón.
De sol luz que enciende fulgor era "Alí.

80

Saliendo, a ambas partes miró, y exclamó :
«Me pongo en tu guarda, mi amado Nabí.
Tu, a quien Dios, que todo lo cambia, ayudó,
¡buen guía!, a lo que hoy es mi fin guíame
No existe león ni elefante, que no
te busque -¡oh Buscado!- por intercesor».
Alarbes llegaron del viento al olor :
caballos, no buitres, les van a seguir.
....
....

81

Si bien su Hado a puertas de Súsa lo echó,
siguiéronlo desde la alcudia as-Sa "ír.
También, contra él vuelto, Marín desertó:
testigo 'Asá Músá celeste le fue.



De acoso no libre se vio hasta la mar;
moliéronlo como molido a almirez.
Igual las Cabrillas que Venus y que
Saturno y Mercurio pasmáronse de él.
Tocante a Bú-l-Fadl, no dejáronlo en paz
los Banú San_f ni los Banú Zayyán.

82

En Túnez, de calles y zoco el bullir
dinas de un sábalo preso en la red
Que dentro estuviese el Emir de Qayrwán
Y red bien cerrada la qasba tras ver
desasosegaron a Ben Táfrágín
que estaba agitado con furia de pez
Al ver luego el triunfo de la capital
huyendo del cerco posible al Díwán
cauuvos al Rúmi compró, y luego, igual
que un chinn salomónico, huyó por la mar.

83

Aríf -al dejar con _Allál e Ibn Yarbú"
Qayrwán - abrigaba la buena intención
de a nobles y bajos Alarbes llegar
-sabido es el lance- con fines de paz.
Mas no otra encontraron hospitalidad
que grillos pesados y que hambre pasar.
Propuso e piojoso de Ben Táfrágín:
«cogel sólo a _Allál,y los otros soltad.
Los tres eligieron camino traidor,
y bebe, el que acíbar escancia, alquitrán».

84

A Túnez el loco de Ben Táfrágín
a Ben Amasm_d en camello llevó
y a gente, en la qasba, llamó de Amady_n.
Cuando un hombre al muro subió, le grito:





«¿Sabéis quien es éste?» Dijéronle : «Sí».
Repuso: «Que os cuente que ha muerto el Emir».
¿Qué ha muerto –exclamaron- el león del la lid? »
y ' Allál:«¡No, por El que alimento da al pez,
que está vivo ! Todas las brechas tapad,
velad por el oro, guardad el harén

85

Oyéndolo Alarbes, pegaron a “Allál,
al cual conocían muy bien los Marín,
y al ser los testigos de tal vejación,
doce Árabes nobles hícieron- sin más,
salir de la cárcel y darles allí
patadas y golpes de duro arcaduz
«Que trato estos doce reciben ya veis
y el resto –dijeron- tendrán trato igual»
la caballerí de entrambos luchó
y alIí,, al terminar, lo dejaron hasta hoy.

86

«¡ Aún vive bú-l-Hásan!» la nueva cundió
y gana el Sunn_ lo que pierde el Qadrí
En Túnez la lucha volvió; reinó el mal:
a sangre en las calles veías correr.
Los jeques mandaron el muro tirar
del puesto r_mi a la Alacaba del Mar.
La gente en el muro creyó divisar
A quien parecía de lejos llamar.
Subiendo a las piedras los hombres por él,
atado de piernas hallaron a 'Al_l.

87

Mizw_res, corriendo, soltaron a áAllál,
el cual al Consejo del reino volvió.
Dijeron: « ¿Qué ocurre?» y _All_l respondió:
«F_tita es cual llaga que no curará».



Su gente y reales Fátita corrió
y en tierra de Túnez el cerco apretó
Muy cerca del alba combate entabló:
fuera arcos y espadas por dentro empleó
Sus campos a Túnez cerrando, a Marín
retó, en sus Alarbes sembrando avidez.

88

Salió alguien con Jálid, quien quiso afear
su acción a Fátita, con toda razón.
Dijo: «Eres mi hermano de padre no más,
y un hijo de negra no muda de ser.
Si padre tuviste con noble solar,
de muy mala teta debiste mamar;
que en seno de haberte podido criar
de una horra y mamado de leche mejor,
a Emir que a tu hermano matar rehusó
no habrías pagado con saña y rencor».

89

Medidas palabras “Umar respondió:
«No quiero alzamiento, ni hacerlo mandé
A mi hijo en mi puesto te dejo en rehén
en tanto regrese yo que lo crié.
No es perla escondida. Su poca edad ve:
podrás la honra alarbe saber en su faz».
Salió sin tardar ni la espalda volver,
cruzando del clan de Hil_l a Duby_n,
con hueste, cual lluvia de espesa, detrás,
y ante él palanquines llevando el harén.

90

Del vino del luto Fatíta beber
les hizo, y echólos, en rota, a Gabés.
Los Banú Tuŷín y los Ban_ _Abd el-W_d
—ninguno dejando— mandó a Tremecén.



Al-Fadl, que a Bugía por montes huyó,
sin mulas ni palafrenero llegó.
Refieren que _Aríf del desierto — una vez
ya todos dispersos— volvióse al Sultán.
Paciente Ibn _Abbñs la desgracia aguantó,
y unióse con todos Aben al-Muzní.

91

Racimo escogido perdió B_-l-Hasán
de sus paladines en la expedición.
Fue el grano primero perdido Mas ”úd
aben Ibr_h_m, del azaque guardián.
De Biskra —embolsado el dinero— salió
con recua y literas, para ir al Sultán
Mas vio a los Alarbes su ruta cortar
ante él, cual langosta que gleba invadió
—brillantes arneses, fogoso corcel,
los dientes muy largos buscando el caudal—.

92

Les dijo a sus gentes : «¡Por la haz del Islam
y allá en la Península bella el ŷih_d!
No veo en vosotros quien pueda reñir
—si escolta tan Hoja me sois— más que yo.
Guardad las mujeres en torno al pendón.
Tendréis en mí el muro de los Yarníy_n».
El oro en cien sacos después repartió
y a cada persona de pro un saco dio.
«Volvédmelo —dijo— si habéis de vivir;
si no, con quien huya el secreto se irá».

93

Después con Alarbes escaramuzó,
y dijo, sin nuevas tener de Marín:
«¡Mujeres que hacéis nuestra vida feliz!
No velo podéis hoy llevar ni mi _y_r.



Quizá la doncella que logre vivir
contar de nosotros podrá cuanto vio».
¡Oh mozas, al que es vuestro amigo mirad !
¡Ved cómo a las fuerzas contrarias hendió!
Mató a ciento y luego tras ellos murió:
¡de bodas celestes no prívele Dios!

94

El _eyj Ben Ay_n_, de los Banú "Askar,
riñó; pero al cabo de lado cayó.
¡Ay, cuánta cabeza de rubio en el R_m
cortó! Mas su sino morir no era allá.
Del verde Wankásin el héroe, Ibn Siw_r
aben Yahy_tín, de la tribu de "Abbú,
fue quien «la loriga —diez veces juró—
en tanto haya cerco no me he de quitar»;
mas, cuando dormía, fue ahogado a traición
igual que el gusano de seda en Jaén.

95

¡Que fuego el que vio el corazón del Sultán
y cuántas ponzoñas y acíbar bebió!
Sabiendo el naufragio total del Mismír
caláronle viras, y el áspid picó
Fue el alto abatido, todo horro murió
Fue un mar quien tragólos, ¡qué espanto de mar!
De leños a_n verdes fue un «horno» que ardió
sin respiradero ni humero tener.
Ya madre sin hijos, si bien joven. Fez
por él de badanas vestir siempre va.

96

Así, con nosotros, la gente de Fez,
igual el maestro mayor que el cadí,
no hay día que no ore por nuestro señor,
en púlpito en uno y el otro en sitial,





y el Magrib se aflige con grande dolor
por tiempos aleves y de humillación.

97

Del Garb viejo epístolas van —desde el Sús
a tierras costeras y orillas del Dr áa—
hacia el bien amado Sultán, preso en el
Oriente por fuegos de la adversidad.
No en plumas las llevan paloma o pavón,
más buhos o cuervos de sino fatal :
«¡Sentimos, Mawl_na. nostalgia de ti!
¡Si tú, vida nuestra, pudieras nos ver!
De rojo vestimos en la humillación,
después de en prensiles vivir de arrayán»

98

Al zéjel, que es fruto de dulce morder
vivir largo el canto de arrieros hará.
Mas ahora pidamos al de Alto poder
favor a mi valle y mi río mostrar,
y ayuda —entre todos— al reino de "Alí
por tierras de Oriente y en este lugar.
Dejando la prole gentil del Kafíf,
la moza esta —aún cuando sin dote— va a él,
criada a los pechos ubérrimos de
S_riwa, que lecho purísima da.

99

Que tenga de Dios bendición el Nabí
palomas en tanto zureen entre sí,
y gracia y el alto, secreto, favor '
los cuatro Califas de bien y «los seis».
Y a Dios pide, Ciego, perdone a Ibn Hassún
que osó el año seis estos versos decir :
PESAR ME DIO, AL ALBA, DEL NOBLE EL CLAMOR
POR VER QUE, CON ELLAS. LA RECUA SE FUE :
LA CASA EN SU AUSENCIA TORNOSE UN ERIAL
NI FIESTA NI VIDA YA MAS PODRA HABER





بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مولانا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته [illegible]
هذه قصيدة نذكر فيها حكاية لأبي الحسن المريني رحمه الله [illegible]
بذلك [illegible] وهي للكفيف رحمه الله تعالى عليه

[illegible]

بداية مخطوط الملعبة

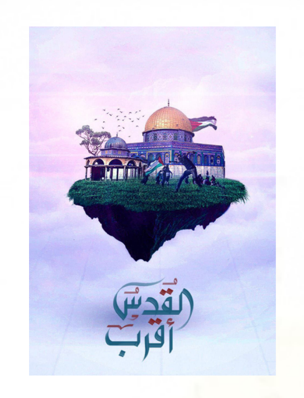
ونعرب كلا في الخبر محيينا في جمع الذات والاسماء عن ادراك
كتب الغرب القديم زاعمين للمسوسين بالارض الساحل المندفع حز عمل
للسلطان المحب المعبوكش في البشر امر بهضة النجفا
من هالاجاز وبالملامسين رأى البدول والقرائب الطالقة بعد
فيما امولى لنعرنتا هم في لورينشا بعوك لمجيات لتراب
تلمسوا بالزن حصتهم في بعزائنا في دوجب الايحان
بعد بمركب ما منقع في لا منها طولتنا الحاجب
لا زندعوا المزفرز وفلا في بالالفا دي والقلم على الواجب
بمعدوكة على الجلا في مارزا المشرق وفي اضاهادية
تكهن كرم من تبانتي الصفرا شمن تهيعات الفيك بلا اثما بد
والمن بلد في الاكحل وفي الجزائر طاروبا مرجحة الى الشباب
وصلى الله على النبي المأمون ما رعى كلها اختاحوا اختا
م الحرا والرضا الشيخ المحترمين الى خلفا الاسمر رفع تبتا
واستعطم بالحقيقة حسنوت وانقعر ما ذكر في عام ستنا
اجمعين جمعة البحث بتوا في حين دخلوا الى غايب القرا ف
وامسك من بعدم الديار فقرا في ما فيه الا اليسر [illegible] عمران

ابو النجفا
لاحيات

كملت والحمد لله رب العالمين

مع سنا

نهاية مخطوط الملعبة





صور ورقات

من مخطوط الملعبة

ننشرها للتنبيه على الترتيب الأصلي







البحر المتوسط

الاندلس

المحيط الا

اشبيلية

تونس

القيروان

بجاية

1 – خط الحركة من تلمسان الى تونس . 2 – زيارة ابي الحسن لبعض معالم افريقية الدينية . 3 – الخروج من الحصار الى تونس . 4 – 5 – العودة الى المغرب الاقصى . – نحو المواجهة مع ابي عنان . 7 – تراجع ابي الحسن الى جبل هنتاتة 8 – مكان الوقعة الاولى مع الاعراب . 9 – مكان الوقعة الثانية مع الاعراب . 10 – مكان وفا

فامت بكل نواحي البقاعا .. من تطلب الثار وقامت الحبات
ان الثوار انحشر من الفاعا .. في الجبال وارتمى وزن الزرقات
بين جان الوعر طاعنا الطاعا .. في مازونا يدم في الكشوات
وكان البعض صرح برا الكتبا .. نافوس في البحر وكان ريس
ومحلت منها المعالي باجما .. لا عربي تفرق عن الشبان
في الفرقان زحوا على الضعفا .. امن دموا المصموك ثم يغضب
وترى العقبي يبطش على الضعفا .. للعربية ما نقل معيشتكم
كبنو عنز اشتهى على الضعفا .. ما دار ام الرجيل نقل نسكن
ما تستبغ غير صوتها بكرا .. يا عنزان من جره الضيفان
ملحق الرجل الشم الجزري .. وتعيش بما جات في خيان
يا رب كنت خرجت عند الواحد .. وفيت مسلط نهار على محلا
كان يا في الجيج مال حيل وان اخ .. وبرد قتل يعفر المجد
مهما كان زج امر شراب وفساد .. والمسجون تسخم اربعين حتا
ولقد جينا في قبة الحرب .. يا عوران من خيرنا لها حربي في
ما كان حرب اينا ولا كنسه .. الا سيف وعو نعب ارحمان
جينا بالشعير وماجت بالافلان .. ونتعففنا عن الفيل فاطنب
بعد امينا وخيش كافي .. ما ستبنا فيهم الا ونا عنب
والتذريب فهو نكر زماق .. والا حسنا والتلك فمع الارنب
جا زوام خيرزم من الكشمرا .. دارب بالخبط وبالبهير اف
اما تونس عصابة التوحيد .. انتداع في وبهم افسوم
بيمار كتب في الرماو زم وحريز .. وفيت جيشي في نصح للهيوم
ولنرعاه نعطف يهم الهمين .. في نرفع كلهم على المظفرة
لما ان نشا بتونس العشرا .. وخبرنا المنكر بهما عن اخيصان

جارية بها

مواع
اغدوا



والبيسوان يشربوا بلا نشنشة :. والمعلوم يبشر من الركان
حيث تنفرقوا لهم على اجلا :. ونخل النحر يبنيع غلغلوكن
والتي مولى بشيوخ منهم فضلا :. خالوا يبرك في ارضا منهوسوكن
مفيا تغط الطفر وتنشو [illegible] :. عاد المنزمن يكون عنها وارد لن
طلت مولهيا ماكان [illegible] :. اغصا كان معتكف على الإيمان
إذ وليت عنا وتنزا :. حاجمنا عند سير الثقلا
أما عن بان من يغيا تغدا :. أين ما خرج بنا الامهلا ف
عاينة المغصا حجيج عنتر :. بأموال الحج بالصحيح تغنم
أفواج تغطي الشارع النيل :. حتى يا في حجة الاسلا
أكان جعة في من ترى مثلا :. أين ما علمت لن تهتصان
من غزان فطعت واستعر ا :. والدية والحكما وحاو الاخرا أن
تغت ما لمفت من مكشر ومن وشر عن حري :. أو غفيلين او جعين في
ومطعمت اليونسوم تضا البنوس :. في اتاعر كل كام مخرب في
وأخا من خرجت عن الحيون سن :. التحرير من تغفمعوا مع ازرزن
وزحم العيل تعوده الندى :. يا خطابي وابن بابا مع الحرمان
حتى يشبع في كل سوق تفرا :. أخطام عبد العزيز بن مروان
ضعف الدين واستحلت الدنيا :. يا ربي والعزان تقفي من رحب
بن كامر دع زخرفت الدنيا :. وضتي يقرن نطيئهم او خسر
والبوم لا عمش حضت العميا :. ينتكمي بوضيا ويوم هين ع في حفرة
وذو دونينا ما وعا بشرا :. الهز جود ف وشلهث ابيان
يا زن تنتص على في ذا الحسير :. لا يعفو بنضرو ولا عمتا فو
عن خ جنتهموا على الرملا :. مساجد خاصة لكل الفوا الإجلان
ميقا خلط في الرعاة المولى :. تا دالي بالقلية باليمان الحسان

يا أم البسم [illegible]





إن أبيتم رأيك تراغلى ∴ وإن أبيتم وتنقضوا لا تفعلان
كم غاض الدهر فملك البرا ∴ وانه لا زال بيتهم عثمان
ما استنقذوا من كلابيع الفرا ∴ ما كلا خالهم وقد يشتكي ان
بالله اسمع كيف خرج الى سوسنا ∴ بلغوا الى مستسب لا اسباب
لما الموت عظيم العرب من سنا ∴ يتجرأ من بني حكيم احباب
كادت تحملوا الى ديننا ∴ لم يتقنهم وهي لتونس باب
يقال جاءت الركبون على حور ∴ وخيول العوتة وحلفته الكعبان
ما نشج نهن يصالح من سر ∴ ما معنا كثير من سوق الولدان
قالوا كيف تمنع لنا الحيا ∴ وانتم اهل البلد ونحن جوع
وجاءتنا الجنة العظمى ∴ ونموت عندكم بسيف الجوع
للكن اليوم نغفوا العرا ∴ لا نتكل بسيف ولا بذروع
فما تكبوا بنو ابو الحسن نعم ∴ وعطوه ما عطوا الملوك عثمان
من عهد الله لنبيه التي ∴ عام الاخ ان كان على ابي سفيان
فما تشعشت من ستجرع الكفرة ∴ وضاقت الارض بنش من جيش
لما اتوه بصحبة المترعرع ∴ ناداه عند الدخول تبوء من جيش
اذ فلان خرج فاس الغرب وهم مطمئن ∴ يستظل بموقفهم من الثغور
ودخل كيف قاز وتسلمه دار الحكم ∴ وما نحتمي بسر من الحوان
إذ كان من تضو النا عمرا ∴ نحن أولى لنا نعم دون الا
فلا السلطان ورثة الوالد ∴ ما خرج عن ملك الحي العثمان
حتى جاء لم الكان خالد ∴ وعليه كانت تصر اهل الفضا
وما نعش يجثوا كسيج الفائز ∴ للذي كان خاله من بني بنيا
لما الملوك حقا ومعتبرا ∴ وصار تاج الملوك لها جل لغان
بعد ان كان مثلوا على الوجوه ∴ رددوا حتى لمجلس السلطان





ثم جاءني أمير ناظر قال لمحلته خلاه ونهى عن [illegible]
وقال الآخر لابو الحسن عتقا : ما تومض محجبه ولا [illegible]
حا لعتاب [illegible] المستقا : ما طاب عنه لا نجا ولا محيا
ما فلق [illegible] وجاوشري : حتى ربع في مجلس السامان
قال اخاني [illegible] من بعد الشهر : ما يبتغيه لا قرأت ولا صيحان
البحر ادعو [illegible] عنهن : ومقام في الذهب [illegible] الليلي
فجعل [illegible] : الى رومي وعنبت الهلي
نفرتهم [illegible] الشهر : [illegible] وقال الموحزان علي
بانعقو الثلثة لا من ا : ان يخرج الملك على البستان
فقلوا لا تجعل الثمار [illegible] : الذبل افضل [illegible] بستان
خرج السلطان في ليلة الجلي : في عشر من ربيع [illegible]
ضلا الغرب وخاب من الحزعا : وارباب الدار اعلبه تعجل
ذا الملك والدر [illegible] : حتى نقض العشا في ذا المنزل
جمل الرمح [illegible] زوال [illegible] : [illegible] الملك على البستان
قال [illegible] ازمي نصر [illegible] : [illegible] في مجالب العقبان
وادع في [illegible] خضر وابشر : واخرج [illegible] من القتلا
واثر [illegible] معشر : [illegible] يفر على [illegible] لما
بعز [illegible] رسلا الذ [illegible] المجد : [illegible] بسما [illegible] على [illegible] ما
وجعل [illegible] : وجعل [illegible] مع الجعان
وجعل في كل [illegible] : [illegible] على النهار [illegible]
حالما [illegible] وثمال : [illegible] الشي المحسوب
بسنى بالله مقبله واخوان : بالمناخ تعرف الى المرغوب
ماتم وقل وقال ابو الا نشدان لا الالف [illegible] امتلف

يشل

عزت
خبان





18

الرحمن

مثمو العرب وجات نصارى واثقلت خيلهم وكانو زفا في
تبعو من كون الشرع بالشفقة حتى نهار القفا بان سبسا
عم رجتا علينا ومن نوقيف تستغفر في اسم اعصى مونس
كيف ما انعرض حر العرب بيسف الاخر سنو خر نسر تمم وسا
محتما من غلبهم ضيا الهوا والعا بنو التريا والحيوا في
اما بولفض ما يرى كنت لي تولع ونساف ولا زلعين [illegible]
كانت تونس ازعتا والشوق نوضت مثل نبايل الشكا
والقيروان نحن على الامر مغلوق والفرحب مطروق وكا النكا
والشيخ نبا واحد المخنوق من هم بن نعن وكا الشكا
بمزداك النصر جاب الحفرا ما علال من مصيبة الدبر ا في
[illegible] لنشفعة [illegible] وهبت في اخا كحجر لبسلبيمان
لمن عاش يعكستر وجات الناس طه الاشيء وتفقيد النفد
خلا فيها قال لحمز الناس وبعث اياو ازقت تحت
واتسوا زعا هز [illegible] لطالع الفجر
فتخيل من رعيد [illegible] اعلى [illegible] راحل جا النسر [illegible] نشر في
لمن ملع [illegible] الجراعا الحرا وحيروا علال مقتل السفا في
فاخروا بعض المراو لحلوا علال ورجع لمجلس النعرا
قالوا اما الخبر بعبر اقلوا طاسر كنت خارج النشر حضرا
حي وشيخ بن خلتوا واقلوا لبلاد تونس وهجو النعرا
واصبح في بالمقاتلا اشعرا [illegible] سيف ومن [illegible] بنخو دخلان
وامر بحملة على حوزا بالعزيبا [illegible] مع العرسان
نجرح خالو في بعض [illegible] حتى [illegible] وعابت الحرا
قالوا انت حي والامضا تنشما والكبر السود بغيم المنهجا

مثل [illegible] بالعيدكا
لمزة النفر
بحير بن السلطان
علال المغرود

جا الواحد [illegible]
ابن الكرم [illegible]
فنالوه [illegible]
الشيخ فنا [illegible]
بن [illegible] بن الامام
وتمهم





إن كان ذا إبهام البيتا ∴ أن نزلوا فيحة المجهل
لو زينتك في حجر مفاخرا ∴ أو زهتك صنعة الأنشادن
ما أغنى حاك بو لحسن والشاعر ∴ أنه خرجت بالجفا وبالحيف آذن
ردّ عليه في الحوان كلمة موزون ∴ بما نال من الخلاف وبان من جهلان
جهل هذا في موضع من يعرفون ∴ حتى يرجع لك البرع من شيدان
بيته في شباب وبالجهاد يعرفون ∴ تبع قد خرجت العرب فوجدان
تخرج ما نظاو لا رجع لورا ∴ يداخل من جعلك أكبر حربان
بنا وورا انجيش صف كالملوا ∴ فقام من صواحج الفتن الآفان
خرج فيهم من رامته أخراج ∴ فبات وكم منهم إلى ما يسيفن
وذبح تجبر ورفض عنو الواحد ∴ لتظهر بيسا ما جفى منهم مكار منين
وهز منوا الفضل فرونس لشاح ∴ لبحارج ون بقلوح ... ما يرين
فلاوا وارجع عرف من الصحرا ∴ لسلطان يغر ما الحلا حيبان
وان العتاس غير على الضرا ∴ وانبرا ان زف على الجمع بغان
بذاته اخرجاه للوالحسن عنقود ∴ متحير من موارس الرهبان
أول جيش من الحبوب مشعوح ∴ انزل ادبم وكان على الزحوان
وخرج من بيسر ابدال منسوخ ∴ لشاهد بالرحيل وبالبوحان
تزيا العرب بسرت المجترا ∴ فداوكدا الحرج عمر فترا ف
يروح تلمع وصابنات خمرا ∴ بعثت في البلاد ومدت الاشنان
فات الصحاب ونوبة الاسلام ∴ وخيمات من جن البنسعا
ما فيع مارسادين ... ∴ تعنو منه من العوايات البيشا
اخصوا اوقات النيسا في محل علام ∴ وانا تعنون كل الزمان بنا نبنا
نحن المدا على ميات بزرا ∴ ونعط بزرا الكلام لو تقف ... ان
وان زعشنا رجعا الى بزرا ∴ وان مشنا من قاتت ... دستم اتان

المري...

لمزعا في الغرة



١٠

٢٠

لمنعاني في الحرب دره وعازه .. واصابن فرنز خيرا مخبني

دار النساء اخيسا ميث لفّاه .. ما فيه اليوم زيف ولا مجني

وعسكر على اسم بنات الحواله .. تتحرت عشا بانثني

شومي اليوم يا البنات عزّا .. في خليل اللي كف يطيح الفرسان

واقتل ماده وماتت على اثر .. ادلام الشاع ايسر الي خوان

وابن احليفه زعيم في عسكره .. يقوا احتى بقا على جنبو

اما فنا من جماجم البشر .. وضرا وفد لو وطا بقنا يحبوا

واقتى ونجا سر الخضر الاخضر .. في تجيا شبا اعز منه تحبوا

هو كان الحالف بمن عشرا الي .. تتربع لا قسم في مدة الجسران

حتى قتلوه في مجموع اصبح .. على البرد اذا الحرب على حيان

وكانت تشعل على البحر .. مع علل دار خرج وقرن نوع

تحللت الحرب حرب ونزيف .. باحكام القلع والحبس مشموع

ما دخوا عندهم التضعيف .. غير الاكبال المتغلبين والجوع

قال الحرن تام احر الكر اش .. حزوا على الروس جوالة اتبان

ع قسوا قبل نشبة العرا .. ومن سعى المرء يشبه القطران

وحن خير تام احر المقبون .. بان امضمون امر في طلبه بعين

يونترو على بطابعة امزيون .. وطلقوا احرع على الجدار ويشمي

تذروا اماز عم ابو حشوش .. فال هو يشتغل لك بموت المين

ما لو لو امات عظيم الكرا .. قال على الى ورا وراز والحيشاني

ما دفوا الاجي سعد والترعا .. اخضوا المال وصعقوا الشهوان

لمن قال هو خرا الحرب صقعوا .. واهل القضايا يشاهروا على الليل

لمن راو بني من بني خروه .. قاموا للسنة واخرجوا في الحان

اثنا عشر بيتهم من تخو حوه .. وعطاوهم رزقا ادبيه ورزكلان

بعد

من عماشة

بعلّة

الخطة الاجد

بجبال بلبل

نبرة الحرير

في

التضعيف







فالآن عمرنا اثنا عشرا .. ولو اذ احزنة للو الجفا ن

تركالدعت اخـــرا .. رفعوا عمولها ابتنهم بلا

دخل السلطان في يوم عاشورا .. جاز القيروان ضعف قليل الحال

وانفاضيها ودعي عشورا .. سنعير لنلة يفاز ونسخ لبيان

والسلطان في الصحن على سورا .. يرتبل بالقاطين وبايتقبل

جا السرتين المرداسين يقرا .. بين المهنا في الخضرا ب

سحنون والفاسي وماجدا .. واراي زين ملتقى البحرا

واذا امسى العتكى في القمرا .. يتسبح بالنكر يتمل ويستر

والعشاق دار بيها والارتقا .. من باب القيروان لباب الحيتر

واذا جا الليل طلعة الازهرا .. ينكر لان فخاخ من سيرا

ووقفت الفتح تحت الغمرا .. يصاح الاجل الامر لا خرا ف

يقول يا ذا الواجبه من عا .. انت املي وانت عن قلبي

تعلم ما كان يحيي به الان عما .. لامر طلبي بها ولا غرضي

الا غير متر احمد .. فيها نسخة النبي العربي

صبت طلما في حرم خيرا .. من حيران يقيا المنز عنباق

دار بوالج عطلوا الحجرا .. تحلب فيها مطار [illegible] خيار

اما ان افلنوا امير [illegible] .. وماجه عن شسوع ومن عل الفغم

اذا جاب يوم زات العسلان .. شفوا سهم او يحتم عليه ارقم

فلى حا الغرو موتا الاذان .. والفهم خره واين ضرا عبام

من ناخي على حشيف خضرا .. قالوا منقذين ملتار [illegible] خدا

او كا نسفا من نتكل ونقدا .. هلا عملوا كان تلبسه [illegible] ان

كرا الفل البر [illegible] عصنم مطما .. الفاتح والمدريس الى سنن

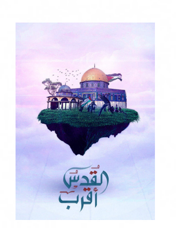
في كل ايما يتلوا الصلاة .. [illegible] والقوع على المنبر

والغصب

بالجبل

فنون







على هامش الملعبة*

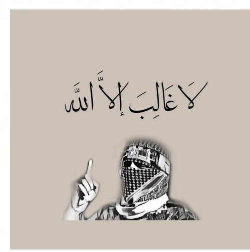




* لما كانت ملعبة الكفيف تدور حول حركة أبي الحسن المريني إلى القيروان وتحكي ما وقع فيها فقد رأينا أن نورد على هامشها مجموعة من النصوص لها علاقة مباشرة بهذا الموضوع.









1

الكفيف الزرهوني وحكاية كسرى









عرض الكفيف الزرهوني في أول ملعبته إلى حكاية وقعت لكسرى وحكاها في أزيد من عشرين بيتا وقال إن الخطيب ذكرها، ومن المعروف أن شهرة الخطيب إذا استعملت بإطلاق تنصرف إلى الخطيب البغدادي، ولهذا رجعت إلى تاريخ بغداد غير أني لم أجد فيه شيئا يتعلق بتلك الحكاية ثم إني وجدتها مروية بصيغ مختلفة في المصادر التالية :

ففي كتاب آثار الأول، في ترتيب الدول ما نصه :

«يحكى أن بعض الملوك خرج إلى متصيد له فأداه الطلب إلى قرية صغيرة فنزل مستريحا في منزل عجوز بجانب القرية، وقد أدركه الكلال والتعب وانقطع عنه أصحابه سوى غلامين كانا معه ملازمين له فبعث أحدهما في طلب أصحابه ونزل معه الآخر، فقالت العجوز لابنتها : يا بنية ! قَدِّمي لضيفنا لبن البقيرة مع ما عندك من الخبز فأتت بقصعة فيها لبن كثير، فقال لها : هذا حلب بقرة واحدة؟ فقالت : نعم، هذا حلب الغداة، وبالعشي نحلب مثله، فاستكثر ذلك وقال : من عنده العشرات والمئون كيف تكون فائدته؟ فأضمر في نفسه أن يوظّف على أصحاب البقر خراجاً يؤدونه في كل سنة، ثم أقام إلى العشي، فقامت ابنة العجوز فحلبت فلم يحصل إلا بعض ما كانت تحلب، فجاءت إلى أمها مُتَعَجبَة من خلاف العادة مع أنه لم يتغيّر من حال البقرة ولا مرعاها شيء، فقالت لها : يا بنية ! لعلَ نية الملك تغيرت فإنها تؤثر في الخصب والجدب فلما سمع الملك مقالتها أصلح نيته وعاهد الله على الإحسان إلى الرعية وترك التعرض لأموالهم، ثم قام ليلته وقد تلاحق أصحابه واعتبر حال البقرة فوجدها قد عاد لبنها إلى ما كان عليه فعلم أن ذلك تنبيه من الله تعالى ليحسن سيرته فأنعم على العجوز وجهزّ ابنتها وانصرف».

آثار الأول، في ترتيب الدول : 47 ـ 18ط. القاهرة 1295هـ.





وفي سراج الملوك للطرطوشي ص : 91 والشهب اللامعة لابن رضوان (ص : 96) ما يلي :

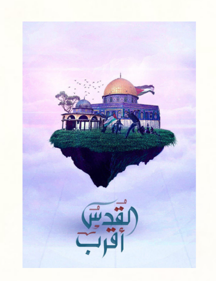
«قال الشيخ أبو بكر الطرطوشي رحمه الله : من المشهور بالمغرب أن السلطان بلغه أن إمرأة لها حديقة فيها القَصب الحُلْو وأن قَصبةً منها تعصر قدحاً، فعزم على أخذها منها ثم أتاها، وسألها عن ذلك، فقالت : نعم، ثم إنها عصرت قصبة فلم تبلغ نصف قدح فقال لها : أين الذي كان يقال؟ فقالت هو الذي بلغك إلا أن يكون السلطان عزم على أخذها منّي فارتفعت بركتها، فتاب السلطان وأخلص لله نيته أن لا يأخذها أبدا فعصرت قصبة وجاء مِلءَ قدح».

أما الصيغة الثالثة فنجدها في وفيات الأعيان 5 : 285 ـ 286 وهي :

«أن بعض الأكاسرة اجتاز منفرداً عن عسْكره على باب بُستَان فتقدم إلى الباب وطلب ماءً يشربه، فأخرجت له صبية إناءً فيه ماء السُّكَّر والثلج، فشربه واستطابه فقال لها : هذا كيف يعمل؟ فقالت : إن قصب السُّكر يزكو عندنا حتَّى نعصره بأيدينا فيخرج منه هذا الماء، فقال : ارجعِي واحضْري شيئًا آخر، وكانت الصبية غير عارفة به، ففعلت، فقال في نفسه : الصواب أن أعَوِضَهُم عن هذا المكان وأصفيه لنفسي، فما كان بأسرع من خروجها باكية، وقالت : إن نيّة سلطاننا قد تغيَّرت، فقال : ومن أين علمت ذلك؟ قالت : كنت آخذ من هذا ما أريد من غير تعسف، والآن فقد اجتهدت في عصر القصب فلم يسمحْ ببعض ما كان يأتي، فعلم صدقها فرجع عن تلك النية، ثم قال لها : ارجعي الآن فإنك تبلغين الغرض، وعقد على نفسه أن لا يفعل ما نواه، فخرجت الصبّية ومعها ما شاءت من ماء السكر، وهي مستبشرة».









2

بعض وقائع «حركة» أبي الحسن في المسند لابن مرزوق









ـ كان ابن مرزوق ممن أيدوا قرار أبي الحسن المريني بالحركة إلى إفريقية الحفصية، وكان فيمن رافقوه خلالها، وقد سجل بعض وقائعها في كتابه «المسند» ولما وصل أبو الحسن إلى تونس عزم ابن مرزوق على السفر للحج فلم يأذن له السلطان، ووجهه إلى الأندلس سفيرا ومتفقدا للثغور المغربية فيها كجبل طارق ومربلة ورندة، ولهذا لم يشهد واقعة السلطان مع البدو، ولما نزل بأبي الحسن في القيروان مانزل كان ابن مرزوق موجودا في قسنطينة مع تاشفين ولد أبي الحسن وأخ له ووفود قادمة من المغرب وأخرى من قشتالة ومالي، وكانوا جميعا يقصدون القدوم على السلطان في تونس، فلما حوصر بالقيروان ثار بهم أهل قسنطينة فاعتصموا بقصبتها، وتمكن ابن مرزوق من الخروج إلى بسكرة، وعند مابلغه خبر خروج أبي الحسن من القيروان إلى تونس قصده وكابد «مشاق عصم الله فيها من أمور» كما يقول، ولما وصل إلى السلطان في تونس بعثه «في طلب محلته التي كان فيها ولده أبو عامر عبد الله» واستنفار الدواودة فأدركهم بمقربة من مقرة وقدم بهم على السلطان في تونس.

ولما اقتضى نظر أبي الحسن توجيه ولده الناصر إلى المغرب الأوسط وجه ابن مرزوق إلى بسكرة ليحاول بمساعدة الشيخ ابن مزني والمرابط أبي راشد إخراج أولاد السلطان المحجوزين في قسنطينة وفي بسكرة بلغ ابن مرزوق خبر وصول من وصل من جهة أبي عنان برسم من في قسنطينة مع والدته، وكتب إليه السلطان من تونس يأمره ببذل الجهد في استخلاصهم ومرافقتهم ومحاولة مايقدر عليه مع ولده أبي عنان، وهكذا توجه ابن مرزوق صحبة أهل السلطان وفي الطريق توفيت والدة أبي عنان بظاهر تلمسان، ولما قدم ابن مرزوق على أبي عنان في فاس لم





يجد سبيلا إلى المحاولة التي كلفه بها أبو الحسن، وهي محاولة نصحه بعدم الخروج على والده، فتخلص منه وسافر إلى تلمسان رجاء محاولات أخرى مع بني عبد الواد الذين كانوا قد رجعوا إليها بتواطؤ مع أبي عنان ولكن هؤلاء سجنوه وظل في السجن عاما تقريبا وخلال ذلك وقع لأبي الحسن ماوقع منذ خروجه من تونس إلى لجوئه إلى جبل هنتاتة، ثم سرح ابن مرزوق وجاز إلى الأندلس وفيها بلغه نعي أبي الحسن، ونشير في آخر هذا التقديم إلى ما وعد به ابن مرزوق في المسند ص 496 من توضيح ما نزل بالسلطان في القيروان «في كتاب تاريخ مدته واستيفاء أخباره» ولكننا لانعرف هل أنجز وعده أم لا؟، مهما يكن الأمرفقد ساق بعض وقائع حركة أبي الحسن في مواضع متفرقة من كتابه المسند، ونوردها فيما يلي :







1. أبو الحسن يستشير قبل «حركة» إفريقية

«ثم لما وقع ماقدر من اختلاف أولاده (أي أولاد أبي بكر الحفصي) وقتل أبي حفص عمر لأبي العباس ولأخويه أبي البقاء وأبي فارس عبد العزيز ووصلت كتب إفريقية على اختلاف أصنافهم وطبقاتهم بالدخول تحت إيالة إمامنا واللجإ إليه مما دهمهم من الأمر المكروه استخار الله عز وجل واستشار، فأشار جماعة بعدم حركته إليها، منهم الشيخ عيسى بن الحسن[1] وخاطبه في ذلك مرات، وجماعة من بني مرين أعزهم الله، وكان هذا هو الذي كشف القناع في ذلك، ومن الفقهاء شيخنا أبو موسى بن الإمام[2] رحمه الله، والفقيه أبو محمد عبد المهيمن،[3] ومن الصلحاء الشيخ عبد الهادي[4]، وكانت له معه في ذلك قصص يذكر بعضها إن شاء الله في محله، وعمي صنو أبي أبو عبد الله محمد، أجرى ذكر هذا بين يديه وقال له في ذلك قولا شديدا استعظمته فحمله بفضله، وممن كان يكره في الخلوة ولايوافق عليه ويحذر عاقبته وماينشأ عنه ثقتهم وخاصتهم أبو حسون علال، والقضاء سابق، والقدر سائق، وماشاء الله كان، فلما حصلنا بإفريقية وظهرت مبادئ أمورها المنكرة، كان يذكر المنفّرين منها بخير ويستصوب آراءهم فكانت سيرته الاستشارة ودأبه الاستخارة، كان يفاوض جلساءه ووزراءه أولا في الأمر ثم سائر الناس».

المسند الصحيح الحسن 356 ـ 357.

1ـ زعيم مريني من بني عسكر، كان من خاصة أبي الحسن ولكنه انحاز إلى أبي عنان عند خلافه مع أبيه ثم ثار عليه وقتل سنة 756هـ. وقد ذكر الكفيف معارضته في البيت رقم 66 وما بعده من الملعبة.

2ـ هو عيسى بن محمد المعروف بابن الإمام كان هو وأخوه أبو زيد عبد الرحمن من أعلام العلماء. أنظر التعريف بابن خلدون : 28 والمراجع المذكورة هناك.

3ـ أنظر فيه التعريف بابن خلدون : 38.

4ـ من صلحاء قسنطية.





2. أبو الحسن يستشير قبل دخول بجاية

«ولما نزل المدية[1] متوجها إلى بلاد افريقية قَدّمَني رسولا مع الوزير أبي عمران موسى بن إبراهيم بن عيسى اليرنياني[2] إلى بجاية لأن نعرض على الأمير أبي عبد الله ابن الأمير أبي زكرياء يحيى ابن السلطان أبي يحيى أبي بكر ما أمرنا بإنهائه إليه فوصلنا بجاية، وكان بيننا وبينه من الحديث ما كان، تعرض لنا فقهاؤها وصلحاؤها طالبين وصول إمامنا إليهم ودخولهم تحت إيالته، فانفصلنا عنه على ما انفصلنا، وأدركناه رضي الله عنه بوادي وانوغة[3] وهو رضي الله عنه راحل.

وكان الناس قد اختلفوا فمنهم من هواه بتونس فقصد التقدم إليها لغرض كالشيخ الفاضل[4] الاكبر أبي محمد بن تافراجين ومن تابع هواه من أصحابه، ومنهم من أراد نزول بجاية ليصفو أمرها، فسألني رضي الله عنه على انفراد وسأل صاحبي ونظر إلى ما اقتضاه نظري وإشارتي وكذلك مع الآخر فنزل رضي الله عنه بعد عزمه على قصد بجاية وحزمه بذلك، ثم إنه جمع الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم واستشارهم جموعا فأشار بعضهم بقصدها ومنازلتها وإن تمنعت فبمحاصرتها ولاتُتَعدى فإن في تعديتها وصمة توجب تمنع غيرها وسقوط الهيبة، وأشارالآخرون بالتقدم إلى قاعدة البلاد وحضرة ملك إفريقية وأنها إن حصلت حصل جميع ما إليها من المعاقل والبلاد، وجرت بين الفريقين مناظرات، قال فيها زيان بن أمديون[5] يامولاي، من يشير عليك بمحاصرة بجاية فهو غاش، فإنك إن نازلتها وتمنعت سقطت الحرمة إلا أن يكون

---

1. مدينة معروفة في الجزائر وتبعد أربعين ميلا نحو الجنوب عن مدينة الجزائر
2. في الأصل المطبوع : الزناتي، وهو تحريف ونسبته إلى بني يرنيان من زناتة.
3. لم أقف على ذكره في مكان آخر وينسب إلى وانوغة بعض الأعلام.
4. هكذا ينعته ابن مرزوق إلا أن يكون في الكلمة تحريف، وقد عرفنا به في حاشية سابقة.
5. كان صهر السلطان أبي الحسن وزوج أخته وأحد جلسائه ومستشاريه.





أرسالك[1] إليها جاءوك بمفاتيحها فباسم الله فأجابه الفقيه أبو محمد عبد المهيمن أو ما علمت أن مفاتيحها قد جاءته فقال له وأين هي؟ فتناول حمالة السيف من عنق زيان وقال له هذه هي مفاتيحها ومفاتيح غيرها فاستحسن ذلك المولى رضي الله عنه. ولما رأيت التنازع والاختلاف تقدمت إليه وقلت يامولاي، أبدا لكم عما ظهر من منازلتها، فقال لي : لا ولكن أردت أن لا أخلي القصد من استشارة فان يظهر لنا صواب رأينا، فنشكر الله، وان ظهر لنا الصواب في غيره نظرنا فيه، فهذا كان دأبه، يعزم على الشئ ويبرمه ويتبعه الاستخارة لهذا الغرض، رحمه الله.»

المسند الصحيح الحسن 353 ـ 355.

1ـ أي رسلك، وهو جمع غير مذكور لرسول، والمعروف أن جمعه رسل وفي أساس البلاغة : ووجهت إليه رسلي أرسالا متتابعة رسلا بعد رسل جماعة بعد جماعة.





3. شيوخ الأعراب يقترحون على أبي الحسن القبض على المفسدين منهم

«لما نزلنا بظاهر قسنطينة وقد استقبلنا إفريقية تلقاه رضي الله عنه سائر طوائف أشياخ العرب على اختلافها من رياح وسليم جميعا، فاجتمعوا في خباء الساقة[1]، فاجتمع المرابط الأنصح الاصلح أبو راشد يعقوب بن علي بن أحمدوهو شيخ اولاد محمد من رياح الدواودة بل شيخهم جميعا، وعبد الكريم بن منديل السدويكشي والفاضل الكبير ابو يعقوب يوسف بن منصور بن مزني بالشيخ ابي زيان عريف بن يحيى ومصنف هذا معه فقالوا لنا نصيحة نؤديها إلى مولانا رضي الله عنه، فسألناهم فقالوا قد أمكنه الله من جميع طوائف العرب وشرار الوطن الذين أخربوا البلاد وخرقوا المعتاد، وأظهروا في الأرض الفساد، فلو قبض عليهم قدم على افريقية وقد خلت من الشرار وأمنت من الفساد طول الدهر، فدخل إليه من دخل منهم، فأجابه بمثل ما قدمناه[2]».

المسند الصحيح الحسن 335 ـ 336.

1ـ خباء الساقة يكون في المؤخرة حيث ساقة الجيش.
2ـ أي بالاستنكار وعدم القبول.





4. صبر أبي الحسن للمكاره

«ومانزل به (يعني أبا الحسن المريني) فيما علمت في الزمن الذي فيه لازمته أشد من خبر استبداد ولده السلطان المرحوم أبي عنان وهو على الحالة التي كان عليها بتونس؛ ورددتُ عليه رضي الله عنه من بسكره[1] إثردخوله لتونس من سوسة[2] فقابلني بما أرجو الله أن يضاعف له الثواب فقام من مجلسه فسألني عن حالي وأخبرني ببعض حاله ودخلت معه إلى مسكنه من الرياض وسألني وأنسني ثم قال لي : أي شيء صح من أخبار صاحبك؟ فقلت، من يامولاي، فقال : فارس[3]، فقلت خيرا، وجميع ماسمع محض باطل، وكنت سمعت في طريقي بعض الخبر فأحلته لما كنت اعلم منه من البر والخوف المانعين من وقوع ماسمع عنه، فقال لي بل ماسمعت لاشك فيه فقلت يامولاي، معاذ الله، فدعا ثقتهم أبا حسون فدخل، فقال له : سمعت ما قال فلان؟ عنده أن جميع ما سمع ما منه شيء، فقال له : يامولاي، ولعله كذلك فقال له : عن فلان تخفي؟ اذهب فأت بالنجار الواصل الذي عندك فتقهقر، فقال له : فلان مانخفى عن هذا، فجاء برجل من تلمسان نجار عرفني بنفسه فعرفته فقص الواقع على حسب ماوقع وأخبرني بما جرى في كتبي وداري بأمارت صدقت إخباره بها...

ولو تتبعت ماشاهدت من صبره ورضاه في تونس عند ملاقاة الشدائد فيها لبسطت العجب مما تلمسه بالخبر بعد من مصابرته هموم البحر وماوقع له من الشدائد التي لم يُر مثلُها، ثم عند استقراره بالجزائر ونفوذه إلى سجلماسة إلى زمن انتقاله إلى رضوان الله».

المسند الصحيح الحسن 225 ـ 226.

1ـ بلدة معروفة بالجزائر.

2ـ مدينة معروفة بتونس.

3ـ هوأبو عنان وقد ذكر ابن خلدون في الرحلة أن أبا الحسن المريني لما زحف إلى إفريقية فملكها ونقل الأمراء الحفصيين من بجاية وقسنطينة إلى المغرب وأقطع لهم هنالك إلى أن كانت حادثة القيروان وخلع السلطان أبو عنان أباه وارتحل من تلمسان إلى فاس فنقل معه هؤلاء الأمراء أهل بجاية وقسنطينة وخلطهم بنفسه وبالغ في تكرمتهم ثم صرفهم إلى ثغورهم ليستبدّوا بها ويخذلوا الناس عن والده السلطان أبي الحسن. التعريف : 95.

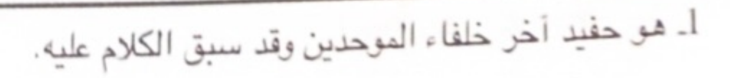




5. عفو أبي الحسن أو الأخلاقيات في سياسة ملوك المغرب

«وحضرت وقد وقف بين يديه أحمد بن أبي سعيد عثمان بن أبي دبوس[4]، وهو الخارج عليه حين حصر بالقيروان، وبويع له بالخلافة، وخطب له بتونس وبعض بلاد إفريقية، فأظهره الله عليه بعد، فسيق إليه وأوقف بين يديه، فقال له ماحملك على هذا؟ فقال له لم أجد بدا من موافقة العرب، وذكر معاذير من هذا النوع، وتناوله ثقتهم أبو حسون برأس قائمة السيف لمقالة استقبحها منه، فنهاه رضي الله عنه عن ذلك، ثم قال له : يامولاي، عملت ما عملت معوّلاً على عفوكم، وما اشتهر من حلمكم، وبالله لقد كنت على علم من هذا وطماعية في أن يلحقني عفوكم، ولا أريد منكم إلا الإبقاء والعفو عن الدم، فقال له : اذهب عفا الله عنا وعنك، غير أنك لا تزال تحت حكم الثقاف ما دامت هذه الفتنة، فقال له : هذا مطلبي فلم يزل تحت حفظ وكلاءة ولحظ ورعاية حتى وصل إلى المغرب واستقر بالأندلس، ووفد على المولى السلطان أبي سالم رحمه الله فأكرم وفادته، وقضيت وفاته هنالك فحضر جنازته رحمه الله وذريته الآن بغرناطة.»

المسند الصحيح الحسن 204 ـ 205.


1. هو حفيد آخر خلفاء الموحدين وقد سبق الكلام عليه.





6. أمثلة أخرى من أخلاقيات أبي الحسن

«كان من واقعة القيروان ما لم يخف علمه من تمالؤ العرب وإجماعهم على الغدر به والنكث لعهده وتحزبهم عليه حتى تخلص رضي الله عنه على الوجه المشهور والأمر المعروف، فدخل إلى تونس واستقر بها، وورد عليه من تولى كبر هذه الخدعة من أولاد أبي الليل جميعا، ولم يتخلف منهم غير واحد بقي في الغابة ينتظر الإذن أو يرى مايفعل بقومه، فدخلوا بمن أقاموه خليفة منهم مقبوضا عليه، فلما مثل بين يديه وصرفه على الوجه الذي قدمنا ذكره، حانت صلاة الظهر، فدخل رضي الله عنه من رحبة الصلاة في المجاز للمقصورة، فعرض له في أثنائها الأشياخ منصور بن أبي طالب بن مهلهل، وأبو هلال الكثري ويحيى بن حرون الظاعني فأكبوا على قدميه وقالوا : يامولاي، قد أمكنك الله ممن عمل ما عرف من غير عهد ولا مَوثقة ولا أمان منك ولا من خدامك ولم يبق من الجميع إلا فتية وها هو في الموضع الفلاني، ومعنا جميع أشياخ كعب وعلاق وأمكنك الله من الجميع فخذهم ونحن معهم واملأ جفنا من أجفانكْ[1] ووجهنا لبلادك يصف لك هذا الاقليم وتسترح من الشغب للأبد، ولست على هذا بملوم، فنهرهم رضي الله عنه نهرة سمع صوته على بعد، وقال له والله لو باشرني بهذا أحد من خدامي وناسي لعاقبته أشد عقاب، هذه عوائدكم أنتم في بلادكم هذه وأما انا فأرجو الله أن ألقاه بغير خيانة ولاخفر عهد، فقال له بعضهم يامولاي، وأي عهد سبق لهم، فقال إنما أقدموا على ذلك لأنهم علموها عادة منا، فأقدموا على مافعلوه وثوقا بما استفاض عنا،

1. الاجفان : جمع جفن، وهي السفن.





فهذا بمنزلة العهد! انصرفوا في كرامة الله، وقد عرفت لكم قدر نصحكم وحبكم.

وذاكرت بهذه الحكاية صاحبنا أبا زيان عريف بن يحيى رحمه الله فقال لي هذابعينه جرى له في القيروان وهو محصور، وقد حاولت على فتيتة حتى دخل ووجهت له رضي الله عنه بمثل هذا المعنى فلما دخل ندم اخوهُ عمر وجميعهم على موافقتهم له على الدخول، وقالوا إن أمسكه تمكن من رقابنا كلنا، فدخل على اختياره وخرج بكسوته رضي الله عنه ومركوبه[1]، فما كان إلا أن دخل حتى تقدم إليه من حذره وقال له يامولاي، قد مكننا الله من عدونا فما ضرنا لو أنا أمسكناه حتى يرتحل هؤلاء، فأجابهم بمثل جوابه الذي حضرته، قال وبعث لي بمثل هذا الجواب، فلما خرج على هذا الوجه لم يستقر ببيته حتى عاد لخلافه وزحف بقية يومه للقتال»

المسند الصحيح الحسن 334 ـ 335.

1ـ يعني أن السلطان خلع على فتيتة كسوة وأعطاه فرسا تألّفا له.





7. أبو الحسن في وقت الشدة بتونس

«حضرت يوما بين يديهم بمدينة تونس، والحال كماقد علم ـ وذلك في أيام مكابدتهم العرب ـ ومعهم من جيش المغرب وأهله، وكلهم في كفالته، والجبايات قد قصرت عن إقامة الأود، وقد أتي على الكثير من ذخائره والأعلاق النفيسة من النمط الذي لم يجتمع مثله في خزانة ملك قبله، فسأله صاحب أشغاله والقائم بضبطها أبو الفضل ابن أبي مدين عما يمشي به يومه، فقال انظروا فيما تخرجون (يعني من داره) فقال لهم ثقتهم أبو حسن علال إن الفقيه أبا المجد بن أبي مدين، قد تعين اليوم للنظر في المواريث، فلابد أن يأتي بشئ، فلما حانت صلاة العصر واضطر إلى النظر في تعيين ما يتمشى به حال الضياف[1] ولادخل شئ، فوصل أبو المجد مع أخيه الحاج أبي مدين شعيب فقال : يامولاي [خديمكم] بسعدكم الآن جلس، وعند جلوسه دفعت له دفعة وهي هذه، فقدمها أبو المجد ليدفعها للفقيه أبي الفضل، فقال شعيب ومن سعد تقدمه لهذا العمل، ولد لعبدكم الآن مولود، فقال رضي الله عنه، فهذا فتوح لاينبغي أن يُتَعَدّى به والد الولد لنحقق سعد ولده عليه، فدفع له ذلك، وكانت نحو مائة دينارمن الذهب، فقال أبو حسون وبأي شئ يقام الحال، فقال : الله الخلاق الرزاق، فدخل لداره وأخرج بعض متاع بيته».

المسند الصحيح الحسن 190 ـ 191.

1ـ هكذا في الأصل والضياف جمع ضيف في اللهجة المغربية أما الجمع الفصيح فهو أضياف وضيوف وضيفان على أن كلمة ضيف تقال للمفرد والجمع كما في القرآن الكريم.





8. مثال لضخامة ملكه وشموخ همته

مما يدلك على اقتداره رضي الله عنه على ذلك وضخامة ملكه وشموخ همته وعلو قدره : وذلك أن ابنة السلطان المرحوم أبي يحيى أبي بكر ابن الأمراء الراشدين، لما توجهت قبله مع خطابها وهم أبو زيان عريف بن يحيى والفقيه أبو عبد الله السطي والفقيه أبو الفضل بن أبي مدين ومن معهم، وقاربوا تلمسان فوردت كتبهم من البطحاء، دخل ودخلت معه نتمشى لينظر لها في دار تختص بها، فلما تطوف على الدور وقال لي : «والله ما هو من النظر ولا من الاعتناء بهذه الواردة أن تسكن في دار سكنها غيرها، وما الوجه إلا أن يبنى لها موضع يختص بها» فقلت له : «لو كان هذا على وسع لكان ممكنا» فقال : « وأين يظهر الاعتناء وما أنعم الله علينا به؟ علي بأرباب الصناعات من البنائين والنجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين». فأحضروا بين يديه فقال لهم :

«أريد دارا تشتمل على أربع قبات مختلفة ودويريتين تتصلان بها منقوشة الجدران بالصناعات المختلفة بالجبس والزليج والنقش في الأرز المحكم النجارة والصناعات المشتركة ونقش ساحة الدار وفرشها زليجا ورخاما بما فيها من طيافير الرخام والسواري. والنجارة في السقف مختلفة باختلاف القبب بالصناعات المعروفة عندهم المشتركة المدهونة، والأبواب بالصناعات المؤلفة والخزائن والخوخ جميعها. والحلية في جميع ذلك من النحاس المموه بالذهب والحديد المقصدر».

ورسم لهم قدر ساحتها في كاغد ووقع الوفاق لجميعهم على ذلك قطيعا وأوضح لهم عملها، فلما تم هذا قال لهم : «إني أريدها في مثل هذا اليوم





يكون (إن شاء الله) دخولي إليها» فقالوا : «نقدم الاستعانة وسعادتك» فما انقضى الأجل وتم الأمد/ وجاء اليوم المعلوم إلا وهو يتمشى فيها وأنا بين يديه على الوجه المشروع والغرض الموصوف، وهذه غاية في الضخامة والاقتدار على ما وراءه.

المسند الصحيح الحسن : 448.







9. هدية[1] السلطان أبي الحسن إلى الملك الناصر ابن قلاوون

«لم يرالراؤون ولاسُمِع كهدايا إمامنا رضي الله عنه، وقد شهدت هذا: أهدى رضي الله عنه للسلاطين هدايا منها هدايا لصاحب الأندلس في كرّات، ومنها هدايا لملوك النصارى، ومنها هدايا لسلطان السودان، ومنها هدايا لسلطان إفريقية، ولملك مصر اشتملت من الذخائر على ما لم يجتمع مثله، فلنذكر ما ضبطته من ذلك ونقلته من نقل متوليه، وهي هديته رضي الله عنه للملك الناصر محمد ابن قلاؤون[2] - رحمه الله صحبة الربعة[3] - التي اختطها بيمينه رضي الله عنه، وسيأتي إن شاء الله ذكرها[4] - تفسير ما اشتملت عليه - أما الأحجار فمنها الياقوت والزبرجد والزمرد والجوهر. أما الياقوت فمائتان وخمسة وعشرون حجرا من الياقوت الفاخر العظيم القدر والمقدار. وأما أحجار الزمرد فمائة وثمانية وعشرون حجرا من الدباني العجيب[5]. وأما أحجار الزبرجد: فثمانية وعشرون. أما الجوهر النفيس الفاخر المقدار فثلاثمائة وأربع وستون حبة. وأما الثياب، فنهما الحلل المرقومة المذهبة والأنساق المذهبة وغيرها. أما الحلل، فثلاث عشرة حلة ذهبية والأنساق عشرون ذهبية. أما الخلادي - و تسمى القدود - فست وأربعون مذهبة. والقُنُع ستة وعشرون قناعا مذهبا. ومن المحررات القائمة المختمة مائتان شقة ورصاق[6]

1. ورد في ملعبة الكفيف ذكر الهدية التي وجهها السلطان أبو الحسن المريني إلى ملك قشتالة ولما لم تقف على تفصيلها رأينا أن نأتي بهذه كمثال لها.
2. كان بين أبي الحسن المريني والناصر محمد قلاوون وولده إسماعيل مراسلات وهدايا. أنظر «علاقات المغرب بالمشرق أيام السلطان أبي الحسن المريني» للأستاذ محمد المنوني في مجلة تطوان (1 - 1996).
3. ربعة المصحف عبارة عن صندوق توضع فيه أجزاء القرآن الكريم انظر دوزي: 503.
4. أنظر المسند 474 - 478.
5. الزمرد الدباني من أصناف الزمرد وهو أعلاها وأغلاها وأفضلها، وهو أخضر معلوق اللون جدا. أنظر أزهار الأفكار للتيفاشي 78 -91.
6. كذا في المطبوع، ولم أقف عليها، ولعلها ورصافي بالفاء وهي قلنسوه طويلة. دوزي: 534.





عشرون شقة وأكسية محررة أربعة وعشرون. وبرانس[1] محررة ثمانية. ومن المشفّف خمسون زوجا، مائة شقة. ومن أحارم[2] الصوف والمحرر عشرون. ومن شقاق الملف ستة عشر شقة ومن الفضالي المنوعة عدل. ومن الفرش مخاد - بين منسوق وحلل - مائتان، وأوجه ألحف مذهبة عشرون، وحائطيان من حلة ونسق، وحنابل مائة وتسعة عشر حنبلا[3] منها اثنان من حرير وباقيها محرر وصوف وفرشه من جلد مخروزة بالذهب والفضة.

ومن آلات الركوب والعدد ما يذكر : سيوف محلاة بالذهب الخالص المنظوم بالجوهر وسروج عشرة ركبها[4] ذهب كلها، ومنها ميز عشرة كذلك وثلاثة من الركب فضة كلها وماتشتمل عليه العدة مزججة ومذهبة ستة. ومضمتان من ذهب منظومتان. وشاشية مطوقة بالذهب المكلل المنظومة، لزمات[5] فضة كلها عشرة، سروج بالفضة عشر، علامات[6] معششة مذهبة عشرة، رايات مذهبة عشر، براقع مذهبة عشر أهلّة مرقومة ثلاثون، جلد شركي أربعة آلاف، من درق اللمط مائتان، منها اثنتان بنهود الذهب وثمانية عشر بنهود الفضة. ومن المضارب وهي الأخبية والمساكن قبة من مائة بنيقة لها أربعة أبواب، قبة أخرى من ستة وثلاثين بنيقة، مبطنة بالحلة المذهبة، ووجهها حرير أبيض من حرير ملون وركيزها العاج والأبنوس مؤلفا وأكابرها من فضة مذهبة ومن البزاة الأحرار أربعة وثلاثون، ومن البغال بين ذكور وإناث مائة وعشرون، ومن الجمال سبعمائة.

---

1. جمع برنوس، وهو ملبوس مغربي معروف.
2. جمع إحرام وهو شبيه بما يعرف في المغرب بالكساء.
3. الحنبل : ضرب من البسط، وهو معروف في المغرب والحائطي: ثوب رفيع يغلف به الحائط.
4. ركب : جمع ركاب وهي حديدة يجعل فيها ألفارس رجله.
5. هي التي تكون مع اللجام وتسمى أيضا حكمة.
6. جمع علام أي علم، ويبدر أنها غير الرايات التي ذكرت بعدها.





ولْنصلْ ذكر هذه الهدية بما زُوِّد به الحجاج المتوجهون صحبة الرَّبعة المكرّمة والهدية الجسيمة حسبما وعدت بذلك في باب تيسيره سبيل الحج وما وجه به معهم برسم الصدقة والحبس : للحرة مريم (أم أخته وأم ولد أبيه) ثلاثة آلاف وستمائة دينار من الذهب وكسى وبغلات. ولأبي زيان عريف بن يحيى[1] ألف دينار من الذهب وكسوة. وللقاضي أبي إسحاق إبراهيم بن أبي يحيى[2] ثلاثمائة دينار من الذهب وكسوة ولعثمان بن سليمان من أولاد حمامة مائة وخمسون دينارا ذهبا وكسوة. ولأولاد مهلهل بن عطية ثلاثمائة دينار من الذهب وهما اثنان. ولعبد الرحمن بن القاضي المليلي[3] خمسون دينارا ذهبا وكسوة. وللمزوار عبد الله بن قاسم أربعمائة دينار من الذهب وكسوة. ولابن جميلة خمسون دينارا ذهبا وكسوة. ولقائد الركب حسون ابن عمران أربعمائة دينار ذهبا وكسوة. ولأبي عبد الله محمد ابن يوسف بن سيد الناس مائة دينار ذهبا وكسوة. وليوسف بن عبلة المدعو بيشو ستون دينارا ذهبا. ولا أذكر ما دفعه لشيخ الركب، وهو أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح[4] نفع الله بهم. ولسائر الحجاج خمسمائة وخمسة وتسعون دينارا ذهبا. وبرسم العطاء للعرب في الطرقات ثلاثة آلاف دينار من الذهب ومن الكسى مائتان. وللنسوة اللائي سافرن مع الحرة ستمائة وسبعون دينارا ذهبا. ولسليمان بن أبي بكر العسكري مائة وخمسون. وبرسم الصدقة وشراء الأملاك ستة عشر ألف دينار من الذهب وخمسمائة دينار من الفضة. هذا جملة الخارج الظاهر.

---

1. يذكر في الحوليات التاريخية، وله ترجمة في الدرر الكامنة 2 : 454.
2. له ترجمة في الإحاطة 1 : 380 وجذوة الاقتباس 1 : 85 ودرة الحجال 1 : 179 وشجرة النور الزكية 1 : 218. قال ابن الخطيب : «امتحن بصحبة السلطان فصار يستعمله في أسفاره فمر في ذلك حظ كبير من عمره ضائعا لا في راحة دنيا ولا في نصيب آخره» ثم قال : هذه سنة الله فيمن خدم الملوك ملتفتا إلى ما يعطونه لا إلى ما يأخذونه من عمره لطف الله بنا وبمن ابتلي بذلك».
3. انظر خبره وترجمة والده القاضي في جذوه الاقتباس 2 : 471 وروضة النسرين : 19، 21 وبيوتا فاس : 47، 58.
4. انظر خبرة وترجمته في أنس الفقير : 16 ونفاضة الجراب : 69 - 70 وجواهر الكمال : 10.





وأما هديته لسلطان السودان، وهو سليمان بن موسى، سلطان مالي، فقد سمعت غير واحد من أصحابنا يقول: إنها تزيد في الذخائر على هذه».

وهديته للهونشو ملك قشتالة، وهو الفنشي معروفة، فإذا نظرت إلى ما تكرر له من الهدايا تقل لها هذه.

وكذلك ما أهداه لزوجة النصراني حين تقربت بخدمة لهم رضي الله عنهم ونصح، فهي لا يقدرها مقدر، وقد قدمنا قول عروة «الهدية تدل على مهديها». فذكرت ما حضرني ليقيس عليه من يقيس.

وهداياه لصاحب إفريقية معروفة.

ولصاحب تلمسان زمن السلم فنسأل الله أن يضاعف له الحسنات ويرفع له الدرجات بفضله ورحمته*.

المسند الصحيح الحسن: 452-454.

* انظر أيضا الفصل الذي عقده ابن مرزوق لكرم السلطان أبي الحسن، وقد ذكره في آخره أن الكاتب أبا زيد عبد الرحمن بن الترجمان وولده أبا عبد الله والفقيه أبا عبد الله التاوري المكناسي ألفوا في هذا الموضوع وجمعوا منه العجائب. المسند: 195





3

كلام ابن خلدون عن هدايا أبي الحسن ومصاحفه إلى المساجد الثلاث ويوم دخوله إلى مدينة تونس*

---

* اعتمدنا كثيراً في شرح الأحداث الواردة في الملعبة على ما جاء في العبر لابن خلدون، وسنكتفي هنا بكلامه في الموضوعات المذكورة





1ـ الخبر عن هدية السلطان إلى ملوك المشرق، وبعثه بنسخة المصحف من خطه إلى الحرمين والقدس.

«ـ كان للسلطان أبي الحسن مذاهب في ولاية ملوك المشرق، والمكلف بالمعاهد الشريفة تقيَّله[1] من سلفه، وضاعفه لديه متين ديانته. ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى، وتغلب على المغرب الأوسط، وصار أهل النواحي تحت ربقة منه، واستطال بجناح سلطانه، خاطب لحينه صاحب مصر والشام محمد بن قلاوون الملك الناصر[1م]، وعرفه بالفتح وارتفاع العوائق عن الحاج في سابلتهم[2]. وكان فُرانقُه[3] في ذلك فارس بن ميمون بن ودرار[4]. وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودة بين السلف. وأجمع السلطان على كتابة نسخة أنيقة من المصحف الكريم بخط يديه، ليوقفها بالحرم الشريف قربة إلى الله وابتغاء للمثوبة. فانتسخها وجمع الوراقين لمعاناة تذهيبها وتنميقها، والقراء لضبطها وتهذيبها حتى اكتمل شأنها. ووُضِع لها وعاءٌ مؤلف من خشب الأبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة، وغشي بصفائح الذهب، ونظم بالجوهر والياقوت، واتخذت له أصونة[5] الجلد المحكمة الصناعة المرقوم أديمها بخيوط الذهب من فوقها غلاف الحرير والديباج وأغشية الكتان. وأخرج من خزائنه أموالاً عيناً لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفًا[6] على القراء. وأوفد على الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر والشام، من خواص مجلسه وكبار أهل

1ـ يقال : تقيل أباه أي تشبه به.

1م الفرانق : البريد، وربما سموا دليل فرانقاً، فارسي معرب. ـ قاموس. وهو هنا بمقتضى السياق : صاحب البريد.

2ـ السايلة : أبناء السبيل المختلفة في الطرقات (مختار الصحاح).

3ـ الفرانق : البريد وحامل البريد.

4ـ استخدمه السلطان أبو الحسن وبعده عينه ولده أبو عنان وزيرا له وقد قاد الجيش، مهّد له البلاد ثم اتهمه وأمر بقتله قصعا بالرماح. راجع العبر لابن خلدون.

5ـ جمع صوان : وهو الوعاء.

6ـ كان ملوك المغرب منذ عهد الموحدين وربما قبلهم يوقفون أوقافا على الحرمين الشريفين والمجاورين بهما.





دولته، عريف ابن يحيى أمير زغبة[1]، والسابق القدم في بساطه على كل خالصة، وعطية ابنُ مُهَلْهِلْ بن يحيى كبير الخولة[2]. وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مَدْيَن[3]، وعريف الوَزَعَة بدولته، وصاحب الباب عبُّو بن قاسم المزوار[4]. واحتفل في الهدية للسلطان صاحب مصر احتفالا تحدث به الناس دهراً. ووقفتُ على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مَدْيَنْ هذا الرسول ووعيته وأُنسيتُه[5]. وذكر لي بعض قهارمة الدار أنّه كان فيها خمسمائة من عتاق الخيل المقربات[6]، بسروج الذهب والفضة ولجمها، خالصاً ومغشى ومموهاً. وخمسماية حمل من متاع المغرب وما عونه وأسلحته، ومن نسج الصوف المحكم ثياباً وأكسيه وبرانس وعمائم، وأزراً مُعَلَمَة وغير معلَمة. ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملوناً وغير ملون، وساذجاً منمقاً. ومن الدّرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة بالدباغ المتعارف، وتنسب إلى اللمط. ومن خرثي[7] المغرب وماعونه ما يستظرف بالمشرق، حتى لقد كان فيها مكيل[8] من حصى الجوهر والياقوت. واعزمت حظيَّة من حظايا أبيه[9] على الحج في ركابه ذلك، فأذن لها واستبلع في تكريمها. واستوصى بها وافده وسلطان مصر في كتابه. وفصلوا من تِلِمْسان،

1ـ تقدم التعريف به.
2ـ الخولة هم سعاة البريد.
3ـ من أسرة كان عدد من أفرادها في خدمة السلطان أبي الحسن المريني. راجع المسند ومستودع العلامة.
4ـ إسمه في مسند ابن مرزوق : عبد الله، وصيغتها البربرية : عبو وَهُوَ من خدام دولة بني مرين ومن ذريته عبد الواحد بن محمد بن عبو الذي كان له دور في تحويل ملك المغرب من يد أبي العباس بن أبي سالم إلى موسى أبي عنان أنظر العبر 7 : 552، 729.
5ـ وقف ابن مرزوق على هذا الدفتر ونقل منه ما احتوت عليه الهدية. انظر المسند : 452.
6ـ المقربات : التي تقرب وتفضل لكرامتها وجودتها وثمة اختلاف في عدد الخيل والجمال بين ما يوجد هنا وبين ما ذكره ابن مرزوق.
7ـ خرثي : هي الأسفاط وفي الأساس : تفلوا خرثي متاعهم وهو سفطه.
8ـ مكيل : مكيال.
9ـ إسمها في مسند ابن مرزوق : مريم وقد وصفها بالحرة ثم زاد إنها «أم ولد أبيه».





وأدوا رسالتهم إلى الملك الناصر وهديتهم؛ فتقبلها وحسن لديه موقعها. وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوماً مشهوداً تحدث به الناس دهراً، ولقَّاهم في طريقهم أنواع البر والتكرمة حتى قضوا فرضهم، ووضعوا المصحف الكريم بحيث أمرهم صاحبهم. وأسنى هدية السلطان[1] من فساطيطهم الغريبة الهيكل والصنعة بالمغرب، ومن ثياب إسكندرية البديعة النسج المرموقة بالذهب، ورجعهم بها إلى مرسلهم وقد استبلغ في تكريمهم وصلتهم. وبقي حديث هذه الهدية مذكوراً بين الناس لهذا العهد.

ثم انتسخ السلطان نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأول، ووقفها على القراء بالمدينة، وبعثها مع من تخيره لذلك العهد من أهل دولته. واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين. وولي الأمر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل[2]؛ فخاطبه السلطان وأتحفه وعزّاه عن أبيه. وأوفد عليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج ببابه أبا الفضل بن عبد الله بن أبي مَدْيَن، فقضى من وفادته ما حمل، وكان شأنه عجبا في إظهار أبهة سلطانه والإنفاق على المستضعفين من الحاج في سبيلهم وإتحاف رجال الدولة التركية. بذات يده، والتعفف عما في أيديهم. ثم شرع السلطان بعده عند استيلائه على إفريقية كما نذكره في كتابة نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها ببيت المقدس؛ فلم يقدر على إتمامها وهلك قبل فراغه من نسخها كما نذكره إن شاء الله تعالى».

العبر لابن خلدون 551 - 554.

1ـ أي أنه بعث هدية سنية للسلطان.
2ـ ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر والاعلام للزركلي.





2. الخبر عن هدية السلطان إلى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب

«- كان للسلطان أبي الحسن مذهب في الفخر معروف، يتطاول به إلى مناغاة الملوك[1] الأعاظم واقتفاء سننهم في مهاداة الأقتال[2] والأنظار، وإنفاذ الرسل على ملوك القاصية والتخوم البعيدة. وكان ملك مالي أعظم ملوك السودان لعهده مجاوراً لملكه بالمغرب على ماية مرحلة[3] في القفز من ثغور ممالكه القبلية[4]. ولما غلب بني عبد الواد على تلمسان، وابتزهم ملكهم، واستولى على ممالك المغرب الأوسط، وتحدث الناس بشأن أبي تاشفين وحصاره ومقتله، وما للسلطان في ذلك من سورة التغلب وإهانة العدو، شاعت أخبار ذلك في الآفاق. وسما سلطان مالي منسا موسى المتقدم ذكره في أخبارهم[5] إلى مخاطبته ؛ فأوفد عليه فُرانقَيْن من أهل مملكته مع ترجمان من الملثمين[6] المجاورين لممالكهم من صَنْهَاجَة ؛ فوفدوا على السلطان في التهنئة بالتغلُّب والظفر بالعدو، فأكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم، ونزع إلى طريقته في الفخر، فانتخب طُرَفاً من متاع المغرب وما عونه من ذخيرة داره وأسناها. وعين رجالاً من أهل دولته، كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدْيَن، ومولاه عنبر الخصي. وأنفذهم بها على ملك مالي منسا سليمان بن منسا موسى، لملك أبيه قبل مرجع وفده.

1ـ مناغاة الملوك أي أنه يدانيهم ويساميهم، والأصل في المناغاة أنها المغازلة.
2ـ الأقتال : جمع قتل بكسر القاف وهم الأقران.
3ـ أنظر وصف هذه المراحل في رحلة ابن بطوطة.
4ـ أي الجنوبية.
5ـ أنظر العبر.
6ـ أنظر رحلة ابن بطوطة.





وأوعز إلى أعراب الفلاة من المَعْقِل بالسير معهم ذاهبين وجائين ؛ فشمر لذلك علي بن غانم أمير أولاد جارَ الله من المعقل وصحبهم في طريقهم امتثالاً لأمر السلطان. وتوغل ذلك الركاب في القفز إلى بلد مالي، بعد الجهد وطول المشقة؛ فأحسن مبرتهم وأعظم موصلهم وأكرم وفادتهم ومنقلبهم. وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظمون سلطانه، ويوجبون حقه، ويؤدون من خضوع مُرْسِلهم وقيامه بحق السلطان واعتماله في مرضاته ما استوصاهم به؛ فأدوا رسالتهم. وبلغ السلطان أرباً من اعتزازه على الملوك، وخضوعهم لسلطانه. وقضى حق الشكر لله في صنعه.

العبر لابن خلدون 7 : 554 - 555.







3. يوم دخول أبي الحسن إلى مدينة تونس.

«ثم ارتحل إلى تونس واحتل بها يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة من سنة ثمان[1] وتلقاه وفد تونس وملأها من شيوخ الشورى وأرباب الفتيا فآتوا[2] طاعتهم وانقلبوا مسرورين بملكتهم[3] ؛ ثم عبأ يوم السبت لدخولها مواكبه وصف جنده سماطين[4] من معسكره بسيجوم[5] إلى باب البلد، يناهز ثلاثة أميال أو أربعة[6]. وركب بنو مرين في جموعهم على مراكزهم وتحت راياتهم. وركب السلطان من فسطاطه، وواكبه من عن يمينه وليّه عريف بن يحيى أمير زغبة[7]، ويليه أبو محمد عبد الله بن تافراكين[8]. ومن عن يساره الأمير أبو عبد الله محمد أخو مولانا السلطان أبي يحيى، ويليه الأمير أبو عبد الله ابن أخيه خالد. كان معتقلين بقسنطينة مع والدهما منذ خرج الأمير أبو فارس ؛ فأطلقهم السلطان أبو العباس[9] وصحبوه إلى تونس ؛ فكانوا طرازاً في ذلك الموكب فيمن لا يحصى من أعياص بني مرين وكبرائهم. وهدرت طبوله، وخفقت راياته، وكانت يومئذماية. وجاءوا مواكب تجتمع عليه صفاً صفاً، إلى أن وصل إلى البلد، وقد ماجت الأرض بالجيوش، وكان يوماً لم يُرَ مثله فيما عقلناه[10]. ودخل السلطان إلَى القصر، وخلع على أبي محمد بن تافراكين كسوته، وقرب إليه فرسُ بسرجه ولجامه[11]. وطعم الناس بين

1ـ يعني سنة 748هـ.

2ـ أي أعطوا.

3ـ أي بحسن صنيعهم، يقال فلان حسن الملكة أي حسن الصنيع، وفي الحديث : لا يدخل الجنة سيء الملكة. وقرأها بعضهم : بملكهم.

4ـ السماطان من النخل والناس : الجانبان، يقال : مشى بين السماطين. (مختار الصحاح).

5ـ تسمى أيضا سبخة السيجومي، تقع على مشارف مدينة تونس.

6ـ انظر كم هي طويلة هذه المسافة التي اصطف فيها الجنود على الجانبين.

7ـ له ترجمة في الدرر الكامنة ج. ص. وأخبار في العبر لابن خلدون والمسند لابن مرزوق. انظر على الخصوص : 367 ـ 368.

8ـ راجع تعريفنا به في حواشي الملعبة.

9ـ هو أبو العباس أحمد ولد السلطان الحفصي أبي بكر وولي عهده الذي خلفه، وانظر في الأمراء المذكورين كتاب السلطنة الحفصية لمحمد العروسي المطوي.

10ـ هذا يدل على أن ابن خلدون كان من شهود هذا اليوم

11ـ هذا من عوائد ملوك المغرب فيمن يعلنون تبعيته لهم.





يديه وانتشروا. ودخل السلطان مع أبي محمد بن تافراكين إلى حجر القصر ومساكن الخلفاء؛ فطاف عليها ودخل منه إلى الرياض المتصلة به المدعوة برأس الطابية[1]؛ فطاف على بساتينه وحوائره[2] وأفضى منه إلى معسكره وأنزل يحيى بن سليمان بقصبة تونس في عسكر لحمايتها. ووصل إليه فل الأمير أبي حفص والأسرى من قابس مقرنين في أصفادهم؛ فأودعهم السجن بعد أن قطع أبا القاسم بن عتُّو وصخر بن موسى من خلاف، لفتيا الفقهاء بحِرابتهم. وارتحل من الغد إلى القيروان؛ فجال في نواحيها. ووقف على آثار الأولين ومصانع[3] الأقدمين، والطلول الماثلة لصنهاجة[4] والعبَيْديين، وزار أجداث العلماء والصالحين[5].

ثم سار إلى المهدية[6] ووقف على ساحل البحر، ونظر في عاقبة الذين كانوا من قبله أشد قوة وآثاراً في الأرض، واعتبر في أحوالهم. ومر في طريقه بقصر الاجم ورباط المستنير، وانكفأ راجعاً إلى تونس، واحتل بها غرة رمضان. وأنزل المسالح على ثغور إفريقية وأقطع لبني مرين البلاد والضواحي، وأمضى إقطاعات الموحدين للعَرب. واستعمل على الجهات، وسكن القصر، وقد كمل الفتح، وعظمت في الاستيلاء على الممالك والدول المنَّة. واتسعت ممالكه ما بين مَسْراته والسوس الأقصى من هذه العدوة، وإلى رندة من عدوة الأندلس. «والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». ورفع إليه الشعراء بتونس يهنونه بالفتح.

العبر لابن خلدون 7 : 561 - 563.

1- تحدث ابن خلدون في العبر على الرياض المذكور الذي يعرف أيضا بستان أو جنان أبي فهر.
2- صحفت إلى وجوائزه وإلى وحوائزه والحوائر : جمع حائر. أي بستان.
3- المصانع : الحصون.
4- يقصد ملوك بني زيزي.
5- يعني أمثال سحنون وابن أبي زيد وأبي الحسن القابسي
6- مدينة بناها عبيد الله الشيعي فنسبت إليه وكان موضعها يسمى قبل ذلك جمة. أنظر الروض المعطار في مادة المهدية وفي مادة جمة.






4

رواية مخطوطة غريبة حول حركة السلطان أبي الحسن المريني إلى تونس






- يوجد نص هذه الرواية ضمن مجموعين مخطوطين أحدهما في الخزانة العامة رقم 969 ك. وهو مبتور والآخر في الخزانة الحسنية رقم 4485 وعنوان المخطوط فيهما بعد البسملة والتصلية كما يلي «من المسند الحسن، في مناقب أبي الحسن لابن رشد الحفيد رحمه الله تعالى»، وعلق بعضهم على هذا في الطرة بما يلي : «لابن مرزوق» ومن المعروف أن لابن مرزوق تأليفا عنوانه المسند الصحيح الحسن، من أخبارالسلطان أبي الحسن، ولكن الكلام الوارد هنا لايوجد فيه كما أنه لا يشبه أسلوبه، أما ابن رشد الحفيد هنا فلعل المقصود به أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد من حفدة ابن رشد الحفيد وبابن الحفيد يعرف، وهو من الفقهاء الأدباء في العصر المريني كان قاضيا في دولة أبي فارس عبد العزيز ولد أبي الحسن المريني، ولكن لم يذكر له كتاب بهذا العنوان، ومع هذا فلا مانع من أن يكون ألف هو أيضا تأليفا بالعنوان المذكور، ومهما يكن من أمر فإن الكلام المأخوذ منه يختلف عما في مسند ابن مرزوق من حيث المضمون ولاسيما في نثره الذي يوصف فيه أبو الحسن بالسلطان المتجبر المعجب بجيشه وكثرة عدده، وينسب إليه أنه شبه محلته أو جنده بجنود نبي الله سليمان، وإذا كان كاتب النص هو ناظم القصيدة على لسان السلطان فقد ناقض قوله الثاني قوله الأول ففي القصيدة نجد نفس الصورة للسلطان أبي الحسن المريني كما هي في المصادر التاريخية وفي مقدمتها مسند ابن مرزوق. ومعالم هذه الصورة هي سلطان مصلح أراد بناء دولة قوية يسود فيها الأمن والطمأنينة ويعمها الرخاء ويكثر فيها العمران وتهب للدفاع عن الأندلس وتدعو إلى وحدة المغرب الكبير وتطبق سياسة تقوم على الإحسان إلى الرعية والرفق بالضعفاء ومعاملة الجيران بالحسنى واحترام العلماء والشرفاء ومراعاة القواعد والأصول وجعل بيوت المال ومخازن الحبوب





في خدمة الناس ولاسيما أوقات الشدة والإنفاق بسخاء في وجوه الخير كبناء المساجد والمدارس والمحارس والمارستانات والقناطر والجسور وتمهيد طرق المسافرين والحجاج والوقوف عند ما جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف ؛ وبهذه السياسة الرشيدة التي سطرت في هذه القصيدة التي قيلت في الغالب على لسان السلطان أبي الحسن كان غول الغرب كامنا في جُحْرِه وأحزاب الشيطان نائمة في مضاجعها كما جاء في القصيدة ولعل أبرز ماتميزتْ به هذه الوثيقة الإحصاء الغريب لما كان في محلة السلطان أبي الحسن المريني الذي لقبته العامة بالسلطان الأكحل ولعله إحصاء لايستغرب إذا قورن بماورد في هداياه إلى ملوك مصر وقشتالة ومالي. كما أن الوثيقة تتميز بسردها القصصي ونفسها الملحمي ومضمونها الذي تمتزج فيه الحقيقة بالخرافة.

وهي تتألف من نثر مسجوع، لكنه سجع مطبوع غير مصنوع ومن قصيدة فخرية تشيد بأعمال السلطان أبي الحسن، وسواء صحت نسبة هذه النصوص لابن رشد المذكور أم لغيره فإنها - في رأينا - جديرة بالنشر لعلاقتها الواضحة بموضوع الملعبة ولأنها لم تكن معروفة ونوردها فيما يلي :





1. «لما حرك أبوالحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن عبد الحق المريني صائلا على الدولة الحفصية الهنتاتية بحضرة الخضراء تونس نزل بين بجاية والقيروان، في عدد لاترويه الآبار ولا العناصير[1] والغدران، وورد عليه عرب إفريقية وبرقة مابين عدنان وقحطان[2]، فاستنجدوه على اقتحام قاهرة مصر وصعيده، حتى نمدّ رياح الغلبة على قريبه وبعيده، ونسرح قدم الإقدام للحج والعمرة، فنخلص الحجاز المطهر من الأعجام زمرة بعد زمرة، ومن حاربنا ألقينا[3] في جبينه أو جوفه شعلة أو جمرة، ونصول، بالنصول، على رقاب قبائل اليمن، فنخلف من نختاره إما في صنعاء أو عدن، فنتركها عبرة وافتخارا لدول المغرب على أشابة ملوك المشرق، ونعلم أنها تحتهم بالحرق والغرق[4]، وكان جنده مائة ألف فارس، ومثلها من الرماة الترارس[5]، جملان للراكب وواحد لقضاء الحاجة، وعشرين ألف أسيف[6]، وما يدنوها من العسيف،[7] وله عشر آلاف بعير، لحمل القوت والشعير، وفي المحلة ستون ألف جمل، وله من المهاري والبجاوية[8] مائتان، وألف بغل شوامي[9] وفي المحلة خمسون

---

1. العناصير : أي عناصر جمع عنصر أي عين الماء.
2. يقول ابن مرزوق في المسند 335 : «لما نزل بظاهر قسطنطينة وقد استقبلنا إفريقية تلقاه رضي الله عنه سائر طوائف أشياخ العرب على اختلافها من رياح وسليم جميعا».
3. هذا من تأثير الأسلوب القرآني :«سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب».
4. نجد مثل هذه المبالغات في قول الشاعر التونسي أبي القاسم الرحوي :

أَجَابَكَ شرق إذ دعوت ومغرب   فمكة هشت للقاء ويثرب
وناداك مصر والعراق وشامه   بدارا فصدع الدين عندك يشعب

وأشابة ملوك الشرق أي أخلاطهم، ومن الواضح أن هذه اللهجة العنترية بعيدة عن كتابة ابن مرزوق وغيره من المؤرخين وليس فيها من بواعث الحركة التي ذكرها هؤلاء إلا تمهيد طريق الحج.
5. الترارس جمع تراس، وهو الجندي الراجل. دوزي (1 : 144).
6. الأسيف : العبد والأجير ونحو ذلك. (لسان العرب).
7. العسيف : الأجير (لسان العرب).
8. المهاري : إبل من نوع خاص تنسب إلى إقليم مهرة والبجاوية نسبة إلى بلاد بجاوة وهي معروفة بقوة التحمل.
9. لعلها منسوبة إلى الشام.



ألفا[1] وثلاثون ألف بردون[2] وأربعون ألف حمير وسبعون ألف رواية[3] وقاد خمسمائة قريطة[4] للفقهاء المدرسين للتفاسير وكتب الحديث[5] وله قريطة كبيرة لندمائه،[6] وأخرى للإمام والمؤذن وستة آلاف محفة[7] في المحلة[8]، وله نحو ثمانمائة لنفسه صونا للنسوان، ومهادا للولدان، ومع هذا ليس له راحة[9] إلا صهوة جواده، ومسيره نهارا مع ندمائه [وقواده].. و كان يقول مجالسة الجيش، لاتزيد الخليفة إلا زعازع الطيش، ومخالطة العمال والقواد، تردى الملك ولو كان صبورا أو جواد، لايجمل حضورهم إلا في أوان الراتب[10] أو اشتباك أمشاط الكتائب[11]، وفي جنده مع ماليه ثمانية عشر مائة سلوقي[12] وتسعمائة عقاب، شهب الألوان والأنقاب، والقوادم والرقاب[13]، وأحد عشر ألف بازيا ستمائة منها تَتراكل[14] وأربعمائة ساف،[15] وألفان من الانماس[16]، مفترقة على أيدي الناس، وكان يقيم في

1ـ كذا في النسختين ولعلها من الخيل.
2ـ البردون : البغل
3ـ الرواية هو البعير أو البغل أو الحمار الذي يستقى عليه الماء وتطلق الرواية أيضا على المزادة أي الوعاء الذي يكون فيه الماء (اللسان).
4ـ قريطة أو كريطة هي الكلمة الإسبانية carreta اسم نوع من العربات للنقل.
5ـ ذكر المقري في نفح الطيب أنه كان مع السلطان أبي الحسن في حركته نحو أربعمائة عالم. (6 : 215) وقد سمى ابن خلدون في رحلته بعض هؤلاء العلماء (التعريف 39 ـ 49).
6ـ أنظر أسماء جلساء السلطان أبي الحسن وندمائه في المسند : 261 ـ 270 ـ 36 ـ371.
7ـ المحفة : مركب من خشب كالهودج والمحمل.
8ـ المحلة : الجيش الذي يكون مع السلطان في حركته.
9ـ في النسختين : راحة مطية.
10ـ أي عند دفع الرواتب والأجور.
11ـ لعله الالتحام في وقت القتال. كما تشتبك الأمشاط، وهي التي يمشط بها الصوف.
12ـ هي كلاب الصيد منسوبة إلى سلوق بلد باليمن.
13ـ أنظر في العقاب على سبيل المثال مطالع البدور 2 212 ـ 214 قال « وأول من صادَ بها أهل المغرب». والأنقاب : المناقر.
14ـ الركل : الرفس بالأرجل، ولعل هذه كانت تتخذ للألعاب.
15ـ الساف : البازي الذي يصيد .
16ـ لعله جمع نمس، وهو حيوان في حجم القط الأهلي يصيد الفئران والحيات.





كل منزل سبع ليال، مع وجود الماء للمحال ويطعم من الصعاليك ستة عشر ألفا، وسفرة طعامه اللحم الطري والقديد، كما هي حاضرا في فاس الجديد[1] فلما خامره العُجْبُ الماحي صحف الوقار، والتجبر المهوي بصاحبه لحضيض الافتقار، نزل بظاهر تونس الخضرا، في موكب كان لهم فيه وجها وصَدْرا،[2] واحصوا ما احتوت عليه محلته من الناس، ونهاية البهائم والدواب على الضروب والأجناس. ثم أنطقه القدر المحتوم أثناء الكلام، فقال هذه أخت محلة سيدنا سليمان عليه السلام[3]، فأجابه ناطق ممن في بله الجهل هام، أنت جمعتها بسعود الأسهام، وهو بوحي توفيق الإلهام، وأيضا ورد عليه من جبل زغوان[4] ومن قبائله أشمخ ديوان، ومن فقهاء الجريد بأسرها فقال أحد فقهائهم نغتنم معك حجة للبيت الحرام، فنكر بعون الله فائزين بإِدْراكِ مرغوب المرام، فأجابه بديهة أبو الحسن لا جعلك الله علينا سبحانه أصدق فال، لا في الواجبات ولا في الأنفال، مرادنا الأكيد خوض فيافي اليمن، وندوخها في أقرب زمن، ولم يعقب حديثه بالإستثناء ولا بالاستغفار، إلى أن كانت عليه الكرة في أقرب الأسفار[5] ثم إن المجلس انفض ختامه بأهله، فكل قصد وعرَ

---

1. لعل المعنى أن سفرة طعامه هي - سواء في السفر أم في الحضر، وفاس الجديد كان فيها قصور بني مرين وتسمى أيضا المدينة البيضاء.

2. يعني أنه كان أبرز من في الموكب.

3. هذا أيضا مما لا يتفق مع ماذكره المؤرخون من سيرة أبي الحسن وأخباره وأقرب مايذكر منها تدينه الكبير وعنايته الفائقة بكتابة المصاحف بخطه وتحبيسها على الحرم النبوي والحرم المكي والحرم القدسي ومجالسته العلماء وبناؤه المدارس وغير ذلك من الأمور المعروفة.

4. كذا في الأصل، زغوان جبل عظيم بالقرب من مدينة تونس، وفيه قرى كثيرة وقوم عباد منقطعون عن الناس. (الروض المعطار).

5. لايوجد شيء من هذا عند ابن مرزوق وابن خلدون وابن الخطيب، وعكسه هو الموجود عندهم ومما ذكره ابن مرزوق من اعتماد أبي الحسن على الله قولا وفعلا أنه كان إذا قال له أحد رجاله : «ياسولانا نفعل كذا» يقول له : «بالله قل، بالله قل، فإنا نتوكل على الله في جميع أمورنا» وإذ قال قائل «غلبنا أو ظهرنا» زجر القائل ونهاه واشتد عليه وقال : « قل بعون الله ونصرالله» المسند : 437.





منزله أو إلى سهله، فلما كان الانتظام ضحوة غد، أذن لتالي كتب أدبه[1] أن ينشد فأنشد العرب الواردة من الأقطار الحجازية واليمانية[2] لأن حركته تلك تناهز ثلاث سنين وهذه القصيدة بكاملها هي من عزير كلامه السَّلْسَلَ[3] :



1. كانت الكتب من جملة ما يكون مع ملوك المغرب في رحلاتهم وكان لها موظف معروف بجمعها وربطها وحلها كما كان هناك السارد أو بالتالي كما سمي هنا .

2. إذا كان المقصود أنهم وردوا من الحجاز واليمن خلال حركة أبي الحسن إلى إفريقية فغير مذكور في المصادر التاريخية وإن كان المقصود بهم عرب إفريقية من أصول حجازية ويمنية فأمر مفهوم.

3. لسنا ندري هل القصيدة لأبي الحسن كما في النص أم أنها قيلت على لسانه، وقد نسب إليه ابن الأحمر في روضة النسرين ونثير الجمان وكذلك الناصري في الاستقصا هذين البيتين :

أرضيّ الله في سري وجهري ... وأحمى العرض من دنس ارتياب

وأعطى الوفر من مالي اختيارا ... وأضرب بالسيوف طلى الرقاب





أَخِلائي قَحْطَان وَعَدْنَان جُمْلَةً ألم تَعْلمو أَنَّا بقايا التبَابع[1]

رَمَتْ بِنَا أَرْيَاحُ التَّبَابِعِ جيرةً إلَى تاج أوطان بأهدى المهايع[2]

وَهَانَحْنُ في غَربٍ مُلُوكٌ أعَزَّةٌ وشمس عُلانا في سُعود المطالع

ضَبَطْنَاهُ بِالجَيْشِ العَرَمْرَمِ عَنْوَةً وأنجادِ قُوادٍ وجُرْدٍ موانع

مَتَى مَا بَنُو نصر[3] دعت مستغيثةً بيالَمرين الحربِ أُسدِ الوقائع

تَرَانَا [رجالا أو] عَلَى كُلِّ ضامرٍ نُريع النّصارَى [كلّهم] في المواضع[4]

نَخُوضُ عُبابَ اليَمِّ عزماً بجحفلٍ لأندلسٍ نُعْلي منارَ الشَّرائع

---

1. التبَابع : التبابعة وهم ملوك اليمن واحدهم تبع، والمعروف أن عددا من المؤرِّخين والنسَّابين نسبوا بني مرين إلى بر بني قيس عيلان، وقد أطال في هذا النسب ابن أبي زرع في روض القرطاس والذخيرة، وساق ابن مرزوق في الباب الأول من المسند ماوقع بين النسابين من الاختلاف في نسب زناتة.

2. المهايع جمع مهيع وهوالطريق الواضح الواسع وتاج أوطان : يعني به المغرب.

3. بنو نصرهم : بنو الأحمر ملوك غرناطة وقد كانوا يستغيثون ببني مرين ويعتمدون عليهم في الدفاع عن الأندلس وكان يقيم لديهم شيوخ الغزاة من بني مرين.

4. محل النقط كلمتان أصابهما محو.



فَنَنْزِلُ سبتةً طريقاً لطارقٍ[1] وأَجْنادُنا مابين شارٍ وبائع

ويومَ نرى التَّفويض[2] أربحَ متجرٍ نشُنُّ على الأصقاعِ أشقى الطلائع

فنحصرهم في[3] كل قصر ولا يرى سوى الرّوس في الطيقان شبه اليرابع[4]

ونغنمهم شيخاً وشَرْخاً[5] وأمردا بأغياد أبكار وعونٍ مراضع

ثلاثون ألفاً قدْ ملكْنا رقابها[6] ولكنَّها قد فُرِّقت في المواضع

لتغرس أشجاراً وتُنْشي معاقِلا وتَنْحت أحجاراً بأمضى المقاطع

وَشِدْنا بهم فاسَ الجديد وغيرَها وكَمْ من قناطير وسدٍّ مدافع[7]

نُزَلْزِلُ بالأطبال[8] جوّ جزيرة وتهتزُّ أرضٌ من رُعود المدافع[9]

وترمَدُّ عينُ الشمس من نقعِ جمعِنا كليْلٍ وأرماحٍ كشُهبٍ لوامع[10]

فنهدمُ ركنَ الكفر حرباً وغارةً ورأياً وأموالاً بصدقِ المتابع

---

1. هذا الشطر مضطرب في الأصل، والمقصود النزول بسبتة استعدادا للعبور إلى جبل طارق.
2. أي تقويض المحلة للذهاب إلى الجهاد في الأندلس.
3. في الأصل : عن.
4. الروس : الرءوس، الطيقان : النوافذ. اليرابع : اليرابيع جمع يربوع وهو حيوان معروف بالاختباء في جحره.
5. الشرخ جمع شارخ وهو الشاب. وفي الحديث : اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم. وشرخ الشباب : أوله. بأغياد أبكار : هكذا في الأصل، والصواب بغيدٍ وأبكارٍ. ومراضع : وردت في الأصل : مواضع.
6. يعني الأسرى.
7. يشير إلى استخدام الأسرى في الأشغال المذكورة وفاس الجديد هي المدينة الملكية التي بناها بنو مرين وكانت تسمى المدينة البيضاء، وقناطير : يقصد قناطر جمع قنطرة، وسد مدافع : لعلها وسك مدافع.
8. الأطبال جمع طبل.
9. من المعروف أن البارود كان مستعملا في عهد بني مرين
10. هذا كقول الشاعر : كأن غبار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه





ولَسْنَا ذَوي [1] جُبْنٍ تطيشُ حلُومُنا   إذا هاج في [الهَيْجَا] [2] غبار الزوابع

تَتيهُ بِنَا غرْنَاطَةٌ ومَرِيَّةٌ   وَشاطبة [3] الأَشْجَار ذات المَنَابع

وقرطبة [4] دار الملوك وحضرة   ونعم عروش توجت بالصوامع

بدولتنا قد فاخر الغرب مشرقا   بني يافث الأتراك كفْؤ الضفادع [5]

تخال بنو زيان لولا جنودُنا   تُغَادِرُهُمْ مَعْ خَصمهمْ في المَصَانع [6]

ولولانا بعد الله نقهر بَطْشَهم   لَمَدُّوا إلَى ...... الغَرْب بِالأَصَابع

ولكنها تخشانا في قَصْر مصرها   وَتَرْقُبُ منّا عَاصِفَاتِ الفجائع

متى عاينوا رَكْباً عَدِيداً بعُدَّة   حشوا مُوقَ الأجفان غُبْرَ المْشارع

1ـ في الأصل ذوو وفي البيت قبله : وصدق.

2ـ بدل من كلمة غير واضحة في الأصل.

3ـ استولى النصارى على شاطبة في آخر العهد الموحدي، ولهذا فلا علاقة لبني مرين بها.

4ـ سقطت قرطبة في يد النصارى عام 633هـ أي قبل ظهور دولة بني مرين.

5ـ كأن صاحب هذا النظم يحط من قدر الأتراك ولعله يعني بهم مماليك مصر والأتراك كالروم عند النسابين الأقدمين من بني يافت.

6ـ المصانع : القصور وفي هذا البيت والثلاثة بعده كسر في الوزن وغموض في المعنى، ويفهم من السياق أنها في الفخر بغلبة بني مرين على بني زيان له وقوله فيهم : متى عاينوا ركبا عديدا بعدة إلخ نجد مثله عند المؤرخ ابن الأحمر في روضة النسرين إذ يقول «إذا سمعوا بالمحلة المرينية ضربت بظاهر البيضاء يفرقون بتلمسانهم كنسائهم من السوداء والبيضاء، وإن كان السلطان المريني على النزهة في بلاده عوَّل، فهم يعتقدون أن السير إليهم وكل على ذلك هوَّل، فيفرون قبل الملاقاة إلى الصحراء، وينبذون أولادهم مع نسائهم بالعراء» روضة النسرين : 55





[أزحنا][1] بَني العبَاس عنْ كُلِّ مِنْبَر   ووبَّخنَا أتراكاً بسَبِّ الْهَجَارع[2]

بذاك زكتْ أقوالُنَا وَفِعَالُنَا[3]   كَمَا تزْكُو أثمار بأَحْلَى اليَنَابع[4]

سَتَبْكي[5] جفُونُ الْغَرْبِ مِنْ حَرِّ فَقْدِنَا   وأندلس [تُرْمَى] بِأَدْهَى المدافع

وَيَمْلِكُ دِينُ الكُفْرِ جُلَّ ثُغُورِه   إلى مائةٍ من بعد ألف لتاسع

فيبدو إمامٌ حَازم بعْدَ أزْمَةٍ   وينْصُره الباري بِسِرِّ التَّوَاضُع

1ـ كلمة غير واضحة في الأصل، ولعلها كما أثبتنا.

2ـ جمع هجرع ومن معانيها الاحمق والجبان والمقصود بالأتراك المماليك، وقد كانت علاقة أبي الحسن المريني بهم طيبة ولذلك يستغرب هذا الكلام على لسانه.

3ـ في الأصل : وأفعالنا. وينكسر بها الوزن.

4ـ الينابع : الينابيع.

5ـ هذا البيت والأبيات الأربعة بعده من قبيل مايعرف بالملاحم والجفريات، ولعل الشاعر يقصد بالامام الحازم المهدي المنتظر وقد عين تاريخ ظهوره وعينه غيره في تواريخ مختلفة. راجع المقدمة لابن خلدون.



يمهدهُ شرقاً وغربا وقبلة ... وَجَوْفاً[1] عَلَى الإِطْلاَق دونَ منازع
ويمكثُ عشْراً بعد عشرين حِجَّةً ... وَتَرْدُفُها عشْرٌ ويُنْعَى لتاسع
مَلَكْنَا[2] بإحسان وَسِرْنَا تَرَفُّقاً ... وعامَلْنا إخواناً[3] بأقْوَى البضائع
وَلاَ نُرْهِقُ الأجناد مَا لاتُطِيقُهُ ... لئلاَّ تعادينا بِكَيْدِ المُخَادِعِ
وَنَرْفَعُ قدر العِلْمِ وَالشَّرَفَ الذي ... لأبنائه سِرٌّ لذرْوَةِ شَافِعِ[4]
فَنُنْزِلُ كُلَّ الناسِ منزلة الذي ... يُمَيِّزُ قَدْرَ أَرْؤُسٍ من أكارع
كأي[5] نديم أو خديم وصاحب ... ومن كاتِبٍ أَوْ بَيْنَ الطَّوابع
نَرَى حَقَّ حُرَّاس الثغور وعدة ... غُزاةً على الأعراب وسْطَ المراتع
وَنَرْعَى بعين العِزّ حُظْوة سابقٍ ... على لاحقٍ إن كان يدعى بِتابع
ونهتكُ حجب الهزلِ مع كل صَائِنٍ ... لِلأسرار مأمون لحفظ الودائع
نُجَنِّبُ أرذَالاً سواقِطَ هِمَّةٍ ... تقودُ لها الأطماعُ ضرب المَعَامِع
ونرعى رعايانا بعدلٍ وعِفَّةٍ ... ونقطع بعد الفرض أيْدي المطامع
إذا منعت أمُّ الغيوم[6] غيوثَها ... فتحنا مخازنا لِلَهْفَةِ جائع

---

1. القبلة : الجنوب، والجوف : الشمال
2. قارن الأعمال التي افتخر بها أبو الحسن في هذا البيت وما بعده هنا بالأعمال التي توسل بها في المناجاة التي وردت على لسانه في الملعبة (108 ـ 115).
3. لعل المقصود بالإخوان هم بنو عبد الواد، وأنظر في عفوه عنهم : المسند : 202
4. أنظر رعاية أبي الحسن لآل البيت وعنايته بأهل العلم في المسند : 147 ـ 152 و 125 ـ 270.
5. غير واضحة في الأصل.
6. أم الغيوم : السماء.



فَحِفْظُ بيوت المال أو كَدُّ واجبٍ على الوالي مَالَمْ يقوسفْع السَّوَافع[1]

نُبَدِّدُ شمل المال في كل موْسِم على الجند والأجناد بعد الجوامع

ولاخير في مال وعلم وقدرة إذا الكل عند العسر ليس بنافع

ولاندع الأشياخَ فوق قبائل تُكَبِّدُهَا ثِقلاً كأدْهَى البَرَادِع

إذا قُلْنَا قولا لسنا نُخْلِفُ وعده ونُخْزِي خبيثاً سَامَنا بالتَّراجعُ

ونحكم بالقرآن عَاضَدَ سُنَّةً وندفع أهواءً وبَغْيَ الطبائع

بذلك غُولُ الغرب في الْحُجْرِ كامنٌ وأحزاب شيطانٍ غَفَتْ في المضاجِع

يَنَالُ النجوم الزهر راجٍ بِسلْمِ ولا مُلْك عُرْبٍ بالسُّيُوف القواطِع

ومَنْ شَكَّ فالتجريبُ أصدقُ شاهدٍ وأَقْوَى دلَيل شائع في المَسَامع

ولاَقَصْدي فَخْرٌ غيرَ أنِّي مُنْذر لِمَنْ يَتَولَّى كَيْفَ نُصْح السمادِع[2]

كَذا دأبُنا[3] كَيْما يُرَى السِّتْرُ دَائِما عَلَيْنَا كَوَجْهٍ لاَثَ سِتْرالبراقِعِ[4]

فَيَا ملكِ الأملاكِ عَدلُك دائمٌ وسترُكَ عَمَّ كُلَّ عاص وطائِعِ

أجر حازما كَاللَّيْثِ خزي فضائح إذا صار مَطْلُوباً طَرِيدَ الْمُتَابِعِ[5]

---

1. من سفعته النار والسموم إذا لفتحه، والإشارة إلى شده الجدب والحر.
2. السمادع : جمع سميدع وهو السيد الموطأ الأكناف.
3. هذا آخر أبيات زادت على العشرين اشتملت على سياسة أبي الحسن المريني وبرنامجه في الحكم.
4. يقال لاث العمامة على راسه أي لبسها ومثله لاثت البرقع على وجهها.
5. أجرى صاحب القصيدة هذا الدعاء على لسان أبي الحسن وجعله يتوقع الهزيمة ويطلب الستر والسلامة.







صورة أول المخطوط المذكور المنسوب لابن رشد حفيد الحفيد في وصف رحلة السلطان أبي الحسن المريني إلى تونس رقم 696 ك.






بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
من المسند الصحيح في مناقب أبي الحسن

[illegible] الحسين

لما حرك أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن عبد الحق المريني
طالبا على الدولة الحفصية الصنهاجية بالعدوة الغربية تونس
نزل بين بجاية والقيروان بعمود لائن وفيه الأبار وبالعساكر
وبالغزوات، ورد عليه عرب إفريقية ومن فيها بين [illegible]
ورعاياه، فاستنجدوه على افتتاح قاهرة مصر وصعيدها حتى
يكون بأيديهم الغلبة على قريبهم وبعيدهم، وتنشرح قلوب الأقوام
للحج والعمرة، فيخلص الحجاز المكرم من الأعاجم وهم بعد زمرتهم
ومن حاربتها القبائل في جيشه وجنوده تشتعل أوجالها ونعوق
بالحصول على رقاب قبائل البصرة فيخلف من [illegible]
في صنعاء أو عدن، فتنشر كلها عبرة وأخبار الدولة
المغرب على أشابة ملوك المشرق، ونعلم أنها تخصهم
بالمجد بالمعروف والعرف، وكان جيشه ما بين المائة ألف فارس
ومثلها من أكثر الفرسان يسعون جمالا للتركيب ولهم الرواحل
وفي مطلق المحلة اثنا عشر ألف امرأة ماشية يستوفين
حمل الغطاء الحاجة وعشرين ألف أسيف وما يزيد
من العبيد، وله عشرة آلاف بعير لحمل القوت والتعبئة
وفي المحلة ستون ألف جمل وله من المحارب والبغال ومنه
ملوك آلاف وألف بغل [illegible] وفي المحلة خمسون ألف
[illegible] ألف برذون، وأربعون ألف [illegible] سبعة
في رايته، وفاد جمعا بينه فيم [illegible]







صورة أول المخطوط المذكور المنسوب لابن رشد حفيد الحفيد في وصف رحلة السلطان أبي الحسن المريني رقم 4485 ح.







بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

[illegible]

[illegible]





5

أشعار قيلت
في السلطان أبي الحسن
خلال وجوده بتونس







1. نجمع في هذا الملحق السادس أشعارا قيلت في السلطان أبي الحسن أثناء وجوده بتونس، وهي موزعة في مواضع قد لا يلتفت إليها، وجل هذه الأشعار لشاعر يدعى الرحوي، وهو شاعر يرتبط ذكره وشعره بوجود السلطان أبي الحسن المريني في تونس، ولهذا رأينا من المناسب إلحاق شعره بملعبة الكفيف، لما له من صلة بموضوعها، وقد انفرد ابن خلدون بتدوين هذا الشعر في المقدمة والعبر والتعريف، مع إشارات خفيفة إلى صاحبه، ففي العبر أنه «أبو القاسم الرحوي من ناشئة الأدب» ويفهم من العبارة والمناسبة التي سيقت فيها أنّ الرحوي كان في أول شبابه عند دخول أبي الحسن المريني إلى تونس عام 748هـ. وتحدث ابن خلدون عن الرحوي في التعريف بقوله : «صاحبنا أبوالقاسم الرحوي شاعر تونس» وكرر كلمة «صاحبنا» في موضعين آخرين وقد يفهم من ذلك أنه ربما كان من أقرانه، ويستفاد من كلام ابن خلدون أيضا أنه كان خلال الفترة المرينية في تونس شاعر البلد الأول، وهو يظهر في شعره تعلقا بالمرينيين وحرصاً على الانتفاع منهم، ويبدو أنه مات في الطاعون الجارف عام 749هـ.

ذكرت آنفاً أن ابن خلدون انفرد بالكلام على هذا الشاعر، وأضيف هنا أن ابن القاضي ترجم له في درة الحجال (3: 271) ولكنه اعتمد في الترجمة على كلام ابن خلدون، ومما يلفت النظر أن مؤرخي الأدب التونسي مثل ح.ح. عبد الوهاب وغيره لايشيرون إليه ولايذكرونه بين شعراء تونس، فهل هو نسيان أم إغفال مقصود ومهما يكن الأمرفإن أشعاره تشتمل على إشارات تاريخية تتعلق بموضوع الملعبة، وهذا مادعانا إلى إثباتها في هذاالملحق مع تعليقات مفيدة، جاء في العبر (7 : 563 ـ 567) في سياق الكلام على حلول السلطان، أبي الحسن بتونس مايلي : «ورفع إليه الشعراء بتونس يهنئونه بالفتح، وكان





سابقهم في تلك النوبة أبو القاسم الرَّحوي من ناشئة الأدب، فرفع إليه قوله :

أَجَابَك شَرْقٌ إذْ دَعَوْت وَمَغْرب
فَمَكَّةُ هَشَّت لِلَّقَـاء ويَثْرِبُ

ونـاداك مِصْـرٌ وَالعِـرَاق وشَامه
بِداراً فصَدَع الدِّين عندك يُشْعَبُ[1]

وَحيَّتْك أو كادتْ تُحَيِّي مَنَابِرٌ
عليها دعاةُ الحقِّ باسمِك تخْطُبُ[2]

---

1. عبر عدد من شعراء الغرب الإسلامي قبل الرحوي وبعده عن تشوف ممدوحيهم إلى إمتلاك المشرق، فيحيى الغزال يقول في مدح عبد الرحمن الأوسط في قصيدة :

وأصبح المشرق من شوقه   إليك قد حن إلى المغرب

وقد أكثر شعراء الموحدين ولاسيما الجراوي من ترداد هذا المعنى فهو يقول في مدح الخليفة يوسف بن عبد المومن :

ستملك أرض مصر والعراقا   وتجري نحوك الأمم استباقا

ويقول في مدح ولده يعقوب المنصور :

سينظم السعد مصراً في ممالكه   حتى تدوخ منه خيله حلبا
إلى العراق إلى أقصى الحجاز   أقصى خراسان يلقي جيشه الرعبا

ونجد عبد العزيزالفشتالي في العصر السعدي يقول لأحمد المنصور الذهبي :

فادرك مصر والعراق ويمم   حرم الحي آلكم خير آل
إن شرق البلاد يرجوك شوقا   مثلما يرتجى طلوع الهلال

وإذا كان بعض هذا الكلام من قبيل المبالغة فإن بعضه الآخر كان يعبر عن تطلعات الممدوحين، وقد أشار المؤرخون إلى جماعات موالية للموحدين في مصر كانت تهيء الجو لاستقبالهم. وذكر ابن خلدون قلق مماليك مصر بعد اقتراب السلطان أبي الحسن من ديارهم، وجاء في الاستقصاء 3 : 57«وحذر ملوك مصر والشام ما شاع من بسطته، وانفساح دولته»، وهذا كلام لابن الخطيب في رقم الحلل : 84

2. هذا ينظر إلى قول البحتري :

فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما   في وسعه لسعى إليك المنبر

أو إلى يحيى الغزال المتقدم على البحتري في الزمان، وهو الظاهر، وذلك بقرينة الاشتراك في القافية

منبره يهتف من وجده   إليك بالسهل والمرحب
هفا به الوجد فلو منبر   طار لوافى خطفة الكوكب





فَسَارَعَ مِنَّا كُلُّ دانٍ وَشَاسِعٌ
إلى طَاعَةٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تُحْسَبُ
وتَاقَتْ لَكَ الأرواحُ حبّاً ورَغْبَةً
وأَنْتَ عَلَى الآمالِ تَنْأى وتَقْرُبُ
فَفي الْبَلْدَةِ الْبَيْضاءِ لَبّاكَ مَعْشَرٌ
وأَنْتَ بِأُفْقِ النّاصِرِيَّةِ تَرْقُبُ(1)
وَوافَتْكَ مِنْ ذاتِ النَّخيلِ وفُودُها
فلاقاهُم أَهْلٌ لَدَيْكَ ومَرْحَبُ(2)
وَلَمْ تَتَلَكّأْ عن إباءٍ بِجَايَةٌ
ولكن يراض الصعب ثُمَّتَ يركب(3)
تأبت فلمّا أن طلت عساكر
ترى الشهب مها يستباح وينهب(4)
تبادر منهم مذغن ومسلم
وأذغن منهم شاغب ومؤلب(6)

1ـ البلدة البيضاء هي باجة سميت كذلك لأنها تقع على جبل شديد البياض يسمى الشمس لبياضه. (انظر الروض المعطار).

2ـ هي بجاية، تنسب إلى الناصر بن علناس الذي اتخذها عاصمة له (راجع الروض المعطار) وافق الناصرية ناحيتها، ومما يذكر أن أبا الحسن تلبث بناحية بجاية قبل دخولها، وذلك في وطا حمزة، وجبل الزان حسب الكفيف الزرهوني أو في بني حسن من أحواز بجاية كما يقول ابن خلدون. وافاه وفود بسكرة وبلاد الزاب (مزاب) والدواودة وبدو ضاحية بجاية وقسنطينة. (راجع العبر7 : 558ـ 559).

3ـ يشير الشاعر إلى امتناع بجاية في أول الأمر ثم إذغانها في الأخير وكلامه مطابق لما في العبر والمسند والملعبة، راجع ماسبق في شرح الملعبة ص : 74.

5ـ في بعض الطبعات : ترى الشهب منها تستباح وتنهب.

6ـ الشاغب : المهيج،المؤلب : المحرض.





وماتونس إلا كمِصرٍ مروَّع
وفي حرم أمْسَتْ لديك تسرَّبُ[1]

وماأهلُها إلا بغاثٌ لِصائدٍ
وبالعزِّ منكَ استنسروا وتعقَّبوا[2]

وقد كنتَ قبلَ اليوم كهْفَ زعيمهم
فها أنت كهْفٌ للْجميع ومهْرَب[3]

فكلٌّ يرى أن الزَّمان أداله
بِكُمْ فأجابَ العيش والعيْشُ مُخصب

وكلٌّ لك ابنٌ طائعٌ وإنِ اعتلتْ
به السِّنُّ إجلالاً وأنتَ لهُ أب

وماذاكَ إلاَّ أنَّ عدْلكَ ينْتمي
إلى الخلُفاءِ الرَّاشدينَ ويُنْسبُ

تساميْتَ في ملْكٍ ونسْكٍ بِخُطَّةٍ
حذيَّاك[4] محرابٌ لديْها ومركَب

1ـ تسرب : تتسرب أي تدخل، ولعله يقصد أن مدينة تونس كانت تعيش في خوف وفزع فلما دخلت في حرم أبي الحسن أمست آمنة.
2ـ فيه تلميح إلى المثل : إن البغاث بأرضنا يستنسر : ومعنى استنسروا صاروا كالنسور، وتعقبوا صاروا كالعقبان.
3ـ يقصد بزعيمهم السلطان أبا يحيى الحفصي.
4ـ حذياك : بازائك.





إذا لذَّ للأملاكِ خَمْرِ مدامَةٍ
فلذتك القرآن يُتْلَى ويُكْتَبُ[1]
وإن أدْمنَ القومُ الصَّبوحَ فإنَّما
علَى رَكَعات بالضُّحى أنْتَ تَدْأَبُ
وإنْ حمدوا شرب الغَبُوقِ فَإنَّما
شرابك بالأمساء ذكرٌ مرتَّب
وإن خشُنَتْ أخلاقُهم وتحَجَّبوا
فما أنت فَظٌّ لا ولا مُتَحَجِّبُ
لقد كَرُمَتْ منك السَّجايَا فَأَصْبحت
إذا ما أمرَّ الدَّهرُ تحلو وتعذب[2]
كمَا شِدت بيتاً في ذؤابَةِ مَعْشَرٍ
يزيدُ بهم قَحطَانَ فخراً ويَعْرُبُ[3]
هُمُ التَّاركُو قلْبَ القساور خُضَّعاً
وعن شأوهم كفَّتْ عُبيْدٌ وأَغْلُبُ[3م]

1ـ يشيرفي هذا البيت ومابعده إلى ماأجمع عليه المؤرخون من متانة ديانة أبي الحسن، وتلاوته للقرآن، وكتابته للمصاحف، وقيامه بالعبادة والذكر، وتجافيه عن الخمر وغيرها من الموبقات.

2ـ أمر الدهر : صارمراً.

3ـ من المعروف أن بعض المؤرخين يقولون بعروبة بني مرين وزناتة على العموم، ومنهم من وضع لهم نسبا شريفا. راجع المسند لابن مرزوق.

3مـ القساور : الأسود، وعبيد وأغلب يقصد بهما العُبَيْديين والأغالبة، ملوك تونس قديما وهو يقول إن هؤلاء لا يلحقون بني مرين في علو الشأن.





هُمُ النّاس والأملاكُ تحْتَ جوارهِمْ

هُمُ العَظْمُ والأرض العظيمةُ مَغْربُ[1]

هم المالكو الملْكَ العظيم فبيتُهُمْ

علَى كاهِل السبعِ الشِّدادِ مُطَنَّبُ[2]

لقد أصبحتْ بغدادُ تَحْسد فاسهم

ودِجْلَةُ ودَّت أن يكون بها سَبُ[3]

تجلَّت ببيتِ المَجد منهمْ كواكِبٌ

لَقَدْ حَلَّ منْها شارقٌ ومغرِّب

فللَّه منهم ثلةٌ يَعْربيةٌ

يَروم ثَنَاها الأعْجَميُّ فيَعرب[4]

لقد قام عبد الحق للحق طالبا

فمَا فاتَهُ منْهُ الذي قامَ يطلُب[5]

وأعْقَبَ يَعْقوبا يؤُمُّ سبيلَه

فلم يُخْطِهِ وهْوَ السّبيل المُحَّب[6]

---

1. العظم : لعله من قبيل قولهم «أهل البيوتات» و«أهل الأصول» و«العظم الكبير» في معرض التمدح والتفاخر. راجع شرح الملعبة ص : 82.

2. قارن هذا مثلا بقول الفرزدق :

أن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

3. تحسد فاسهم أي مدينتهم وعاصمتهم فاس، وسب هو وادي سبو القريب من فاس، وقد ورد محرفا في بعض الطبعات.

4. ثناها أي مدحها والثناء عليها.

5. عبد الحق هو عبد الحق بن محيو أول الملوك المرينيين.

6. يعقوب هو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ثاني بني مرين. والسبيل الملحب واللاحب هو الطريق الواضح.





وخلَّفَ عُثمانا فَللّه صارمٌ

به بان لِلاسلام شرْعٌ ومَذْهبُ[1]

فَكَمْ في سبيل الله شَنَّ إغارةً

لِمَا شادَ أهْلُ الكفْر أمستْ تُخرِّبُ[2]

ولَمَّا أرادَ اللهُ إتمام مِنةً

تقلَّدهَا منَّا مطيعٌ ومُذنبُ

أتى بكَ للّدين الحنيفيّ آيةً

تَعَرَّى بهَا عن لامع الحقِّ غَيْهبُ[3]

فجئتَ كما يرْضَى بك اللّهُ سالكاً

سبيلاً إلى رضْوانه بكَ يذْهبُ

وقمت بأمْرِ الله حَق قيامِهِ

يُناضِل عنه منْكَ نصلٌ مذرَّبُ[4]

وأصبْحَ أهلُ الله أهلاً وشيعَةً

لكمْ ولهمْ منكمْ مكانٌ ومنصِبُ

وحلَّ بأهل الفتْك ماحلَّ عزمَهم

وقامَ لديهم واعظٌ مترقِّبُ[5]

---

1. عثمان هو أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق والد السلطان أبي الحسن.
2. يشير إلى جهاد أبي سعيد في الأندلس.
3. الغيهب : الظلمة
4. نصل مذرب أي مسموم
5. أهل الفتك هم المجان.





وجاهدتَ في الرَّحمن حقّ جهادِهِ

فراهِبِ أهلِ الكفْرِ بأسَكَ يَرْهَبُ

وأنقذْتَ منْ أيدي الإغارة أمَّةً

وأوْلى جهادٍ كان بل هُوَ أوجَبُ[1]

فأَصْبحَتِ الدُّنْيَا عَروساً يزفُّها

لأمْرِكَ من جاري الْمقاديرِ مَغْرِبُ

فَلاَ مصرْ إلا قَد تَمَنَاك أهلُهُ

ولا أرضَ إلا باذِّكاركَ تَخْطُبُ

وما الأرضُ إلا مَنْزِلٌ أنت ربُّه

وماحلَّها إلا الْوَدود المرجَّبُ[2]

تملَّكْتَ شَطْرَ الأرض كسبًا وشَطْرَها

تراثًا فطاب الملك: إرْثٌ ومَكْسَبُ[3]

بجيش على الألْواحِ والماءِ يَمْتطي

وجَيْش على الضُّمْر الصَّوافن يرْكَبُ[4]

1ـ يعني أن السلطان أبا الحسن أنقذ أهل تونس من إغارات البدو، والشاعر يعتبر هذا جهادا بل يقول أنه أولى من الجهاد.

2ـ المرجب : المعظم.

3ـ الشطر الموروث معروف والشطر المكتسب هو مملكة بني حفص التي آلت إليه.

4ـ يقول أن السلطان أبا الحسن غزا إفريقية بجيش بحري وجيش بري وجيش ثالث من العلماء وهو و أهمها ثم يطنب في مدح هؤلاء الكتاب والعلماء والفقهاء الذين يرجحون أصبغ في الحفظ ويفوقون أشهب في الفهم.





وجيش من الإحسان والعدل والتُّقى
وذاك لعمرُ الله أغلى وأغْلَبُ
فلا مركبٌ إلا يزينُ مَرْكَبا
ولا راكبٌ إلا به ازدان مَرْكُبُ
ولا رمحَ إلا وهْو أهيَفُ خاطرٌ
ولا سيفَ إلا وهْو أبيَض مقْضِب
فكَمْ كاتبٍ خَطِّيُّه ودواتُه
ولم يقْرَ خطّاً لا ولا هُوَ يَكْتُبُ
يمرُّ على الأبطال وهْوَكَأنَّهُ
هزَبْرٌ وأبطالُ الفوارس رَبْرَبُ
وكم كاتبٍ لاينكر الطَّعنَ رمْحُهُ
خبيرٌ بأيام الأعاربِ مُعْربُ
لهُ منْ عَجيب السِّحر بالقول أضْوُبٌ
وفي هامةِ القول المضارب مضْرِبُ
فها هوَ في الأقوال واشٍ محبِّرٌ
وهاهو في الأمَثال ثاوٍ مجرِّبُ
ومن ساحبٍ بُرْداً من العلم والتُّقى
عليه ذيولُ الدَّاوديةِ تسحبُ[1]

1ـ الداودية : السيوف، نسبة إلى نبي الله داود.





له صبغةٌ في العلْم باءت بأصْبغٍ

وشُهْبانُ فَهْمٍ لم يَشِمهن أَشْهَبُ[1]

فَيا عسكراً قد ضمَّ أعلام عالَمٍ

به طاب في الدُّنْيا لَنا متَقلَّبُ

هُمُ الفئَةُ العلياءُ والمَعْشرُ الّذي

إذَا حلَّ شِعْبا فهْو للحقِّ مِشْعَبَ

لكَ الفضْلُ في الدُّنيا علَى كلِّ قاطنٍ

ومرتحلٍ أنّى يَجيء ويَذْهبُ

ويامِلكا عدلاً رضًى متورِّعا

مناقبه العلياء تُمْلَى وتُكْتَبُ

شَرَعْتَ من الإحسان فينا شريعةً

تساوَى بها ناءٍ ومَنْ يَتقرَّبُ

وأسْمَيت أهلَ النُّسكِ[2] إذْ كنتَ منهُمُ

فمنكَ أخو التقوى قريبٌ مقَرَّبُ

وأعليْتَ قدْرَ العِلمِ[3] إذ كنت عالما

ففيه وفي طلابهِ لك مأْربُ

1ـ أصبغ وأشهب فقيهان مالكيان معروفان.

2ـ أي أعليت قدر الصلاح (راجع في هذا كتاب المسند لابن مرزوق).

3ـ يدل على ذلك عدد العلماء الذين اصطحبهم في حركته إلى تونس.





فمدحك محتومٌ على كلِّ قائلٍ
ومَنْ ذا الذي يُحْصي الرِّمالَ ويحْسُبُ

فللّهِ كمْ تُعْطي وتُمْطي[1] وتحْتَبي
فللبحْرِ من كفَّيْكَ قد صحَّ مَنْسَبُ

فلا برحتْ كفّاكَ في الأرض مزنةً
يطيبُ بها للخلْق مَرْعىً ومَشْرَبُ

ولازلْتَ في علياءِ مجدكِ راقيا
وشانِئُكَ المدحوضُ يُنْكى ويُنْكبُ

وتوفي على أقصى أمانيك آمنًا
فلا بَرَ[2] يستعصي ولا يَتَصَعَّبُ

1. تمطى = تعطي المطايا
2. أي فلا بلد.





2. ويبدو أن هذه القصيدة لم تصل إلى السلطان فتوسل الشاعر بأحد كتّاب أبي الحسن وهو ابن رضوان. قال ابن خلدون في التعريف (23 تحقيق الأستاذ المرحوم ابن تاويت الطنجي)، وقد مدحه صاحبنا أبو القاسم الرَّحوي شاعر تونس في قصيدة على روي النون يرغب منه تذكرة شيخه أبي محمد عبدالمهيمن في إيصال مدحه إلى السلطان في قصيدته على روى الباء وقد تقدم ذكرها في أخبار السلطان، وذكر في مدح ابن رضوان أعلام العلماء القادمين مع السلطان وهي :

عرفْتُ زماني حين أنكَرتُ عرفاني
وأيقنتُ أنْ لاحظَّ في كف كيوانِ[1]

وأنْ لا اختيارٌ في اختيار مُقَوَّمِ
وأن لاقِراعٌ بالقِران لأقْراني[2]

وأنَّ نظامَ الشَّكل[3] أكملَ نظمِهِ
لأضعفُ قاض في الدَّليل برُجْحانِ

وأنَّ افتقارَ المرءِ في فَقَراتِهِ
ومنْ ثِقْلِهِ يعْني اللَّبيبُ بأوْزانِ

فمنْ بعْدِ ماشِمْتُ الخِلابَ[4] ولم أُرَعْ
لهشةِ راضٍ أو لِشرةِ غضْبانِ

---

1. كيوان : اسم لزحل، وهو أحد الكواكب السيارة.
2. مقوم الكوكب موضعه (طوله) من فلك البروج (الدائرة الكسوفية)، والقرآن اجتماع كوكبين سيارين في نقطة واحدة من تلك البروج، ويشير الرحوي إلى مايزعمه المنجمون من أن الكوكب إذا كان في موضع معين في فلك البروج، أو اقترن بكوكب آخر في نقطة معينة، كان له أثر حسن، أو سيء في أعمال الانسان (نقلا عن حاشية ابن تاويت في التعريف).
3. نظام الشكل شكل الفلك، يريد وضعه في وقت معين، وما يعرف عندهم بالنصبة الفلكية، ونظام الشكل كناية عن حسن دلالته، يقول مهما انتظم الشكل فإنه أضعف قاض في دلالة القرآن على رجحان عمل على آخر (نقلا عن حاشية ابن تاويت في التعريف).
4. شمت الخلاب : نظرت إلى البرق الخلب وهو لاغيث معه.





وَلَمْ يُعشِنِي للنار لَمْعُ شعاعهَا
فما كلُّ نار نارُموسى بن عمران

ولم يبْقَ لي في الغَيْبِ من أمل سوى
لِقاء ابن رضوانٍ وجَنَّة رضْوان

هنالك ألْفيتُ العُلاَ تَنتمي إلى
أناس ضئيلٌ عندهم فخرُ غسّان

وأُرعيتُ من روْض التأدّب يانعاً
وحُيِّيتُ من كنْز العُلوم بعِقْيان

وَرُدْتُ فلم تُجدِبْ لديه رِيادتي
وَصدَّق طَرْفي ما تلقّتْه آذاني

فَحَسْبُكَ من آدابه كلُّ زاخرٍ
يُحَيِّيك معسولا بدرٍّ ومَرْجَان

يُحيِّيكَ بالسّلك الذي لم تُحطْ به
طروسُ ابن سهل أوسوالفُ بوران[1]

فقل بَابِلِيٌّ إن يُنافثْك لفظةً
وفي وشْيه الأطراس قُلْ هُو صَنْعاني

خلائقُ لم تخلَقْ سدًى بل تكمّلت
بإسداء إنعام وإيلاء إحْسان

1ـ السالفة : جانب العنق، وجعلوا كل جزء من العنق سالفة، فقالوا أنها لوضاحة السوالف، وبوران : هي بنت الحسن بن سهل، تزوجها الخليفة المأمون، وأنفق في زفافها من الأموال ما أصبح مضرب المثل. وفيات الأعيان (1 : 116) وابن سهل هو الحسن بن سهل السرخي والدبوران، ووزير المأمون له في البلاغة مكانة (وفيات الأعيان131).





ثم يقول في ذكر العلماء القادمين :

هم القَوْمُ كُلُّ القوم أمَّا حلومُهم
فأرسخُ من طَوْدَيْ ثَبيرٍ[2] وثهلان[3]

فلا طَيْش يَعْرُوهُمْ وأمَّا علومُهم
فأعلامُها تَهْديك من غير نيران

بفقهٍ يشيم الأصبحي[5] صباحَهُ
وأشهَبُ[6] منه يَستدلُّ بشُهْبان

وحسْن جدالٍ للخصوم ومنطقٍ
يجيئان في الأخفى بأوضح بُرهان

سقت روضةَ الآداب منهمْ سحائبٌ
سَحَبن على سَحبان[7] أذيال نِسيان

فلم يُبْقِ نأي ابن الإمام[8] شَماخةً
على مدن الدنيا لأنف تِلِمْسان

وبعد نوى السَّطِّي[9] لم تَسْطُ فاسه
بفخرٍ على بَغْدان في عَصْر بَغْدان

وبالآبلي[10] استسْقتِ الأرض وبلَها
ومستوبَلٌ ما مالَ عنه لأظْغان

وهامَتْ على عبد المهيْمن[11] تونسٌ
وقد ظفرت منه بوصْلٍ

وماعلِقتْ منّي الضمائرُ غيْرَهُ
وإن هَويت كلاًّ بحبٍّ ابن رضوان

2ـ ثبير : جبل بظاهر مكة. (تاج العروس)

3ـ ثهلان : جبل في بلاد بني نمير (تاج العروس)

4ـ يريد بالأصبحي مالك بن أنس الإمام المعروف، لانتهاء نسبه إلى ذي أصبح (ديباج س 11 ـ 30).

5ـ هو أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داود الفقيه المالكي المصري (150 .204). وفيات الأعيان 1 : 97. والشهبان : الشهب والنجوم.

6ـ هو سحبان بن زفر بن إياس الوئلي، يضرب به المثل في البيان، أدرك الإسلام ومات سنة 54هـ. ترجمته في شرح ابن نباتة على رسالة ابن زيدون ص : 75.

7ـ هو أبو موسى عيسى ابن الإمام وقد تقدم التعريف به أنظر التعريف لابن خلدون 28 ـ 31.

8ـ هو محمد بن علي منسوب إلى قبيلة سطة كان من العلماء الحفاظ. أنظر التعريف 31 ـ 32.

9ـ هو محمد بن إبراهيم أصله من أبله ونشأ بتلمسان، أنظر التعريف 33 ـ 38.

10ـ هو عبد المهيمن الحضرمي كاتب السلطان أبي الحسن. أنظر التعريف 38 ـ 41.

11ـ هو أبو القاسم عبد الله بن يوسف ابن رضوان. أنظر التعريف 41 ـ 44.





3. ثم كرر الطلب وكتب إلى عبد المهيمن الحضرمي يذكره به في هذه القصيدة :

لَهِيَ النفسَ في اكتسابٍ وسَعْيِ
وهُوَ العمرْ في انتهاب وفَيِّ

وأرَى النّاسَ بينَ ساعٍ لرُشدٍ
يتوخَّى الهُدَى وسَاعٍ لَغيِّ

وأرَى العلْمَ للبريةَّ زَيْنـاً
فتَـزيـّا منْـهُ بأَحسـن زيِ

وأرى الفضلَ قد تجمَّع كُلاًّ
في ابْن عَبْد المُهَيمنِ الحَضْرَمِيِّ

حلَّ بالرُتّْبة العلِيَّةِ في حضْـ
ـرةِ ملْكٍ سامى الْعِمَادِ علَـيٍّ[1]

قَلَـمٌ أوسعَ الآقاليمَ أمْـراَ
فلَـهُ قَـدْ أطـاعَ كـلُّ عَصِـيِ

قَدَرٌ مايفيـد منه احتـدار
فبـأَيٍّ تـراهُ يَقْضِـي بـأيِّ

يمنحُ العـزَّ ذَا العـُلا ويُوالي

---

1. فيه تورية باسم السلطان أبي الحسن.





بالعَطايا الجِسامِ كلَّ ولِيٍّ

يَلجأُ الدَّارعونَ خوفاً إليه

فَهْو يُزْري بالصَّارمِ المَشْرَفيِّ

هُوَ أعلى الأقلامِ في كُلِّ عصرٍ

حيث يُنْمَى إلى الإمامِ عليٍّ

حَلِيَتْ تِلْكُمُ الرياسةُ مِنْهُ

بفريدٍ في كُلِّ معْنًى سَنِيٍّ

سَالكٌ في النِّظام دُرّاً وطَوْراً

ناثرٌ دُرَّه بنشرٍ وطَيِّ

بِدَعٌ للْبَديع[1] تَرْمي بحصرٍ

ولصَابي[2] بني بُوَيْهِ بِعيِّ

ويَرى أخرس العراق لديه

أنه بالشّآم كالأعْجَميِّ

وعلومٌ هي البحورُ ولكنْ

يَنثَني الْواردونَ مِنْها بريِّ

تصْدُرُ الأُمَّةُ العظيمةُ عنه

1ـ يريد أبا الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني، بديع الزمان. المتوفى سنة 398 وفيات الأعيان (1 : 47).

2ـ أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي الكاتب البليغ (374 ـ 384). وفيات 1 : 14.





بحـديـث مـجـود مـروي

وبفقـهٍ فيـه وَحسْنِ مقـالِ
يضَعُ النُّورُ في لِحَاظ العَمِيِّ

وبنَحْوٍ يُنْحي على سيبويهِ
ببَيـانٍ في المبْهَماتِ جَلِيِّ

عَميَ الْأَخْفشان عَنه وسدَّت
عنْ خفَاياه فِطْنَة الفارسيِّ[1]

ياأخا الحكم في الأنام وإني
لَأُنَادي رب النَّدى والنَّدِيِّ

بِنْتُ فِكري تعرَّضت لِحماكم
فَالْقَـها راضيـاً بوجْهٍ رَضِيِّ

تَبْتغي القُرْبَ منْ مَراقي الأماني
والتَّرَقِّي للْجانِب العَلَـوِيِّ

فأنِلْها مَرامَها نلتَ سَهلاً
كلَّ دانٍ تَبغي وكلَّ قَصِيِّ

1ـ الفارسي : هو أبو علي النحوي المشهور مؤلف كتاب الإيضاح وغيره. والأخفشان : هما الأخفش الكبير والأخفش الصغير.





4. ثم كان ماكان من واقعة القيروان فلم يدرك الشاعر مبتغاه وعاش في محنة انتهت بموته أيام الطاعون الجارف في الغالب، وهو يشرح ذلك في قصيدة أوردها ابن خلدون في المقدمة ومهد لها بقوله : «ومما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عندما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر إرجاف الفريقين : الأولياء والأعداء فقال في ذلك أبو القاسم الرحوي من شعراء أهل تونس :

أسْتَغْفِرِ اللهَ كلَّ حين
قَد ذهَبَ العَيْشُ والْهَنَاء

أُصْبِح في تُونِس وأُمْسي
والصُّبْح لِلَّه .والْمَسَاءُ

الْخَوفُ والجُوعُ والْمَنَايا
يحْدثها الْهَرْجُ والْوبَاء[1]

والنَّاسُ في مِريَةٍ وحَرْبٍ
ومـا عَسَى يَنْفَع الْمِراء

فَأَحْمَديٌّ يَرَى عَلِيًّا
حَل بِهِ الْهُلْك والتَّوَاءُ[2]

وآخرٌ قَالَ سَوف يأتِي
بِهِ إلَيْكم صَبًا رُخَاءُ

1. يشير إلى الطاعون الأسود الذي كان يحصد الناس يومئذ والمجاعة التي عمت الناس وانعدام الأمن، وكل ذلك بسبب الفتنة والحرب اللذين أثارهما البدو.

2. أحمدي نسبة إلى أحمد بن أبي دبوس الذي نادى به الأعراب ملكا عليهم، وعلى هو أبو الحسن المريني، والتواء الهلاك، والمعنى أن الناس كانوا في تونس خلال حصار القيروان وقصبة تونس على قسمين قسم يتشيع للمرينيين وقسم يتشيع للموحدين.





والله مِن فَوق ذا وهذا
يَقْضِي لعَبْدَيهِ ما يشَاءُ

ياراصِدَ الْخنَّسِ الْجَواري
مافعلت هذه السماء[1]

مَطَلْتمونا وقد زعَمْتمْ
أنكُمُ الْيَومَ أمْلِيَاءُ[1م]

مَرَّ خَميسٌ علَى خَميس
وجَاء سَبْتٌ وأربِعاءُ

ونِصْفُ شَهرٍ وعُشْرُ ثانٍ
وثالِثٌ ضَمَّه الْقَضَاءُ

ولانَرى غَيْرَ زور قَول
أذاك جَهْلٌ أم ازْدِراءُ

إنَّا إلى اللَّه قد علِمْنَا
أن لَيْسَ يُسْتَدْفَعُ الْقَضاءُ

رَضيتُ باللَّه لِي إلَهاً
حَسْبكم الْبَدر أو ذُكَاءُ

ماهَذه الأنْجمُ السّواري
إلا عَباديدُ أو إمَاءُ

1ـ يسفه في هذا البيت ومابعده تخرصات المنجمين التي كانت تروج في أوقات الفتن والاضطرابات.
1م أملياء أي أغنياء، ومطل الغني ظلم كما في الحديث.





يُقْضَى عَلَيْهَا وَلَيْسَ تَقْضِي
ومالَها في الورَى اقْتِضاءُ

ضلَّت عقولٌ ترى قَديما
ماشأنه الْجِرم والفَناءُ[1]

وحكَّمَت في الوجودِ طَبْعاً
يُحْدِثه الْمَاء والْهَواءُ

لَم نَر حُلواً إزاءَ مُرٍّ
تَغْذوهُمُ تُرْبَةٌ ومَاءُ

اللّهُ ربِّي ولَسْتُ أَدْري
ما الْجَوهرُ الْفَردُ والْخَلاءُ

ولا الْهَيولَى التي تُنادى
مالِيَ عَن صورةٍ عَراءُ

ولاوجودٌ ولاانْعِدامٌ
ولاثبوتٌ ولاانْتِفَاءُ

ولسْت أَدري ما الْكَسْب إلا
ماجلَبَ الْبَيْع والشِّراءُ[2]

---

1. ينتقد في هذا البيت وما بعده الفلاسفة الذي يقولون بقدم العالم.
2. أهل الكسب هم الأشعرية، والشاعر ينتقدهم، وينتقد من دعاه منهم بأشعري الزمان، ويقول بأنه لا يتبع في العقيدة إلا ما كان عليه الصدر الأول وأهل السنة وكأني به يعني بهم المرينين، ويعني بالأشاعرة الموحدين، ويؤيد هذا ماجاء في الملعبة (ص : 129) وكذلك ما ورد في رسالة تهنئة لابن الخطيب قال : «وتعرفنا أن ذلك القطر سكن راجف زلزاله، ووضع الأوزار وطيس نزاله، ودخلت في مذهب السنة والجماعة طوائف اعتزاله» ريحانة الكتاب : 257.





وإنَّمـا مَذهَبِـي ودينِـي
ما كَـان والنَّـاس أوْلِيـاءُ

إذْ لافُصُـولٌ ولا أصُولٌ
ولاجـدالٌ ولاارتِيـاء

ماتَبِعَ الصَّـدْر واقْتَفَينـا
ياحَبَّذا كـانَ الاقْتِفـاءُ

كانوا كَمـا يعْلَمون منْهم
ولَـم يَكـنْ ذلِك الْهـذاءُ

يا أشعَريَّ الزمـان إنـي
أشعرني الصيف والشتاء

أنِّـيَ أجْزي بالشرِّ شَراً
والْخير عَن مِثْلِهِ جَزَاءُ

وأنَّنـي إنْ أكُـنْ مُطيعـا
فَلَسْتُ أعْصِي ولَي رجَـاءُ

وأنّني تحت حكْـم بـار
أطاعَـه الْعَـرْشُ والـثَّراءُ

لَيْسَ انْتِصارٌ لَكم ولكن
أتاحَـه الْحكْـمُ والْقَضـاءُ

لَوحدَّثَ الأشْعري عُمَّـن
لَـه إلَـى رأيـهِ انْتِمَـاء

لقَال أخبَرْهـمُ بأنّـي
ممَّـا يقولـونه بـراء





5. ومن هؤلاء الشعراء أيضا شاعرتونسي آخرهو آبوعبد الله محمد بن علي بن عمر العبدري، كان أبوه حاجبا عندالحفصيين وامتحن، فاضطر ولده إلى الرحيل إلى المشرق، ثم رجع إلى تونس في عهد أبي الحسن، وسجل لنا في قصيدة احتفال السلطان بالمولد في تونس عام 749هـ.

وقد ترجم له ابن الخطيب في الاحاطة (2 ـ 579) ومهد لقصيدته المذكورة بقوله «ومن جيد شعره الذي أجهد فيه قريحته قوله يمدح السلطان المعظم أبا الحسن في ميلاد عام تسعة[1] وأربعين وسبعمائة».

تُقِرُّ ملوك الأرض أنَّكَ مولاَهَا

وأن الدنَّا وقْفٌ عليكَ قَضاياها

ومنها :

طَلَعتَ بأفْقِ الأرض شَمسا منيرةً

أنار على كل البلاد مُحيَّاها

حَكَيْتَ لنا الفَاروقَ حتَّى كأنَّنا

(نَراه)[2] بعينٍ لا تكذِّبُ رُؤْياها

وسرت على آثارهِ خَيْرَ سيرةٍ

قَطَعْنا بأنَّ اللَّهَ ربَّك يَرْضاها

1ـ في الإحاطة المطبوعة سبعة، وهو تصحيف لأن أبا الحسن المريني لم يدخل إلى تونس إلا في عام 748هـ. ولا يوجد التاريخ في ترجمته في الدرر الكامنة 4 : 79 وسبعة تصحف إلى تسعة وكذلك العكس.
2ـ الكلمة ساقطة في الاحاطة المطبوعة، ولا يستقيم الوزن والمعنى إلا بها.





ومنها بعد كثير :

ومنْكمْ ذوو التيجان والهِمَمِ الّتي
أنَاف على أعْلَى السِّماكَيْن أدنَاها

إذا غَابَ منهم مالِكٌ قامَ مالِكٌ
يجدّدُ للبيتِ المقدّس عَلْيَاها

بنَاها على التَّقْوى وأسَّسَ بيتَهَا
أبو يوسف[1] الزاكي وشَيَّدَ مبْناها

وأورثَهـا عثْمانَ[2] خَيْرَ خليفـةٍ
وأحلَمَ مَن ساسَ الأنامَ وأنْدَاها

وقام عليٌّ[3] بعْدَه خَيْرُ مالـكٍ
وخَيرُ إمام في الْوَرَى راقَبَ اللّه

عليُّ بْنُ عثمانَ بْنِ يعْقوب ذو العلا
مُذيقُ الأعادي حيثما سارَ بلْوَاهَا

---

1. هو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق حد أبي الحسن.
2. هو السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق والد أبي الحسن.
3. هو السلطان أبو الحسن الذي سيكرر نسبه في البيت بعده.





6. ومنهم شاعر مغربي كان في الحاشية الكبيرة التي رافقت السلطان أبا الحسن إلى تونس وهو ابن الأشقر التّازي الذي انفرد اسماعيل ابن الأحمر بالتعريف به، وذكر أنه «كتب للملوك من بني مرين» وكان مرشحا لكتابة العلامة ولكنه لم يدركها «لعدم الجد، مع الأب والجد» وقد أورد له مقتطفات من قصيدة قالها في السلطان أبي الحسن بعد استقراره في تونس، وهي تنوه بجوده وجهاده و عدله وإصلاحه وتشير إلى قيام العرب عليه :

نَوالكَ مزنٌ لِلْغَمائِم بَاعِث
ووجْهك خِذنٌ للمنيريْن ثالثُ

وبابكَ كَهفٌ لِلأنام، وملْجأٌ
إذَا ناب خَطْبٌ أوتفاقَمَ حادثُ

مَلأتَ بِلاد الشَّرق عَدلا وطَهَّرت
عُلاك بها مادَنَّسَتْه الخبائِثُ[1]

وجئْتَ بمالم تألَفِ العرب فانتَزتْ
وأبْدى القِلَى مِنها خَؤون وناكِثُ[2]

فَقمْتَ بأمرالله مجْتَهداً، ولَمْ
تَصدَّكَ من أهل النُّجوم الأحادثُ

فكان الذي قالوه افكا وقد مَضَى
وسَعْيك مشكورٌ وسَعْدك لابِثُ[3]

1ـ بلاد الشرق هنا هي بلاد التونسية، وقد سار فيها أبو الحسن سيرة عادلة وطهر ما وجد فيها من خبائث كما تحدث عن ذلك بتفصيل العمى الزرهوني ـ الزرهوني في الملعبة.
2ـ في الملعبة إشارات إلى سياسة أبي الحسن تجاه الأعراب كما تقدم.
3ـ هذا يشير إلى أقوال المنجمين وأصحاب الأجفار التي لم تصرف أباالحسن عن حركته، وقد مر الكلام على ذلك في الملعبة.





فَهَنَّئَتِ الدنيا حلولَكَ تونسا
وأنكَ منْها للبسيطةِ وارثُ

وقد عادَ ماعودِّتَ من نصركَ الذي
تُعاد على العادينَ منه الكوارثُ

توافيكَ أقْيالُ الأقاليم خُضَّعاً
فكلُّهُمُ عَبْدٌ ببابك ماكِثُ

* * *

يَمينا بوَخْدِ الراقِصات إلى منىً
ومَن طافَ أسْباعاً وما أنا حانِث

لقَدْ آنَ أنْ يأتِيك كلُّ مُعاندٍ
علَى الدُّهْمِ يُمْطِيهم علَيْهن باعثُ

إذا افتخرتْ تيجانُ أذواءِ حِميرْ
سَما بكَ فَخرٌ للغمائِم لائثُ

علَوت «عليا» في المآثِر كلَّ مَن
نماهُ من الأملاك سامٌ ويافثٌ

وقمْت على السَّبْع المثاني تَهَجُّداً
إذا ما المثاني أطْرَبَت والْمَثالِثُ

(نثير فرائد الجمان : 346 ـ 347
تحقيق : محمد رضوان الداية)





6

إعجاب ابن الخطيب السلماني بأبي الحسن المريني







- كان وزير غرناطة لسان الدين ابن الخطيب يظهرحبا كبيرا في حق أميرالمسلمين أبي الحس المريني، وكان يصرح في نثره وشعره بأنه أكبر ملوك الأرض في وقته، وأنه المرجو لنصرة المسلمين في الأندلس، ولهذا نجده في كتاباته يتفجع غاية التفجع على ماأصابه من التمحيص بالقيروان ويتألم أشد الألم لما نتج عن ذلك من شق لعصا الطاعة، وصدع في وحدة الأمة، وخرق لحجاب الدولة، وخدش في هيبة الاسلام، ويبدو هذافي آثاره التاريخية ورسائله الديوانية والإخوانية وأشعاره الرثائية وأبياته المخصصة لأبي الحسن من منظومته التاريخية التي استشهد بها مؤلف الاستقصا، ويعلن ابن الخطيب، وهو يشرحها، تعلقه بأبي الحسن فيقول بعد تقرير وفاته «شهيدا سعيدا مظلوما صابرا محتسبا»، مانصه :

«وكان من مواهب الله قِبَلي المخلّفة ذخرا للولد، وعُدّة لليوم والغد، ماخصني به من مزية حب هذا المولى الصالح، والتشيع إلى جنابه العلوي وقربه، وإحراز الوسيلة به، وانفرادي مابين أبناء جنسي بالعدوتين بخدمته، من بعد موته، فحضرت موارته على بعد الدار، وشحط المزار، في غرض الرسالة عن السلطان الذي عصب بي خطة الوزارة والكتابة بالأندلس المولى أبي الحجاج بن نصر رحمة الله عليه، فأخذت بالحظ الرغيب من بركة مشهده، وتلاوة الكتاب العزيز على ملحده، وتأدية حقه في الدعاء إلى الله باعلاء درجته، وإكرام نزله في دار كرامته، والتردد على زكي تربته، ولما ضرب الدهر ضربانه واستقرت جملتنا بالمغرب عند الانزعاج عن الأندلس والحادثة بها على الدولة انتدبت إلى القيام بما أغفل الدهر من حقه، وشغل عنه من مكافأة نعمته، لنكير من





استولى بعده على أمره[1]، فصرفت وجهتي إليه واخترت حماه دارا، ومثواه للأهل والولد قرارا، وقصرت غرض وجهتي على خدمته، وحططت الرحل في كريم جواره، وانشدت بقبره يوم الوفادة عليه، وقد حشرت الأعلام وأنصت الجمع إلى قولي في رثائه والثناء عليه مما سار به المثل وتحدث به الركبان[2]»

فما هو سر هذاالحب والإعجاب والتعاطف والتقديس؟

وهل كان حب ابن الخطيب لأبي الحسن خاليا مما يتوسل به إلى أغراضه؟

هل كان إعجابه به من قبيل الإعجاب بالبطولة الخارقة والبسالة الفائقة؟

وهل كان تعاطفه معه بسبب ما أصابه من تمحيص وناله من نكبة؟

وهل كان تقديسه إياه لما شاع وذاع من صلاحه وتقواه؟

ذلك ما يظهرمن لهجته في جميع كتاباته وأشعاره، ولقد ذهب إلى تشبيه السلطان فيما حل به بسيدنا الحسين السبط فقال في شرح رقم الحلل أن «قلوب الناس معه وسيوفهم عليه» وقال من قصيدة :

1ـ يعني أبا عنان.
2ـ رقم الحلل : 97 ط. تونس.





عاقَ الأعَادي عَنْ رثائِكَ بُرْهَةً فَغدَا الغَبي وَشَأْنُه إسْرَارُهُ
واليَوْمَ حلَّ عِقَالُ كُلِّ مُدَرَّبٍ مَاضي الشَّبا يفْري الردي غرَارُهُ
وَكَذا الحُسَيْنُ مضَى ولَم يُنْدَبْ إلَى زَمَنٍ توَالَتْ بَعْدَهُ أعْصَارُهُ

إن نظرة الحب والإعجاب والتعاطف والتقديس هذه هي التي وجدناها فيما سبق في ملعبة الكفيف الزرهوني، وهذا ماجعلنا نقتبس مقتطفات مما صدر عن ابن الخطيب خلال محنة السلطان وبعد وفاته في مناسبات مختلفة وهي مقتطفات توضح بعض ما ورد مبهما في الملعبة.







1. فمما جاء في رسالة ديوانية كتبها عن أبي الحجاج يوسف الأول «لما وصلت الأخبار بنجاة ملك المغرب السلطان المعظم أبي الحسن من هول البحر لما هلك فيه الجماعة من أعلام ناسه بأحواز الجزائر» :

«وإلى هذا فقد علم الله الذي يعلم ما في الضمائر، ويطلع على خفيات السرائر، ويسري من خلقه وهم شهداؤه في أرضه مسرى المثل السائر، ماعندنا لمقامكم الكريم من الخلوص الذي لم يلابس قط ريبا، والاعتقاد الكريم مشهدا وغيبا، وإننا بحسب ذلك من لدن أمعن ركابكم العلي السلطاني في تدويخ تلك الأوطان حتى نأت الديار وشطت، وتثاءبت المراحل وتمطت، واختلفت الأخبار فلم نتبين الصحيح من الموضوع، والمتصل من المقطوع، وأخلفت القضايا المطلقة، وأعملت الأفعال المعلقة، وأوحشت الظنون وساءت، وترامت الأفكار حيث شاءت».

ثم تقول الرسالة بعد فقرات :

«إلى أن ترادفت الأخبار واتفق منقولها على اختلاف رواتها، وشافهنا بها من شاهد ذلك التمحيص رأي العين، وتبين الحق من المين، وأن مقامكم قد شملته العصمة، وحلت على الاسلام بوقايته النعمة. ثم وصل كتابكم المشتمل على مطلق الرجاء بعد اعتقاله، ينطق لسان الشكر لله بفصيح مقاله، وتعرفنا أن ذلك القطر سكن راجف زلزاله، ووضع الأوزار وطيس نزاله، ودخلت في مذهب السنة والجماعة طوائف اعتزاله. وأن الأيام قد اعترفت بذنبها، والأرض أشرقت بنور ربها، والقبائل وسعهم الصفح والنائل، والمعاقل خف للطاعة منها المتثاقل، وأنكم صرفتم النظر الجميل إلى مايمهد الأوطان، ويؤيد السلطان، ويؤمن الخائف، ويؤلف على





مرضاة الله الطوائف. وإن محل أخينا الظاهر الطاهر، أباعلي الناصر[1] أسعده الله، قدمتموه بين يدي ركابكم طالعة اليمن والسعد، ورائد عزمكم الصادق الوعد، وأنكم أثره إن شاء الله بالجيوش الجرارة، والكتائب المختارة، والمناصل الماضية الشبا، والمضارب التي تشيب بيضها مفارق الربا، وإن غرر هذه الكتب، تقفوها غرر الكتائب، وخبر هذا المروم، يتلوه خبر اللطائف العجائب، فنعم من قدمتم، إنه المقدمة سالبة، وأداة تعريف ألفها ولامها هي الغالبة.

ثم تعتذر الرسالة عن انقطاع المكاتبة خلال أيام الحصار فتقول :

وعذرنا عما كان يجب علينا من صلة الرسائل وترديدها، وتقرير الوسائل وتجديدها، لايخفى على مقامك الذي يقبل الأعذار إذا ظهرت، ويحمل المودة على ماعليه تقررت، من هول البحار التي لا تجري على القياس أمورها، ولايتمكن في كل الفصول عبورها، وغدر الطريق التي كثر بالفتنة آمرها ومأمورها، وما أصاب السواحل من الميتة التي جرى في البلاد مقدورها[2]، ومقامكم يولي الأعذار الصادقة وجها جميلا، ويبوءها من قبوله ظلا ظليلا، قد علم الله والناس، وثبت بالحق الذي لا يخالطه الالتباس، أننا لو وجددنا سببا، أو صادفنا للاتصال بكم مذهبا،، لما قعدنا أولا عن المساهمة والدفاع في جملة أبنائكم، وثانيا عن مباشرة هنائكم، حتى لاينوب في ذلك بعث الكتاب، عن حث الركاب، ولا إعلام الأقلام، عن إعمال الأقدام. والله تعالى يُسَنِّي لكم من نصره أكرم ما

---

1. في العبر7 : 588 «الخبر عن نهوض الناصر ابن السلطان ووليه عريف ابن يحيى من تونس إلى المغرب الأوسط.»

2. يشير إلى الطاعون الذي مات فيه عدد كبير وألّف فيه ابن الخطيب رسالته : مقنعة السائل عن المرض الهائل وألف فيه كذلك ابن خاتمة رسالته : تحصيل غرض القاصد، في تفصيل المرض الوافد.





سنى للصالحين من ملوك عباده، وينشر عليكم جناح الرحمة وعلى أقطار الإسلام وبلاده، ويصلح بإيالتكم مافسد من الأحوال، ويسكن بها ما عظم من الأهوال، ويضفي بها رواق العصمة على الأديان والنفوس والأموال، وهو سبحانه وتعالى يصل سعودكم، ويحرس وجودكم. والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته.

ريحانة الكتاب.







2. ولما وصل كتاب أمير المسلمين أبي الحسن «للسلطان أبي الحجاج يعرفه بالكائنة المذكورة (كائنة الأسطول) من أحواز الجزائر صدر عن ابن الخطيب جواب مطول في ذلك جاء فيه :

«فإنا كتبناه إليكم، كتب الله لكم حسن المآب ونجح المآل، واطلع عليكم أنوار البشائر من ثنيات الآمال. من حمراء غرناطة حرسها الله، وليس بفضل الله الذي بيده الأمر كله وليس في الوجود إلا فعله، ثم ببركة الاعتقاد الجميل في مقامكم السامي محله، العميم فضله، إلا البشائر التي بابها في موطأ السعادة هو الباب الجامع، وأحاديثها على الاعادة لايملها الراوي والسامع، وأبوتكم الكريمة لاتعدل البشارة بعصمتها بشارة وإن جلت، ولاترجح صنيعتها عندنا صنيعة وإن أشرقت أنوارها وتجلت، نمد الأكف لغمامتها كلما استهلت، ونتتبع مساقط أندائها حيث حلت، ونداوي بأنبائها أدواء القلوب التي لبعدها اعتلت، وكيف لا وأرجاؤنا بأفضالكم السابقة ناطقة، وألفاظ ثنائها لمعاني كمالكم متضامنة وعليها متطابقة، أبقاكم الله وأسباب التوفيق لأحوالكم موافقة، ورفاق الصنائع الإلهية لها مرافقة، ومتاجرها في معاملة الله تخطبها لِحسْن الجزاء أسواق نافقة، وإلى هذا وصل الله سعدكم، فجملة أمرنا في هذه الأحوال التي جرت، والشدائد التي خلصت بها معادن البصائر الإيمانية وتشحرت، والتمحيص الذي تضمنه الكتاب الموقوت، وناء بدينه الزمن الممقوت :

وطَالما أُصْلي الياقوتُ جمْرَ غضى
ثُمَّ انطَفى الجَمْرُ والْيَاقُوتُ يَاقُوت





أننا مابرحنا بواجب شفقة البنوة نحالف الأسى، وندارس في جمل هذه الأمور باب لعل وعسى، فتارة نستفتح وجوه الصبر وهي جميلة، ونتعلل بنواسم الأخبار وهي عليلة، وتارة نفوض الأمور إلى من بيده مقاليد الألطاف العجائب، ونمدكم من الدعاء بأعظم الكتائب. هذا والعدو الذي سالم الاسلام بسبب جهادكم، وتقلصت أطماعه بامتداد ظلال أمدادكم، قد فاض علينا بحره، وتجنى على عهدنا غدره، وشره إلى استئصالنا نابه وظفره، ونازل جبل الفتح الذي كان نصركم إياه بفضل الله سبب نجاته، واستعدادكم فيه ذريعة استمساك الدين وثباته، بما تجدونه مذخورا يوم يسر المؤمن بحسناته، بعد خصام جرى بيننا وبينه توجهت عليه فيه الحجة، ووضحت من سبيل غدره المحجة، وخيرنا فلم نرض الدنية التي عرضها، وحملنا الأمورعلى أشد الوجوه التي فرضها، ثقة بالله الذي هو الملجأ الأحمى والركن الأقوى، وعلما بأن العاقبة للتقوى، فسد الباب، وقطع الأسباب، ورأى أنه إذا فازت بفرضة المجاز قداحه، ولاَنَ له من الجبل بطول الحصار جماحه، نسفت ماسواه رياحه، وتملكت البلاد والعباد رماحه، ولم يدر أن لِلّه كتائب تخفى عن عيون الكتائب، وتكمن في مدارج الأنفاس ومياه المشارب، وأن الجديدين الليل والنهار يبليان الجديد ويأتيان بالعجائب، وعلى هذه الحال المهمة، والنوائب الملمة، فمقامكم شغل بالنا، وفي ميدان مساهمتكم مجال آمالنا، نصل السؤال عن أنبائكم في كل الأحيان، ونعاقب بعث الرسائل على تعاقب الزمان، وفي هذه الأيام وفد علينا رسولاكم فلان وفلان، وصل الله عزتهما، ووالى رفعتهما ويمن وجهتهما، وفادة كان اليمن لها والحمد لله رائدا، وسعد الاسلام وأهله لركابهما قائدا، منصرفين عن مخيمُ الطاغية الذي بعثتموهما إليه، بعد أن قوضت رحاله، وحالت حاله، وحم هلاكه، وانتثرت أسلاكه، وأديا إلينا كتابكم الذي طال عهدنا باجتلاء غرره، واقتناء درره، وتُعرفت عوارف الفضل والكمال بين ورده وصدره، جوابا عن بعض





الكتب التي وجهنا إليكم وأوفدنا عليكم، ظهر أنه لم يخلص غيره من جملة مكاتبات عديدة بعثناها، وركائب مخاطبات إليكم حَثَثْنَاهَا، عاقت الأهوال عن وصولها، وفصلتها الحوادث قبل بث فصولها، وشرح محصولها، عرَّفتم فيه أن ركابكم العالي استقر بمدينة الجزائر قراره، واطمأنت بها داره، بعد الشدة التي هي إن شاء الله ختام الشدائد، والأزمة التي عرفكم الله فيها جميل العوائد، وأن القبائل بذلك الوطن قد اعتلقت من طاعتكم سَبَبًا وثيقا، وسلكت من الانقياد لأمركم العلي سبيلا واضحا وطريقا، ودخلت في طاعتكم فوجا فوجا وفريقا فريقا، مستبقين من تجديد العهود التي أعطوها صفقات أَيمانهم، ورهنوا في الوفاء بها الكريم من أخلاقهم وأديانهم، وأن الوفود إليكم قد أقبلت، والسعود لدعوتكم قد أعملت، وأن صفحكم قد شمل من أناب، وعفوكم قد تغمد من تاب، وقبولكم قد فتح للوارد الباب، ووصل للمنبت الأسباب، وأنكم لم تقدموا عملا على مخاطبة الطاغية بالحجة التي أملتم أن تستنزله من مهواته، وتستنقذ مضغة الاسلام من لهواته، قياما بحق الله في الحال التي يهم فيها للقلوب شأنها، ولاينفع النفوس الكريمة إلا إيمانها، فكان من التوفيق الغريب، والصنع العجيب، أن رسوليكم وردا على طاغية الروم بقاطع أجله، ووفداإليه بخيبة أمله[1]، ونية المؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم من عمله، فما كانت كتبكم إليه إلا كتيبة تقدمها طلائع النصر، ومقدمة رفع تخصيصها عن الجبل دعوى الحصر، ورقى شفى بها الزمان من زمانته، ووثيقة تمكن بها الإيمان من أمانته، وعلاجا لم يفق بعده من ألم، وسهما من سهام الخواطر الخالصة لله أصاب

---

1. يشير ابن الخطيب هنا وما بعده إلى موت ملك قشتالة ألفونسو الذي كان محاصراً جبل طارق. انظر على سبيل المثال نهاية الأندلس لعنان : 132.





ورامية بذي سلم[1]، فكان رسولا كم ممن طلع علينا بشيرا بهلاكه، وانتثار أسلاكه، وظهور حركة الإدبار في أملاكه، فضحكت هذه الثغور، ووضحت مذاهب الأمور، وشفيت علل الصدور، واستأنف الاسلام بدار الكمال وكمال البدور، سفر السعد عن وجهه المشرق، ووردت علينا المسرات المختلفات من جهتي المغرب والمشرق، هذه تعلن بحياة الحبيب الكريم ودنو داره، وهذه تفصح بممات العدو وتباره، فيالهما من بشارتين إن اختلفتا فرجوعهما إلى عنصر واحد، والتقاؤهما في أصل كريم وان تشفعت المقاصد، إذهما عنوان على فضل نيتكم التي أنوارها قد بهرت، وبركة سريرتكم التي بانت شواهدها وظهرت. وإذا اعتبرنا الترجيح في هذا المحصول، رأينا أن الفروع لاتقوى قوة الأصول، وأن البشارة بعصمتكم أعلى قدرا، وأرفع خطراً، أوزعنا الله شكرا يكون لما أولى كليهما كفاءً، ووهبنا قياما بحقهما ووفاءً، فإنهما نعم أذهلت العقول، واستصغرت المستعار من الألفاظ والمنقول، فنحن نهنئكم بهذين الصنعين الذين هما من آثار نيتكم، وصدق طويتكم، وكأنا بمواهب الله قد اتسقت، وأفنان اليُمْن قد بسقت، وليالي الشدائد قد أضاءها الفرج بعدما غسقت، ودين الاسلام قد استحكم متاته، والكفر قد أمكن منه اضطرابه وشتاته. ولاتسئلوا عن الأحوال بهذا القطر، الذي كبلت لهذه الأحوال عداته، إنما هو جسد عاودته حياته، وبدر راجعته من بعد السرار إياته. وأما ما عندنا من الدعاء لعهدكم، والضراعة لله في دوام سعدكم، فلو علمنا أنه خفى لجهدنا في تقريره، ووكلنا ألْسنة الأقلام بشرحه وتفسيره، إنما هو صبح وضح، وتألق في الآفاق نوره، والله تعالى يصل لكم أسباب عنايته، ويزعنا شكر ما من به من عصمة مقامكم ووقايته، وقد

1ـ تضمين من قول الشريف الرضي :

سهم أصاب ورامية بذي سلم من بالعراق لقد أبعدت مرماك





حضر بين يدينا رسولاكم أعزهما الله، وألقيا إلينا مادار بينهما وبين النصارى في أمر السلم التي أكدتم حكمها بمقتضى نظركم للإسلام وأهله، وجري مقامكم على مايليق بفضله، وماوعد به من صرف الجفن الذي ظهر عليه العدو، من الأجفان الواصلة من جهتكم من جملة ماتضمنه الشروط، وأن الولد الذي أقام النصارى بعد أمه يرضى ذلك، ويسلك مما كان والده ينقاد إليه أوضح المسالك، فأمسكناهما عندنا يسيرا، لنرى ماتنبلج عنه المراوضة، وتفضي إليه المفاوضة. أطلع الله من الأمور كلها على ما يكون فيه سعادة الإسلام والمسلمين، وكبت أعدائه الكافرين. وإن تفضلتم بتعريفنا إن أمكن ببعض أحوالكم، فهو صلة لأفضالكم، وتمام على الذي أحسن من كمالكم. والله يصل سعدكم، ويحرس مجدكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

ريحانة الكتاب.





3. ولما توفي أمير المسلمين أبو الحسن صدر عن ابن الخطيب رسالة طويلة كتبها عن أبي الحجاج إلى أبي عنان في غرض العزاء جاء فيها :

«وإلى هذا أيدكم الله بنصر من عنده، ووصل لملككم أسباب سعده، فإنا وصلنا كتابكم المرفع، عرفتمونا فيه بما كان من استئثار الله بمحلٍّ والدنا السلطان الباهر العالي، الذي اعترفت بعظيم قدره ألسنة الأيام والليالي، والدكم تغمد الله لحده من الرحمة بغمام وحشره في زمرة من يخاطب عند باب الجنة : ادخلوها بسلام، فلو لم يكن له من المآثر التي يستحق بها الحمد، ويسترق المجد، إلا أن كنتم سلالته، وورثتم بالحق جلالته، لكان فخرا لا ينازع في حقه، ولايضايق في طرقه، فإنّا لله تسليما لحكمه الحتم، وتفويضا إلى أمره الجزم، سبيل مبين، وقصد يدعو إلى الصبر فيه عقل ودين. من ذا الذي سالم الأيام فسلم من غوائلها، وتمتع بطائلها، جعلنا الله ممن عمل عملا باقيا، وأسلف سعيا صاعدا إلى محل القبول راقيا».

ريحانة الكتاب.





4. ومن رسالة أخرى في الموضوع نفسه:

فإننا ورد علينا الخبر الذي قبض وبسط، وجار وقسط، وبخس ووفى، وأمرض وشفا، وأضحى وظلل، وتجهم وتهلل، وأمرَّ وأحلى، وأوحش وأسلى، وأساء ثم أحسن، وبشر بعد ما أحزن، خبر وفاة والدكم محل والدنا، السلطان الكبير القدر، الرفيع الخطر، الذي لو لم يكن من مناقبه، إلا أن كان لكم أبا. وفي أن أنعم الله به على الملة الحنيفية سبباً، لكفاه شرفا لا تجد الأشراف بعده مذهبا، قدس الله طاهر تربته، وكريم لحده، كما أحيا بكم معالم مجده. فياله من سهم رمى أغراض القلوب فأثبتها، وطرق مجتمعات الآمال فشتتها، ونعى إلى المجد إنسان عينه وعين إنسانه، وإلى الملك هيولى أركانه، وإلى الدين ترجمة ديوانه، وإلى الفضل عميد إيوانه. حادث نبه العيون من سنة غرورها، وذكر النفوس بمهم أمورها، وأشرق المحاجر بماء دموعها، وأضرم الجوانح بنار ولعها، وبيَّن أن شراب الآمال سراب، وكل الذي فوق التراب تراب[1]. فمن تأمل الدنيا وطباعها، والأيام وإسراعها، والحوادث وقراعها، بدا له الحق من المين، واستغنى عن الأثر بالعين، فشأنها ألا تفتر عن سهم تسدده إلى غرض، وصحة يعقبها مرض، وجوهر ترميه بعرض، وداء الموت قديم... وكأسه يشربها موسر وعديم، دبت إلى كسرى الفرس عقاربه، ولم تمنعه أساورته ولا مرازبه، وابتز سيف ابن ذي يزن من غمدانه ولم ترعه مضاربه، وأردى تبعا فلم يكن في أتباعه من يحاربه. وكم في الاسلام من ملوك فخر، مابين بني العباس وآل صخر[2]، فأين مروان ودهاؤه، وأبو الأملاك

---

1. شطر بيت للمتنبي وهو:
إذا نلتَ منك الودَّ فالكلُّ هيِّنٌ   وكل الّذي فوق التراب

2. آل صخرهم الأمويون وصخر اسم أبي سفيان والد معاوية.





وبهاؤه، والوليد وأبناؤه، وسليمان وآلاؤه، وعمر وثناؤه، ويزيد وظباؤه، وهشام وإباؤه، والجعدى وآراؤه[1]، وأين السفاح وحسامه، والمنصور واعتزامه، والمهدي وإعظامه، والهادي وإقدامه، والرشيد وأيامه، والأمين وندامه، والمأمون وكلامه، والمعتصم وإسراجه وإلجامه[2]، وغيرهم ممن طلع بالغرب شمسا، وأصبح في مرضاة الله وأمسى، وعمر رمسا، وفارق إلفاً وجنسا. لم تدافع عنهم الجنود المجندة، ولا الصفاح المهندَّة، ولا الدروع المحكمة، ولا الثياب المعلمة، ولا الجياد الجرد المسومة، ولا الرماح المثقفة المقومة. كل ندم، على ما قدَّم، وجدَّ، إلى ما اعدَّ، جعلنا الله ممن يسَّر لنفسه زادا، وقدَّم بين يديه رباطاً شافعا لديه وجهادا، ووثَّر لنفسه بمناصحة الله والمسلمين في أعلى عليين مهادا، وطوق للمسلمين فضلا وعدلا وإمدادا *.

ريحانة الكتاب.

1ـ عدد هنا مشاهير ملوك بني أمية مع سماتهم، وأبو الأملاك هو عبد الملك بن مروان والجعدي هو مروان بن محمد آخر الملوك الأمويين، نسب إلى مؤدبه الجعد بن درهم المعتزلي.

2ـ ذكر هذا بعض ملوك بني العباس مع سماتهم كذلك.

(*) في نفح الطيب 5 : 461 ـ 464 رسالة لابن الجياب قال المقري أنها «في العزاء بالسلطان أبي الحسن المريني» إلا أننا نقرأ داخلها اسم السلطان الفقيد أبي سعيد، وهو والد أبي الحسن. والصحيح أنها في العزاء بأبي سعيد لأن ابن الجياب مات قبل أبي الحسن.





5. ومن ذلك ماخاطب به تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني لما قصدها عقب ما شرع في جواره وتوسل إلى أغراضه بذلك إلى ولده[1] رحم الله تعالى الجميع :

«السلام عليك ثم السلام، أيها المولى الهمام، الذي عرف فضله الإسلام، وأوجبت حقه الأعلام، وخفقت بعزِّ نصره الأعلام[2]، وتنافست في إنفاذ أمره ونهيه السيوف والأقلام. السلام عليك أيها المولى الذي قسم زمانه بين حكم فصل، وإحراز خصل، وعبادة قامت من اليقين على أصل، السلام عليك يامقرر الصدقات الجارية، ومشبع البطون الجائعة وكاسي الظهور العارية، وقادح زناد العزائم الوارية، ومكتب الكتائب الغازية في سبيل الله تعالى والسرايا السارية. السلام عليك ياحجة الصبر والتسليم، ومتلقي أمر الله تعالى بالخلق المرضي والقلب السليم، ومفوض الأمر في الشدائد إلى السميع العليم، ومعمل البنان الطاهر في اكتتاب الذكر الحكيم، كرم الله تعالى تربتك وقدسها، وطيب روحك الزكية وآنسها، فلقد كنت للدهر جمالا، وللاسلام ثمالا[3]، وللمستجير مجيرا، وللمظلوم وليا ونصيرا، لقد كنت للمحارب صدرا، وفي المواكب بدرا، وللمواهب بحرا، وعلى العباد والبلاد ظلاً ظليلا وسترا، لقد فرعت[4] أعلام عزك الثنايا، وأجزلت همتك لملوك الأرض الهدايا. كأنك لم تعرض الجنود، ولم تنشر البنود، ولم تبسط العدل وتقم الحدود.. فتوسدت الثرى، وأطلت الكرى، وشربت الكأس التي يشربها الورى، وأصبحت تجد ضارع الخد، كليل الحد، سالكا سنن الأب والجد، لم تجد بعد انصرام أجلك، إلا صالح عملك، ولا أَصْحَبْتَ لقبرك، إلارابح تجرك، يجود بسحاب الرحمة تربك وينفعك بصدق اليقين، ويجعلك من الأئمة المتقين، ويعلي درجتك في عليين ويجعلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين.

---

1. هو السلطان أبو سالم إبراهيم.
2. الأعلام الأولى : المشهورون، والثانية الرايات.
3. أي غياثا.
4. فرعت أي علت وسمت.





وليهنك أن صيَّر الله تعالى ملكك من بعدك، إلى نيرِ[1] سعدك، وبارق رعدك، ومنجز وعدك، أرضى ولدك، وريحانة خَلَدك، وشقة نفسك، والسرحة المباركة من غرسك، ونور شمسك، وموصل عملك البر إلى رمسك، فقد ظهر عليه أثر دعواتك، في خلواتك وأعقاب صلواتك، فكلمتك والمنة لله تعالى باقية، وحسنتك إلى محل القبول راقية، يرعى بك الوسيلة، ويتمم مقاصدك الجميلة، أعانه الله تعالى ببركة رضاك على ماتقلّده، وعمر بتقواه يومه وغده، وأبعد في السعد أمده، وأطلق بالخير يده، وجعل الملائكة أنصاره والأقدارعدده.

وإنني أيها المولى الكريم، البر الرحيم، لما اشتراني، وراشني[2] وبراني، وتعبدني بإحسانه، واستعمل في استخلاصي خط بنانه، ووصية لسانه، لم أجد مكافأة إلا التقرب إليك وإليه برثائك، وإغراء لساني بتخليد عليائك، وتعفير الوجنة في حرمك، والإشادة بعد الممات بمجدك وكرمك، ففتحت الباب في هذا الغرض، إلى القيام بحقك المفترض، الذي لولاه لاتصلت الغفلة عن أدائه وتمادت، فمايبست الألسن ولا كادت، متحيزا بالسبق، إلى أداء هذا الحق، بادئا بزيارة قبرك الذي هو رحلة الغرب ومؤخرا مانويته من رحلة الشرق، والله سبحانه يجعله عملا مقبولا، ويبلغ فيه من القبول مأمولا، ويتغمد من ضاجعته من سلفك الكرام بالمغفرة الصيبة، والتحيات الطيبة، فنعم الملوك الكبار، والخلفاء الأبرار، والأئمة الأخيار،الذين كرمت منهم السير وحسنت الأخبار، وسعد بعزماتهم الجهادية المؤمنون وشقي الكفار، صلوات الله تعالى عوداً وبدءاً على الرسول الذي اصطفاه واختاره فهو المصطفى المختار، وعلى آله وأصحابه الذين هم السادة الأبرار، وسلم تسليماً».

1ـ النيّر: المنير، والنّيّرات : الكواكب

2ـ من راش السهم أي ألزق عليه الريش والمعنى هنا : أحسن إلى وأصلح حالي.





6. ومن ذلك قوله في نفاضة الجراب :

ثم كان الارتحال إلى التربة المولوية المحترمة بشالة - فألقيت بها البرك، وحططت الرحلْ، وفضلت الحطة، وخاطبت السلطان المنعم[1] بما نصه بعد البسملة :

«مولاي، المرجو المؤمل لإتمام الصنيعة، وصلة النعمة وإحراز الفخر، أبقاكم الله تضرب بكم الأمثال في البِر والرضا وعلو الهمة ورعي الوسيلة، مقبِّل موطيء قدمكم، المنقطع إلى تربة المولى والدكم ابن الخطيب، من الضريح المقدس بشالة وقد حط رحل الرجاء في القبة المقدسة، وتذمم بالتربة الزكية، وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ساعة إيابه من الوجهة المباركة، وزيارة الربُط المقصودة والترب المعظمة، وقد عزم ألاَّ يبرح طوعا من هذا الجوار الكريم والدخيل[2] المرعى، حتى يصله من مقامكم مايناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض ثم عليكم والتماس شفاعته في أمر يسهل عليكم لا يجرُّ إنفاذ مال، ولا اقتحام خطر ولا التهجم على خطة، إنما هو إعمال لسان، وخط بنان، وصرف عزم وإحراز فخر وأجر، وإطابة ذكر. وذلك أن العبد عَرَّفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنه لكم بلسان الحال مايتلقى من الجواب، وقال لي صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدي الخطيب[3] سني الله أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم : يافلان، أنت والحمد لله ممن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الغرضين.

وصدر عنكم من البشر والقبول والإنعام ماصدر، جزاكم الله جزاء المحسنين، وقد تقدم تعريف مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية[4] عنكم حسبما أداه من حضر ذلك المشهد من خدامكم، والعبد يعرض عليكم الجواب وهو :

---

1. يقصد السلطان أبا سالم ولد أبي الحسن.
2. الأصل في معنى الدخيل أنه المنتسب إلى القوم وليس منهم وتستعمل فيمن يلجأ إلى غيره لطلب حمايته.
3. يعني ابن مرزوق.
4. يعني ضريح أبي الحسن المريني.





إني لما فرغت من مخاطبته بمرأى من الملأ الكبير، والجم الغفير، أكببت على اللحد الكريم داعياً ومخاطبا. وأصغيت بأذني عند قبره وجعل فؤادي يتلقى مايوحيه إليه لسان حاله فكأني به يقول لي : «قل لمولاك ياولدي وقرة عيني المخصوص برضاي الذي ستر حريمي ورد ملكي وصان أهلي وأكرم صنائعي ووصل عملي، أسلم عليك وأسأل الله أن يرضى عنه ويقبل عليك، الدنيا دار غرور، «والآخرة خير لمن اتقى»[1]. وما الناس إلاَّ هالك وابن هالك[2] ولاتجد إلا ماقدمت من عمل يقتضي العفو والمغفرة، أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة. ومثلك من ذكر فتذكر، وعرف فما أنكر، وهذا ابن الخطيب وقف على قبري وتهمم بي، وسبق الناس إلى رثائي، وأنشدني ومجدني وبكاني ودعا لي وهنأني بمصير أمري إليك، وعفر وجهه في تربتي، وأملني لما انقطعت مني آمال الناس، فلو كنت ياولدي حيا لما وسعني إلا أن أعمل معه مايليق بي، وأن أستقل فيه الكثير، وأحتقر العظيم، لكن لما عجزت عن جزائه، وكلته إليك وأحلته ياحبيب قلبي عليك، وقد أخبرني أنه سليب المال، كثيرالعيال، ضعيف الجسم، قد ظهر في عدم نشاطه أثر السن، وأمل أن ينقطع بجواري ويستقر بدخيلي وخدمتي، ويرد عليه حقه بحرمتي ووجهي ووجوه من ضاجعني من سلفي، ويعبد الله تحت حرمتك وحرمتي، وقد كنت تشوفت إلى استخدامه في الحياة حسبما يعلمه حبيبنا الخالص المحبة، وخطيبنا العظيم المزية، القديم القربة، أبو عبد الله بن مرزوق فأسأله يذكرك، واستخبره يخبرك، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمي بعد الممات إلى أن نلحق جميعا برضوان الله ورحمته

---

1. الآية 77 من سورة النساء.
2. تصرف أو رواية لقول أبي نواس :

ألا كل شيء هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق





التي وسعت كل شيء.

وله ياولدي ولد نجيب[1] يخدم ببابك، وينوب عنه في ملازمة بيت كتابك، وقداستقر بدارك قراره، وتعين بأمرك مرتبه ودثاره، فيكون الشيخ خديم الشيخ، والشباب خديم الشباب، هذه رغبتي منك وحاجتي إليك، واعلم أن هذاالحديث لابد أن يذكر ويتحدث به في الدنيا وبين أيدي الملوك الكبار، فاعمل مايبقي لك فخره، ويتخلد ذكره، وقد أقام مجاوراً ضريحي تاليا كتاب الله عليَّ، منتظرا مايصله منك ويقرؤه عليَّ من السَّعي في خلاص ماله والاحتجاج بهذه الوسيلة في جبره، وإجراء مايليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة، فالله الله ياإبراهيم، اعمل مايسمع عني وعنك فيه، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال»[2].

1. لعله عبد الله. أنظر ترجمته في نفح الطيب 7 : 284 ـ301 كما أن ولده الآخر علي كتب عن أحمد ولد أبي سالم. نفح الطيب 7 : 301 ومابعدها.
2. لعل ابن الخطيب معذور في استعمال هذا الأسلوب الذي فرضته عليه ظروف قاهرة.





7. وقد شد الرحلة وتجشم النقلة إلى قنة الأطلس الكبير لرؤية المحل الذي توفي فيه السلطان أبو الحسن عند الهنتاتيين، ومما جاء في وصف هذه الرحلة :

«ومن الغد كان التوجّه إلى ذلك المحل المبارك فاقتحمنا وعْراً يزلّ فيه الذَّر[1] ولايسلكه مع الحِلم الطيف، وتسنّمنا شعابا تعجز عنها العُصْم[2] وتجاوزنا مهاوي مدت فيها اسراط[3] من الخَشب ترفع عند الضرورة الفادحة فتقطع عمن وراءها الآمال إلى أن أفضينا ولم نكد إلى المحل المقصود وهي دار قوراء[4] نبيهه البنية بالنسبة إلى جنسها الآخذ بحقوها[5] ساذجة بادية ملطخه الجدران بالطين الأحمر بيوتها لاطية[6] السقف غير مهذبة الخشب، بأعلاها غرف من جنسها، يدور بداخلها برطال[7] مستعل عل أرجل متخدة من اللبن، والحجر ملُبَّس بالطين، والبيت حيث متوفى السلطان مفترش بالحصباء، قد ترك فيه دائرة كالقصعة تباشر الثرى وييمكَّنُ من ترابتة من يقصد شفاء المرضى وكحل العيون المرهى[8]، إذ كان رحمه الله آخر ملوك العدل نشأة، لم يَعرف الخبائث، ولا آثر الملاذ، مُغْنياً في برِّ والديه مصرِّفا في انتساخ الذكر الحكيم يمنى يديه، محافظاً على الصلاة قيُّوماً عليها بالليل كثير الصدقة والصوم، مجالسا للعلماء، مستكشفاً أحوال الرعايا، حانيا على الضعفاء، معملا في سبيل الله بيض الظُبا[9]، صابراً على اللأواء[10]،

---

1. الذَّر: صغار النمل.
2. العصم : جمع أعصم وهو الوعل.
3. أسراط : طرق. (وانظر الاستصبار : 802).
4. قوراء : واسعة
5. بحقوها : بجنبها.
6. لاطية السقف : عاليته.
7. برطال : مدخل وفي الاسبانية Partal
8. المرهاء : التي بها بياض من المرض
9. الظبا : جمع ظبة وهي حد السيف.
10. واللأرواء : الشدة.





محتسباً في البلوى، مستشعراً شعار التقوى، ألحقه الله بالرفيق الأعلى وبإزائه مصراع باب غسلت عليه جثته الزكية، لا تتمالك العين أن تنتثر سلوك دموعها، ولا القلوب أن تأخذ الحسرة بكظمها، لما عضّ ذلك الملك الحُلاحلِ[1] من الخطب الذي عوضه من نضرة النعيم، ووجوه الغَرانقة[2] الغر، والتوكؤ على النمارق المصفوفة، والزرابي المبثوثة، في المتبوأ الكريم، واستثقال طلعة البدر، واستجفاء هبّة النسيم بقُنن الجبال الغُبْر، وسكنى المحل الخشن، ومفارقة الأهل والولد عند فراق الروح للجسد. جعلنا الله من الدنيا عل حذر وتَوَقّ، وكتبنا ممن قدرَ قَدره ولم يأمن مكره. فقعدنا وقرأنا وأفضنا في الترحم ودعونا».

نفاضة الجراب

1. الحلاحل : السيد الركين.
2. الغرانقة : جمع غرنوق وهو الشاب الناعم.





8. أما شعر ابن الخطيب في رثاء السلطان أبي الحسن فمنه هذه الرائية الطويلة التي قالها بعد مرور مدة على وفاة أبي الحسن، وذلك في خلال منفاه الأول في المغرب على عهد السلطان أبي سالم، وقد أنشدها على قبر أبي الحسن إثر قفوله من تجواله بجهات مراكش، ومما يلفت النظر في هذ القصيدة ما جاء في آخرها من أن رثاء أبي الحسن كان ممنوعا وأن هذا المنع لم يرفع إلا في عهد أبي سالم ويتحدث عن الأعادي الذين عاقوا الشعراء عن رثاء أبي الحسن، فمن هم هؤلاء الأعادي؟ لقد استعمل ابن الخطيب عبارة «لنكيرمن استولى بعده على أمره» وهي صريحة في أن المقصود هو أبو عنان.

ومن جملة ماورد في هذه القصيدة قوله في أبي سالم مخاطبا والده أبا الحسن :

واعلم بأن سرير ملكك حله

من أنت، لو خيرته، مختاره

ويقول أيضا :

زودته برضاك عند وداعه

والهول قد ماجت لديك بحاره

وهو يكرر هذا المعنى في رائيته الأخرى المشهورة، إذ يقول مخاطبا أبا سالم :

وقَدْ كَانَ مَوْلَانا أبوك مُصَرِّحاً

بأنَّكَ في أَبْنَائِهِ الوَلَدُ البَرُّ





وكُنْتَ خليقاً بالإمارة بَعْدَهُ

على الْفور لكنْ كُلُّ شيْءٍ لَهُ قَدْرُ

وخلاصة القول فإن كلام ابن الخطيب إذا كان يترجح في حق أبي عنان وأبي سالم أيضا بين المدح والقدح فإن لهجة التقديس التي تحدث بها عن أبي الحسن لم تتغير أبداً، وفيما يلي نص القصيدة :

إنْ بَان منْزِلُه وشطَّتْ دارُهُ

قامَتْ مقامَ عِيانِهِ أخْبَارُهُ

قَسِّمْ زمانَكَ عَبْرةً أوْ عِبْرةً

هذا ثَراهُ، وهذِهِ آثارُهُ

إنّا إلى الرَّحمانِ مِنّا أنْفُسا

تَدْري الصوابَ، وشأنُها إنكارُهُ

مَدَّتْ من الآمالِ إلاَّ كاذِباً

ياطالَما خدَعَ النُّهى غَرَّارُهُ

لا تَخْدَعَنَّ بزِنَةٍ مِنْ زُخْرُفٍ

عمَّا قليلٍ يُسْتَرَدُّ مُعارُهُ

مَنْ سَالَمَ الدُّنْيا يُسَالِمْ حَيَّةً

مَرْهوبةً، فلْيدرِ كيْفَ حِذارُهُ

كَيْفَ الخلاصُ لِهاربٍ قَدْ جَدَّ في

طَلَبٍ حَثيثٍ، ليلُه ونَهارُهُ

جيْشانِ منْ زنْجٍ ورومٍ أحْدَقا

بطَريدِ معركةٍ، فبانَ فرارُهُ





يدْعو بنا الدّاعي ويُغْري بالمُنَى
شأْن امْرِءٍ قَدْ خانَهُ استِبْصارُهُ
والْمُلْتَقى كَثَبٌ، وإنْ طالَ المدَى
وتقَلَّبَتْ بمُعَمَّرٍ أطْوَارُهُ
ووَرَاءَ غَفْلَتِنا معادٌ جامِعٌ
هاتيكَ جَنَّتُهُ، وهَذي نارُهُ
أينَ المُلوكُ بَنو المُلوكِ ومَنْ إذَا
طَلَبَ الصِّعابَ تيسَّرَتْ أوْطَارُهُ
مِنْ كُلِّ بَدْرِ دُجىً وشَمْسِ ظَهيرَةٍ
وَغَمامِ جُودٍ لايَني مِدْرَارُهُ
فإذَا غزا، فَمِنَ الدِّماءِ مُدَامُهُ
ومنَ الصَّهيلِ إذا انْتَشى مِزْمارُهُ
هَذا أميرُ المُسْلمين، ومَنْ جَرَى
مَثَلاً شَروداً، مَجْدُهُ وفَخارُهُ
هَذا أبو الْحَسَنِ بنِ عُثْمانَ الَّذي
كَرُمتْ عناصِرُهُ، وطابَ نِجارُهُ
قَصَدَتْهُ عادِيَةُ الزَّمانِ، فأقْصَدَتْ
لَمْ تُغْنِ عَنْهُ، عِنْدَها، أَنْصارُهُ

مِنْ بَعْدِ مافَتَحَ الْفُتوحَ ودَوَّخَ الْـ
مَعْمورَ حَتَّى أذْعَنَتْ أقْطَارُهُ



مِنْ بَعدِ ماخلَفَ الغمائمَ جودُهُ

عِنْدَ الهُطول فأَغْرَقتْ أَمْطارُهُ

مِنْ بعدِ ماقضتِ النُّذورَ رِماحُهُ

مِنْ بعدِ ماشفَتِ الصُّدورَ شِفارُهُ

يازاجرَ البُدْنِ القِلاصِ يقُيمُهُ

أنْجادُهُ وتقُيمُه أغْوارُهُ

وتَحثُّهُ الزُّلفى ليقصِدِ عبْرةً

في الدَّهرِ، طالَ، لأجلها، استعْبارُهُ

عرِّجْ على الْوادي المقدَّسِ والْحمى

واقصِدْ ضَريحاً لايَخيبُ جوارُهُ

ومَقامِ برٍّ عُظِّمَت حُرُماتُهُ

واختالَ في خِلَعِ الرِّضى زُوَّارُهُ

تُقْضَى مَناسِكُهُ ويُمْسَحُ رُكْنُهُ

أَبَداً وتُقْذَفُ بالدُّموعِ جِمارُهُ

كَمْ فيهِ مِنْ ليثٍ هِزَبْرٍ ماسطا

إلاَّ ومِنْ بيضِ الظُّبا أَظْفَارُهُ

ومُناخِ فَضْلٍ أَقصَدَتْهُ يدُ الرَّدَى

وهِلالِ تِمٍّ خانَه إبْدارُهُ

فكأنَّما أَجداثُهم لمَّا بدتْ

آياتُ وعْظٍ رُتِّبَتْ أَسْطارُهُ



رَوضٌ تأرَّج عَرْفُه وترنَّمتْ
أَطيارُهُ وتَهدَّلَتْ أشْجارُهُ

خضرُ الجَنابِ، سقَى مَعَاهدَهُ الْحيَا
وعَلاَ على كَنْزِ الْجَلالِ جِدارُهُ

لِلّه ماالشْتَملتْ عليهِ ثِيابُهُ
من مَفْخرٍ بالْحَمد طارَ مَطارُهُ

ولَرُبَّ ركْبٍ أُعمِلَتْ، لِمَزاره
أَقْتادُهُ واسْتوثِرَتْ أَكْوارُهُ

جعَلوا النَّسيمَ دليلَهمْ وقدَ اختَفَى
عَلَمُ الطَّريقِ فَدلَّهُمْ مِعْطارُهُ

طابَتْ معاهِدُها بِخَيْرِ خَلَيفَةٍ
مَنْ زارَهُ غُفرتْ له أوْزَارُهُ

مَنْ كان يَعْدَلُ بالسَّحائِبِ جودُه
مَنْ كَانَ يوزَنُ بالْجبالِ وَقَارُهُ

لَوْ رَامَ أَذْيَالَ النُّجُومِ لِجَرِّهَا
حَتَّى يحُطّ عُلُوَّهَا اسْتِقْدارُهُ

ولَكَانَ درهَمُهُ الّذي يَسْمو بِهِ
بَدرَ السَّماء، وشَمْسَهَا دينارُهُ

أوْخافَ طَيرُ الجَوِّ مِنْ سَطَوَاتِهِ
لَفَظتْهُ عن أرجائها أوْكَارُهُ

مَلِكُ الْملوكِ أجَلُّ مَنْ كَسِي التُّقَى
بُرْداً، وشُدَّ على الْعَفافِ إزارُهُ

مَلِك المُلوكِ، ونُخْبةُ النُّخَب الّذي
عُرِفَتْ على طول المَدَى أَنْوارُهُ

يافارج الْأزَماتِ بالقَلْبِ الذّي
مَهْمَا ارتَمَى، ذلّت له أخْطارُهُ

ياجُزِلَ الصَّدَقاتِ في جُنْح الدُّجَى
واللَّيلُ قَدْ سُدِلَتْ لَهُ أَسْتارُهُ

ياكافِلَ الْأيْتامِ يدْفَعُ عَنْهُمُ
بِنَداهُ، جَوْرَ الدهْرِ أَوْ أَضْرارَهُ

يامَنْ تَكَفَّلَ بالْأمانِ يَمينُهُ
لِلآمِلِينَ، وباليَسار يَسارُهُ

يامَنْ بِوحْيِ اللهِ في خَلَواتِهِ
ضَاءَ الدُّجَى، وتَأرَّجت أَسْحارُهُ

ياقائِدَ الْجيْشِ الْكثيفِ كَأنَّهُ
بَحْرٌ تلاطَمَ بالْقَنا زَخّارُهُ

حشَرَ الْأنام، فَما يُؤَمَّلُ حَصْرُهُ
بِشَبا اليَراعِ ولايُطاقُ حِصارُهُ

يامُلْبِسَ الْأوْرَاقِ مِنْ نُورِ الْهُدَى
حُلَلَ الْجَمالِ، تَألَّقَتْ أَنْوارُهُ





فكَأنَّما أَطْراسُها مُبْيَضَّةً

غُرَرُ الصَّباحِ إِذا بَدا إِسْفارُهُ

وكَأنَّ ذاكَ الْحِبرَ مِنْ غَسقِ الدُّجَى

وكَأنَّ زُهْرَ نُجومِهِ أَعْشارُهُ

ياسابِقَ الْخُلفاءِ في طَلَقِ الْعُلا

والْمَكْرُماتِ، فَمَا يُشَقُّ غُبَارُهُ

يامُسْتَهينَ الْخَطْبِ، لَمَّا أَعْضَلَتْ

أَدْوَاؤُهُ، وتَكالَبَتْ أَشْرارُهُ

ومُقَابِلَ التَّمحيصِ بالصَّبْرِ الَّذي

زُرَّتْ، عَلَى مَبْدَإِ الْهُدَى، أَزْرارُهُ

والتِّبْرُ، لَوْلا السَّبْكُ والتَّمْحيصُ لَمْ

يُشْتَقُّ مِنْ خَبَثِ التُّرَابِ نُضارُهُ

تَبْكي عَليكَ مَعاهِدُ الْمُلْكِ الّتي

كانَتْ بِشَمْسِكَ تَهْتَدي أَقْمَارُهُ

تَبْكي عَلَيْكَ مدارسُ الْعِلْمِ الّذي

بِكَ صاحَ حَيّ عَلَى الْفَلاحِ مَنَارُهُ

نَمْ وادِعاً، واهْنَأْ جِوارَكَ في جِوا

رِ اللَّهِ قد نَالَ السَّعَادَةَ جارُهُ

واعْلَمْ بأَنَّ سَريرَ مُلْكِكَ حلَّهُ

مَنْ أَنْتَ، لَوْ خُيِّرْتَهُ، مُخْتَارُهُ



مَنْ هزَّ دَوْحَ رضَاكَ مُمْتاراً بِهِ
حَتَّى دنَتْ مِنْ راحَتَيْه ثِمارُهُ

خلَّفْتَ إبراهيمَ خَيْرَ خليفةٍ
لِلْمُسْلِمين، قَدِ اسْتَقَرَّ قرَارُهُ

مَوْلاكَ مَوْلاهُ، وَعدلُكَ عدلُهُ
وَحِلاكَ حِلْيَته، ودَارُكَ دارُهُ

وَرِضَاكَ طاعتُهُ، وبِرُّكَ دأْبُهُ
ودُعَاؤُه لِعُلاكَ واسْتِغْفارُهُ

حَتَّى كأنَّكَ لَمْ تُغَيَّبْ في الثَّرَى
وكأَنَّ عُمْرَكَ سَاعَدَ اسْتِمْرارُهُ

والغَيْثُ يُقْلِعُ ثُمَّ تَحْيَا بَعْدَهُ
في الرَّوْضِ عن بَرَكَاتِهِ، أزْهَارُهُ

يَهْنِيكَ مِنْهُ سعادَةُ البَدْرِ الّذي
لزِمَ الكْمالَ، فَما يُخافُ سِرارُهُ

مِنْ شَمْسِ ذاتِكَ قَدْ أمدَّ هِلالُهُ
وبقطبِ سيرتِكَ اسْتَقامَ جدارُهُ

زَوَّدْتَهُ بِرِضَاكَ عِنْدَ وداعِهِ
والْهَوْلُ قَدْ ماجَتْ لَدَيْكَ، بِحارُهُ



وَتركْتَهُ بيدِ الإلاهِ وديعةً

فَتَضَمَّنتْ لكَ حفظَهُ، أقدارُهُ

عُوِّضْتَ منْ دارِ الخُلودِ بمنزلٍ

لِلْخُلْدِ تجري، تحْتَهُ أنْهارُهُ

وتَعَاهدَتْكَ من ابْنِكَ القُربُ التّي

تمْتارُ نحْوَ رضاكَ ما تمْتارُهُ

لايَشْمَتِ الأعداءُ كوْنَكَ في الثّرَى

فالْموتُ حكْمٌ ليْسَ يَخْشى عارُهُ

وإذا جرَى المقْدورُ في بدْرِ الدُّجى

يوماً، أيُجْهَلُ، بعْدَهُ، مقْدارُهُ!

والخلْقُ زرْعٌ للْحصادِ مآلهُ

وإذا استُحقّ، فمَا عسَى إنْظارُهُ

فإلى المماتِ، إذا استْهلَّ حيَاتُهُ

وإلى المشيبِ، إذا أطلَّ عِذارُهُ

وهْيَ اللّيالي كلّما عثَرَ امْرُؤٌ

يوْماً، أبتْ منْ أنْ يُقالَ عِثَارُهُ

والدهرُ عنْ فتكاتِهِ، لاينْثني

وأخصُّ منْ يَشْقَى بهِ أحْرارُهُ

مابالُ قيْصرَ إذْ جفَتْهُ قُصورُهُ

لمْ تُغْنِ عَنْهُ طوالُهُ وقِصارُهُ





مابالُ كِسْرَى لَمْ يُدافِعْ سورَهُ[1]
عنْهُ الرَّدى، يوماً، ولاإسْوارُهُ[2]

واسْأَلْ عَنِ النُّعمانِ حيرَتَهُ وقَدْ
عَشِقَ الشَّقيقَ الغَضَّ فَهْو شِعارُهُ[3]

شُقَّتْ على مَنْعاه حمْرُ قِبابِه[4]
وشَقيقُهُ أَلِفَ الذُّرى، وبَهارُهُ

عَبسَ الزّمانُ لآلِ عبَّاسٍ فَما
يُرْجَى تَهَلُّلُهُ ولااسْتِبْشارُهُ

وبنو أُميةَ قَدْ أدارَ عَلَيْهِمُ
قَدحاً تَفَشَّتْ في الْجَميعِ عُقَارُهُ

وبَنَو عُبَيْدٍ إِذْ تعبَّدَ مُلْكُهُمْ
سُلْطانَ مِصْرَ وأذْعَنَتْ أمْصَارُهُ

أَخْنَى على آثارِهِمْ فَأَبادَهُمْ
فَلَكٌ يكُرُّ، عليْهِمُ، دوَّارُهُ

مَوْلايَ، خُذْهَا خِدمَةً مِنْ نَادبٍ
ذِكْرَ العُهُودَ فهاجَهُ تذْكارُهُ

يَرْضَى الرَّضِيُّ بها إذا ما أُنْشِدَتْ
يَوْماً. ويعْرِفُ، فَضْلَها، مِهْيارُهُ[5]

1- يشير إلى إيوان كسرى.
2- الإسوار : الفارس من فرسان الفرس، والجمع أساورة.
3- يعني شقائق النعمان.
4- يشير إلى قباب النعمان الحمر.
5- يعني الشريف الرضي ومهيار الديلمي تلميذه.



قَدَحَتْ زنادُ الشَّوْق نارَ شُجُونِهِ
وَإذَا قَدَحَتَ الزَّنْدَ طَارَ شَرارُهُ

عاقَ الْأَعادي عَنْ رِثَائِكَ بُرْهَةً
فَغَدا الغبيُّ وشأنُهُ إسْرارُهُ

واليَوم حُلَّ عِقَالُ كلّ مُدَرَّبٍ
ماضي الشَّبا يَفْري الفَرِيَّ غِرارُهُ

وكذا الحُسَيْنُ قضى ولَمْ يُنْدَبْ إلَى
زَمَنٍ تَوالَتْ بَعْدَه أَعْصارُهُ

حقٌ على مَنْ يَسْتَطيعُ لِسانُهُ
صَوْغَ النِّظامِ أو النِّثارِ بِدَارُهُ

لَمْ يَبْقَ عَنْ أهْلِ الضَّرورةِ مانِعٌ
فَالْيَومَ يَنْفَعُ مُكْثِراً إكْثارُهُ

وعَلَى الإطالَةِ والْإطابَةِ إنَّما
هِيَ تافهٌ، يُزْرِي بِه اسْتِنْزارُهُ

عُذْراً لِقَومِكَ عَنْ مَقامِ مُقَصِّرٍ
والعَبْدُ يَغْفِرُ ذَنْبَهُ إقْرارُهُ

مَنْ رامَ أمْرا لايَنالُ مَرامَهُ
بالجُهْدِ كانَ إلَى القُصورِ قَصارُهُ

وإذا امْرؤٌ وافَى بِها في وسْعِهِ
سَقَطَ المَلامُ ورُوعِيَتْ أقْدارُهُ





9. وسبق لابن الخطيب أن رأى في جبل هنتاتة المكان الذي توفي فيه أبو الحسن فقال هذه القصيدة يرثيه ويشيد بشيوخ هنتاتة الذين حموه بعد ما أسلمه أهله وأنصاره :

يا حُسْنَهَا من أَرْبُعٍ وديار
أَضْحَتْ لِبَاغي الأمْنِ دارَ قَرار
وَجِبالِ عزٍّ لاتَذلُّ أُنوفُها
إلاَّ لِعِزِّ الواحِدِ القَهَّار
ومقرِّ توحيد، وأسِّ خلافةٍ
آثارُها تُنْبي عَن الأخْبار
ماكنتُ أَحْسِبُ أَنَّ أنهارَ النَّدى
تَجْري بها في جُمْلةِ الأنْهار
ماكنْتُ أَحسبُ أَنَّ أنْوارَ الحِجى
تَلْتاحُ في قُنَنٍ وفي أحجَارِ
محَتْ جَوانِبُها البُرود، وإنْ تكنْ
شبَّت بها الأعداءُ جِذْوَةَ نار
هدَتْ بُناها في سبيل وفَائها
فكَأَنَّها صَرْعى بغَيْر عُقار
لَمَّا توعَّدها، على المَجْدِ العِدَى
رضِيَتْ بعَيْث النّار لا بالْعار
عَمرَتْ بحِلّة عامرٍ[1]، وأعزَّها
عَبْدُ الْعزيز[2] بمرْهَفٍ بتَّار

---

1. هو عامر بن محمد بن علي وحلة عامر أي منزله في الجبل.
2. هو أخوه عبد العزيز بن محد بن علي وقد لجأ أبو الحسن إليهما في جبلهما وفيه مات ولابن الخطيب قصيدة مدح عامر المذكور. أنظرها في نفاضة الجراب.



فَرسا رهانٍ أَحْرزا قصَبَ النَّدَى
والْبأسِ في طَلَقٍ، وفي مِضْمارِ
وَرثا عن النَّدْبِ الْكريمِ أبيهما[1]
مَحْضَ الْوفاءِ، ورفعةَ المِقْدارِ
وكذا الفروعُ تُطولُ، وهي شبيهةٌ
بالأَصْلِ، في وَرَقٍ وفي أثْمارِ
أَزْرَتْ وجوهُ الصيِّدِ من هنْتاتةٍ
في جَوِّهَا، بمَطالِعِ الأقْمارِ
لِلَّهِ أيُّ قبيلةٍ تركَتْ لها النَّـ
ظَراءَ دعْوى الْفخرِ يَوْمَ فَخارِ
نَصَرتْ أميرَ المُسْلمينَ ومُلْكهُ
قَدْ أسلمَتْهُ عزائمُ الأَنْصارِ
آوتْ عَلِيًّا عِنْدَ ما نَهَبَ الرَّدى
والرَّوْعُ بالأسْماعِ، والأبْصَارِ
وتَخاذلَ الجَيْشُ اللَّهام وأَصْبَحَ الْـ
أَبطالُ، بين تقاعدٍ وفِرارِ
كفَرَتْ صنائِعَهُ فيمَّمَ دارَها
مُسْتَظْهِراً مِنْها بِعزِّ جِوارِ
وأقامَ بيْنَ ظهُورِها لا يَتَّقي
وَقْعَ الرَّدى وقد ارتَمَى بِشَرارِ

1. هو محمد بن علي الهنتاني شيخ الجبل.





فكأنَّها الأنصارُ لمّا آنستْ
فيما تقدم غُرْبةَ المُختار
لمّا غدا لحظاً، وهمْ أجفانُهُ
نابتْ شفارهُم عنِ الأشْفار
حتَّى دعاهُ اللّهُ بيْنَ بيوتهم
فأجابَ مُمْتثِلاً لأمرِ الباري
لوْكانَ يمْنَع منْ قضاء اللهِ ما
خلَصتْ إليه نوافِذُالأقدار
قدْ كان يأْملُ أنْ يكافيء بعْضَ ما
أوْلوْهُ، لوْلا قاطعُ الأعْمار
ماكانَ يقْنِعهُ لو امْتدَّ المْدى
إلاَّ القيام بحَقِّها مِنْ دار
فيَعيدُ ذاكَ الماء ذائبَ فِضةٍ
ويعيدُ ذاك التُّرْبَ ذَوْب نُضار
حتَّى تفوزَعلى النّوى أوْطانُها
مِن مُلْكِهِ بجلائلِ الأوْطار
حتَّى يلُوحَ على وُجُوهِ وُجُوههمْ
أثَرُ العِنايةِ ساطعَ الأنْوار
ويُسَوِّغُ الأمَلَ القصيَّ كرامهَا
منْ غيرِ ماثُنْيا ولااستِقصار





مَاكان يَرْضى الشَّمْسَ، أوْ بَدْرَ الدُّجَى
عَنْ دِرْهَمٍ فِيهِمْ ولا دِينار
أَوْ أَنْ يُتَوِّجَ أوْ يُقَلِّدَ هامَها
ونُحُورَها بِأَهِلَّةٍ ودَرارِي
حَقٌّ عَلَى الْمَوْلى ابْنِهِ إيثارُ ما
بَذَلُوهُ من نَصْرٍ ومِنْ إيثار
فَلِمِثْلِهَا ذُخْرُ الْجزاءِ، ومِثْلُهُ
مَنْ لايُضِيعُ صَنائِعَ الْأحرار
وَهْوَ الّذي يَقْضي الدُّيون، ومِثْلُهُ
يُرضيهِ في عَلَنٍ وفي إسْرار
حَتَّى تَحجَّ مَحلّةً رفَعوا بِها
عَلَمَ الْوفاء لِأَعْيُنِ النُّظَّار
فَيَصِيرُ مِنْها الْبَيْت بَيْتاً ثانِياً
لِلطّائِفين إلَيْه أيَّ بِدار
تَغْنَى قُلوبُ الْقَوم عن هَدْيٍ بِهِ
ودُموعهم تَكْفي لِرَمْيِ جِمار
حُيِّيتِ مِنْ دار تكفلَ سعيها الـ
مَحْمودُ بالزُّلْفَى وعُقْبَى الدّار
وُضِعتْ عليكِ مِنَ الْإلَه عنايةٌ
ماكرَّ ليلٌ فيكِ إثْرَ نَهار [1]

---

1. عبر ابن الخطيب في هذه القصيدة وفي كلامه على هنتاته في نفاضة الجراب عن إعجابه بشهامتهم وحضارتهم. راجع النفاضة وراجع القصيدة في ديوان ابن الخطيب الذي حققه بإشرافي الأستاذ محمد مفتاح.





7

ابن بطوطة يفد على السلطان أبي الحسن بتونس







1. كان خروج ابن بطوطة إلى رحلته من طنجة عام 725هـ في عهد السلطان أبي سعيد المريني والد السلطان أبي الحسن وفي خلال رحلته توفي السلطان أبو سعيد وخلفه السلطان أبو الحسن ولما وصل في عودته من رحلته إلى البلاد التونسية سنة 750 حضر المولد النبوي في قابس ومنها توجه إلى مدينة تونس وفي ذلك يقول :

«فوصلت بعد مشقات إلى مدينة تونس والعرب محاصرون لها، وكانت تونس في إيالة مولانا أمير المسلمين، وناصرالدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، علم الاعلام، وأوحد الملوك الكرام، أسد الآساد، وجواد الأجواد، القانت الأواب، الخاشع العادل، أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ناصر دين الاسلام الذي سارت الأمثال بجوده وشاع في الأقطار أثر كرمه وفضله، ذي المناقب والمفاخر، والفضائل والمآثر، الملك العادل الفاضل أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، قاهر الكفار ومبيدها، ومبدي آثار الجهاد ومعيدها، ناصر الايمان،الشديد السطوة في ذات الرحمن، العابد الزاهد، الراكع الساجد، الخاشع الصالح أبي يوسف بن عبد الحق رضي الله عنهم أجمعين وأبقى الملك في عقبهم إلى يوم الدين.

ولما وصلت تونس قصدت الحاج أبا الحسن الناميسي[1] لما بيني وبينه من مودّات القرابة والبلدية، فأنزلني بداره، وتوجه معي إلى المشور، فدخلت المشور الكريم، وقبلت يد مولانا أبي الحسن رضي الله عنه،

1ـ الحاج أبو الحسن علي بن الفقيه الصالح أبي زيد الناميسي كان مكرما عند أبي الحسن المريني، وهو من أسرة صنهاجية طنجية ظهرمنها أعلام في العهدين الموحدي والمريني، ومنم أبو محمد عبد الله الناميسي الذي ولي قضاء شريش، وغرب من بلده طنجة إلى تونس سنة 641هـ ثم سرح سنة 667هـ. أنظر التكملة لابن الآبار: 525 وجذوة الاقتباس 430 ط. دار المنصور والمسند الصحيح الحسن : 295.





وأمرني بالقعود فقعدت، وسألني عن الحجاز الشريف، وسلطان مصر فأجبته، وسألني عن ابن تافراجين فأخبرته بما فعلت المغاربة معه وإرادتهم قتله بالإسكندرية ومالقي من إذايتهم انتصارا منهم لمولانا أبي الحسن رضي الله عنه وكان في مجلسه من الفقهاء الامام أبو عبد الله السطي[1] والامام أبو عبد الله محمد بن الصباغ[2] ومن أهل تونس قاضيها أبو علي عمر بن عبدالرفيع[3] وأبوعبد الله ابن هارون[4]، وانصرفت عن المجلس الكريم، فلما كان بعد العصر استدعاني مولانا أبو الحسن وهو ببرج يشرف على موضع القتال ومعه الشيوخ الجلة أبو عمرو وعثمان بن عبد الواحد التنالفتي[5] وأبو حسون زيان بن أمديون العلوي[6] وأبو زكرياء يحيى ابن سليمان العسكري[7] والحاج أبو الحسن الناميسي، فسألني عن ملك الهند فأجبته عما سأل، ولم أزل أتردد إلى مجلسه الكريم أيام إقامتي بتونس، وكانت ستة وثلاثين يوماً، ولقيت بتونس إذ ذاك الشيخ الإمام خاتمة العلماء وكبيرهم أبا عبد الله الآبلي[8]، وكان في فراش المرض وباحثني عن كثير من أمور رحلتي».

رحلة ابن بطوطة.

1ـ فقيه مشهور، من مجالسي السلطان أبي الحسن ومرافقيه إلى تونس.

2ـ فقيه مشهور كذلك هو من أهل مجلس السلطان أبي الحسن وممن رافقه إلى تونس.

3ـ أنظر خبرتوليه القضاء في عهد السلطان أبي الحسن في تونس ووفاته سنة 750 هـ في يوم واحد هو وزوجه وانظر وصلاة السلطان المذكور عليهما في تاريخ الدولتين للزركشي : 88، 102.

4ـ كان مفتيا في عهد السلطان أبي الحسن بتونس. أنظر تاريخ الدولتين : 88.

5ـ من جلساء أبي الحسن ووزرائه. أنظر تعريف ابن مرزوق به في المسند : 339 وأنظر كذلك ص174. وقد كناه أبا سعيد.

6ـ صهر السلطان أبي الحسن وزوج أخته، كان أقرب المقربين إليه. راجع أخباره في المسند لابن مرزوق.

7ـ لعله ولد سليمان بن أبي بكر العسكري، من يني عسكر: أنظر المسند :

8ـ هو الفيلسوف المغربي المعروف.





8

موقف يحيى ابن خلدون من أبي الحسن المريني





1. يحيى ابن خلدون هو أخو أبي زيد عبد الرحمن وكان أصغر منه وعاش في ظله ووجدناه في صحبته لما كان أبو زيد كاتب سر السلطان أبي سالم وقد سعى له في الخدمة لدى الأمير أبي عبد الله بن أبي زكريا الحفصي صاحب بجاية ثم لدى أبي حمو صاحب تلمسان وظل في خدمة أصحابها إلى أن قتل بأمر أبي تاشفين بن أبي زيان سنة 780هـ، وقد تحدث عن أبي الحسن المريني وما وقع له في كتابه بغية الرواد وكان من الطبيعي أن يتحيز في حديثه لمخدوميه بني عبد الواد ونورده فيما يلي قال :

«ولما حلت الطامة الكبرى بالسلطان المرحوم أبي تاشفين وصار ملك تلمسان إلى السلطان أبي الحسن بن السلطان أبي سعيد بن السلطان أبي يوسف بن عبد الحق كما ذكرناه آنفاً استخدم قبيل عبد الواد فلم شعثهم، وحفظ عليهم رتبتهم، وأبقى لشعوبهم وقبائلهم المراسم التي ألفوها في أيامهم[1]، تفاخرا بملك القبيلتين وتشرفا بإمارة زناتة أجمعين :

وكم لله من لطف خفي
يدق خفاه عن فهم الذكي
إذا ضاقت بك الأسباب يوما
فثق بالواحد الفرد العلي

1ـ يؤيد هذا الاعتراف ماورد في الملعبة للكفيف الزرهوني على لسان أبي الحسن وهو هذا :
وتعففنا على القبيل قاطب
بعد عداوة مية وخمسين عام — ماسببنا فيها لامرا ولا كاعب
والتدريك مع بني مرين في زمام — والاحسان والبلد مع الراتب
الملعبة : 109ـ 110.





فمضت الأيام وهم بين مرين لهب مخمود، وصارم مغمود، والأكباد تتفطر غيرة، والقلوب تتحرق حنقاً، فالعيون شازرة، والألسن هامسة.

.. وكانت إمارتهم يومئذ متوسمة في الأخوين السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت ولدي الأمير الأعلى أبي زيد ابن الأمير أبي زكرياء أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان رضوان الله عليهم لإعراض أخيهما المولى أبي يعقوب رحمه الله عن الدنيا وإقباله على الآخرة حتى إذا أذن الله بحركة السلطان أبي الحسن إلى إفريقية ثمان وأربعين وسبعمائة كانوا ممن استجاش في عسكره أفاعي كامنة[1] وصقوراً محلقة وآساداً رابضة، وترك بتلمسان ابنه السلطان أبا عنان، فلما ملك تونس وكافة أمصارها اشتدت وطأته على سليم وأحلافهم بما استخلصه من إقطاعاتهم وطمسه من معالم شرفهم، فانتبذوا متألبين عليه وبايعوا أحمد بن أبي دبوس من أسباط عبد المومن بن علي فنهض أبو الحسن يروم إطفاء غيظهم بزعازعه وتقليص ظلالهم بسناه، فمكر ومكروا واحتشد واحتشدوا، أسبابا رتبها لهذا البيت الشريف الحكيمُ العليم، وقضايا نظمها لإنتاج دعوة أمير المسلمين مولانا الخليفة أبي حمو...

فمن ثنية الفندق المفضية إلى فحص القيروان انتبذ السلطان أبو سعيد وأخوه أبو ثابت رحمهما الله إلى العرب، ولما تراءى الجمعان بظاهر القيروان يوم الإثنين سابع محرم سنة تسع وأربعين وسبعمائة أمكنت عبد الواد الفرصة في عدوهم فما أفلتوها وعثروا على مفصل أجساده فما أحجموا عن حزه وإقالة العدو مهانة والهرب من معاطن الذل كرم، وخداع القاهر وفاء، فانتبذوا عن آخرهم مظللين بأروقة أعلامهم، مردفين بالذين في قلوبهم مرض من عساكر المغرب، وانحازوا

---

1. لقد وصفهم الكفيف الزرهوني أيضا بالأفاعي. راجع الملعبة ص 81.





إلى العرب وقد كادوا يهزمون فتآزر بهم نصرهم، ووهنت قوة السلطان أبي الحسن فنكص متذمما بالقيروان فكانت عليه الهزيمة الشنعاء مما هو معروف في الخافقين «والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب[1]».

قال المؤلف عفا الله عنه : وقفت على كتب كثيرة من السلطان أبي الحسن لحواضر بلاده يعتذر لهم فيها عن هذه الوقيعة بانخداع بني عبد الواد عنه ساعة اللقاء ومظاهرتهم العرب عليه[2].

وأقام هذا القبيل المبارك ملتفاً على الملكين المرحومين أبي سعيد وأبي ثابت أياماً وليالي آخذين فيها بمخنق القيروان مع العرب إلى أن فر عنها الشيخ أبو محمد عبد الله بن تفراجين فتوجهوا معه بأحمد بن أبي دبوس مبايع العرب إلى تونس لاستفتاح قصبتها فأخذوا بمخنق من كان فيها من بني مرين ومواليهم زمناً طويلاً إلى أن وصل الخبر بخلع السلطان أبي عنان بيعة أبيه ودعاءه لنفسه ثم خروجه عن تلمسان بعد أن أسلم أمرها لعثمان بن يحيى بن محمد بن جرار بن يعلى بن بن تيدوكسن بن طاع الله بن علي بن يمل ابن يزجن بن القاسم[3] فحينئذ جرى القبيل المبارك لوطنه وطمحت هممهم لاحياء الدولة».

1ـ الآية 41 من سورة الرعد.

2ـ يبدو أن هذه الرسائل لم تصل في وقتها أو إحتجزت في مكان ما، وهذامايدل عليه كلام الملعبة وكلام ابن خلدون أيضا ونذكر بالمناسبة ما كتب عن الناصر الموحدي في الاعتذار عن هزيمة العتاب .

3ـ لا علاقة لهذا النص بأولاد جرار من الودايا فهؤلاء ينسبون إلى عرب معقل وابن جرار المذكور من بني عبد الواد وهم من زناتة كما هو معروف، وهذا الشخص هو الذي أغرى أبا عنان بالخروج على والده.





9

إشادة العمري بأبي الحسن المريني







1. كان شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري مؤلف كتاب مسالك الأبصار معاصرا لأبي الحسن المريني وقد عني بوصف المغرب في أيام هذا السلطان وتحدث عن النظم المتبعة في مملكته[1]. ويعتبر ما كتبه العمري في هذا مادة تاريخية أساسية لا توجد عند غيره وقد رواها عن بعض الحجاج المغاربة من أهل العلم[2]، وقد انتقينا هذه النبذة التي يشيد فيها بالسلطان أبي الحسن من كتابه مسالك الأبصار قال :

«وأما هذا السلطان أبو الحسن في ذاته فإنه ممن أصلح الله باطنه وظاهره، وعمر بالتقوى قلبه وسائره، يهادي العلماء، ويواسي الفقراء، معدود في أبطال الرجال وشجعان الفرسان، يرد علينا من أخباره مايراوح النسيم، ويفاوح التسنيم، تدارك الله به أهل الأندلس وقد جاذبت معاقلهم الكفار، ووثبت على مدنهم وهي على شفا جُرُفٍ هار، فأجرى الله على يديه أجر بقائها في يد الإسلام، واستوقف به ضياعها وقد آذنت بسلام، وهو في هذا الظرف ماسك بأوتاده، سالكُ فيه سبيل جهاده، مالاذ به خائف إلا أجاره وأمنه، ولا أمله آمل فخيب ظنه، وقد وسع الخلق بخلقه، وجمع أممهم على ماأطعمه الله من رزقه، ولقد حدثني غير واحدٍ عن خلائقه الرضية وآثاره المرضية، وكمالاته التامة، وفضائله المنقبية المُرضية، ممَّالحق به من سلف، من السلف، وهو ممن لا يثنى له عن الجهاد عنانِ، ولايغمد له سيف ولا سنان، حتى يسترد باقي ضالته المفقودة، وماستولى عليه العدو في الأندلس من البلاد الموءودة، وجدير بمن هذه نيته أن يسهل الله له بلوغ مرامه، واستكمال مابقى في أيامه،

1ـ نشر الفقيه المنوني هذا الوصف في مجلة. ثم أعاد نشره في كتابه : ورقات عن حضارة المرينيين.
2ـ أنظر بحثنا في مصادر العمري المغربية : وهو منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.





وهو رجل قتل الأيام، وفتل غارب الأنام، وخالط العلماء وتأدب بآدابهم، وخالل الشجعان وزاد عليهم، لوصدع الحجر لأنفذه، أو صادف المتردي من السماك لأنقذه، ولا يلتفت طرفه إلى مانبذه، ولا إلى ما تركه من الدنيا أو ما أخذه، فلو رمى البحر لما زخر زاخره، أو قذف الزمان لما دارت دوائره، وقد جمع من صنائع آبائه، ومن تبعهم من صنائعه، أسود غيل، وجنود صرير وصليل، إلى إجابة صريخ، مسمع فرس مَن يصيخ، همٌ غطت على من تقدم، وأنست عنتر والرماح كأنها أشطان بير في لبان الأدهم.»[1]

مسالك الأبصار



1ـ هذا بيت عنترة المشهور :

يدعون عنتر والرماح كأنها   أشطان بئر في لبان الأدهم





10

المواجهة بين أبي الحسن وولده أبي عنان والنهاية الحزينة







قال ابن خلدون :

«وارتحل الأمير أبو عنان وجموع بني مرين إلى مراكش، وبرز السلطان للقائهم ومدافعتهم، وانتهى كل واحد من الفريقين إلى وادي أم ربيع، وتربص كل واحد بصاحبه إجازة الوادي ثم أجازه السلطان أبو الحسن، وأصبحوا جميعاً في التعبئة. والتقى الجمعان بتامدغرست في آخر صفر من سنة إحدى وخمسين، فاختل مصاف السلطان وانهرم عسكره، ولحق به أبطال بني مرين، فرجعوا عنه حياء وهيبة. وكبابه فرسه يومئذ في حفرة، فسقط إلى الأرض والفرسان تحوم حوله. واعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الدواودة، ورديف أخيه يعقوب؛ كان هاجر مع السلطان من الجزائر، ولم يزل في جملته إلى يومئذ. فدافع عنه حتى ركب، وسار من ورائه رِدْءاً له. وتُقُبِّض على حاجبه عَلَّال بن محمد فصار في يد الأمير أبي عنان، وأودعه السجن إلى أن امتنَّ عليه بعد مهلك أبيه.

وخلص السلطان إلى جبل هنتاتة، ومعه كبيرهم عبد العزيز محمد بن علي، فنزل عليه وأجاره. واجتمع إليه الملأ من هنتاتة ومن انضاف إليهم من المصامدة، وتذامروا وتعاهدوا على الدفاع عنه وبايعوه على الموت. وجاء أبو عنان على أثره حتى احتلَّ بمراكش، وأُنزل عساكره على جبال هنتاتة، ورتب المسالح لحصاره وحربه، وطال عليه ثواؤه. وطلب السلطان من ابنه الابقاء، وبعث في حاجبه محمد بن أبي عمرو فحضر عنده، وأحسن العذر عن الأمير أبي عنان. والتمس له الرضى منه، فرضي عنه وكتب له بولاية عهده. وأوعز إليه بأن يبعث له مالاً وكسى، فسرح الحاجب ابن أبي عمرو إلى إخراجها من المودع بدار ملكهم. واعتل السلطان خلال ذلك فمرَّضه أولياؤه وخاصته. وافتصد لإخراج الدم، ثم باشر الماء بعضوه للطهارة،





من ساحة مراكش، ورفعوه على أعواده إليه، فتلقاه حافياً حاسراً، وقبَّل أعواده وبكى واسترجع، ورضي عن أوليائه وخاصته وأنزلهم بالمحل الذي رضوه من دولته. ووارى أباه بمراكش، إلى أن نقله إلى مقبرة سلفه بشالة في طريقه إلى فاس. وتلقى أبا دينار بن علي بن أحمد بالقبول والكرامة، وأحله من كنفه محل الرحب والسعة، وأسنى جوائزه، وخلع عليه وحمله، وانصرف من فاس إلى قومه يستحثهم للقاء السلطان أبي عنان بتلمسان، لما كان أجمع على الحركة إليها بعد مهلك أبيه ورعي لعبد العزيز بن محمد أمير هنتاتة إجازته للسلطان واستماتَتَهُ دونه فعقد له على قومه وأحله بالمحل الرفيع من دولته ومجلسه واستبلغ في تكريمه.»

العبر 7 : 67 ـ 598







11

سلطان مالي سليمان منسا يقيم عزاء لأبي الحسن المريني







1- يقول أبو العباس الناصري في الاستقصا : «كان ملك مالي، وهو السلطان منسا موسى بن أبي بكر من أعظم ملوك السودان في عصره، ولما استولى السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط وغلب بني زيان على ملكهم عظم قدره وطال ذكره وشاعت أخباره في الآفاق، فسما هذا السلطان وهو منسا موسى إلى مخاطبة السلطان أبي الحسن، وكان مجاورا لمملكة المغرب على نحو مائة مرحلة في القفر فأوفد عليه جماعة من أهل مملكته مع ترجمان من الملثمين المجاورين لبلادهم من صنهاجة فوفدوا على السلطان أبي الحسن في سبيل التهنئة بالظفر فأكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم ونزع إلى مذهبه في الفخر فانتخب طُرَفاً من متاع المغرب وما عونه وشيئا من دخيرة داره وأسنى الهدية وعين رجالا من أهل دولته كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين ومولاه عنبر الخصي فأوفدهم بها على ملك مالي منسا سليمان لمهلك أخيه موسى قبل مرجع وفده، وأوعز إلى أعراب الفلاة من بني معقل بالسير معهم ذاهبين وجائين فشمر لذلك على بن غانم أمير أولاد جرار من معقل وصحبهم في طريقهم امتثالا لأمر السلطان، وتوغل ذلك الركب في القفر إلى بلد مالي بعد الجهد وطول الشقة فأحسن منسا سليمان مبرتهم وأعظم موصلهم وأكرم وفادتهم ومنقلبهم وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظمون السلطان أبا الحسن ويوجبون حقه ويؤدون طاعته ويذكرون من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان أبي الحسن واعتماله في مرضاته مااستوصاهم به[1]».

عن الاستقصا وهو مأخوذ من العبر.

---

1. الاستقصا.





2. ولما توفي السلطان أبو الحسن أقام له السلطان منسا سليمان العزاء في قصره على الطريقة المغربية، وقد تحدث عن ذلك ابن بطوطة في رحلته إلى مالي التي سافر إليها فاتح سنة 753هـ قال :

«واتفق أني أقمت هذه المدة ولم أره (يعني السلطان منسا سليمان) بسبب مرضي، ثم إنه صنع طعاما برسم عزاء مولانا أبي الحسن رضي الله عنه واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضي الخطيب وحضرت معهم فأتوا بالربعات[1] وختم القرآن ودعوا لمولانا أبي الحسن رحمه الله ودعوا لمنسا سليمان».

1. الربعات جمع ربعة وهي الخزانة التي تشتمل على أجزاء القرآن الكريم والتي يتألف كل جزء منها من حزب أو خمسة أحزاب ومن المعروف أن المصحف الشريف يشتمل على ثلاثين حزبا.





12

ضريح أبي الحسن في شالة







كانت شالة كما يقول ابن الخطيب «مَرْعى الذّمم، ونتيجة الهمم، وَمشمخ الأنوف ذوات الشمم، وعنوان بر الرِّمَم، حيث الحسنات المكتتبة، والأوقاف المرتبة، والقباب كالأزهار، زاهرة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار»[1] ويقول في ضريح أبي الحسن : «الضريح الذي تعدّدت على المسلمين حقوقه، وسطع نوره وتلألأ شروقه، وبلغ مجده السماء لما بسقت فروقه، ورسخت عروقه، وعظم فخره فما فوق البسطة فخر يروقه، حيث الجلال قد رسخت هضابه، والملك قد كسيت بأستار الكعبة الشريفة قبابه، والقرآن العزيز ترتب أحزابه، والعمل الصالح يرتفع إلى الله ثوابه[2]». وقد رأينا ـ فيما تقدم كيف صاحب هذا الكلام ارتحل إلى التربة المولوية المحترمة بشالة وألْقَى بها البرك وحط الرَّحْل وفضل الحطة وأقام مجاورا الضريح الذي كان زاهراً بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار. ويبدو أن هذا الضريح ظل على هذه الحال إلى آخر أيام الدولة المرينية وفي عهد عبد الحق آخر ملوك بني مرين تعرضت شالة إلى النهب والهدم والتخريب فقد قام الثائر أحمد اللحياني الورتاجني المريني بنهب خزائن كتبها وأخْذِ ما فيها من المصاحف المحلاة والتحف المحبّسة على أضرحتها وتفريق جمع القائمين عليها[3]» وليكن بعض المعالم ظلت مع ذلك قائمة فقد زار الحسن الوزان شالّة عام 915 للهجرة وانتسخ كل ما كتب على القبور بها. ووصف قاعة الضريح وقال إنها «قاعة بديعة الزخرف بالرخام المنحوت والفسيفساء والنوافذ ذات الزجاج الملون» وذكر أن قبر السلطان المنصور ـ يعني أبا الحسن ـ له رخامتان واحدة عند رأسه وأخرى عند رجليه نقشت عليهما أبيات رائقة لمختلف الشعراء تعبر عما خلفه موت هذا الملك من لواعج الأسى»[4].

---

1. معيار الاختيار : 105(تحقيق د. العبادي).
2. ريحانة الكتاب 350.
3. الاتحاف الوجيز : 7.
4. وصف إفريقيا 1: 203 ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر.





ولست أدري هل وقف بعض شعرائنا في المغرب بهذا الضريح بعد ابن الخطيب وهل قالوا فيه شيئا أم لا وقد وقفنا على قصيدة من الملحون تدعى السلوانية للشاعر الشهير في هذا الفن عبد العزيز المغراوي الذي عاش في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري وأول الحادي عشر، وفي هذه القصيدة جزء يذكر فيها زيارته إلى شلا ونورده فيما يلي :

لمّا الْتاجْ النّهارْ وقلْعنا   لَمْقامنْنا المنْشي
آلْمومْنين امنّاين طلَعْنا   أُو جدّدْنا فالمشي
لَرْجالْ شالّة اكْداكْ اقْصدَنْا   جِينا فـي أوّل العشي

* * *

مهمَا ادْخلت لَلْقصرْ   وانا نجدّ النظَرْ   إلاّ ودمْعي اهْمَرْ

* * *

لمّا اقريت السّطور كالعنُوان   على القبور شاهدين
هذا فلان بن فلان ذاك فلانْ   أمن الْملُوك الأوْلين

* * *

ولْسان الْحال قدْ نطَاقْ في حضْرا   قايَلْ في قولُه إيقول
كنّا اجواد الملوك ياحسْرا   بِنا تضُرَاب المثْول
واليوم تحت الترابْ والغبْرا   من بعْد جرّ الذْيول

* * *

بعْد الجيوش أُو لقْصُورْ   وجوَارْ امثيل لبْدور   صرْنا ارْشات فالقْبُورْ

* * *

ماذا يم سوى الْكريم المنّان   رب العباد اجمعين
والْغيْر الْكل للْفنَايا لاخْوان   هذا هوض اصحيح اليقين

* * *



فلمّا اسْمَعْت الجواب بالنِيّاً أَوْ شقلّي الفْواد كالْحُسام
إلاّ ودمعَت العيون مَجْرِياً أَوْ نَحكي الغَيْث الغمَام
عايْش الحياة فالدَّنْيا صارَتْ في عَيْني اظْلاَم

* * *

دَغْيا ارْجَعْنا انحاطْ نَنْظْرُو لتَلْك الشّطَاطْ حتّى ابلَغْنا الرّباطْ

* * *

بَتْنا ودموع لَعْيُونْ كالطّوفانْ علَى الخدودْ ساكْنين
نادَمْ على حالْتي فالْعُصْيَانْ تايَبْ امن التّايْبين[1]

* * *

وقد ذكر أبو الحسن اليوسي المتوفى سنة 1102 أن شالة في زمنه كانت مزارة يزورها الناس ويتبركون بمن فيها[2] ثم إن شالة تعرضت في صدر القرن الثالث عشر الهجري إلى تخريب آخر قام به عبيد البخاري الذين «فعلوا من الشناعات بالأضرحة هناك ما يخجل القلم لذكره». وأتى عليها بعد ذلك العفاء وغطاها التراب، وظلت كذلك إلى أن قامت إدارة الآثار التاريخية في عهد الحماية برفع التراب الذي كان يغطى قبر أبي الحسن وغيره[3].

وقد كان المؤرخ محمد بن علي الدكالي عني بوصف ما بقي من معالم شالة واستوعب ما أمكنه استيعابه واجتهد في نقل ما بقي من نقائشها المكتوبة بالخط الكوفي وغيره وأودع ذلك كتابه أدواح البستان[4] ونقله عنه الأديب محمد بوجندار في تأليفه شالة وآثارها[5]، وقد ختمه بكلمة في وصف حالة شالة في وقته جاء فيها «أما حالتها الحاضرة لهذا العهد

---

1. من مخطوط خاص.
2. شالة وآثارها لمحمد بوحندار ص : 13 وانظر الإتحاف الوجيز : 46.
3. المصدر نفسه.
4. مخطوط عند أولاد المؤلف.
5. شالة وآثارها من ص 32 إلى ص 93 وانظر ما نقله المؤرخ ابن علي أيضا من الكتابات المنقوشة في مدرسة أبي الحسن بسلا في الاتحاف الوجيز : 53 ـ 65.





فيختلف وصفها باختلاف ملحظ واصفها، فإذا نظرها بعين المعتبر وجدها في حالة تستوقف النظر، وتحدِّث بآيات العبر، تلوح عليها شارات الجلال، وعلائم النقصان بعد الكمال، بل سيما العدم بعد الوجود، والغيب بعد الشهود، يتجلّى ذلك للرائي بين حقولها ومزارعها، وقبورها وصوامعها، وبين آثارها وأطلالها، وهضابها وجبالها،، ثم في رسوم بالية، وبيوتْ خالية وأسوار ماثلة، وأشجار مائلة، وعيون سائلة، تنوح حولها الأطيار، في الوكنات والأوكار، وتنعق فيها الغربان، كأنها تنعى ما أصابها من طوارق الحدثان، وطوارى الملوان، وإذا نظرها بعين الناظر المتسلّي وجدها نزهة للعيون، بل جنة من جنان الدنيا تجري من تحتها الأنهار والعيون، ماشئت من ينابيع دافقة، وأفنان باسقة وأغراس متناسقة، وأغصان متعانقة، وأطيار متعاشقة، ومتنزهات وبساتين شائقة، ومتنزّهات رائقة، إلى طيب هواء، وعذوبة ماء، وصفاء أديم، ورقة نسيم، وإلى منظر بديع في إبان الربيع، حيث تتجمل تلك الهضاب والربى بأجمل حلة يرصّعها الندى ويعطرها الصبَّا، فيشرف الناظر منها على تلك الأجنة والبساتين، وما خطته أقلام القدرة من الطراز الرفيع فوق زرابي النباتات والرياحين[1]».

ولا أريد أن أتتبع ما قيل في هذا المكان الذي يدعو زائره إلى التأمل في المجد الغابر، والاتعاظ بعبرة الدهر الغادر ولكني أجعل مسك الختام لهذه الفقرة قصيدة مؤثرة أنشأها الشاعر الفلسطيني سميح القاسم بعد وقوفه على قبر أبي الحسن المريني خلال زيارته المغرب وقد نشرتها جريدة القدس ع.96 ص16. تحت العنوان التالي :

1ـ المصدر نفسه.





في رثاء أبي الحسن المريني

وقوفاً بهِ صاحبيَّ... وقوفاً بهذا الطلَلْ
ألا ولنخففْ هنا الوطء ياصاحبيَّ،
أديم الثَّرى جسدٌ لمليكٍ عظيم
لواعجُ نَدْب قديم
تمَرّس بالموت بين السيوفِ
وبين الحروفِ
وليس هنا الموتُ خطباً،
ألا إنها، صاحبيَّ، الحياةُ
الحياةُ على الذلِّ خطبٌ جلَلْ..
وقوفاً بذكرى السَّريِّ المُبَجَّل
نَسْر مَرينْ
وقوفا بقبر المليك المهينْ
لعلَّ بكاءَ الضمير المعذَّبِ، يوقظ
أحياءنا الميِّتينْ !

* * *

وقوفاً به صاحبيَّ...وقوفا بهذا الطَّلَلْ
فمن أبدٍ يضيع،
أَما آنَ نستعيدَ الأزَلْ...





وقوفاً به، وذراني مع القبر،
أَسْكُبْ عليه دموعَ اغترابي
وَأَنْثُرْ ورودَ عذابي
وأكتب على مرمر الوهْمِ بُؤْسَ المراثي
وحزنَ الأَمَلْ
وذكرى المليك البطل..

* * *

أُخاطبُ قَبْرَكَ
يا أيُّها المَلِكُ المغْربيّ الْعَريقْ
أخاطبُ سرَّك جَهْراً
ليسْمَعَ عَسْفُ العَدُوّ وخوفُ الصَّديق
لعلَّ القبورَ الْجديدَةَ تُصغي
وجِذْوَةَ أمواتِنا تَسْتَفيقْ
لَعَلّ سياطَ الهوان
تُحرِّك صَمْتَ العُروقْ
أُخَاطِبُ قَبْرَكَ،
حُزْني الرّياحُ وَصَوْتي الْحَريقْ..

* * *





على شاطىء الأَطْلَسيِّ التقينا قديماً،
مَشَيْتُ إِلَيْكَ
مَشَى المُتوسِّطُ فيَّ. إليكَ
وَسارتْ على خُطُواتي صَحَاري العربْ
وَسارتْ صَلاتي معي،
ومشَتْ أُغْنيَاتي إليكَ،
وطارت على جانحيَّ حروفُ الذَّهَبْ
إليك. على شاطىء الأطلسيِّ البعيد
لنفتحَ في ظُلُمات المسافةَ باباً...
سألْتُ : «أتهدرُ بالْعَرَبيَّة»
قُلتَ صَلاتي صلاتُكَ
كنتَ فتياً كقَلْبي
وكنتَ قوياً كشَعْبي،
لكَزْتَ جوادكَ عبْرَ المضيقْ،
وحطَّ بُراقك نجماً على الساحل
الإيبري،
وحطَّ براقي
على نجمةٍ في المدار الذي لم نَجُسْ
وَقيلَ لنا : إنها الأنْدَلُسْ !
أَلاَ فلتكُنْ وردةً للرَّحيل وتُفاحةً للتَّعَبْ





وضوءاً لشمسِ العلومِ
وعِطْرا لعُرْسِ الأدبْ !

* * *

وعِشْنا طويلا
بَنَيْنا قلاعَ العِبادةِ والمَجْدِ والْكيمياء
غَرْسنا مآذِنَ أحلامنا خلْفَ حدٍّ الفضاء
وقُلْنا حدائقنا. واسْتَضَأْنا،
بِنَارِ محابرنا.. وبِنورِ السماءْ

* * *

وَعِشنَا طويلا،
أبا الحسن الشَّهْمَ، فَهْدَ «مَرين»
وعشنا طويلاً،
وَلاَ تاجَ للمُلْك، غير الكتابْ
ونُوق العطاش
إلى ماوراء السرابْ..
أبا الحسن الشَّهْمَ.. قَبْلَ «مرينَ»،
اجْترَحْنا الحياة على المَوْتى جيلاً فَجيلا
وعِشْنا طويلا



تُشَيِّدُ.. لا للثَّوابْ

وأمدحُ.. لا لِلْمديح

ونفترعُ المستحيلا

فماذا استباحَ الصهيلا

ومَنْذا أضاعَ الصّليلا

وكيف استحال الموشّحُ،

بعد الصُّداح البهي نواحاً ذليلا

* * *

أبا الحسن انهض من الموت حيّاً جميلا

وأصغِ إليَّ قليلا

وحدِّقْ من القبر. حدِّقْ قليلا

لتُبْصِرَني

ماثِلاً دون أنقاض قبركَ.. حيّاً،

وظَهْري

يَنوءُ بأنقاض عُمْري

بِعِبْءِ ذراعين في الأرْض،

بَيْتي.. وقبْري !

* * *



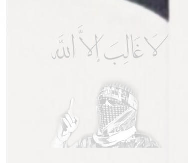


سَواسيةٌ نحنُ صِرنا.
أبا الحسن الشَّهمَ، قَبرُك تذْوي عليه
الزهورُ،
وما من ربيعْ
ويَذْوي دمي في بلادٍ تضيعْ..
سواسيةً نحنُ صِرنا،
مَليكاً أَطاح به الموتُ تحت الترابْ
وشاعرَ مُلْكٍ
يطيح به الموتُ فوقَ الترابْ
ألا أيهذا المرينيُّ ياصاحبي،
أَخذَتْني الحرائق دهراً،
وكلُّ الذي ظلَّ منّي
شَرارَةُ حزنى
تضىء.. ولما تَنُسْ
هُنا.. وهُنا .. أندلسْ !

* * *

قليلٌ ترابُكَ،
أَعلم أنَّ تُراب الجُسوم قليل
وأنَّ الملوكَ رَعايا لدى الموتِ





أعلمُ أن التواطؤ بيْنَ الردَّى والزمانِ
ثقيل
وأبكيكَ..
أبكي وأعلمُ أن بكاءَ الرّجالِ الرِّجالَ
انكسارٌ نبيلٌ
وأنَّ التأسٍّيَ ياصاحبي مستحيل..
وأبكيك.. أبكيك..
ذاهلة عن بكائي اللقالقُ
حارسةُ الموت حولكَ
منشغلا عن بكائي النخيلُ
بما تفعلُ الكاميرا في يديْ سائحٍ
من بلادِ الفرنجة
ياصاحبي اختصرَتْكَ المقاديرُ في صورةٍ
يتسلّى بها العائدونَ إلى مَجْدهم من رحيلكَ
يَدْرُسها عالمٌ كلفتْه بك الأرخيولوجيا،
ولِهَذا الصَّديقْ الْقَديمْ
وإقَامَتُهُ في الجَحيمْ
وثورته في الجحيمْ..


* * *



قليلٌ ترُابُكَ،
يا أيها الميِّتُ الحيُّ،
حقًا..قليلٌ ترابكَ،
لكنَّهُ آخرُ الأسئلهْ
وهاجسُ حبة قمح تئنُّ:
أريدُ نهوضاً من الموتِ..
في سنبلهْ
أريدُ نهوضى من الموتِ..
في سنبلةْ *!!



---

* إذا كنت قد أطلت بإيراد هذه النصوص على هامش الملعبة فلأنها تتعلق بها ويشتمل بعضها على مادة جديدة حول الشخصية الأسطورية لأبي الحسن المريني.





صورة الواجهة الخارجية لقبة ضريح
أبي الحسن المريني




لا غالب إلا الله


طوفان الأقصى



صورة قبر أبي الحسن المريني






لا غالب إلا الله


طوفان الأقصى



زجل التقويم

للكفيف الزرهوني أيضا







- يبدو أن الكفيف الزرهوني كان له فضول معرفي متعدد كما تدل على ذلك ملعبته، والزجل الثاني الذي ننشره له هنا يشير إلى إلمامه بالتنجيم، وقد رأيناه في الملعبة يذكر أصحاب الأجفار والترحيل ويسمي منهم ابن مرانة السبتي ويقول إنهم تنبأوا بما حدث لبني مرين في تونس[1] وهو في هذا الزجل يقدم شبه تقويم بما يتوقع حدوثه في كل سنة حسب اسم اليوم الذي تفتتح به ويقول إنه يستند على ماقاله العلماء بهذا الشأن، والواقع أن الإلمام بما عُرف بالأنواء والمنازل كان شيئا شائعا لدى الخواص والعوام، وقد يستغرب دارس الأدب والنقد اليوم وجود «باب معرفة مافي السماء والنجوم والأزمان والرياح» في كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة[2] أو«باب ذكر منازل القمر» في كتاب العمدة لابن رشيق[3]، ولا غرابة في هذا لأن معرفة هذه الأشياء كانت من أسس التكوين العام، وثمة كتب عديدة في الأنواء ومنها ماألفه الأندلسيون والمغاربة كعريب بن سعيد وحسين بن عاصم والخطيب الأموي وابن البناء العددي معاصر الكفيف الزرهوني، ولابن البنّاء هذا كتب عديدة في التنجيم ومنها كتاب المنهاج الذي نوه به ابن خلدون في المقدمة وقال :

---

1. انظر ص : 64 من ملعبة الكفيف الزرهوني.
2. أدب الكاتب 67 ـ 77.
3. العمدة 2 : 52 ـ 258.





«ولع به الناس لما سهل من الأعمال فيه[1]» ثم قال «وإنما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتنبني عليها الأحكام النجومية وهي معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في عالم الإنسان من الملك والدول والمواليد البشرية»[2] ولكنه عقد بعد هذا فصلاً في إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها[3]» ووجد مثالا على هذا فيما حدث في عصره عندما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر إرجاف الفريقين الأولياء والأعداء[4]» واستشهد بقصيدة لشاعر من ذلك العصر كذب أقوال المنجمين في مصير السلطان المذكور ومما جاء فيها :

يَاراصِدَ الخُنَّسِ الجَوَارِي ... مافَعَلَتْ هذهِ السَّمَـاءُ
مَطَّلْتُمونا وقَدْ زَعَمْتُمْ ... أنكُّمُ الْيَومَ أمْلِيَـاءُ
مَرَّ خَمِيسٌ على خميسٍ ... وجَاءَ سبْتٌ وأربَعَـاءُ
وَنِصْفُ شَهْرٍ وعُشْرٌ ثانٍ ... وثَالتٌ ضَمَّهُ القَضَـاءُ
ولانَـرَى غَيْرَ زُور قَـولٍ ... أَذَاكَ جَهْلٌ أم ازْدِرَاءُ
رَضِيـتُ باللّهِ ربّـاً ... حَسْبكُمُ البَدْرُ أَوْ ذُكَـاءُ
ماهَذِهِ الأَنْجُمُ السَّوارِي ... إلا عَبَادِيدُ أَو إمَـاءُ
يُقْضَي عَلَيْها ولَيْسَ تَقْضي ... ومالَهَا في الْوَرَى اقْتِضَاءُ

1ـ المقدمة 1333ـ 1334 طبعة د. (علي عبد الواحد وافي).
2ـ المسند : 438.
3ـ نفسه.
4ـ نفسه.





وقد خصص ابن مرزوق في المسند فصلا لهذاالموضوع بدأه بذكر ماكان عليه السلطان أبوالحسن المريني «من التبرؤ من النظر في التنجيم وعدم اعتبار أهله[1]» وقال : «كان الإمام أبو العباس أحمد بن عثمان الأزدي المعروف بابن البناء يفد على مولاي أبي سعيد ـ ومكانه من التعاليم مكانه وشهرته بالتنجيم شهرته ـ فيقيم عنده بالأشهر ذوات العدد وأنا أصابحه وأماسيه فكان مولاي أبو سعيد يقول : العجب من ابني علي لايسأل هذا الرجل عن أمر ولايتحدث معه في شيء، وكان ابن البناء يقول : مارأيت أعجب من هذا الأمير مازادني قط على السؤال عن الحال زيادة[2]» وذكر ابن مرزوق أيضا أن السلطان أبا الحسن كان يتوعد بالعقاب من يحاول النظر بالتنجيم لاختيار وقت خروجه لحركة من حركاته وعندما خرج من تلمسان إلى إفريقية كان وقت الخروج غير مرضي عند أهل التنجيم من حاشيته، ولكنهم لم يقدروا على الجهر بذلك[3] ويرى ابن مرزوق أخيرا أن السلطان أبا الحسن «كان على بصيرة في إنكاره لهذا المعنى لما عم من الافتتان بهذا في كثير من الأقاليم[4]» ولعل ممايدل على هذا الافتتان بالتنجيم في العصر المريني كثرة المصنفات فيه وانتشارها بين الناس، ويعتبر هذا الزجل للكفيف الزرهوني دليلا على هذا الانتشار، فهو تقويم فلكي مستفاد مما توصل إليه العلماء كما يقول، ويقصد بهم علماء الفلك والتنجيم، ويبدو أنه مبني على أن لكل كوكب من الكواكب السبعة يوما خاصا به فالأحد للشمس والإثنين للقمر والثلاثاء للمريخ والأربعاء لعطارد والخميس للمشتري والجمعة للزهرة والسبت لزحل وللمنجمين كلام مفصل في دلالات هذه

---

1. نفسه.
2. نفسه.
3. نفسه.
4. نفسه.





الكواكب على الأشياء ومن الملاحظ أن زجالنا يسمى بعض هذه الكواكب بالأسماء التي أصطلح عليها أهل المغرب، فالكوكب الأحمر هو المريخ والكاتب هو عطارد وكيوان هو زحل.

لقد عثرنا على هذا الزجل ضمن مجموع مخطوط في الخزانة العامة بتطوان يحمل رقم 549 وتفضل صديقنا الفقيه السيد محمد بوخبزة فبعث إلينا بصورة منه جزاه الله خيراً. ونحن ننشره في هذا الجزء المخصص للأزجال عن نسخة وحيدة غير جيدة كما كان الحال مع الملعبة، وفيما يلي نصه :







وَمِنْ كَلَامِ سَيِّدِي عَبْدِ اللَّه الْكَفِيف الزَّرْهُونِي رضِي اللَّه عَنْهُ وَنفَعَنا بِهِ آمِين.

1. يَاسَائِلاً عَنْ كُلِّ مَا فِي العَامْ[1]
نفِيدَكْ بِهَا فِي النَّقْدِ والْكَالِي[2]

2. تَدُور السنُونْ كَدورَة الْأيَّامْ
عِبَارَ فِي هَذَا اللَّفْظ تَمَاَّقلي[3]

* * *

3. أَلاَ فَاسمْعُوا مَاقَالَت الْعُلْمَا[4]
دخُول السَّنَا بالْحَدْ فِيهَا أَخْبَارْ

1ـ صدر هذا المقطع كصدر مطلع أبي مقرع وهو :
ياسائلا جملة مافي العام مما به يهتم من أيام.
ولعل مقصود الكفيف بالعام السنة الشمسية بدليل ذكره مارس وأبريل.
2ـ النقد والكالئ : أي بما يتقدم ويتأخر.
3ـ كذا بالأصل، وعبار: لعل المقصود عبرة أو إشارة.
4ـ العلما : العلماء، السنا : السنة، بالحد : بالأحد.



4. زَمَان الشتّا سَاحي قَلِيل المَا

وفصلُ الرَّبيع شَاتي كَثير الأمْطارْ

5. ووَقْتَ الصيَّفْ يُخْشَى مُرَّ الضُّغْمَا

وزَمانَ الخَريف يَاتي عجاج وغْبَارْ[1]

6. وأَرْيَاحَ الدَّبُورْ تَنْفُخْ علَى الأنعامْ

ويَكْسي جلَيدْ الأرضَ بسرِبَالي

7. يَنْقل الزَّرْع لاكَنْ مايـعْدَامْ

وكذَالِك العَسل ياكلُ نحالي[2]

* * *

8. وإذا دَخلْ عَامكْ بيوم الإثْنينْ

فَلابُدَ مِنْ وَقْت تَكُونْ تُحْصَارْ[3]

9. ويَاتي الفَرَجْ وَالنصرْ وَالتمْكينْ

في مَارِصْ وَأَبْرِيلْ تَحْل الأنْهَارْ

10. وتزخرف الدنيا شمَالْ ويْمينْ

وتُكْسَى حلَلْ منْ بَهجَة الأنْوَارْ

1ـ زمان الشتا : فصل الشتاء، ساحي: صاحي. وفي الأصل : سياحي والضغما : اللقمة، وكأن معنى مر الضغما: العيش المر، وقد تكون : يخشى من الغما أي الغمة.

2ـ الدبور: ريح مذمومة، قالت العلماء : ماأهلك الله قوما إلا بالدبور: والأنعام البهائم : ولعله يقصد أنها تمرض أو تموت، وينقل أي يقل.

3ـ لاندري هل هو حصار الأعراب للسلطان أبي الحسن أم لا.





تَنْظُرْ للزَّرَع بَعْض في بَعْض عَامْ[1]
وَيتْمَرْ ويَقْبلْ خَيْر الإقْبَال
وتَمْلي النّحل أجْباحهَا بإدامْ
والخَيْر الجَديدُ[2] يدْخلْ على البَالْي[2]

* * *

وعَام الثّلاث يَحكْم الاحمر[3]

وإذَا دخَلَ عامُ كنْ في أمَانْ
تَسيحُ السّيول والأدي تَهْمْرْ
عام البقَر والقمْح والكتّانْ
وصيفْ السَّواحل في السّن يبتْر
ويَكْثُر هلاك الناسْ في كلّ مكانْ

وتكونُ زلازلْ والموت في الأنْعامْ
ويكُون الخرِيفْ في الأرض متْوالي
وتصلح بلاد القاهره والشامْ
ومَنْ بَاعَ رخيص لِس يشتري غالي

* * *

أيا سائِلاً عن عامِكَ الأربْعْ
لقد سَألْتَني عَن طَالِع الكَاتِب[4]

---

1. تذكرنا هذه الصورة بصورة شعرية عند القاضي عياض وهي :
انظر إلى الزرع وخاماته   تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة   شقائق النعمان فيها جراح
2. أجباح : جمع جبح، والإدام يقصد به العسل لأنه مما يؤتدم به والبالي : القديم.
3. الأحمر يقصد به المريخ. وعام = عامه وتهمر: تنهمر . ويبتر: يسرع ويبكر.
4. الأربع : الأربعاء والكاتب في اصطلاح المنجمين المغاربة هو عطارد، وقد ارتسمت في الاصل الكتب.



يُري لك البَشائر لَكنه يخْدَعْ

ويجدْبُ وينكر عامكَ الكاذِبْ

لاكَنِ الجَمُوحْ لابُد لو يَرْجَعِ

ومَهْمَا رجَعْ يرَى لكَ الواجِبْ

وتكُونْ لكَ السنَّاَ منْ بدَايع الأعْوَامْ

ويَاتيك الزَّرْع في وَطَا وَجبَالِي

يُسَلّي القُلُوبْ ويعيشّ الأعْوَامْ

يقَوِّي الضَّعيفْ ويعمرَّ الخَالَي

* * *

وَعَام الخَميس يُظْهر لَكُمْ برْهَانْ

وَفِيهِ يُخْشَى بفُلانْ من الآفَاتْ

وَفيهْ يلْتَطِمْ سلْطَان مَعَ سُلْطَان

وَتَاتِي جنُود الطَّيْر بالصَّفَّاتْ

وَسَحَائِبْ قَوِيَّة تَخرَّب البُلْدَانْ

تَفْسِدْ بجيشْهَا حمَلاَتَ ورَاحْلاَتَ[1]

ويَنْفُذْ جميعْ مَاخطَّت الأقْلاَمْ

فَلَيْس يَمْنَعُ سُلْطَانْ ولاَ وَالِي

وَعَامَكْ مبارك مايَقلُّ طْعَامْ

وَصَيْف ملِيح يَجَبَّرْ الخَالِي

* * *

1. أي يصلح الزرع في السهول والجبال ويفرح الناس بكثرته التي تملأ المخازن الفارغة ويعيش عليه الناس أعواما. يلتطم أي يتحارب، بالصافات أي جماعات جماعات والحملات : الفيضانات.





وإِذَا دخَلَ العَام يوْم الجُمْعَا

فلَّيْس بجنَتَ قنِيل كُل بْلادْ

هَنيّاً رَخْيا في القْلُوبْ واسْعا

جمِيل جليل مُشرِقَة الأبْنَادِ

فتِلْك السنَّة تخلَّى من الفَجْعَا

علَى المُسْلِمين ونَعيمها يزْدَادْ[1]

* * *

وعَامَك يكون بالسَّبْت هُو المنْكُور[2]

بسفْك الدمَا والحقْد بين النَّاسْ

وتفر الخلائق للمنع والصُّورْ[3]

(   )

1. واسعة واسعة، جميل : جميلة، جليل : جليلة، الابناد : البنود والفجعا : الفجعة أو الفجيعة وهي المصيبة وجنت : جاناته أي زناتة، ويقصد بني مرين والمعنى واضح تمام الوضوح.

2. هكذا في الأصل، والصور في لهجتنا هو السور، والمنع قد تكون للجمع أي للجامع، ولعل الفرار إلى الجامع والسور للإحتماء بهما عند الفتن والحروب.

3. هكذا في النسخة الموجودة وهو قسم ناقص أيضا.





ينقل الزرع للأكل ما يعدمه، وكذلك للعسر بأكل غالي
وإذا دخل عامك بيوم الأربعاء فلا بد من وقعات تكون نحو
وتنقل الحرج والنحو والتمكين، في مارس وأبريل تعمل الأنهار
وتزهو الدنيا لتمهل ويميز، وتكتسي حللا من بهجة الأنوار
تنظر للزرع بعضه في بعض علامة، ويتم ويقبل خيرا الأقبال
وتملى النحل أجباحها بالدوام، والخير الجديد يدخل على البادي
وعام الثلاث يحكم الأحمر وإذا دخل ... عام كن في أمان
تنبع السيول والأودية ياتهم على البقر والغنم والكتان
وصيف السواحل في السنة بيتر ويكثر هلاك الناس في كل مكان
وتكون زلازل والعرق في الأنعام ويكون الخريف في الأرض متوالي
وتحل ببلاد القاهرة والشام، ومن باع رخيص ليس يشتري غالي
أيا سائلا من عامك الأزتج. لقد سألتني عن طالع الكتب
يري لك البشائر لأنه يخدم ويجد، وينكر عامك الكاذب
لا تخش النجوم لا يرجع ومهما رجع يرى لك الواجب
وتكون لك السنا من بنائع الأعوام ويأتيك الزرع في وطاء وجبال ليد
القلوب ويعيش الأعوام يقوى الضعيف ويعمر الخائف وعام الخميس
لكم برهان وفيه يخشى يعلان من الآفات وفيه يلتقم سلطان معد
وثانية جنود الطير بالصفات وسحاب قوية تخرب البلدان وتفسد نجيد
حملات ورحملات وينفذ جميع ما خطت الأقلام وليس ينفع سلطان
وعامك مبارك ما يقل طعام، وصيف مليح يجبر الخالي وإذا دخل العا
الجمعة وليس يجمد فتدبر كل بلاد هنيا رخيا في القلوب واسعا
جليلا مشرفة الأبعاد، وتلك السنا تخلو من الجمعاء على المسـ
[illegible]





وقيل من نبهه كغزال في البقر وحمار كغول السلوكي كما
نعم لبانهم وخوفهم نزار وحبيس وانما ثم موضع وجرى به ما قيله
سبكنا راسغكه حتى يرجع اللقى اسمها العلوم مكية له
شرق الناس مطيبة وواما الذا الناس تغني
وليس في الكرنز وما بعدها انفعل
تم انتشار الشر بحمد الحمد لله رب العالمين وصلى الله
على سيدنا محمد خاتم النبيين وامام المرسلين وعلى
آله واصحابه وسلم تسليما وكان الفراغ منه
ضحى يوم الجمعة خمسة عشر يوما في شهر الله
تعالى المحرم سنة تسع ثمانية وثمانين والف
ارانا الله والمسلمين خيره وقنا شره ايامه بسعود والحمد
لله رب العالمين على يد كاتبه العبد المذنب المرتجي رحمة
مولاه الغني عبد السلام بن محمد بن قاسم بن حسن بن محمد كان الله له
بجاه سيد المرسلين
م

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد
ومن كلام شيخي عبد الله الكعيبف الزرهوني رضي الله عنه ونفعنا به
آمين

ايا سائلا عن كل ما في العام ، نعيدك بما في النفس والكلام ،
تدور السنون كدورة الايام ، عبارة في هذا اللفظ تماثلي ،
الآجال سمعوا ما قالت العلماء ، خذوا انشاءنا بالتحديد فيها اخبار
زمان الشتاء سباحي قليل الماء ، وفصل الربيع شأنه كثير الامطار ،
ووقت الصيف يخشى من الضغما . وزمان الخريف ما تعلم وغبار ،
وارياح الدبور تنبغ على الانعام ، ويكسي جليدها رض بسر بالي ،

ينتقل





زجل طوق الحمامة

للكفيف الزرهوني كذلك



ـ عثرنا على هذا الزجل في المكتبة الوطنية بمدريد ضمن مجموع مخطوط رقمه 5316، ويبدو أنه من المخطوطات التي نهبها الجيش الإسباني في حرب تيطاوين عام 1860م وهي كثيرة في هذه المكتبة.

لهذا الزجل اسم جميل هو طوق الحمامة، ولسنا ندري هل هو من وضع صاحبه أم هو اسم أطلقه عليه رواته، ومن المعروف أن للإمام ابن حزم رسالة شهيرة بهذا العنوان كما أن السيوطي له رسالة في الحمام سماها طوق الحمامة، وإذا كانت المناسبة ملحوظة بين العنوان والموضوع في رسالة ابن حزم الذي هوالألفة والألاف أو الحب وكانت واضحة في رسالة السيوطي فلعلنا لا نجد علاقة بين هذا العنوان وموضوع زجلنا إلا أن يكون الكفيف الزرهوني ممن يعتبرون هديل الحمام نوحاً وبكاء فتصح المناسبة مع الموضوع لأنه يدور حول أشراط الساعة وعلاماتها والفتن التي تقع في آخر الزمن وأهوالها وهو موضوع يقصد به ـ كما قال بعضهم ـ تنبيه الناس من رقدتهم وحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة، وثمة تفسير آخر يبدو أنه كان موجودا في ديباجة النسخة التي ترجمها ألونسو القستلي[1] ونقل ترجمته مارمول[2] وفيها أن هذه الجفرية الزجلية سميت طوق الحمامة تشبيها لحسن نظامها ورشاقتها بألوان طوق الحمامة[3].

ويدل ما ذكر على أن هذا الزجل وصل إلي الأندلس قديما فقد ذكر مارمول في كتابه «تاريخ ثورات المورسكيين» أن بعض الجنود الإسبان

1ـ انظر. El MORISCO granadino Alonso del Castillo. P. 251.

2ـ انظر. MARMOL, REBELION DE GRANADA : 190 -198

3ـ نفسه.





عثروا في كهف كاستراس Cueva de castaras في البشرّات Alpujarra على أوراق كانت في ملك ابن عبو زعيم الموريسكيين وقائد ثورتهم وقد وُجد بين هذه الأوراق هذا الزجل المسمى طوق الحمامة مع بعض الأجفار التي تتحدث عما يقع في الدنيا من حوادث إلى قيام الساعة ومن المعروف أن بعضها كما ذكر ابن خلدون، يشتمل على ما اشتهر «بين أهل المغرب عن كتب الحدثان أنه لابد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الفرنجة[1]».

وقد كان زعماء الموريسكيين يبشرون الشعب الموريسكي بما ورد في هذه الأجفار من تنبؤات بإعادة الكرة على النصارى والتخلص من قهرهم وأفلحوا في جعل العامة يومنون بها فكانت ثورتهم المعروفة من سنة 1569م إلى سنة 1570م.

وخلال هذه الثورة عثر على أوراق لابن عبو أحد زعماء الموريسكيين في المكان الذي سميناه آنفا، ولمعرفة محتواها كلف قادة الجيش وأصحاب محاكم التفتيش ترجمانا موريسكيا هو ألونسو القستلي بنقلها إلى اللغة القشتالية وحصل على ترجمتها المؤرخ ما رمول فأدرجها في تاريخه المذكور وسنوردها عقب هذا الزجل.

وكما هو معلوم، فإن الإيمان باليوم الآخر وأن الساعة آتية لا ريب فيها ممًّا ورد في أكثر من آية، وفي القرآن الكريم ذكر لبعض أشراط الساعة وهي مفصلة في كتب الحديث، ومنها صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي وابن ماجة والنسائي ومسند أحمد وغيرها. ففيها جميعا كتب الفتن وأشراط الساعة وعلى سبيل المثال فإن كتاب الفتن وأشراط

1ـ المقدمة لابن خلدون.





الساعة في صحيح مسلم يشتمل على خمسين صفحة أو تزيد، وقد ألفت كتب خاصة بالفتن والملاحم، ولكن بعضها ملئ بالأحاديث الموضوعة والأخبار المكذوبة ككتاب الفتن لنعيم بن حماد وهو من شيوخ البخاري ولكنه لم يرو له في صحيحه وقال فيه الذهبي في سير النبلاء: «لا يجوز أن يحتج به» وقال في كتابه: وقد صنف كتاب الفتن فأتى فيه بعجائب ومناكير[1]» وككتاب الملاحم لأبي الحسين أحمد بن جعفر بن محمد البغدادي المعروف بابن المنادي المتوفى سنة 336هـ وفيه يقول المحدث الناقد أبو الخطاب ابن دحية: «وقد ذكر في هذا الكتاب من الملاحم ماكان من الحوادث وماسيكون، وجمع فيه التنافي والتناقض بين الضب والنون، وأغْرب فيما أغرب في روايته عن ضرب من الهوس والجنون، وفيه من الموضوعات مايكذب آخرها أولها، ويتعذر على المتأول لها تأولَها، ومما يتعلق به جماعة الزنادقة من تكذيب الصادق المصدوق محمد صلى الله عليه وسلم أن في سنة ثلاثمائة يظهر الدجال من يهودية اصبهان، وقد طلعنا في أوائل سبعمائة في هذا الزمان وذلك شئ ماوقع ولا كان، ومن الموضوع فيه المصنوع، والتهافت الموضوع، الحديث الطويل الذي استفتح به كتابه، فهلا اتقى الله وخاف عقابه، وإن من أفضح فضيحة في الدين، نقل مثل هذه الإسرائيليات عن المتهودين[2]».

---

1. سير أعلام النبلاء 10 : 600.
2. التذكرة للقرطبي 2 : 341.



وانتقد ابن دحية كذلك المقرئ الشهير أبا عمرو الداني قال : «وكنت بالأندلس قد قرأت أكثر كتب المقرئ الفاضل أبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان المتوفى عام أربع وأربعين وأربعمائة، فمن تآليفه كتاب السنن الواردة في الفتن وغوائلها والأزمنة وفسادها والساعة وأشراطها، وهو مجلد مزج فيه الصحيح بالسقيم، ولم يفرق فيه بين نسر وظليم، وأتى بالموضوع، وأعرض عما ثبت من الصحيح المسموع[1]» ثم ذكر أمثلة مما أورده الداني في خبر الدابة وخروج السفياني وياجوج وماجوج وقال إن أسانيده فيها ظاهرة الوضع والاختلاق وأن رواتها معروفون بالكذب والوضع وقال : «وعظم هذه الدابة المذكورة، وطول ياجوج وماجوج على تلك الصورة، يدل على وضع هذا الحديث بالتصريح، ويقطع العاقل بأنه ليس بصحيح، لأن مثل هذا القدر في العظم والطول، يشهد على كذب واضعه في المنقول، وأي مدينة تسع طرقاتها دابة عرضها ستون ميلا ارتفاعا، وأي سبيل يضم ياجوج وماجوج وأحدهم طولا وعرضا مائتان وأربعون ذراعا[2]». ومن الواضح أن ابن دحية إنما ينكر تلك التفاصيل الباطلة والأحاديث الكاذبة، «وأما حديث الدابة ـ كما يقول ـ فقد نطق بخروجها القرآن، ووجب التصديق بها والإيمان، قال الله تعالى : «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم[3]»».

ولو نظرنا إلى المحتوى العام في قصيدة الكفيف ووزناه بميزان الاعتدال لوجدنا أنه في جملته يمكن رده إلى ماورد في الصحيحين والسنن كما يبدو من الحواشي الخفيفة التي أحلنا فيها على بعض الكتب المؤلفة في الموضوع مثل التذكرة، في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي المفسر المشهور والنهاية في الفتن والملاحم لابن كثير وعقد الدرر في أخبار المنتظر ليوسف بن يحيى المقدسي وغيرها.

1ـ نفسه 2 : 342.
2ـ نفسه .
3ـ نفسه



لقد وجدنا في الزجل الأول أن الكفيف كانت له معرفة بأحوال بلده وإلمام بتاريخه وجغرافيته وسكانه وسياسته، ورأينا في الزجل الثاني مايدل على تعاطيه الفلك والتنجيم والجفر وهو في هذا الزجل الثالث يطرق باباً من أبواب المعرفة الدينية الحديثية هو باب أشراط الساعة والفتن التي تقع في آخر الزمن، وقد تناول الموضوع في نظم سهل يقربه إلى عامة الناس ويترك الأثر في نفوسهم.

ويبدو لي أن استيعابه للمادة ـ كما وردت في كتب الحديث ـ ساعده على نقله من الثقافة العالمة إلى الثقافة العامية، وسوف يصبح هذاالموضوع الوعظي من الموضوعات التي يتناولها شعراء الملحون في قصائد تدعى بالجفريات وهم يذكرون فيها ماتتنبأ به الأجفار أويسردون مايظهر في الوقت من علامات الهرج والفتن التي ورد في الحديث أنها تقع في آخر الزمان وكذلك في القصائد التي تتحدث عن أهوال القبر ويوم القيامة.

لقد سار الكفيف في زجله على نمط الموشح كما فعل في الزجلين السابقين إلا أن الأبيات هنا تتألف من ثلاثة أشطار وهو يفتح هذا الزجل بالصلاة على النبي، وقد رأينا في الملعبة أنه افتتحها بالتسبيح وهو شيء لم نره فيما بين أيدينا من الأزجال التي قيلت قبله وسوف نراه، في القرون التالية في بعض قصائد الملحون التي نظمت في أغراض دينية، ويجيء بعد هذا الافتتاح قوله :

«دع وصف البساتين» و«دع وصف الملاهي..» وهذا يذكّرنا بما هو معروف من أساليب الشعر الجاهلي كقول زهير :

دَعْ ذا وعَدِّ القَولَ في هَرِمٍ   خَيْرِ البُداةِ وَسَيِّدِ الْحَضْرِ

ونحسب أن استعمال الكفيف لهذا التعبير يدل على أنه كان يحفظ شيئا من الشعر القديم، ولعلنا نجد مايؤكد هذا في استعمالات أخرى، ونجد في هذا الزجل كذلك بعض الألفاظ القرآنية والحديثية ولعلنا نلاحظ عدم





حديثه عن الدابة، وهي من أشراط الساعة التي وقع ذكرها في القرآن والحديث وقد يدل هذا على أن الزجل ينقصه شيء من آخره إذ لا نجد فيه وفي الذي قبله ما وجدناه في نهاية الملعبة ويدل على ذلك أيضا أنه يوجد فيما هو مترجم عند مارمول قسم يتحدث عن دخول المسلمين مرة أخرى إلي الأندلس في آخر الزمان ويفتحون مدنها وحصونها ومنها : أنتقيره وغرناطة وإشبيلية ويصلون إلى شقوبية[1].

وهذا القسم الذي لايوجد في نسختنا ويوجد محتواه تقريبا في التذكرة للقرطبي، قال : فإن المهدي إذا خرج بالمغرب على ما تقدم جاءت إليه أهل الأندلس فيقولون : «ياولي الله انصر جزيرة الأندلس فقد تلفت وتلف أهلها وتغلب عليها أهل الكفر والشرك من أبناء الروم فيبعث كتبه إلى جميع قبائل المغرب.. أن انصروا دين الله وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فيأتون إليه من كل مكان ويحييونه ويقفون عند أمره ويكون على مقدمة عسكره صاحب الخرطوم وهو صاحب الناقة الغراء وهو صاحب المهدي وناصر دين الإسلام وولي الله حقا فعند ذلك يبايعه ثمانون ألف مقاتل بين فارس وراجل. فيعبرون البحر حتى ينتهوا إلى حمص وهي إشبيلية فيصعد المهدي المنبر في المسجد الجامع ويخطب خطبة بليغة فيأتي إليه أهل الأندلس فيبايعه جميع من بها من أهل الإسلام ثم يخرج بجميع المسلمين متوجها إلى بلاد الروم فيفتح فيها سبعين مدينة من مدائن الروم...»[2]

ونذكر في الأخير بأن نُسَخَ هذه الأزجال للكفيف الزرهوني تتشابه في رداءة الخط وسوء الكتابة، ولكأن الذين نسخوها لم يكن لديهم حظ من العلم ولهذا عانينا مشقة في نقل زجل طوق الحمامة وتحرير نصه وهو كما يلي :

1ـ انظر الترجمة الاسبانية.
2ـ التذكرة.





بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد

القصيدة المباركة المسماة بطوق الحمامة

لسيدي عبد الله الكفيف رحمه الله تعالى*.

صَلُّوا يَاعِبَادِي عَلَى مُحَمَّد يُحْمَدْ هِيَ[1] عِنْدَنَا زَيْنَ الْمَقَالْ
أَخِيرِ الْبَشَرْ هُوَ[2] مُحَمَّدْ الشَّفِيعْ غَدَا يَوْمَ السُّؤَالْ[3]
دَعْ وَصْفَ الْبَسَاتِن وَالْمُدَامَا[4] وَدَوَاتِ[5] الأَكْلْ وَالْحِجَالْ[6]
وأذكُرْ شِدَّة أَهْوَالَ الْقِيَامَا وَاتَّعِظْ جَهَنَّم بَاشْتِعَالْ[7]

* * *

دَعْ وَصْفَ الْمَلاَهِي وَالْمَلاَعِبْ
وَالثِّيَابِ[8] الرَّفِيعَةَ وَالْمَرَاكِب
وَأَزْيَنَ الْمَوَاكِلِ وَالْمَشَارِبْ

---

* في النسخة المترجمة عند مارمول توجد البداية التالية حسبما في ترجمته وهذا تعريبها : بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وحده ولا شريك معه. هذه [قصيدة] مأخوذة من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم تسمى طوق الحمامة.

1- يعني الصلاة على النبي ويمكن أن يقرأ ماقبلها : محمود محمد.

2- في الأصل : هي.

3- في الأصل : السئال

4- أي البساتين والمدام.

5- أي و أدوات

6- لعلها نطق في الحجان جمع حاجة، وتطلق على حوائج البيت.

7- كذا في النسخة وقد تكون : فاشتغال أي في اشتغال.

8- في النسخة كأنها واتياب.



عُمْرك يَا ابْنَ آدمْ في انْصرَامَا   وَذنُوبك كَبير مِثْلَ الجِبَال
بَالَكَ لاَ تَمُوتْ وأَنْتَ نعامَا[1]   وَتَمْس طَريحْ في ذَا الرِّمَال

* * *

تفَكَّرْ في الزّلازلْ والصوَاعقْ
وأهوَال المْغَارِبْ والمشَارقْ
واعْلَمْ أنَّ خَبَر الموت صَادِق

وتسْيِرْ لِلْقَبْر عَلَى الدعَامَا[2]   سَبْع دُرُوعْ تصبْ بالْكَيال[3]
ويكُونْ مَرْقَدَكْ تحتَ التَّخامَا[4]   والمَلائِك تَاتِيكَ للسُؤَال[5]

* * *

السَّاعَةَ زلازلْ ثُمَّ رَجفَا[6]
وَعَلامَاتْ يَحيرُ النَّاسْ في وَصْفَا
أكْثَرْ مَانطَقْ بها حُذَيْفَا[7]

1. نعاما : نعامة أي كنعامة وهي - فيما يقال - إذا أدركها القناص أدخلت رأسها في الرمل تظن أنها قد استرت منه، وفي الأصل : تعاما ويمكن أن يكون معناها : تتعامى. وتمس أي وتمسي، في ذا = في ذي.
2. أي الدعامة والمراد هنا التي يحمل عليها الميت.
3. يشير إلى مساحة القبر.
4. أي في باطن الأرض، وفي قاموس دوزي : تخم وظلمة.
5. كتبت أولا: للجدال. ثم صححت في الطرة : للسؤال.
6. في القرآن الكريم، «إن زلزلة معروفة الساعة شئ عظيم» وسورة الزلزلة ومن جملة مافي الحديث المروي عن أبي هريرة في صحيح البخاري «وتكثر الزلازل» ورجفا : رجفة والرجفة : الزلزلة.
7. حذيفا : حذيفة، وهوحذيفة بن اليمان ومعظم أحاديث الساعة مروية عنه وفي صحيح مسلم «قال حذيفة بن اليمان والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة ومابي إلا أن يكون رسرل الله صلى الله عليه وسلم أسر إلي في ذلك شيئا لم يحدثه غيري».



قَدْ زَادَتْ عَلَى السَّبْعِين عَلامَا نَقَلُوهَا عَنْ الْهَادي انْتِقَال[1]
الكِبَرَ ثمَانِي عِظَامَا وَالْبَقي صِغَاراً باتِّصَال[2]

* * *

قَدْ سَأَلُوا عَنْهَا النَّبي جمَاعَا
وذكرلَمْ مِنْهَا عِدَّ مُشَاعَا[3]
أَولُهُمْ مِنْهَا صَاحِب الشَّفَاعَا[4]

وَنُزُلْ القَمَر في بْطَحْ تهَامَا مِنْ بَعْدِ انْشِقَاقُ في الزَّوَالْ
هَذَكْ مِنْ عَلامَتْ الْقِيَامَا قَدْ أَفْصَحْ بهَا الْقُرْآنْ وَقَال[5]

* * *

أمَّا شُرُوطُهَا الصِّغَارْ كَثِيره
وَهِيَ اليَوْمِ في ذَا الأُمَّة شَهيره
أَشْهَرِ مِنْ ضِيَا الشَّمْس المُنِيره

1ـ ذكرها بتمامها القرطبي في التذكرة (380 ـ 381) وبدأها بما يلي : «خرج أبو نعيم من حديث حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى اله عليه وسلم : من اقتراب علامات الساعة اثنتان وسبعون خصلة». وعلاما = علامة. وفي الأصل : علما. والهادي : من أسماء الرسول عليه السلام وانتقال : نقلا.

2ـ في تذكرة القرطبي 335 الآيات العظام، وهي عشر في صحيح مسلم : الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم وياجوج وماجوج وثلاثة خسوف : خسوف بالمشرق وخسوف بالمغرب وخسوف بجزيرة العرب ونار تخرج باليمن وقوله : والكبر : الكبيرة، وثماني : ثمانية وعظاما : عظام.

3ـ جماعا : جماعة ولم : لهم عد : عدة أي عدد ومشاعا : مشاعة.

4ـ يشير إلى الحديث : بعثت أنا والساعة كهاتين وفي تذكرة القرطبي (357) مايلي : «وقد ذكر الله الأشراط في القرآن فقال : فقد جاء أشراطها، أي دنت، وأولها النبي صلى الله عليه وسلم لأنه نبي آخر الزمان، وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي» وفي التذكرة أيضاً : «وقال الضحاك والحسن أول أشراطها محمد صلى الله عليه وسلم».

5ـ بطح تهاما : أبطح تهامة وتهامة هي مكة ويقال أبطح مكة وبطحاء مكة، وقد ورد في الحديث عن أنس قال : «سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر بمكة فلقتين فنزلت «اقتربت الساعة وانشق القمر». أنظر الأقوال الواردة في هذا الموضوع في تفسير القرطبي. وانشقاق : انشقاقه. والقياما : القيامة.





قَالَ الْمُصْطَفَى صَحِبَ الْغَمَامَا إِذَا رَأَيْتَ النسا خَلْفَ الرِّجَالْ
يَمشُوا دُون حيَاَ دُون احْتِشَامَا مِثْلَ الدُّهْم في إِنَاث الْبِغَال[1]

* * *

إذِاَ رأيْت الحَرَامْ عَمَّرْ طَرِيقَكْ
وَتْعَادِ أَخَاك وتْطيع صَدِيقَكْ
وَيَكُونْ صهْرَكَ أَقْرَبْ مِن شقِيقَكْ[2]

وترَى المتُّقِين مِثْلَ الْيَتَامَا وَالفُسَاق رءوسهم كالجبال[3]
وَأَصْحَاب الطَّلاَقَات وَالْحَرَامَا تكْثُرْ وينْقَل الحَلاَلْ

* * *

إِذِاَ كَثْرْ الرِّبَاَ وَالسُّحْتْ فِينَا
واتَّخذوا الزِّنَا وَالقَتْل دِينَا
وَتَقَوَّت عقُوق الْوَالدِينا

1ـ في التذكرة للقرطبي (370 ـ 371) البخاري عن معاوية قال : سمعت رسول الله الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين إمرأة القيم الواحد. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي صلى الله عله وسلم قال : ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل بالصدقة من الذهب لا يجد أحداً يأخذها منه ويرى الرجل الواحد يتبعه أربعون إمرأة يلذن به من قلة الرجال وكثرة النساء». وصحب : صاحب والغماما : الغمامة، احتشاما :احتشام، والدهم : السود. والدهم في إناث البغال كثيرة.

2ـ في حديث رواه الترمذي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل فيها البلاء قيل وماهي يارسول الله قال إذا كان المغنم دولا والأمانة مغنما والزكاة مغرما وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه وجفا أباه».

3ـ من الأحاديث الواردة فيما ذكر حديث «لاتقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس لكع ابن لكع» وحديث «سيأتي على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة. قيل يارسول الله وما الرويبضة قال : الرجل التافه ينطق في أمر العامة» والحديث الذي ذكره أبو عبيد في الغريب وهو «لاتقوم الساعة حتى يظهر الفحش والبخل ويخون الأمين ويؤتمن الخائن وتهلك الوعول ويظهر التحوت. قالوا يارسول الله وما الوعول وما التحوت؟ قال : الوعول الناس، والنحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس لايعلم بهم» التذكرة 2 : 374 ـ 375 وقوله : مثل اليتامى يعني مساكين، وقوله : رؤوسهم كالجبال في الطول والمعنى أنهم صاروا مكتبرين وفي القرآن الكريم : «إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا». وقوله : وأصحاب الطلاقات. لست أدري أهي ميادين السباق وهي جمع طلاق أم أنها جمع طلاق بالمفهوم المعروف.





وارتفعت أُنُوف أَهْل الظَّلاَمَا   وتَرى المومن الطِّيّبْ يُذَالْ[1]
وَالْعَالِمْ فَلاَ يَلْقَى سَلاَمَا   حَتَّى يَخْدم أَرْبَابَ الضَّلاَلْ

* * *

إِذَا رَأيْتَ تَفْرِيط المَسَاجِدْ[2]
وَاتَّخذُوا النَّاسْ خرقَ الْعوَايد
وَاصْحَبَ الْعَمُودْ سَكَنُوا الْقَرَامِدْ[3]

وتَرَى الأُمّْ فِي حَال قَهْرَامَا   تَخدْم بِنْتهَا عِنْدَ الرِّجالْ
ويعُقّ الوَلَدْ بعد ارتِحاما   ويطِعْ زوجتو في كُلِّ حَالْ[4]

* * *

1ـ أهل الظلاما أي الظالمون، وارتفعت أنوفهم معناه شمخوا بأنوفهم تكبُّرا. وبذال أي يذّل.

2ـ في حديث رواه الترمذي : «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل فيها البلاء» منها : «وارتفعت الأصوات في المساجد» وفي حديث آخر: «وأن تتخذ المساجد طرقا» وتفريط المساجد إهمالها.

3ـ في حديث جبريل المشهور «وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» وأصحاب العمود هم أهل الخيام، والقرامد من زينة القصور.

4ـ في الحديث نفسه «أن تلد الأمة ربتها» وقهراما : قهرمة أي مدبرة البيت وخادمته. وفي الأصل : انهرما ما وارتحاما : ارتحامه أي رحمه. وقد أوردنا آنفا الحديث الذي فيه : «وأطاع الرجل زوجته وعق أمه».



دَهْر قَدْ سَبَقْ ذَيلُو لـرَاسوا[1]
وَالصَّاحِبْ يَنْكرْ فِي أَنِيسُوا
وَلاَيَامَن الإنْسَانْ في جَلِيسُوا[2]

وَتْجَرَّدْ لَهَا الْفِتْنَةَ حُسَامَا والأمْطَار في وَقْتها قْلاَلْ
وَتْرَى الدينْ غَرِيبْ وَأَهْلُ كَالشَّامَا [أوْ] مِثْل الشيِّبْ في الشعر الكُوحَال[3]

* * *

دَهْر يَرْتَفَع فيه الْحِجَاب
وَتَرَا النَّاس ذِياباً في ثِيَاب
مَنْ كَانْ ذَيبْ أَكَلْ مَعَ الذِّيَاب[4]

1ـ ورد في حديث : من أشراط الساعة أن ترى رعاء الشاء رءوس الناس» وفي حديث آخر : لاتقوم الساعة حتى تعلو التحوت وتهلك الوعول» التحوت : الأراذل. والوعول : الأشراف. وذيل : ذيله، ولراسو : لرأسه.

2ـ ورد في حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده منه «أيام الهرج حين لايأمن الرجل جليسه» 1 : 448 : وفي أنيسو : في أنيسه، وفي جليسو : في جليسه

3ـ من أحاديث الفتن : «ويل للعرب، من شر قد اقترب، فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مومنا ويمسي كافراً يبيع قوم دينهم بعرض من الدنيا قليل، المتمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر» المسند 2: 390 ـ 391 وفي الحديث أيضا:«بدئ الدين غريبا وسيعود غريبا». وحساما : حسامها، وأهل : أهله، كالشاما : كالشامة وهي الخال، والكوحال : الكحل أي السود .

4ـ وجدت هذا في جفرية مغربية مخطوطة تذكر أنه حديث وتنسب روايته إلى الإمام علي وفيها : «ياعلي ويكون الناس ذئابا في ثياب، من كان ذئبا معهم أكل مع الذئاب ومن لم يكن ذئبا أكلته الذئاب» (مخطوطة عندي) ودهر : زمن، ويرتفع : يرفع.





وَجَارَ الفَقْرُ في النَّاسِ الكِرَامَا   وَانْتَقَلَ المَالُ عِنْدَ البُخَّالْ
واكْفُفْ العطَا رَجْعَت جِمَامَا   وانقـلُّ وكثْرُ أَهْل السُّؤَال[1]

* * *

كَـانَ المُصْطَفَى مَهْمَا نطَقْ بِـه
تَسَابَقَتْ دُمُوع عَيْنِه في خَدِّيه
وَيَقُول كِيفْ يَكُونْ مَنْ خلق فيه

وادْكُرْ رَعْدا وَصِفْ قِـيامَا مَجْرهـا علَى الـمْـاء وَالرِمَال
وَدُخَانْ يَنْتَشِرْ في الأَرْض عامًّا وَيَخْرَق مَدْونْ أهل الشمال[2]

* * *

واذْكُرْ خَسْف يَنْزِلْ بالْحِجَاز[3]
وَالآخَـرَ بـذِي الغَرْب المجازْ
وتَظْهرْ قَنْطَرَة قَصْر الجَواز[4]

1ـ وجار الفقر : هكذا في الأصل، ولعل معناها غلب عليهم الفقر، والكراما : الكرام، والبخال : جمع باخل أما البخلاء فهي جمع بخيل، واكفف ـ وأكف وجماما أي خاوية، وانقل : وقلوا ولعلها تعود على أكف العطاء.
2ـ لم أقف على هذا الحديث في كتاب الفتن في صحيح مسلم. وقوله : به أي باليوم الآخر وتسابقت : جرت، ومن خلق فيه أي من وجد فيه.
3ـ من أشراط الساعة : «دخان يملأ مابين المشرق والمغرب فأما المومن فتصيبه زكمة وأما الكافر فيصيبه مثل السكران يدخل في منخره وأذنه وفيه ودبره» عقد الدرر 340 وقوله : قياما أي قيامها، ومجرها = مجراها، وعاما أي عامة ويخرق أي يخترق، ومدون = مدن.
4ـ في حديث حذيفة «لاتقوم الساعة حتى تكون عشر آيات» منها : «وثلاث خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب»
5ـ يروى في بعض المصادر الأندلسية والمغربية أنه كانت توجد قنطرة بين بلاد الأندلس وبين ساحل طنجة وأنها غرقت بزيادة ماء البحر، والناس يقولون لابد من ظهورها قبل فناء الدنيا وأنها ستنكشف في آخر الزمان ويجوز عليها الناس» أنظر الروض المعطار : 295 ـ 396.





وَاذْكُرْ منَ فتُوح [أهل] الاسْتِقَامَا   لقُسْطَنْطينيَـة الـرّوم الحُيَّالْ
وتَرَى المُسْلِمِينَ شهرَتْ علامَا   فَوْقَ رومَا وتاخذْ بُرْتُقَالْ[1]

* * *

تَكْثُرْ عِنْدَ الاسْلاَمَ الَغنايمْ
الأَحْجَرْ فَالدَنَانيرْ والدراهم
حَتَّى يقَسْمُ بِالتَّرْس قَاسمْ[2]

فَإذَا بلَغَت الدُّنْيَا تَمـَامـَا   جَاها النَّقْص منْ بَعْد الكَمَالْ
تُطْبَع القُلُوبْ عَلَى ختَامَا   والمَالْ حين يرَاه العَبْد مال[3]

* * *

1ـ جمع ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم عددا من الأحاديث التي تتنبأ بفتح القسطنطينية وروما وتعد فتحها من علامات الساعة وتنسب الفتح إلى المهدي المنتظر (1 : 71ـ 82) ويوجد مثل هذا في التذكرة للقرطبي 350 ـ 354 ومن المعروف أن معاوية بن أبي سفيان بعث إلى القسطنطينية ابنه يزيد في جيش كان فيه الصحابي أبو أيوب الأنصاري ولم يتفق فتحها وحاصرها مسلمة بن عبد الملك بن مروان ولم تفتح أيضا وبقيت إلى أن دخلها العثمانيون بقيادة السلطان محمد الفاتح عام 857هـ والاستقاما : الاستقامة، والحيال : لعل معناها أصحاب الحيل، وعلاما : علمها. وروما : لعل المقصود بها رومية أي القسطنطينية. وفي كتاب الجهاد من صحيح البخاري قال النبي صلى الله عليه وسلم أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم» وبرتقال : البرتغال.

2ـ في المصدر السابق (1 : 82) : وقال إسماعيل بن أبي أويس حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ستقاتلون بني الأصفر ويقاتلهم من بعدكم من المومنين أهل الحجاز حتى يفتح الله عليهم القسطنطنية ورومية بالتسبيح والتكبير يتهدم حصنها فيصيبون مالم يصيبوا مثله قط حتى إنهم يقتسمون بالأترسه». والأترسة جمع ترس والأحجر : الأحجار الكريمة.

3ـ تماما : تمامها، وجاها : جاءها، وهذا كقول الشاعر :

إذ تم شيئ بدا نقصه   ترقب زوالا إذا قيل تم

وقول الرندي : لكل شيء إذا ماتم نقصان. وختاما : ختامها. وتطبع القلوب : من قولهم : طبع الله على قلوب الكافرين، وقوله مال : هكذا رسمت في الأصل وقد تكون حال.





فَإذَا اخْتَلفَتْ العُمَّالْ عَلى الرَّاسْ
قَام ذُوالعُرْف في أرضُ عَلى النَّاسْ
حَتَّى تبلغ الكَسْرَ إلَى فَاس[1]

فَإذَا بَلغُوا النَّاسْ بانهزاما جَبَلَ الفَتح صَابُوا البَحْرْ هالْ
يَقْطع بالعَسَاكِرْ منْ أمَامَا والسُّيُوفْ عَنْ يمين وَشمَال[2]

* * *

يَنْجُو أَهْلَ المَال في القَرَاقِرْ
وَالضُّعفا تحيطْ بهم الدَّوَايْر
إذا جاءتَهْم الرُّوم بالبَوَاتِر[3]

1ـ جاء خبر ذو العرف في سياق حديث يروى عن أبي سعيد الخدري أورده القرطبي في التذكرة 2 : 358 ـ 359 وجاء فيه بعد خروج المهدي المنتظر وظهور خيرات السماء والأرض وذهاب الغلاء والقحط أنه يجوز إلى الأندلس ويقيم فيها ويملكها تسع سنين ويستفتح فيها سبعين مدينة من مدائن الروم ويغنم رومية وكنيسة الذهب فيجد فيها تابوت السكينة وفيه غفارة عيسى وعصا موسى عليهما السلام فيكسرون (يعني المسلمين) العصا على أربعة أجزاء فإذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم النصر والظفر، ويخرج عليهم ذو العرف في مائة ألف مقاتل بعد أن يتحالف الروم أنهم لايرجعون أو يموتون فينهزم المسلمون ويهربون من الأندلس يريدون العدوة فإذا اجتمعوا على ساحل البحر ازدحموا على المراكب فيموت منهم خلق كثير فينزل الله إليهم ملكا في صورة إبل فينجو من نجا ويغرق من غرق» وانظر هذه الرواية أيضا في ص 354 وختا : ختامها، والعمال : الولاة والراس : الرئيس والأمير، والكسر : الكسرة أي الهزيمة.
(41 ـ 42) بلغوا الناس : بلغ الناس على لغة أكلوني البراغيث، بانهزاما : بانهزامها، وفي الأصل بالهزيما جبل الفتح : جبل طارق، صابوا : أصابوا أي وجدوا. أماما : أمامها، القراقر : جمع قرقورة وهي نوع من السفن، وتحيط بهم الدواير : تدور بهم الدوائر أي يهلكون، والبواتر : السيوف.





يَنْزِلْ مَلكْ مَخفِ العَلامَا في صِيفَة راجلْ مِنْ ذَا الجِبَالْ
يَضْرب البَحْر يَنْشق قَامَا عِنْدَ القَنْطَر الدَّي تُقَال

يَنْجَا الثُّلْث مِنْ ذا الْخلق عَامَّا
والثُّلْتَيْن تَفْنيه السُّيُفْ والّمَا
حَتَّى تَبْلغ الرُّوم فَاسْ بِحُكْمَا[1].

* * *

فَإذَا جَازَ سَواد الغَرْب رَامَا دِينَ الْحَق وَاسْتَسْلم وانتقالْ
واثْنَاتْ الحَنيفِية حُسَامَا وانقَلَبَتْ عَلى الرُّوم الحِيَالْ[2]

ثُمَّ يحجُ دَا المَهْدي المُكَرَّمْ
بِالأُمَّة إلى البَيْت المُحَرَّمْ
فَإذا طَافَ اعلَمْ بزَمْزَمْ[3]

1ـ ورد في سياق أثر سبق ذكره «فينزل الله ملكا في صورة إبل فينجو من نجا ويغرق من غرق». ومخف : مخفي، والعلاما : العلامة، وفي صيفة : في صفة، وراجل : رجل، وقاما : قامة، والقنطر : القنطرة، الدى : تستعمل في محل التي. وينجا : ينجو، وعاما : عامة، وتفنيه : يفنيه، والسيف : السيوف. وبحكما : بحكمها. والمقصود بالقنطرة تلك التي يقال بأنها كانت موجودة في بحر المجاز.

2ـ جاز : قطع وتجاوز، وسواد الغرب : لعله بلاد الغرب التي كان معظمها غابة، وراما : رام، ومعناها هنا خضع، ودين الحق : الإسلام، وانتقال : وانتقل، واثنات : وثنت أي وطوت، وحساما : حسامها، والحيال : الحيل.

3ـ في حديث يروى عن أبي هريرة قال : «يبايع المهدي بين الركن والمقام» أخرجه أبو عبد الله نعيم بن حماد في كتاب الفتن ونقله عنه يوسف بن يحيى المقدسي. أنظر كتابه عقد الدرر: 226.



يظْهَر الدَّجَال الأَعْوَر[1] وَقَامَا بَعْد سَبْع سِنِين جَدْبًا عِطَال[2]
لافَاكها وَلاَ خُضْرَ وَلاَمَـا إلا عند ذا الشيخ الضَّلاَلْ

* * *

يَغْرِص بِالْيَمِينْ يَجْنِي بِالإسْرا
يَحْرِثْ لِلْعَشى يَحْصدْ لبُكْـرا[3]
وَيـقُول لِلْقَـتيل احْيَ فَـيَبْرَا[4]

يَزْعَم أنه صحب العظَامَا سُبْحَانَ الذِّي مَالُ مِثَالْ
مِن طَاعُ فَلاَ يَلْقَى سَلاَمَا مَاتْ كَافِر في جهنَّم يغْتَسَال[5]

* * *

1. سرد القرطبي في التذكرة (394 ـ 399) أحاديث عديدة في أن الدجال أعور وفي حديث «كأن عينه عين طافية» وفي حديث أخر «كأنها زجاجة خضراء» والأعور في الأصل : الاعوار.
2. أورد القرطبي في التذكرة أيضا (395 ـ 396) حديثين في أولهما أنه قبل خروج الدجال تكون ثلاثة أعوام تمسك السماء في العام الأول ثلث قطرها والأرض ثلث نباتها وفي العام الثاني تمسك السماء ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها وفي العام الثالث تمسك السماء قطرها والأرض نباتها حتى لاتبقى ذات ضرس ولاذات ظلف إلا ماتت. وفي بعض الروايات : يمسك الله المطر وجميع النبات فما ينزل من السماء قطرة ولا تنبت الأرض خضرة ولا نباتا حتى تكون الأرض كالنحاس والسماء كالزجاج» ،انظر مثل هذا في كتاب عقد الدرر، في أخبار المنتظر : 263 ـ 264. وقوله : وقاما : وقام، وجدبا : جدبة، وعطال : خالية ليس فيها شيء والشيخ الضلال : الدجال.
3. في حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه : أن الدجال يأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ماكانت دراً وأسبغ ضروعا وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحْل» النهاية 1 : 139 ويغرص : يغرس، بالإسرا : باليسرى.
4. في الحديث نفسه «ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك» عقد الدرر 260.
5. أي أن الدجال يدعى الربوبية ويقوم بعمل أشياء تفتن الناس في عقيدتهم كإحياء الموتى وللتحذير منه ورد في الحديث بأنه أعور وأن الله ليس بأعور. راجع التذكرة للقرطبي 2 : 3 40، 408 والنهاية 1 : 139. وصحب العظاما : صاحب العظمة، وفي الأصل : صح العظاما، ومال : ماله. وطاع : أطاعه، ويغتسال : يغتسل : ولعله يشير إلى غسلين في القرآن الكريم وهو ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم.





يَاتِ النَّاسْ عَلَى الجُوعْ وَالْمَخْمَاصَا
وَنَعتْ بِواحِدِ الْعَيْنْ خَاصَّا
مَكْتُوب في جَبِينُ جَايِرْ وَعَصَا[1]

وَعَلَى راسُ قَصْعَ طَعَامَا دَارَتْ مِثْلْ مَادار الْهِلالْ
وَتَرَى النَّاسْ وَرَاهْ حَسْرا الأَكْمَاما أَكْثَرْهُمْ حَشُومَاً وعِيَال[2]

يَمْشِي بِحِمَارِه ذات عَبْرا
تَرمِي رجلها مَدّ بَصَرا
ثَلاثَة أَيَّام ودَارْالأَرْض دَوْرَا[3]

1ـ في الحديث أن الدجال مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن كاتب وغير كاتب. النهاية 1 : 138 والدرر : 257. والمخماصا : المخمصة أي المجاعة.

2ـ ورد في حديث أن معه الطعام والأنهار وفي حديث آخر أن معه جبالا من خبز ولحم ونهرا من ماء. النهاية 1 : 138. أما خبر القصعة فلم أقف عليه. قصع : قصعة، حسر الأكمام = حاسرة الأكمام (يعني طلبا للأكل) حشوما : حشم أي خدم وعيال أي أطفال.

3ـ في حديث الدجال أنه «له حمار أحمر طوله ستون خطوة مد بصره» وفي حديث آخر: «وله حمار يركبه عرض مابين أذنيه أربعون ذراعا» أنظر عقد الدرر: 274، 266 والتذكرة 2 : 396 والنهاية 1 : 104.





وَمَعُ زَوْجْ وِيدَانْ مُسْتَدَامَا   واداً مِنْ نَارْ ووادْ إلاَّ بْحَرْ هالْ
مَنْ جَا يَدخل الْما بِاقْتِحَامَا   وجَد النَّار ووجَد الْمَا زُلاَل[1]

* * *

الْعَنْوا اليَهُودْ والشيخ[2] مَنَّمْ
فَإِذَا جازوا وَرَدّ الصُّبْحَ مَظْلَّمْ
يَبْعَثْ اللَّهْ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمْ

يَلْتَقِيه عَلَى طَرف الشَّامَا   إذا رَآه يَذُوبْ مِثْل الـرِّغَالْ
وَتْصِيح الْحِجَارَة وَالأكَامَا   هَاذَا الشَّيْخ مِنْ أَهْل الضَّلال[3]

* * *

1ـ في حديث رواه مسلم 4 : 105 أن الدجال «معه نهران يجريان أحدهما رأي العين ماء أبيض والآخر رأي العين نار تتأجج فإما أدركن أحدكم فليأت الذي رآه نارا وليغمض ثم ليطأطئ رأسه فيشرب فإنه ماء بارد» وتوجد روايات أخرى. أنظر ما في النهاية 1 : 93 والتذكرة 2 : 403 والدرر 258 نقلا عن الصحيحين والسنن. ومع : ومعه، زوج ويدان أي وادان، إلا بحر هال أي مثل البحر إذ هاج.

2ـ في مسند أحمد «يخرج الدجال من يهودية أصبهان معه سبعون ألفا من اليهود» أنظرالنهاية 1 : 116 والشيخ يعني به الدجال وقد نعته قبل بشيخ الضلال، ومنم : منهم وهذه لهجة جبالة التي ينتمي إلى منطقتها الكفيف الزرهوني.

3ـ في الحديث أن عيسى ينزل ببيت المقدس وأن الدجال يذوب كما يذوب الماء في الملح إذا نظر إلى عيسى. وفي حديث آخر : فإذا رآني يذوب كما يذوب الرصاص وينطلق هاربا فيدركه ويقتله ويقتل المسلمون أتباعه «حتى إن الحجر والشجر يقول يامسلم إن تحتي كافرا تعال فاقتله». وفي حديث آخر «ويهزم الله اليهود فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا انطق الله ذلك الشيء وقال ياعبد الله المسلم هذا يهودي فتعال اقتله.» الدرر 270 والنهاية 1 : 160، نقلا عن مسلم وغيره. والشاما : الشام، والأكاما : الأكام. والرغال : طبقة النحاس أو الذهب أو الفضة التي يغشى بها.





يَبْقَا المُجْتَبَا عيسى سِنينا[1]
الأَوْلادْ بالأرقَامْ لاَ عِبِينـَا
وَالـذَّيْب وَالغنَم متلائـِمينَا[2]

بِشَرِيعَــة مُحَمَّـد بِالْتِـزَامَـا يُفْتي في القَضَا مَهْمَا يُسْئَال[3]
وَيقَدِّم على الصلاَ إِمَامَـا مِنْ أُمَـةْ مُحَمَّد لاَ يـزَال[4]

* * *

يَسْلَمْ في زَمَانْ كُـلْ كَـافِرْ
فَـإذَا بـأَهْل الأَرْض دَائِـــرْ
قَـامْ عيسَى لِجَبَل الطُّور سَادِر[5]

1ـ المجتبا : المجتبى أي المختار ويقصد عيسى. وسنينا : يمكن أن تكون ستينا وبالأرقام : بالأرقم أي الحية، ومتلائمين : متوافقين. وفي الحديث أن أيام عيسى أربعون سنة وقيل غير هذا والسنة كالشهر والشهر كالجمعة، وأخر أيامه كالشررة يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي. أنظرسنن ابن ماجة في باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم وخروج ياجوج وماجوج من كتاب الفتن 2 : 1359 ـ 1363. وهو في الدرر 271.

2ـ ورد في الحديث المشارإليه قبله وتنزع حمة كل ذات حمة حتى يدخل الوليد يده في فم الحية فلا تضره هو الوليدة الأسد فلا يضرها ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها ».عقد الدرر 271.

3ـ في المسند ج 2 ص : 290 ينزل عيسى بن مريم في فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويضع الخراج وينزل بالروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما » وفي حديث آخر أنه يدعو الناس إلى الإسلام. وأنظر كلام القرطبي في التذكرة 2 : 413 ـ 415.

4ـ ورد في الحديث : «كيف أنتم إذا نزل فيكم عيسى وإمامكم منكم» أخرجه البخاري 6 : 3449 وأحمد 2 : 336. وبالتزاما : بالتزامها، في القضا : في القضاء أي الأحكام.

5ـ ورد في باب ذكر الدجال وصفته ومن معه من صحيح مسلم : «عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ثم قال : «فبينما هو كذلك إذا أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إني قد أخرجت عباداً لي لايدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور.» الدرر : 301. والتذكرة 2 : 422 وفي زمان : في زمانه وقوله وقوله دائر أي دائرة يعنى محنة، وهي ظهور ياجوج وما جوج. وسادر : متحير.





يُخْرَقْ سَد يَاجُوجْ بِانْتِقَامَا[1]   وَيَفِيضوا عَلَى أعداد الرِّمَالْ[2]
مِنْهُمْ بعض داقِّين كالقُلامَا   مِنْهُمْ بَعْضُ كَالنَّخْلْ طِوالْ

* * *

وَمِنْهُمْ بَعْض كالـبقَّات تـقولْ
وآخَرِين في السَّمَا رَاسَم يجولْ
وبعض استَوَوا عَرْضًا وَطُـول[3]

هُـمْ أَرْبعمائـة أُمـه عِظَـامَا   مَا مِنْهُمْ مِثَالْ يُشْبِه مِثَال[4]
وَعَلَى بَعْضهـم آذَان جِسَـامَا   يفرش حال ويتْغَطّ بِحَال[5]

* * *

أَرْضهُمْ مِنْ ثَمَانين عَام وطاها
هُمْ فِيهَا كالنَّبل في غشاها
يـنتظروا التَّعابر فـي مـاها

1ـ خروج ياجوج وماجوج مذكور في القرآن الكريم في قصة ذي القرنين من سورة الكهف، وفي سورة الأنبياء : «حتى إذ فتحت ياجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد». ووردت فيهم آثار عديدة في أبواب الفتن من كتب الحديث وقوله : بانتقاما = بانتقامها.

2ـ في حديث أنه «مايعلم عدتهم إلا الله عز وجل (الدرر : 310) وفي حديث آخر : «فتمتلئ الأرض منهم حتى لايكون للطير موضع تقر فيه» الدرر: 311.

3ـ ورد في حديث أنهم على ثلاثة أصناف على طول الشبروعلى طول الشبرين، وثلث منهم طوله وعرضه سواء (التذكرة : 431) وفي حديث آخر صنف منهم كشجر الأرز الطوال مائة ذراع بلا غلط، والصنف الثاني طوله مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعا والصنف الثالث منهم وهم أكثر عددا قصار يلتحف أحدهم بإحدى أذنيه ويفترش الأخرى. (عقد الدرر : 310) وداقين : أي صغار، كالقلاما : بضم القاف أي كالقلامة وهي مايسقط من تقليهم الأظفار أو بفتحها أي كالقلم راسم = رأسهم.

4ـ في الحديث نفسه قبله : هم أمم كل أمة منهم أربعمائة ألف نفس (الدرر : 310) وفي حديث آخر : ليس منها أمة يشبه بعضها بعضا. التذكرة (2 : 431).

5ـ في الحديث السابق «يلتحف أحدهم بإحدى أذنيه ويفترش الأخرى».



يَتغدَّوا لَحْمها مَعْ عِظامَا ولباسْهُم جلْدها والنِّعالْ
مَنْ ذاقْ مِنْهُمْ كاس الحِمَامَا أَلْف وَلَدْ يخَلّي في الرِّجالْ[1]

* * *

تَخْرُج طَائِفَة مِنْ ذَا المُضَرِّينْ
تَشْرب بَحْر أرْض الهنْد والصّينْ
وَتْجي طائفة تَلْحَس الطّين[2]

فَيقولْ آخِرهم مااهنَا مَا وَيَقُولْ ذَا لِذَا هَذَا مُحَالْ
مُقَدَّم الأوَّلْ بأَرْض شَامَا وَالآخر بِبَغْدَاد كالْجِبَالْ[3]

فَإِذَا طَافَت السَّبْع الأَقَالِمْ
مِنْ يَاجُوجْ وَمَاجُوجْ الطَّمَاطم
تَنْبُتْ لُمْ دَمَامِل في الجماجِم[4]

---

1. في الحديث «لايموت الرجل منهم حتى يرى من عينيه ألف عين تطرف» (الدرر: 310). وفي حديث آخر «فلايموت رجل إلا ترك ألفا من ذريته فصاعداً» (الدرر: 309).
2. في حديث أنه «يمر أولهم بنهر مثل دجلة ويمر آخرهم فيقول قد كان في هذا النهر مرة ماء» (الدرر: 308) وفي حديث آخر فيأتي أولهم البحيرة فيشربون مافيها من ماء ويأتي أوسطهم عليها فيلحسون ماكان فيها من طين ويأتي آخرهم فيقولون قد كان هاهنا ماء» التذكرة 2 : 430.
3. في حديث «مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان». وساقتهم : آخرهم. التذكرة 2 : 432.
4. في حديث حذيفة «فيبعث الله تعالى عليهم دوداً يقال له : النغف فيدخل في مناخرهم حتى يدخل في الدماغ فيصبحون أمواتا» الدرر: 307 والسبع الأقالم = الأقاليم، وهي التي تتألف منها المعمورة. عند الجغرافيين القدماء، والطماطم : الذين لا يفصحون، وتنبت أم أي لهم.





فيموتُوا وتَعْلَى الأرْضْ غمَامَا ريحـهُم قَبِيحَ لاتُحتَمالْ
فيسُق الله مطراً جسَاماً ويَغْسل الأرْض من ذَا الخمَال[1]

* * *

فإذَا خلَفُوا ذَا الأرْض جدْبا
لافَاكِهَ ولاَبَقرا ترَأبَّا
تَطْلَعَ شمسنا من جو غرْبَا

تُغْلَقْ عِنْدَ رُؤْيَة ذَا العَلامَا بابَ التوبة الرَّاجيا المُحَالْ
مَنْ لا خاذْ طريق الاستِقاما قبل أن يغلق الباب لايقال[2]

* * *

1. في الحديث أنه «لايبقى في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم» وفيه أيضا «ثم يرسل الله تعالى مطرا لايكن منه بيت مدر ولاوبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة» الدرر : 302 ـ 303 وقوله فيموتوا : فيموتون، وتعلى : وتعلو، وغماما : غمامة، فيسق : فيسوق أي يرسل والخمال = الوسخ.

2. يقول البخاري عند تفسير قوله تعالى«يوم ياتي بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها» حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد الواحد حدثنا عماره حدثنا أبوزرعة حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل» وفاكه : فاكهة، وأبا أي مرعى وغربا : غربها، وجو : جهة، والعلاما : العلامة.



لأن الشمس قالوا في مَبْدَاها
إلى وقعت من بَحر سَماها
تسلبها الملائكة من ضِيَاهَا[1]
.... [2]

1ـ ذكر أبو إسحاق الثعلبي وغيره من المفسرين حديثا طويلا عن أبي هريرة نقتبس منه مامعناه أن الشمس تحبس وتستأذن من أين تطلع فلا تجاب ويوافيها القمر فيسجد معها ويستأذن من أين يطلع فلا يجاب فإذا ثم لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله تعالى إليهما جبريل عليه السلام فيقول إن الرب سبحانه وتعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغربكما فتطلعا منه وإنه لا ضوء لكماعندنا ولانور. وللمزيد من الفائدة نورد ما جلبه الطبري في تاريخه حول هذا الموضوع قال من حديث طويل حول الشمس والقمر : يروي عن ابن عباس : «.. فلا تزال الشمس والقمر كذلك من مطالعهما إلى مغاربهما إلى ارتفاعهما إلى السماء السابعة العليا إلى محبسهما تحت العرش حتى يأتي الوقت الذي ضرب الله لتوبة العباد فتكثر المعاصي في الأرض ويذهب المعروف فلا يأمر به أحد ويفشو المنكر فلا ينهى عنه أحد فإذا كان ذلك حبست الشمس مقدار ليلة تحت العرش فكلما سجدت واستأذنت من أين تطلع لم يحر إليها جواب حتى يوافيها القمر ويسجد معها ويستأذن من أين يطلع فلا يحار إليه جواب حتى يحبسهما مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر فلا يعرف طول تلك الليلة إلا المتهجدون في الأرض وهم حينئذ عصابة قليلة في كل بلدة من بلاد المسلمين في هوان من الناس وذلة من أنفسهم فينام أحدهم تلك الليلة قدر ما كان ينام قبلها من الليالي ثم يقوم فيتوضأ ويدخل مصلاه فيصلي ورده كما كان يصلي قبل ذلك ثم يخرج فلا يرى الصبح فينكر ذلك ويظن فيه الظنون من الشر ثم يقول فلعلي خففت قراءتي أو قصرت صلاتي أو قمت قبل حيني قال ثم يعود أيضا فيصلي ورده كمثل ورد الليلة الثانية ثم يخرج فلا يرى الصبح فيزيده ذلك إنكاراً ويخالطه الخوف ويظن في ذلك الظنون من الشر ثم يقول فلعلي خففت قراءتي أو قصرت صلاتي أو قمت من أول الليل ثم يعود أيضا الثالثة وهو وجل مشفق لما يتوقع من هول تلك الليلة فيصلي أيضا مثل ورده الليلة الثالثة ثم يخرج فإذا هو بالليل مكانه والنجوم قد استدارت وصارت إلى مكانها من أول الليل فيشفق عند ذلك شفقة الخائف العارف بما كان يتوقع من هول تلك الليلة فيستلحمه الخوف ويستخفه البكاء ثم ينادي بعضهم بعضا وقبل ذلك كانوا يتعارفون ويتواصلون فيجتمع المتهجدون من أهل مسجد من مساجدها ويجأرون إلى الله عز وجل بالبكاء والصراخ بقية تلك الليلة والغافلون في غفلتهم حتى إذا ما تم لهما مقدار ثلاث ليال للشمس وللقمر ليلتين أتاهما جبرائيل فيقول إن الرب عز وجل يأمر كما أن ترجعا إلى مغاربكما فتطلعا منها لأنه لا ضوء لكما عندنا ولا نور قال فيبكيان عند ذلك بكاء يسمعه أهل سبع سموات من دونهما وأهل سرادقات العرش وحملة العرش من فوقهما فيبكون لبكائهما مع ما يخالطهم من خوف الموت وخوف يوم القيامة قال فبينا الناس ينتظرون طلوعهما من المشرق إذا هما قد طلعا خلف أقفيتهم من المغرب أسودين مكورين كالغرابين ولا ضوء للشمس ولا نور للقمر مثلهما في كسوفهما قبل ذلك فيتصايح أهل الدنيا وتذهل الأمهات عن أولادها والأحبة عن ثمرة قلوبها فتشتغل كل نفس بما أتاها قال فأما الصالحون والأبرار فإنه ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب ذلك لهم عبادة وأما الفاسقون والفجار فإنه لا ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب ذلك عليهم خسارة قال فيرتفعان مثل البعيرين القرينين ينازع كل واحد منهما صاحبه استباقا حتى إذا بلغا سرة السماء وهو منصفها أتاهما جبرائيل فأخذ بقرونهما ثم ردهما إلى المغرب فلا يغر بهما في مغار بهما من تلك العيون ولكن يغر بهما في باب التوبة» (تاريخ الطبري).

2ـ القسم ناقص والزجل كذلك ؛ وانظر ترجمته الإسبانية فيما يلي.





مخطوطة زجل طوق الحمامة

للكفيف الزرهوني





بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ونبينا
القصيدة المبرحة المسماة بطرق الحمد لله لسيدي عبد
الله الشيب رحمه الله تعالى

صليت بالعباد على محمد في | هي عندنا زين المقال
أخبر البشر هيلا محمد | التشبيع عند أبوما اشتغال
في وصف البساتين الدنيا | وحورات الأرض والجبال
وذكر شدة أهوال القيامة | ونقف جهنم باشتعال
في وصف الملاهي والملائكة | والنار التي ...
وأنبئ الجو الكواكب والمشارق

عمرك يا بني اعلم في انصرامها | وذنوبك كثير مثل الجبال
بالذي تموت وانت تعاملها | ومستمر ... في الإهمال
تعني في الزلزال والصواعق
وأهوال المغارب والمشارق
واعلم أن خير الموت صادق
وتبسير للمحضر على أنه عاملها | تشبع ... بالكيال
وبعوض من فيه ... النخاسها | والمطيف تأتيك للجدال
الساعة زلزلت ثم رجفا
وعلمت بحبر الناس رجه وضلا





نو الولد يجي انخلاصا :: وبقى زوجتو في كل بلدان

:: في هرفد سبوع يلوو للاسوا ::

:: والطاحب ينحو انبيسوا ::

:: ولا يا صولا نسا في جلابيسوا ::

جي في لهلا لبتنة جيلها :: والا مكارم وفتنها فللان

الدين غريب واهل كا الشا :: مثل الشيب في الشعر الكوحل

:: دهر بين نقع فيه الحجاب ::

:: وتر الناس ديا بلع نياب ::

:: من كلا ذيب اكل مع الذياب ::

ار العفري في الكرما :: وانتقل الهار عند البنيان

عب العطار جعة جماطا :: وانغلو كثر اهل السعوان

:: كان المصطفي [illegible] نلحو به ::

:: تسابقت دموع عينه في خده ::

:: ويقول له يكون حال من خلو بيه ::

كر عدا و صف فيلاما :: صحبها على لما والي ما ان

حال ينتش في الارض علا :: وتخمو صفو اهل الشمان

:: ولا كر خسف بنزل بالحجال ::

:: والاخر يجد العيب الجمل ن ::

:: وقتهم فنطهر فصل الجواز ::

ذكرم بنوح الا مستغفا :: لفسه كمينة الشوم الجبال

نوا المسلمين تنشق علا :: جوو روهم واخذ ميزنكا

:: تخكر عند اهو سطح الفلابم ::

:: الا حجيبا لدنا نسوا الدراهم ::

:: متى يحني بالشي سهل سهم ::

ذا بلغت الدنيا تمامها :: هيا اهل الشعر من بعد الحمان





ال

تطمع القلوب على خشا ما ... والمال حين داه العبد ما

فإذا اختلفت العمال على الناس

فلم خوال الفتى في جار على الناس

حتى تبلغ الكسا الهم فيا اسن

فإذا يلقوا الناس بالسيف جبل الفتح صلوا الحرها

تقدم بالعساكر من امامها والسيوف عن يمين وشمال

ينجوا اهل البلاد في الكفر

والضعفا تخف بهم العواير

اذا جاء تهم الترك بالبوائق

بين قتلى قد محوا اهلاها وهيبة رايل موت الحبل

يقطع البحر يتشوقاما عند الفتح الكفر تقع

ينجا التلثة من الخلق والثلثين ففيه السيف

حتى تبلغ الروم فياس بجملة

فإذا جاز سواد الغرب رما دير الجو واسلم وانتعل

وانما الحتيعية حسبها وانقلبت على الروم ال

ثم يخرج المهدي المحكي

بالكرمة الى البيت المحمي

فإذا طاب الكلم بين من

يظهر الدجال الاعوار وفاما ... بعد تسع سنين جد بك

لا ما كحلها ولا خضر ولا ماما ... الاعمة دار الشيخ الكفا

يغني بالنصير محنى بالاسرا

جرت للكنى ممعة بيسلها

ويحول للفتيل حبا فيبيرا

يزعم انه صح العظام ... سبحل الم مثل الذي امنا

من كل ع بلا يلقى سلها ... مات كافرين بقعم عمتسا





وتقشرا بوحد العبير خلاص:

مكتوب في جبين ابو عصا:

راس فصح هجاما ... دار مثل مادار العلان

النا سور ركاد حسرالا ... الكثير هم تحشو ما وعبان

بمشي بمارة ذات عبرا:

ترمي رجلها مد بعصرا:

ثلاثة ايام وداراد الارض ضدوا:

زوج ومدار مستندها ... واذا امرنار وواد اللي جهلان

بجاخر الطابا فتيها ... وجد انار ووجد الما زلان

العنو البهود والشيخ منهم:

جاد اجاد ورخ الصح مصلح:

بعث الله عيسى ابن مريم:

بو على طرحد [illegible] اعد ... اذا راه بيد وبا قتل الرجال

بيع الحجار ودلا طاما ... هاذا الشيخ منا اهل الضلال

بيعد المجتبل عيسى بمشيل:

الاولاد بالارقام يدعبنا:

والذيب والغنم مثلا يمشي

يتم يد بالتزاما ... يتفهد القطام ما يتمشعا ... ات

دم على اهل الاما ... مرامة جحي الا بتر ... ا ... ل

بسلم جمعان كل كل امر:

باذا باهل الارض حد ابس:

بام عيسى بجيلا الطول ساد رش:

وسعد با جرح بانتقاما ... وبيبضوا على اعدلاد الرمان

تم بالعفو دافيبد الاقالما ... منهم بعض كما نخل الصوان





واخي برج السما اسم يجون

وبجهه استووا عني طاوطول

هم ارج مارية اقم عكاها ∴ مامنهم مثل يشبه مثلا

بو على بعض ارجهما ∴ يقربن حال ويتعكاجل

ارفهم من تطابين عم وكما

هم فيها كل نبل في عشاها

يتنظروا التعابير في رماها

يتعدوا لجهها مع عكاها ∴ لبا بيهم جلد هلوانه

مرداو منهم كاس الجماها ∴ الكاو اخه يجلي في البرحلا

بتخرج كابئة برج المغربين

تنتشي في جي ارضنا هعفد والصين

وهي كابعة تلحس الطين

فيعفل الخبر همّ ما الهلما ∴ ويعكول ذا نه اكم امحال

معفد مع الداو ارض نشاما ∴ واه حر تنعقدا كالجبال

بلا دار كاعينا السبع الاقاليم

مربط برج وطاجبح الطماطم

تنتظم دامل في الجماجم

فيهم تولو تعلي الاعزاها ∴ ونجم نبرح لا تحنتم

فيصنوو الله مطهجما ∴ ويعسل الذي ضيع الغبار

بلا دار تعلموا دالارجه دبا ∴ لا وكله ولا تعفرا تراب

نكلع نفسنا من جوعنا

علو عند رينة دالعلالا ∴ باب النبوة الدحيلة التمل

من لا خذ لهم بوالام متعقما ∴ فيدل يعلو الملوك لا يغوا

من الشمس غالواع تمبراها

الا وغفت من كر نسماها

تسلقها الملهك من ضباتها ∴ من ضباتها





ترجمـة إسبانيـة
لزجل طـوق الحمامـة

أنجزها الموريسكي الغرناطي
Alonso del castillo [1]



1. راجع ما كتبناه في الجزء الثالث ص. 141 وكما بعدها.





“Con el nombre de Dios piadoso y misericordioso.

Las alabanzas sean á Dios solo, que no hay otro sino él.

Este es un juicio sacado del dicho del mensajero, que dios santificó y salvó, llamado Tauca el Hamema, que quiere decir pecho de la paloma,
Comparando su composicion y elegancia á la hermosura de las colores del pecho de la paloma; y dice desta manera:

Dexad de contar las burlas, y los atavios preciosos y las dignidades :
no olvide vuestra memoria la muerte, que la vida se va concluyendo : vuestras culpas son mas graves quelos montes :

convertíos á Díos, y no os durmais, que amaneceréis sepultados entre las penas. Dexad de contar los ricos vergeles de los edificios suntuosos, y de las damas coronadas y arreadas :

y traed á vuestra memoria los alborotos del dia del juicio, y la furia del infierno y sus incendios.

En aquella hora precederán estas señales : movimiento y temblor de tierra, espanto y terror grandísimo y otras señales que los humanos no pueden declarar. El que mas habló de ellas fué Odeyfa,

y son mas de setenta las que dixo haber oido decir al guiador profeta de Dios, de las quales son ocho las mas notables, y las otras menores que las siguen. Preguntaron muchos al escogido por todas ellas, y él les declaró algunas de las nombradas, de las quales dixo ser : la aparencia del





mensajero de Dios,
el descendimiento de la luna en el vergel de Tuhema después de salir el sol hendido. Estas son las señales del juicio, de quien el Alcoran alega y habla,
y las demás semejantes son muchas, y el dia de hoy notorias en este mundo, mas aparentes que la luz resplandeciente.

Dixo el escogido que le seguia la nube : Quando vieres las mugeres ir tras los hombres pidiéndolos sin empacho ni vergüenza, y rabeando como las mulas de luxuria;

quando creciere el logro, y lo mal ganado en los hombres, y tomaren por ley la luxuria y los homicidios, y multiplicare la obediencia de hijos á padres;
quando vieres abatido al bùen cReyente,
y ser los sabios perseguidos hasta venir á servir á los malos :

quando vieres poblados todos los encuentros de tu casa de lo ilícito y mal ganado; quando tu suegro te viniere á ser mas cercano pariente que tu hermano légítimo, y desampararares á tu hermano y obedecieres á tu amigo :

quando vieres la madre caduca ganar con sus hijas entre los hombres, y salir el hijo de la obediencia de sus padres, y obedecer á su mujer en todo negocio :

quando vieres las pinturas en los templos, y las mugeres darse á las costumbres pravas y vicios malos :

quando vieres los hombres de religion vivir en ricos y suntuosos edificios, y crecer los soberbios malhechores, y diminuirse el número de los justos, y los temerosos de Dios solos como huérfanos, y los malos con las cabezas mas





pertinaces y duras que las aplomadas sierras :

quando vieres las colas preceder á las cabezas, y el amigo muy allegado negar á su amigo, y no osarse fiar el hombre de aquel con quien se junta :

quando vieres empobrecer la gente liberal, y enriquecer y subir los avarientos, y las manos liberales hacerse duras y crecer el número de los mendigantes :

quando vieres la ley desamparada, y sus sequaces tan pocos como lunares blancos en cabellos prietos, y los hombres hechos lobos cubiertos con vestiduras de hombres, y que el que fuere lobo comerá con los lobos, y al que no fuere lobo le comerán los lobos, y quando vieres crecer las discordias con agudeza, y ser las lluvias sobre la tierra pocas, en este tiempo será fin.

Y cada vez que el mensagero de Dios la nombraba, se le henchian los ojos de lágrimas, y decia :-¿,Qué tal será la vida del que en esta era naciera ?

Otras señales decia asimesmo ser fuegos que se encenderán en Roma, que correrán entre las gentes y entre las aguas y la tierra, y sera un humor sútil que se alzará un estado sobre la haz de ella, y abrasará los pechos de los hereges.

Y nombraba hundimientos de pueblos que habria en el Hixecen levante, y en otros mas abaxo de Sacera, la demostracion de la puente de Alcázar de la pasada, y nombraba señales por la virtud cumplida.

Quando se tomare á fuerza de armas Constantina por los romanos, y quando viéredes á los Moros, tan pujantes en





vitoria conquistar à Roma, y ganar á Portugal, entonces crecerán entre ellos las riquezas de piedras preciosas y monedas hasta las partir con el escudo de Cacim.

Y quando el mundo viniere á esta perficion, es señal que vendrá la diminucion después de su cumplimiento, y los corazones vendrán en desasosiego, y el mundo les huirá de entre las manos.

Mas antes de esto quiero que sepais, que mandará Dios salir en el poniente un Rey tirano que lo atajará y sujetará, cuyo rostro no tendrá señal de vista humana :

Maltratará y juzgará con toda maldad á las gentes; entre sus manos perecerán ellos con todos sus bienes. Después del qual se levantará otro de gran valor, que se llamará Jacob, cuyos infortunios y calamidades crecerán y morirán de necesidad.

Esto veréis en el poniente con grande incomodidad y alboroto, y las gentes vendrán en mucha diminucion. El Andalucía quedará huérfana sin Rey ni quien en ella sea obedecido, y estará algun tiempo en este trabajo negra, confusa y escura, hasta llegar la nueva de ello á Roma. De allí saldrá un Rey, en quien no habrá falta, Rey hijo de Rey;

O varones, embarcarse ha con grandes exercitos que le acudirán de necesidad y con él vernán á Granada la cándida y clara, donde le dirán :

Vos sois nuestro Rey forzoso, y nuestro gobernador en todo caso.

El qual subirá con sus ejércitos y compañas á los alcázares





de la Alhambra, y allí estará algunos dias encubierto; y desde allí conquistará mutchas y muy grandes fortalezas, climas y provincias de los de poco en continuacion; y veréis pujante el cetro y corona de los Moros.

Poseerán sin duda á Sevilla, y tomarán noventa ciudades á los hereges, y por sus manos de este, á quien mejorarán, todas las ciudades del poniente serán dichosas con él.

En la primera salida tomará la ciudad de Antequera, subiendo por sus Muros, y rompiéndolos á fuerza de armas. Siete años durará esta vitoria, y las riquezas se llevarán de tierra de hereges.

Bendito sea el señor Dios que esta justicia hará, dando á gustar á los infieles estos cálices de amargura,

Quando la hora de esta ensalzacion llegare, y el poderío de Dios altísimo.

Enderezará este señor su viage á Segovia, y en el mes de Ramadan la entrará en todo caso :

y ansí irá prosiguiendo su vitoría, que será continua, tomando con maña las fortalezas de los christianos.

A esto sucederán diferencias entre los gobernadores y el Rey. Y saldrá Dolarfe,

Rey de christianos, y rebelarse ha contra todo el pueblo, y romperlos ha , y llevarálos hasta hacerles que se encierren en Fez :

y quando vinieren á pasar por Gibraltar, estorvarlos ha el





mar, y cercarlos han por todas partes grandes exercitos de christianos del Rey Dolarfe.

Los de las riquezas escaparán huyendo en los navíos, y los que no pudieren pasar morirán la mayor parte á cuchillo, y otros ahogados en la mar.

Y á la sazon enviará Dios un Rey de alta estatura, encubierto, mas alto que las sierras, el qual dará con la mano en la mar, y la henderá, y saldrá de ella una puente que es nombrada en esta historia;

Y las dos partes del pueblo escaparán nadando, y la tercera quedará al cuchillo y agua hasta proseguir los christianos su vitoria. Y en un punto entrarán en Fez á fuerza de armas, y entrando en la ciudad, buscarán su Rey, y le hallarán encubierto en la mezquita con la espada de Idris en la mano convertido Moro :

Lo qual visto, todos los christianos se volverán con él Moros.
Luego subirá á la casa de Meca, y hará su oracion hasta ver lo claro del pozo de Zemzem y su agua.

Y luego nacerá el maldito viejo Antichristo, y se levantará. En este tiempó enviará Dios grandísima esterilidad, que durará siete años : en los quales no parecerá pan ni semilla, ni agua, si no fuere lo que este viejo maldito mostrare :

el qual sembrará el trigo á mediodía, y lo cogerá á vísperas :

Plantará los árboles y plantas con la mano derecha, y cogerá los frutos con la izquierda. Dirá al muerto que resucite, y levantarse ha, y presumirá ser él el resucitador de los





muertos, y el Dios y señor que no tiene semejante; y el que le siguiere y obedeciere no alcanzará bien alguno, y morirá herege sepultado en los infiernos.

Irá tras las gentes mostrándoles muchos y diversos mentenimientos, y fuentes de aguas : y en su frente llevará escrito : Tiranizó y pecó.

Su figura de rostro será espantable, porque no terná mas que un ojo, y sobre la cabeza llevará un librillo lleno de manjar, redondo como la redondez de la luna. Veréis las gentes tras de él en tanto número, que no cabrán en los lugares con sus hijos y familias. Subirá en su cabalgadura de espantable hechura, y tenderá el paso tanto como alcanzáre con la vista :

Y en siete dias dará una vuelta á todo el mundo. Tendrá dos rios señalados, uno de agua, y otro de fuego ; y si los que vinieren con él, bebieren del agua, hallarla han ardiendo como fuego.

Verná con todas las familias de los judíos, con las quales hará obscura la clara luz de la mañana. Entonces enviará Dios altísimo á Jesu christo, hijo de María, que le saldrá al encuentro en las tierras de Hexen, y en viéndole se deshará ante él como un cobarde afeminado, y dirán las piedras y lugares :

Entrado ha el enemigo de Dios debaxo de nosotros;
y quedará el guiador Christo, en cuya virtud el lobo andará con la oveja en mor.
Los niños jugarán con las serpientes y víboras ponzoñosas,

y no les empecerán, obligando á la ley de nuestro profeta y juzgando rectamente en ella;
y pondrá para las oraciones y horas una dignidad del linaje





de Mahoma perpetuamente,

y en su tiempo todo herege se convertirá á Dios. Y hallando los de la tierra este conocimiento, subirá Cristo al monte Tabor,

y romperá los Muros de xuxe y Megigue, que son los pigmeos, cuyo número excederá á las arenas del mar,

y sus hechuras, rostros y facciones serán diferentes :

unos tamaños como plumas de escrebir,

otros mas altos que las sierras,
y otros ternán las orejas tan grandes, que se asentarán sobre ellas,
y con parte de ellas cubrirán la tierra, y de esto será su andadura de ochenta años."

Otros muchos disparates decia este jofor, que no ponemos aqui, por no hacer á nuestra historia; y si pusimos estos tan por estenso, fue pordar un rato que reir al letor, y porque siendo una de las principales cosas en que estribaron los Moriscos para su perdimiento, fuera cortedad dexarlos de poner.





فهـــــارس





كشاف عام [1] (الملعبة)











1ـ لا يشتمل هذا الكشاف إلا على ما ورد في النصوص من أسماء الأعلام والأماكن والقبائل.



بعض المصادر والمراجع والتحقيق (الملعبة)

. آثار الأول، في ترتيب الدول : للحسن بن عبد الله العباسي. ط. بولاق 1295هـ.

. الاحاطة، في أخبار غرناطة : لابن الخطيب. 4 أجزاء نشر محمد عبد الله عنان. الطبعة الأولى القاهرة 1975.

. الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي : تأليف أحمد صادق الجمال. القاهرة 1966.

. الاستبصار، لمؤلف مجهول. نشر سعد زغلول عبد الحميد. الاسكندرية 1958.

. أخبار المهدي بن تومرت : للبيدق. تحقيق عبد الوهاب بن منصور طبعة الرباط 1971.

. أزهار الرياض، في أخبار عياض : للمقري. تحقيق السقا والابياري وشلبي. طبعة القاهرة 1939-1942.

. أساس البلاغة : للزمخشري.

. الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى : للناصري. ط. الدار البيضاء 1954.

. أساس البلاغة : للزمخشري.

. التقاط الدرر للقادري : تحقيق هاشم العلوي (نسخة مرقونة).

. أمثال العوام في الأندلس : دراسة وتحقيق محمد ابن شريقة. جزآن ط. الرباط 197-1975.

. إنباء الغمر بابناء العمر : لابن حجر العسقلاني. ط. بيروت 7 زجزاء.

. أنس الفقير، وعز الحقير : لابن قنفذ.

. بغية الرواد : ليحي ابن خلدون. ط. الجزائر.

. بيوتات فاس : لابن الأحمر، تحقيق بد الوهاب ب منصور. المطبعة الملكية بالرباط.

. البيان المغرب : لابن عذارى - قسم الموحدين - ط. الدار البيضاء 1985.

. تاريخ الدولتين للزركشي : تحقيق وتعليق محمد ماضور. ط. ترنس 1966.

. التعريف بابن خلدون : تحقيق ابن تاويت الطنجي. ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر.

. التكملة : لابن الأبار 1- 2 نشر عزت العطار.

. الدرر الكاملنة : لابن حجر العسقلاني. 5 أجزاء. ط. مصر 1967.

. درة الحجال : لابن القاضي. 3 أجزاء. تحقيق محمد الأحمدي أبو النور.

. رحلة ابن بطوطة : ط. مطبعة التقدم بمصر.

. الروض المعطار : للحميري تحقيق إحسان عباس. بيروت 1975.

. الروض الهتون لابن غازي : تحقيق عبد الوهاب بن منصور. المطبعة الملكية بالرباط.

. روضة النسرين : لابن الأحمر. تحقيق عبد الوهاب بن منصور. المطبعة الملكية بالرباط 1962.





- **رحلة التجاني :** تقديم ح. ح. عبد الوهاب. ط. تونس 1958.
- **رسالة ابن أبي زيد القيرواني.** ط. وزارة الأوقاف المغربية. الرباط.
- **رقم الحلل، في نظم الدول :** لابن الخطيب السلماني. ط. تونس 1316.
- **ريحانه الالباب :** لشهاب الدين الخفاجي. تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو. ط. مطبعة الحلبي بمصر.
- **ريحانة الكتاب :** لابن الخطيب السلماني. نشر محمد عبد الله عنان.
- **الزجل في الأندلس :** لعبد العزيز الأهواني.
- **سراج الملوك :** للطرطوشي.
- **سرور النفس للتيفاشي :** تحقيق إحسان عباس.
- **سلوة النفاس :** لمحمد بن جعفر الكتاني. الطبعة الحجرية.
- **شذرات الذهب لابن رضوان :** تحقيق علي سامي النشار. الدار البيضاء 1984.
- **الظاهر بيبرس في القصص الشعبي :** لعبد الحميد يونس. (سلسلة المكتبة الثقافية).
- **العاطل الحالي، والمرخص الغالي :** لصفي الدين الحلي. نشر هونرباخ. ويسبادن 1955.
- **العبر :** لابن خلدون. ط. دار الكتاب اللبناني 1959.
- **عنوان الدراية :** للعبريني. نشر ابن شنب.
- **الفارسية :** لابن عبد الحكم. ط. الجزائر.
- **فتح المغرب :** لابن عبد الحكم. ط. الجزائر
- **فيض العباب لابن الحاج النميري :** إعداد محمد ابن شقرون. الرباط 194.
- **مجموع مخطوط في الخزانة العامة** بتطوان رقم 549.
- **المرقبة العليا للنباهي :** نشر إ. ليفي بروفنسال. القاهرة 1948.
- **المسند الصحيح الحسن، في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن :** لابن مرزوق الخطيب. تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا. الجزائر 1981.
- **المعجب لعبد الواحد المراكشي :** نشر العريان والعلمي.
- **المغرب لابن سعيد :** تحقيق شوقي ضيف.
- **المقتبس من كتاب الانساب للبيذق :** تحقيق عبد الوهاب بن منصور الرباط 19.
- **مقدمة ابن خلدون :** تحقيق علي عبد الواحد وافي.
- **نثير الجمان لابن الأحمر :** تحقيق محمد رضوان الداية. ط. بيروت 1967.
- **نفاضة الجراب لابن الخطيب :** نشر أحمد مختار العبادي. (تصوير) الدار البيضاء 1985.
- **نفح الطيب للمقري:** تحقيق إحسان عباس.
- **نزهة المشتاق للادريسي :** ط. بريل.





. نهاية الأندلس ، تآليف محمد عبد الله عنان. لقاهرة 1966.

. ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ، لمحمد ا لمنوني.

. وصف افريقية للوزان، ترجمة حجي والأخضر - نشر دار الغرب الاسلامي - بيروت.

. وفيات الأعيان لابن خلكان ، تحقيق إحسان عباس. 8 أجزاء . دار صادر. بيروت.

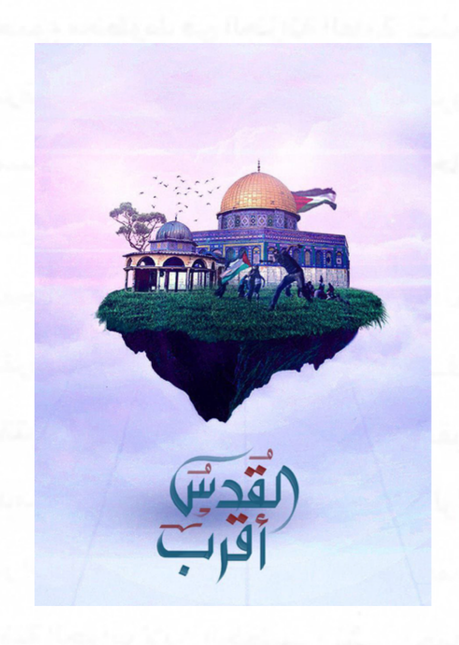
بعض المراجع الفرنسية

- BRUNCCHVIG , Robert : La berbérie ortinatle sous les hafsides des origines à la finXV° siècle, Paris, 1940-1947,2t :

- KABKY, Mohmed :Société, Pouvoir et relegion au Maroc à la fin du moyen -âge, Maisonneuve et la rose 1986.

- THODEN, Rudolf, Abu L'Hasan Ali, Merinidenpolitik Zwischen Nordafrika Und Spanien in den jarhen 710-752 H/130-1351, Friburgi de Brisgovia 1973.

- LAROUI, A. histoire du Magheb, un essai de synthèse, Paris, 1970.









لا غالب إلا الله

الثمن : 80 درهما

